

سَبِيلُ الرِّشَادِ
فِي
هَدْيِ خَيْرِ الْعِبَادِ

تَصْنِيفُ

الْعَلَّامَةِ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ قَيِّمِ الدِّينِ بِرَحْمَةِ الْكَافِرِ الرَّهْمَانِ

رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى

(١٣١١ - ١٤٠٧ هـ)

(١٨٩٣ - ١٩٨٧ م)

قَرَأَهُ وَعَلَّقَ عَلَيْهِ وَقَدَّمَ لَهُ وَخَرَّجَ أَحَادِيثَهُ
أَبُو عَبِيدَةَ مِشْهُورُ بْنُ حَسَنٍ أَلِ سَلْمَانَ

الْجُزْءُ الثَّانِي

الْبَيْتُ الْأَثَرِيُّ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَبِيلُ الرَّشَادِ
فِي
هَدْيِ خَيْرِ الْعِبَادِ

بَحْيَةُ الْحَقُوفِ مَحْفُوتَةٌ

الطبعة الأولى

١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م

الدائرة الانثربية

عمّان - الأردن - تلفاكس : ٦٥٦٥٨٠٤٥ / ٠٠٩٦٢

خلفوي : ٧٩٥٩٤٣٤٥٦ / ٠٠٩٦٢ - ص ب : ٩٢٥٥٩٥ - الرمز البريدي : ١١١٩٠

الرمز الإلكتروني : alatharya1423@yahoo.com

سُورَةُ الْكَهْفِ

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿تَحْنُ نَقْصُ عَلَيْنِكَ نَبَأُهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ وَرَدَّنْهُمْ هَدًى ۝ (١٣) وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُو مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا ۝ (١٤) هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۝ (١٥) وَإِذْ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يُعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأَوْفُوا إِلَى الْكَهْفِ بِنَشْرِ لَكُمْ رَبِّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَقًا ۝ (١٦)﴾ [الكهف: ١٣ - ١٦]

قال (ك): «من ههنا شرع في بسط القصة وشرحها، فذكر تعالى أنهم فتية، وهم الشباب وهم أقبل للحق، وأهدى للسبيل من الشيوخ الذين قد عثوا [وانغمسوا]»^(١) في دين الباطل، ولهذا كان أكثر المستجيبين لله تعالى ولرسوله ﷺ شباباً، وأما المشايخ من قريش فعامتهم بقوا على دينهم، ولم يسلم منهم إلا القليل، وهكذا أخبر تعالى عن أصحاب الكهف، أنهم كانوا فتية شباباً^(٢)، ألهمهم الله رشدهم، وآتاهم تقواهم، فآمنوا بربههم، أي: اعترفوا له بالوحدانية، وشهدوا أنه لا إله إلا هو ﴿تَحْنُ نَقْصُ عَلَيْنِكَ نَبَأُهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ وَرَدَّنْهُمْ هَدًى ۝ (١٣)﴾.

استدل بهذه الآية وأمثالها غير واحد من الأئمة، كالبخاري^(٣) وغيره ممن

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وَعَسَا».

(٢) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «قال مجاهد: بلغني أنه كان في آذان بعضهم القرطة - يعني: الحلق - ف».

(٣) في «صحيح البخاري» «كتاب الإيمان»، باب تفاضل أهل الإيمان في الأعمال (١٥) (٢٢).

ذهب إلى زيادة الإيمان وتفاضله، وأنه يزيد وينقص، ولهذا قال تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْنَةٌ ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ (١٧)، كما قال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا زَادْنَاهُمْ هُدًى وَءَانَتْهُمْ نَفْسُهُمْ﴾ (١٧)، [محمد: ١٧]، وقال: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادْنَاهُمْ إِيْمَانًا وَهُمْ يُسَبِّحُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤]، وقال: ﴿لِيَزَادُوا إِيْمَانًا مَعَ إِيْمَانِهِمْ﴾ [الفتح: ٤] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على ذلك، وقد ذكر^(١) أنهم كانوا على دين المسيح عيسى بن مريم فالله أعلم، والظاهر أنهم كانوا قبل ملة النصرانية بالكلية، فإنهم لو كانوا على دين النصرانية لما اعتنى أحبار اليهود بحفظ خبرهم وأمرهم لمباينتهم لهم، وقد تقدم عن ابن عباس أن قريشاً بعثوا إلى أحبار اليهود بالمدينة يطلبون منهم أشياء يمتحنون بها رسول الله ﷺ فبعثوا إليهم أن يسألوه عن خبر هؤلاء وعن خبر ذي القرنين وعن الروح^(٢) فدل هذا على أن هذا أمر

(١) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «أنكر»!

(٢) قوله «قد تقدم»: عنده في «التفسير»، ولم يسبق ذكره في كتابنا هذا، وساقه بطوله ابن إسحاق في «السيرة» (ص ١٨٢ - ١٨٣)، وفيه أن المبعث لليهود هو النضر بن الحارث، ونعت بأنه قدم الحيرة، وتعلم بها أحاديث (رستم) و(أسفنديار)، وأنه وعُتِبَ بن أبي معيط ذهباً إلى أحبار يهود بالمدينة، وجاء بالأسئلة المذكورة!

وأخرجه ابن جرير في «التفسير» (١٩١/١٥ - ١٩٢)، والبيهقي في «الدلائل» (٢/٢٦٩ - ٢٧١)، وابن أبي حاتم - وهو ليس في القسم المطبوع من «تفسيره» -، وابن المنذر، وأبو نعيم في «الدلائل» - كذا في «الدر المنثور» (٣٥٧/٥) - وعزاه المناوي في «الفتح السماوي» (٢/٧٩٤) رقم (٦٨١) لابن المنذر - أيضاً -، وإسناده ضعيف؛ للمبهم الذي فيه. والخبر في «سيرة ابن هشام» (١/٣٢١ - ٣٢٣)، وسند ابن جرير: عن ابن إسحاق، عن رجل من أهل مصر، عن سعيد بن جبير، به. وصحَّ من حديث ابن عباس بعض أجزاء منه، وهذا البيان:

أخرج أحمد (١/٢٥٥) - واللفظ له - وأبو يعلى (٢٥٠١) كلاهما في «المسند»، والترمذي في «الجامع» رقم (٣١٤٠)، والنسائي في «السنن الكبرى» رقم (١١٣١٤)، وابن حبان في «الصحيح» (رقم ٩٩ - «الإحسان»)، والحاكم في «المستدرک» (٢/٥٣١)، والبيهقي في «الدلائل» (٢/٢٦٩) من طرق عن يحيى بن زكريا، عن داود، عن عكرمة، عن ابن عباس، قال:

«قالت قُريش لليهود: أعطونا شيئاً نسأل عنه هذا الرجل، فقالوا: سلوه عن الروح، فسألوه، فنزلت: ﴿وَسَمِعْنَا قَوْلَ الْوَحْيِ قُلِ الْوَحْيُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥]، قالوا: أوتينا علماً كثيراً؛ أوتينا التوراة، ومن أوتي التوراة، فقد أوتي خيراً كثيراً، قال: فانزل الله ﷻ: ﴿قُلْ لَوْ كَانُ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكُتِبَتْ رَبِّي لَفِئْدُ الْبَحْرِ﴾ =

= [الكهف: ١٠٩]، وإسناده صحيح.

وقد ورد أن اليهود هم الذين سألوه. انظر: ما سنعلقه قريباً، والله المستعان لا رب سواه.

(تنبيهات مهمات):

أولاً: ساق بعض المفسرين؛ كالزمخشري في «الكشاف» (٢/٤٠٠)، والبيضاوي في «أنوار التنزيل» (٣٨٢) [الإسراء: ٨٥] - مثلاً - القصة بسياق عجيب، قال عنه ابن حجر في «الكافي الشاف» (ص ١٠٢ رقم ٣٠٩): «لم أجده هكذا»، وذكر سياق ابن إسحاق لها، وكذلك فعل المناوي في «الفتح السماوي» (٢/٧٨٤) رقم (٦٦٨).

ثانياً: سيأتي قريباً في حديث ابن مسعود ما يدل على أن سؤال اليهود عن الروح كان بالمدينة، وهذا يخالف ما في هذا الخبر، قال الذهبي في «تاريخ الإسلام» (ص ٢١٣ - السيرة النبوية): «ولعله ﷺ سئل مرتين!!».

ثالثاً: الاحتمال الذي ذكره الذهبي يُلجأ إليه في حال صحة هذه القصة، أما وهي غير ثابتة فلا داعي له، ومن العجب أن محمد عزة دروزة رحمته الله ذهب في تفسيره «التفسير الحديث» (٤٢/٦) إلى تصحيح وقوع السؤال بمكة، وشكك في ورودها بالمدينة! رابعاً: مما يضعف القصة؛ أن اليهود ليس في «توراتهم» ما يدل على معرفة - أي معرفة - (بذي القرنين).

خامساً: ومما يضعف القصة - أيضاً -: أنه وقع فيه على لسان أحبار يهود: أنهم أمروا قريشاً بأن تؤمن بنبيها إن ثبت بعد الامتحان أنه نبي!! فهذا لا يدخل قط في السلوك اليهودي الذي يُصرُّ على نفى النبوة عن كل غير يهودي من أي جنس كان، وعداوتهم للإسلام ولرسوله بعد الهجرة وقبلها معروفة لا تدع مجالاً لتقديم فكرة كهذه الفكرة إلى قريش لتؤمن، ولقد أجاب النبي عن الأسئلة الإجابة التي لا تدع مجالاً لتردد قريش في الإيمان به، لو صح أنهم أعطوا الرأي بهذا، فلم يؤمنوا!

سادساً: ذهب بعض المعاصرين من الباحثين، وهو نجيب محمد البهيتمي في (القسم الأول) من كتابه «المعلقة العربية الأولى» أو «عند جذور التاريخ» (ص ٥٨ - ٥٩) إلى رد هذه القصة، وطول في تقرير سعة علم وثقافة (النضر بن الحارث)، وأنه كان يعتمد في ذلك على (قصيدة جيلجاميش) - وهي المرادة هنا بـ (أحاديث رستم) و (أسفنديار)! -، وبناءً عليه؛ استنكر أن يلجأ لليهود في مثل هذه المسائل التي تخلو منها «توراتهم»! وهذا نص كلامه (ص ٥٩):

«إن النضر بن الحارث كان بحكم ثقافته، وسعة علمه، واعتمادها في جانب كبير على البيئة التي أخرجت «قصيدة جيلجاميش»، وكان أكثر أصالة في انتحال هذا السؤال، وأولى بالالتفات إليه من اليهود الذين تخلو «توراتهم» منه خلواً تاماً، ومرتميات الجدل المحتدم بين النبي ﷺ والنضر هي الأولى بأن تقذف به إلى مثل هذه الأسئلة.

= أما ابتعات النَّضر وعُتبة بن أبي معيط إلى اليهود فلعله كان، ولكن لسبب آخر لم تصرح الظروف عنه حتى اليوم، فهؤلاء المؤرخون - على ما قلْتُ - لا يخترعون، والغالب أنه كان لتبادل الرأي مع طائفة يهددها الدين الجديد بقدر ما يهدد قريشاً، فهو سعي إلى التحالف!! بين دينين يهددهما «الإسلام»!

وأعود مرة ثانية إلى القصيدة فأقول: إنني كنت دائماً مطمئناً تمام الاطمئنان إلى أنها كانت المحور الذي أدار حوله النَّضر مناقشاته مع الرسول في المسجد حول طواف «ذي القرنين»، ولا بد أنها كانت حامية، ولكن هل كان استشهاد النَّضر بما كان يستشهد به منها في لغتها الأصلية، وبصيغتها الشعرية؟ أعتقد هذا، وأعتقد أنه هو السبب الذي أيقظ في نفوس المشركين نسبة النبي إلى «الشعر» ووصفه «بالشاعر». انتهى.

قال أبو عبيدة: أصلُ هذه الواقعة لم يثبت، ونحن في غنى عن نسبة شيء في هذا الباب إلى رسول الله ﷺ، وأما (النَّضر) وحاله، وثقافته، فهذا ليس من شأننا في هذا الصدد، والله الموفق، لا رب سواه.

وانظره - إن أردت الاستزادة - في كتاب: «التلقي والسياقات الثقافية» (ص ١٠٨ - ١١٠) لعبد الله إبراهيم، نشر عن دار الكتاب الجديد، ليبيا، الطبعة الأولى، سنة ٢٠٠٠ م. سابعاً: ثبت سؤال اليهود للنبي ﷺ عن الروح.

أخرج البخاري (١٢٥، ٤٧٢١، ٧٢٩٧، ٧٤٥٦، ٧٤٦٢)، ومسلم (٢٧٩٤)، وابن حبان (٩٨ - «الإحسان»)، في «صحيحهم»، وأحمد (٣٨٩/١، ٤٤٥)، وأبو يعلى (٥٣٩٠)، والشاشي (٣٦٩) في «مسانيدهم»، والترمذي في «جامعه» رقم (٣١٤١)، والنسائي في «السنن الكبرى» (رقم ١١٢٩٩) في كتاب التفسير، حديث رقم (٣١٩) منه، والطبري في «تفسيره» (١٥/١٥٥)، والطبراني في «الصغير» رقم (١٠٠٣)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص ١٩٧)، والبغوي في «الأنوار في شمائل النبي المختار» (٢/٥٨٠) رقم (٨٧٢)؛ جميعهم من طريق الأعمش، عن إبراهيم، عن علقمة، عن ابن مسعود، قال:

«بينا أنا أمشي مع النبي ﷺ في خرب المدينة وهو يتوَكَّلُ عَلَى عَسِيبٍ مَعَهُ، فَمَرَّ بَنَفَرٍ مِنَ الْيَهُودِ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: سَلُوهُ عَنِ الرُّوحِ؟ وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَا تَسْأَلُوهُ، لَا يَجِيءُ بِشَيْءٍ تَكْرَهُونَهُ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَنَسْأَلَنَّهُ، فَقَامَ رَجُلٌ مِنْهُمْ، فَقَالَ: يَا أَبَا الْقَاسِمِ! مَا الرُّوحُ؟ فَسَكَتَ، فَقُلْتُ: إِنَّهُ يُوحَى إِلَيْهِ، فَقُمْتُ، فَلَمَّا انْجَلَى عَنْهُ، قَالَ: «وَيَسْأَلُكَ عَنِ الرُّوحِ قُلُ الرُّوحِ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيَتْ مِنْ أَلَمٍ إِلَّا قَلِيلاً» [٨٥] [الإسراء: ٨٥]، قال الأعمش: هكذا في قراءتنا.

وانظر: «العلل» للدارقطني (٢٥١/٥ - ٢٥٢).

وورد السؤال عن ذي القرنين في حديث ابن عباس عند البخاري في «التاريخ الكبير» (١/٢٠٠)، وسنده ضعيف، وفي حديث عقبة بن عامر، عند ابن جرير في «التفسير» (٨/١٧)، ط. الحلبي)، والبيهقي في «الدلائل» (٦/٢٩٦)، وسنده ضعيف - أيضاً -، وانظر =

محفوظ في كتب أهل الكتاب وأنه متقدم^(١) على دين النصرانية، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، يقول تعالى: وصبرناهم على مخالفة قومهم ومدينتهم ومفارقة ما كانوا فيه من العيش الرغيد، والسعادة والنعمة، فإنه قد ذكر غير واحد من المفسرين من السلف والخلف أنهم كانوا من أبناء ملوك الروم، وسادتهم، وأنهم خرجوا يوماً في بعض أعياد قومهم، وكان لهم مجتمع في السنة يجتمعون فيه في ظاهر البلد، وكانوا يعبدون الأصنام والطواغيت، ويذبحون لها، وكان لهم ملك جبار عنيد، يقال له: «دقيانوس» وكان يأمر الناس بذلك، ويحثهم عليه، ويدعوهم إليه، فلما خرج الناس لمجتمعهم ذلك وخرج هؤلاء الفتية مع آبائهم وقومهم، ونظروا إلى ما يصنع قومهم بعين بصيرتهم، عرفوا أن هذا الذي يصنعه قومهم من السجود لأصنامهم والذبح لها، لا ينبغي إلا لله الذي خلق السموات والأرض، فجعل كل واحد منهم يتخلص من قومه وينحاز منهم ويتبرز عنهم ناحية، فكان أول من جلس منهم وحده^(٢) أحدهم، جلس تحت ظل شجرة، فجاء الآخر فجلس إليهما^(٣) وجاء الآخر فجلس إليهم^(٤) وجاء الآخر وجاء الآخر، ولا يعرف واحد منهم الآخر، وإنما جمعهم هناك الذي جمع قلوبهم على الإيمان، كما جاء في الحديث الذي رواه البخاري تعليقاً بسنده عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف»^(٥).

= - للاستزادة - تعليقي على «ذو القرنين وسد الصين» لشيخ مشايخنا محمد راغب الطباخ (ص ٢٣ - ٢٨).

- (١) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «مقدم».
- (٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «عنده».
- (٣) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «إليه»!
- (٤) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «إليه»!
- (٥) ذكره البخاري في «صحيحه» كتاب الأنبياء (٦٠)، باب الأرواح جنود مجندة (٣٣٢٦). وقال الحافظ في «الفتح» (٣٧٠/٦): «وقد وصله الإسماعيلي من طريق سعيد بن أبي مريم عن يحيى بن أيوب، ورويناه موصولاً في «مسند أبي يعلى» وفيه قصة في أوله...». قلت: أخرجه أبو يعلى في «مسنده» (٤٣٨١)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٩٠٠)، وأخرجه مسلم (٢٦٣٨) من حديث أبي هريرة.

والغرض أنه جعل كل واحد منهم يكتف ما هو عليه^(١) عن أصحابه خوفاً منهم، ولا يدري أنهم مثله حتى قال أحدهم: تعلمون والله يا قوم أنه ما أخرجكم من قومكم وأفردكم عنهم إلا شيء، فليظهر كل واحد منكم بأمره^(٢) فقال آخر: أما أنا فإني والله رأيت ما قومي عليه فعرفت أنه باطل، وإنما الذي يستحق أن يعبد وحده، ولا يشرك به شيء هو^(٣) الذي خلق السموات والأرض وما بينهما، وقال^(٤) الآخر: وأنا والله وقع لي كذلك، وقال الآخر كذلك، حتى توافقوا كلهم على كلمة واحدة، فصاروا يداً واحدة، وإخوان صدق فاتخذوا لهم معبداً يعبدون الله فيه، فعرف بهم قومهم فوشوا بأمرهم إلى ملكهم، فاستحضرهم بين يديه، فسألهم عن أمرهم وما هم عليه فأجابوه بالحق ودعوه إلى الله ﷻ، ولهذا أخبر تعالى بقوله: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا﴾ ولن لنفي التأييد، أي: لا يقع منا هذا أبداً، لأننا لو فعلنا ذلك لكان باطلاً، ولهذا قال فيهم^(٥): ﴿لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا﴾ أي: باطلاً وكذباً وبهتاناً، ﴿هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ﴾ أي: هلا أقاموا على صحة ما ذهبوا إليه دليلاً واضحاً صحيحاً ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ يقولون: بل هم ظالمون كاذبون في قولهم ذلك، فيقال: إن ملكهم لما دعوه إلى الإيمان بالله أبى عليهم وتهدهم وتوعدهم، وأمر بنزع لباسهم عنهم الذي كان عليهم من زينة قومهم، وأجلهم لينظروا في أمرهم لعلمهم يرجعون^(٦)، وكان هذا من لطف الله بهم فإنهم في تلك النظرة توصلوا إلى الهرب منه والفرار بدينهم من الفتنة، وهذا هو المشروع عند وقوع الفتن في الناس أن يفر العبد منهم خوفاً على دينه كما جاء في الحديث، «يوشك أن يكون خير مال أحدكم غنماً يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر، يفر بدينه من الفتن»^(٧) ففي هذه الحال تشرع العزلة عن الناس، ولا تشرع فيما عداها^(٨)، لما يفوت، بها من ترك

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «فيه». (٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ما بأمره».

(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «هو الله». (٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «فقال».

(٥) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «عنهم».

(٦) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «يراجعون دينهم الذي كانوا عليه».

(٧) أخرجه البخاري (٣٣٠٠) من حديث أبي سعيد، وأطلت النفس في تخريجه في تعليقي على

«العزلة والانفراد» (١٥، ١٦، ١٧، ١٨، ١٨٠)، لابن أبي الدنيا، فانظره غير مأمور.

(٨) تشرع العزلة بشروط، أهمها: العلم، والزهد، ولذا قالوا - كما في «مراقبة المفاتيح» =

(٧٤٣/٤) :- «العزلة» بغير عين (العلم) (زلة)، وبغير زاي (الزهد) (علة). وضوابطها الشرعية ثلاثة أمور: الأول: أن لا تدع الجمعة والجماعة. والثاني: عدم التوسع في المباحات. والثالث: اختيار الأصحاب، وهي بهذه الضوابط تشرع في حق بعض الناس، بل قال الخطابي في كتابه «العزلة» (ص ٢٢٥): «فالعزلة إنما تنفع العلماء العقلاء، وهي من أضر شيء على الجاهل».

والعزلة لا تكون إلا في حق «من لم يتعين عليه فرض» من جهاد، أو تغيير منكر، وتعلم أو تعليم، أو مانع شرعي ممن يجب طاعته شرعاً؛ من أحد الوالدين، أو إمام، أو قاض، أو خصم له حق واجب، أو حق مسلم لازم أو راجح، لم تعارضه خوف فتنه في الدين؛ فينبغي من حد صاحب (الخلوة) أن لا يصل إلى حد العقوق والجفاء، والله المستعان ما لم تُخَف فتنه، أفاده ابن الوزير في «الأمر بالعزلة في آخر الزمان» (ص ٤٩، ٥٣).

قال الشيخ عبد القادر الجيلاني في كتابه «الغنية» (١/ ١٧٤ - ط العراقية): «ولو اعتزل الإنسان الناس مهما اعتزل؛ لم يكن له متسعاً في الشرع اعتزال الجمعة والجماعات». ولذا أوصى الشافعي صاحبه يونس بقوله: «يا يونس! الانقباض عن الناس مكسبة للعداوة، والانبساط إليهم مجلبة لقرناء السوء؛ فكن بين المنقبض والمنبسط»، كذا في «شرح نهج البلاغة» (١٠/ ٥٢).

قال علي القاري في «مرقاة المفاتيح» (٧٤٣/٤): «والمختار هو التوسط بين العزلة عن أكثر الناس وعوامهم، والخلطة بالصالحين، والاجتماع مع عامتهم في نحو جمعهم وجماعاتهم». والحاصل أن العزلة تكون كلية تارة وجزئية أخرى، خادمة لمطلوب أو مقصود، كما بيته الشاطبي في «الموافقات» (٣/ ٥٣٠ - بتحقيقي).

وقد ذكر العلماء جملة من (الآداب) لمن أراد (العزلة)؛ منها: أن ينوي بعزلته كف شره عن الناس أولاً، ثم طلب السلامة من الأشرار ثانياً، ثم الخلاص من آفات الاختلاط ثالثاً، ثم التجرد بكنه الهمة لعبادة الله رابعاً، ثم ليكن في خلوته مواظباً على العلم والعمل والذكر والفكر؛ ليجتني ثمرة العزلة، وليمنع الناس عن أن يكثرُوا غشيانَه وزيارته فيشوش عليه وقته، وليكف عن السؤال عن أخبارهم والإصغاء إلى أراجيف البلد؛ فإن كل ذلك ينغرس في القلب حتى ينبعث في أثناء الصلاة أو الفكر من حيث لا يحتسب.

وبالجملة، يقطع الوسواس الصارفة عن ذكر الله، وليقنع باليسير من المعيشة، وإلا؛ اضطره التوسع إلى الناس، وليكن له أهل صالحة أو جليس صالح لتستريح نفسه إليه عن كد المواظبة في اليوم ساعة؛ ففيه عون على بقية الساعات، ولا يتم له الصبر في العزلة إلا بقطع الطمع عن الدنيا وعما في أيدي أهلها، وطريق ذلك أن لا يقدر لنفسه عمراً طويلاً، بل يصبح على أنه لا يمسي، ويمسي على أنه لا يصبح؛ فيسهل عليه صبر يوم واحد، وإلا؛ فلا يسهل عليه الصبر عشرين سنة أو قدر تراخي الأجل.

وليكن كثير الذكر للموت ووحدة القبر مهما ضاق قلبه من الوحدة، وليتحقق أن من لم يحصل في قلبه من ذكر الله ومعرفته ما يأنس به؛ فلا يطيق وحشة الوحدة بعد الموت، =

الجماعات والجمع، فلما وقع عزمهم على الذهاب والهرب من قومهم واختار الله تعالى لهم ذلك، وأخبر عنهم بذلك، في قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ وَمَا يَسْكُونُ إِلَّا اللَّهُ﴾، أي: وإذا فارقتموهم وخالفتموهم بأديانكم في عبادتهم غير الله، ففارقوهم أيضاً بأبدانكم، ﴿فَأَوَّا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾، أي: يبسط عليكم رحمة يستركم بها من قومكم ﴿وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ﴾ أي^(١) الذي أنتم فيه ﴿مِرْقَافًا﴾ أي: أمراً ترتفقون به، فعند ذلك خرجوا هرباً إلى الكهف، فأووا إليه، ففقدهم قومهم، من بين أظهرهم، وتطلبهم الملك، فيقال: إنه لم يظفر بهم، وعصى الله خبرهم كما فعل بنبيه محمد ﷺ وصاحبه الصديق، حين لجأ إلى غار ثور، وجاء المشركون من قريش في الطلب، فلم يهتدوا إليه، مع أنهم يملكون عليه وعندها، قال النبي ﷺ، حين رأى جزع الصديق في قوله: يا رسول الله لو أن أحدهم نظر إلى موضع قدميه لأبصرنا، فقال: «يا أبا بكر، ما ظنك باثنين الله ثالثهما»^(٢). وقد قال تعالى: ﴿إِلَّا نُنْصِرُهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَالِثًا أَثْنَيْنِ إِذْ هَمَّا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدُوهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَسْفَلًا وَكََلِمَةَ اللَّهِ هِيَ الْعَلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٤٠] فقصة هذا الغار أشرف وأجل وأعظم^(٣)، وأعجب من قصة أصحاب الكهف^(٤).

الباب الثاني

قوله تعالى: ﴿وَأَنْزِلْ مَا أَرْسَلْنَاكَ مِنْ كِتَابٍ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ يَجْعَلَ مِنْ دُونِهِ مِثْلًا حَكِيمًا﴾ ٧٧ وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدْوَىٰ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدَ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ٧٨

= وانظر: «الإحياء» (٢/٢٤٣)، و«مفتاح السعادة» (٣/٢٤٣ - ٢٤٤)، و«مختصر منهاج القاصدين» (ص ١١٧، ١١٨).

(١) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».

(٢) أخرجه البخاري (٤٦٦٣)، ومسلم (٢٣٨١) من حديث أنس.

(٣) لم تسلم من تهويل القصاص، وأراجيف الكذابين، وبيئت قصة من ذلك بما لا مزيد عليه في كتابي «قصص لا تثبت» (٨/١٩ - ٤٦).

(٤) انظر: «تفسير ابن كثير» (٩/١١٢).

وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيُكْفِرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ
يُنسَكُ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ [الكهف: ٢٧ - ٢٩]

قال (ك): «يقول تعالى آمراً رسوله ﷺ بتلاوة كتابه العزيز وإبلاغه إلى الناس: ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَتِهِ﴾ أي: لا^(١) مغير لها ولا محرف ولا مؤول^(٢)، وقوله: ﴿وَلَن نَّجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ عن مجاهد: ملتحداً، قال: ملجأ، وعن قتادة: ولياً ولا مولى، قال ابن جرير: يقول: إن أنت يا محمد لم تتل ما أوحى إليك من كتاب ربك^(٣) فإنه لا ملجأ لك من الله، كما قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا أَرْسُولٌ بَلَّغَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّدُنَّا تَفَعُّلٌ مَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِلُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧]، وقال: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَيَّ مَعَادٍ﴾ [القصاص: ٨٥] أي: سائلك عما فرض عليك من إبلاغ الرسالة، وقوله: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ أي: اجلس مع الذين يذكرون الله ويهللونه ويحمدونه، ويسبحونه ويكبرونه ويسألونه بكرة وعشيّاً، من عباد الله سواء كانوا فقراء، أو أغنياء، أو أقوياء، أو ضعفاء، يقال^(٤): إنها نزلت في أشرف قريش، حين طلبوا من النبي ﷺ، أن يجلس معهم وحده، ولا يجالسهم بضعفاء أصحابه، كبلال، وعمار، وصهيب، وخباب، وابن مسعود، وليفرد أولئك بمجلس على حدة، فنهاه الله عن ذلك فقال: ﴿وَلَا تَقْرُؤُوا الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ [الأنعام: ٥٢] وأمره أن يصبر نفسه في الجلوس مع هؤلاء، فقال: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ الآية، وقال مسلم بسنده عن سعد بن أبي وقاص، قال: «كنا مع النبي ﷺ ستة نفر، فقال المشركون^(٥)

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «غير».

(٢) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «مزيل».

(٣) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أي:»، وبعدها في مطبوع «تفسير ابن جرير» (١٥/٢٣٤): «فتبته وتأتّم به، فمالك وعيدُ الله الذي أوعد فيه المخالفين حدوده».

(٤) بل ثبت ذلك عند مسلم في «صحيحه»، كما سيأتي قريباً.

(٥) قائله: الأقرع بن حابس وعيينة بن حصن، ذكره الخطيب في «الأسماء المبهمة» رقم (٢٢٢)، وعنه سبط بن العجمي في «تنبيه المعلم بمبهمات صحيح مسلم» (ص ٤١١/رقم ١٠٠٥ - بتحقيقي).

للنبي ﷺ: اطرد هؤلاء لا يجترئون علينا قال: وكنت أنا وابن مسعود ورجل من هذيل، وبلال ورجلان نسيت اسميهما^(١)، فوقع في نفس رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقع، فحدث نفسه، فأنزل الله ﷻ: ﴿وَلَا تَقْرُؤُا الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾^(٢) [الأنعام: ٥٢] انفراد به مسلم دون البخاري، وقوله: ﴿وَلَا تَقْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدَ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ قال ابن عباس: «لا تجاوزهم إلى غيرهم»^(٣)، يعني: تطلب بدلهم أصحاب الشرف، والثروة ﴿وَلَا تُطْع مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ دِكْرِنَا﴾ أي: شغل عن الدين وعبادة ربه بالدنيا، ﴿وَكَاثَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ أي: أعماله وأفعاله سفه وتفريط، وضياح، ولا تكن مطيعاً له، ولا محبباً لطريقته، ولا تغبطه بما هو فيه، كما قال: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِيَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرَزَقْنَاكَ مِنْ حَيْثُ وَابَّقَى﴾ [طه: ١٣١]، وقوله تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ﴾ الآية.

يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ، ﴿وَقُلْ﴾ يا محمد للناس، هذا الذي جئتكم به من ربكم هو ﴿الْحَقُّ﴾ الذي لا مزية فيه، ولا شك، ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ هذا من باب الوعيد والتهديد^(٤) الشديد، ولهذا قال: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا﴾ أي^(٥): أُرصدنا ﴿لِلظَّالِمِينَ﴾ وهم الكافرون بالله ورسوله وكتابه ﴿نَارًا أَحَاطَ بِهَا﴾ شَرادقُها أي: سورها، وقوله: ﴿وَلَنْ يَسْتَعِيشُوا بِعَاثِلِهِمْ بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ﴾ الآية، قال ابن عباس: «المهل الماء الغليظ»^(٦) مثل دُردي الزيت^(٧)، وقوله:

(١) سمي الخطيب منهم: صهيب بن سنان وبلال بن رباح وعمار بن ياسر، وخباب بن الأرت، وزاد ابن عبد السلام: سلمان وسالم وهلالاً ومهجماً، انظر: «الأسماء المبهمة» رقم (٢٢٢)، «فتح القدير» (٢/ ١٢٠)، و«تنبيه المعلم» (ص ٤١١ - بتحقيقي).

(٢) أخرجه مسلم (٢٤١٣)، وأطلت النفس في تخريجه في تعليقي على «رجحان الكفة في بيان نبذة عن أهل الصفة» للسخاوي، فانظره غير مأمور.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم (١٢٩٨/٤) رقم (٧٣٣٣)، وعزاه له السيوطي في «الإتقان» (٢/ ٢٥)، و«الدر المنثور» (٩/ ٥٢٨)، وهو في «صحيفة علي بن أبي طلحة» رقم (٧٦٨).

(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «التهديد».

(٥) من مطبوع «تفسير ابن كثير» وسقطت من الأصل.

(٦) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ماء غليظ».

(٧) أخرجه بهذا اللفظ: أسد بن موسى (٢٨)، وهناد (٢٨٣) كلاهما في «الزهد»، وابن جرير

(٧٨/٢٥)، وابن أبي حاتم (٢٣٥٨/٧) كلاهما في «التفسير»، وعزاه في «الفتح» (٨/

٥٧٠)، و«الدر المنثور» (٤/ ٢٢١) لابن أبي شيبه وابن المنذر، وإسناده ضعيف، فيه =

﴿يَسْكَ الشَّرَابُ﴾ أي: يشرب هذا شراباً^(١)، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَسَقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥]، وقال تعالى: ﴿تَشْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ عَالِيَةٍ﴾ [الغاشية: ٥] أي: حارة كما قال تعالى: ﴿وَيَبِّحَ حَمِيمٌ مَّاءٌ﴾ [الرحمن: ٤٤]، ﴿وَسَاءَتْ مُرْتَقَقًا﴾ أي: ساءت النار منزلاً ومقيلاً ومجتمعاً وموضعاً للارتفاق، كما قال في الآية الأخرى: ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: ٧٦]^(٢).

فصل

قال محمد تقي الدين: تضمنت هذه الآيات أموراً:

الأول: أمر الله تعالى نبيه محمداً ﷺ، بتلاوة ما أنزل عليه وهو القرآن وأمته تابعة له في هذا الأمر، فما دامت تتلو القرآن وتعمل به وتتخذة إماماً وحكماً تكون سعيدة في دينها ودنياها، ولا كلمة فوق كلمتها، وإن لم تفعل ذلك شقيت في دينها ودنياها، كما هو واقع في هذا الزمان، يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَنْ يَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ أي: لا مهرب ولا ملجأ ولا ولي ولا نصير ولا منقذ ولا مخلص.

الثاني: أمر الله نبيه محمداً ﷺ أن يصبر نفسه ﴿مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدْوَةِ وَالْعَصَىٰ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ وإن كانوا فقراء محتقرين عند الأغنياء، محرومين من لذة العيش، ففي الكون معهم رضوان الله ومغفرته ورحمته.

الأمر الثالث: نهى الله رسول الله ﷺ - وأمته تبع له - عن طاعة الغافلين عن ذكر الله المضيعين لأمر الله المتبعين أهواءهم، المفرطين في جنب الله، لأن طاعتهم فيها الخسران المبين.

الأمر الرابع: أمر الله نبيه محمداً ﷺ أن يقول الحق ويعلنه عند من أحبه وعند من كرهه، فمن آمن واتبع فاز بالسعادة الأبدية، ومن كفر فإن الله له بالمرصاد، لا يضر إلا نفسه، فإن الله أعد للكافرين عذاباً محيطاً بهم، ولا نجاة لهم منها أبداً. اهـ.

= عطية العوفي. وعلقه البخاري (٨/ ٥٧٠ - مع «الفتح») عنه بلفظ: «أسود كمهل الزيت»، ووصله البيهقي في «البعث والنشور» رقم (٥٥٢) بسند منقطع، وانظر: «تغليق التعليق» (٤/ ٣١٠)، و«التخويف من النار» لابن رجب (رقم ٥٦٥، ٥٦٦ - بتحقيقي).

(١) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «الشراب».

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (٩/ ١٣٠ - ١٣٤) بتصرف.

الباب الثالث

قوله تعالى: ﴿وَأَضْرَبَ لَهُم مَّثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْتَهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ۝٣٢﴾ كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكْلَهَا وَلَمْ تَنْظِلْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهْرًا ۝٣٣﴾ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ۝٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ۝٣٥﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُودْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا ۝٣٦﴾ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّكَ رَجُلًا ۝٣٧﴾ لَيْكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ۝٣٨﴾ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلُّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا ۝٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَنُصِيعَ صَعِيدًا زَلَقًا ۝٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُم طَلَبًا ۝٤١﴾ وَأُحِيطَ بِشَمْرِهِ فَاصْبَحَ يَقُلُّ كَفَيْنَهُ عَلَىٰ مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ بَلِّغْنِي لِمَ أَشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ۝٤٢﴾ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِتْنَةٌ يَصُرُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْصِرًّا ۝٤٣﴾ [الكهف: ٣٢ - ٤٣]

قال (ك): يقول تعالى بعد ذكره^(١) المشركين المستكبرين عن مجالسة الضعفاء والمساكين من المسلمين، وافتخروا عليهم بأموالهم وأحسابهم، فضرب لهم مثلاً برجلين جعل الله ﴿لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ﴾، أي: بساتين من أعناب محفوفتين بالنخيل^(٢) المحدقة في جنباتهما وفي خلالهما الزروع، وكل من الأشجار والزروع مشمر مقبل في غاية الجودة، ولهذا قال: ﴿كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكْلَهَا﴾ أخرجت ثمرها، ﴿وَلَمْ تَنْظِلْ مِنْهُ شَيْئًا﴾ ولم تنقص منه شيئاً، ﴿وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهْرًا﴾ أي: والأنهار متفرقة فيهما ههنا وههنا ﴿وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ﴾ أي: ثمار كثيرة، ﴿فَقَالَ﴾ أي: صاحب هاتين الجنتين ﴿لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ﴾ أي: يجادله ويخاصمه يفتخر عليه ويتراأس ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ أي: أكثر خدماً وحشماً وولداً، قال

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ذكر».

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «بالنخل».

قتادة: «تلك والله أمنية [الكافر] كثرة الأموال، وعزة النفس»^(١)، وقوله: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾ أي: بكفره وتمرده وتكبره^(٢) وإنكاره المعاد ﴿قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا﴾ وذلك اغترار منه لما رأى فيها^(٣) من الزروع والثمار والأشجار والأنهار المطردة في جوانبها^(٤) ظن أنها لا تفتنى^(٥) ولا تهلك ولا تتلف^(٦)، لقلة عقله وضعف يقينه بالله، وإعجابه بالحياة الدنيا وزينتها وكفره بالآخرة ولهذا قال: ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ أي: كائنة، ﴿وَلَكِنْ رُّدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ أي: ولئن كان معاد ورجعة ومرد إلى الله ليكونن لي هناك أحسن من هذا الحظ عند ربي، ولولا كرامتي عليه ما أعطاني هذا، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَلَكِنْ رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَ﴾ [نصفت: ٥٠]، وقال: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّكَ مَالًا وَّلَدًا﴾ [مريم: ٧٧] أي: في الدار الآخرة تألّى على الله ﷻ، وكان سبب نزولها في العاص بن وائل^(٧) كما سيأتي بيانه في موضعه إن شاء الله، وبه الثقة وعليه التكلان.

﴿قَالَ لَمْ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ﴾... إلخ.

قال (ك): «يقول تعالى مخبراً عما أجابه به صاحبه المؤمن واعظاً له وزاجراً عما هو فيه من الكفر بالله والاعترار: ﴿أَكْفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ﴾ الآية، وهذا إنكار وتعظيم لما وقع فيه من جحود ربه الذي خلقه وابتدأ خلق الإنسان من طين، وهو آدم ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾ [السجدة: ٨]، كما قال تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أََمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨] الآية، أي: كيف تجحدون ربكم ودلالته عليكم ظاهرة جليلة؟! كل أحد يعلمها من نفسه ولا يستند إلى شيء من المخلوقات؛ لأنه بمثابته فعلم إسناد إيجاده إلى خالقه، وهو الله لا إله إلا هو، خالق كل شيء، ولهذا قال المؤمن^(٨): ﴿لَنُكَلِّمَنَّكَ﴾

(١) أخرجه ابن جرير (٢٦٢/١٥)، وما بين المعقوفتين منه، وسقط من الأصل.

(٢) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وتجبره».

(٣) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «فيهما»!

(٤) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وأرجائها».

(٥) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ولا تفرغ».

(٦) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وذلك».

(٧) أخرجه البخاري (٢٠٩١)، ومسلم (٢٧٩٥)، وأحمد (١١١٥) من حديث خباب.

(٨) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».

هُوَ اللَّهُ رَبِّي أَي: لكن أنا لا أقول بمقالتك بل أعترف لله بالوحدانية والربوبية ﴿وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ أَي: بل هو الله المعبود وحده لا شريك له، ثم قال: ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ﴾ هذا تحضيض وحث على ذلك، ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿﴾ أَي: ههنا إذ أعجبتك حين دخلتها ونظرت إليها حمدت^(١) الله على ما أنعم به عليك، وأعطاك من المال والولد ما لم يعطه غيرك، ﴿قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾. وقلت: «ما شاء الله لا قوة إلا بالله»، ولهذا قال بعض السلف: من أعجبه شيء من حاله أو ماله أو ولده فليقل: ما شاء الله لا قوة إلا بالله^(٢)، وهذا مأخوذ من هذه الآية الكريمة، وقد ثبت في «الصحيحين» عن أبي موسى أن رسول الله ﷺ قال له: «ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة؟ لا حول ولا قوة إلا بالله»^(٣).

وقوله: ﴿فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ﴾ أَي: في الدار الآخرة ﴿وَرَسُولٌ عَلَيْهَا﴾ أَي: على جنتك في الدنيا التي ظننت أنها لا تبید ولا تفنى ﴿حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ قال ابن عباس والضحاك وقتادة ومالك عن الزهري: أَي: عذاباً من السماء^(٤)، والظاهر أنه مطر عظيم مزعج يقلع زروعها وأشجارها،

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «فحمد».

(٢) وقفتُ عليه مسنداً في بعض كتب النسب، وهو في (بطاقات) استخرجتها من المصادر البعيدة التي يندر وقوف الحديثي عليها، ويعسر عليّ الآن استعراضها جميعاً، ورجعت إلى مظنة ما ظننته فلم أفر بخبر، ولم أظفر بأثر!

ولا أعرف لقوله: (ما شاء الله) عند رؤية ما يعجب حديث صحيح، وقد ورد ذلك في حديث عند أبي يعلى في «مسنده الكبير» - كما في «المطالب العالية» (٣٦٧٣)، ومن طريقه الذهبي في «معجم الشيوخ» (٢٩٢/٢ - ٢٩٣) - والمحاملي في «أمالیه» (٦٥) - رواية ابن مهدي - بتحقيقي، ومن طريقه قوام السنة في «الترغيب» (٣٣٩)، والخطيب (٣/ ١٩٨ - ١٩٩)، وعبد الغني في «الترغيب في الدعاء» (٦٩) -، وابن أبي الدنيا في «الشكر» (١)، والطبراني في «الصغير» (٢/ ٢١٢)، وفي «الأوسط» (٤٦١)، (٥٩٩٥)، وابن السني في «عمل اليوم والليلة» (٣٥٧)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٣٣٩)، و«الشعب» (٤٣٦٩، ٤٥٢٥)، و«الدعوات الكبير» (٤٩٨) ولكن إسناده ضعيف، فيه عبد الملك بن زارة، وعيسى بن عون، وانظر: «مجمع الزوائد» (١٠/ ١٤٠)، و«السلسلة الضعيفة» (٢٠١٢)، والثابت في هذا الباب (التبريك) فحسب، والله أعلم.

(٣) أخرجه البخاري (٤٢٠٥)، ومسلم (٢٧٠٤)، وأطلت النفس في تخريجه في تعليقي على «أمالی المحاملي» رواية ابن مهدي، وسلمته للنشر منذ مدة، يسر الله إظهاره، إنه المأثور بذلك وحده.

(٤) أخرجه ابن جرير (٢٦٦/١٥) عن ابن عباس، بإسناد ضعيف جداً، وأخرجه عبد الرزاق =

ولهذا قال: ﴿فَنُصِصَ صَعِيدًا زَلَقًا﴾ أي: بلقعا تراباً أملس لا يثبت فيه قدم، وقال ابن عباس: «كالجُرْز الذي لا يثبت شيئاً»^(١). وقوله: ﴿أَوْ يُصِصَ مَآؤُهَا غَوْرًا﴾ أي: غائراً في الأرض، وهو ضد النابع الذي يطلب وجه الأرض، فالغائر يطلب أسفلها، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ﴾^(٢) إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمِائِمٍ ﴿٣٠﴾ [الملك: ٣٠] أي: جار وسائح، وقال ههنا: ﴿أَوْ يُصِصَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَمْ طَلَبْنَا﴾^(٣) والغور: مصدر بمعنى غائر، وهو أبلغ منه. كما قال الشاعر^(٤):

تَظَلُّ جِيَادُهُ نَوْحًا عَلَيْهِ مُقَلَّدَةً^(٥) أَعْنَتْهَا صُفُونَا^(٥)

بمعنى نائحات عليه، وقوله: ﴿وَأُحِيطَ بِشَرِّهِ فَأَصْبَحَ يَقْلُبُ كَفَيْهِ عَلَى مَا أَفْنَقَ فِيهَا وَهِيَ حَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾ الآية، يقول تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِشَرِّهِ﴾ بأمواله أو بشماره على القول الآخر، والمقصود أنه وقع بهذا الكافر ما كان يحذر مما خوفه به المؤمن من إرسال الحسابان على جنته التي اغتر بها، وألهته عن الله ﷻ ﴿فَأَصْبَحَ يَقْلُبُ كَفَيْهِ عَلَى مَا أَفْنَقَ فِيهَا﴾، وقال قتادة: يصفق كفيه متأسفاً متلهفاً على الأموال التي أذهبها عليها، ﴿وَيَقُولُ يَلَيْتَنِي لَمْ أَشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا وَلَمْ تَكُنْ لَمْ فِتْنَةً﴾ عشيرة أو ولد كما افتخر بهم واستعز ﴿يَصْرُوفُهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْصَرًّا﴾^(٦).

فصل

قال محمد تقي الدين: أهم شيء عندنا في نقل هذه الآيات هو التحذير من

= (١/٤٠٤)، وابن جرير (١٥/٢٦٦) في «تفسيريهما» عن قتادة، وعزاه في «الدر المنثور» (٤/٢٢٤) إلى ابن المنذر وابن أبي حاتم، وأما أثر الضحاك، فأخرجه ابن جرير أيضاً، وعزاه في «الدر» إلى ابن أبي شيبة وابن أبي حاتم.
(١) أخرجه ابن جرير (١٥/٢٦٧)، وابن المنذر - كما في «الدر» (٤/٢٢٢)، وإسناد ابن جرير ضعيف -.

(٢) في الأصل: «أفرايتم»!

(٣) هو عمرو بن كلثوم، والبيت في «شرح القصائد التسع» (٢/٦٣١) للنحاس، و«شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات» للأنباري (ص ٣٨٩).

(٤) في الأصل: «تقلده»! والتصويب من المصادر المذكورة، و«مجاز القرآن» (١/٤٠٤)، و«تفسير ابن جرير» (١٥/٢٦٧).

(٥) في الأصل: «صفوفاً»! والتصويب من المصادر المذكورة آنفاً.

(٦) انظر: «تفسير ابن كثير» (٩/١٣٦ - ١٤٠) بتصرف.

الشرك بالله تعالى الذي يدل عليه قول المؤمن: ﴿لَيْكَا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ (٢٨)، وقول الكافر بعد نزول العذاب به وذهاب أمواله: ﴿يَلْبِثُنِي ثُمَّ أَمْرُهُ رَبِّي أَحَدًا﴾، ومن ذلك نعلم أن المشرك وإن كان له جاه ومال فماله إلى الخسران والندامة، وأن الموحد وإن كان فقيراً فماله إلى الانتصار والغلبة.

❖ الباب الرابع ❖

قوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِ آلِهَاتٍ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا﴾ (١٧) ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ (١٨) ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَبِيلُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ (١٩) ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِمْ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا﴾ (٢٥) ﴿[الكهف: ١٠٢ - ١٠٥]

قال (ك): «يقول تعالى: ﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِ آلِهَاتٍ﴾ أي: اعتقدوا أنهم يصلح لهم ذلك ويتنفعون به» (١) ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ (٨٢)، ولهذا أخبر الله تعالى أنه قد أعد لهم جهنم يوم القيامة نزلاً ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ (١٧) الآية، قال البخاري بسنده: عن مصعب قال: سألت أبي - يعني: سعد بن أبي وقاص - عن قول الله: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ (١٧) الآية، أهم الحرورية؟ قال: لا، هم اليهود والنصارى، أما اليهود فكذبوا محمداً ﷺ وأما النصارى فكفروا بالجنة، وقالوا: لا طعام فيها ولا شراب، والحرورية الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه فكان سعد رضي الله عنه يسميهم الفاسقين (٢)، وقال علي بن أبي طالب (٣)

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «بذلك».

(٢) أخرجه البخاري (٤٧٢٨) وخرجه بتفصيل في تعليقي على «الاعتصام» (٨٩/١ - ٩٠).

(٣) أخرجه عبد الرزاق في «التفسير» (٤١٣/٢)، ط. الرشد، وعبد الله بن أحمد في «السنن»

رقم (١٥١٦)، وابن أبي حاتم في «التفسير» (٢٣٩٣/٧) رقم (١٣٠٠١)، والشاشي في

«المسند» (٩٦/٢) رقم (٦٢٠)، وابن عبد البر في «الجامع» (٤٦٤/١ - ٤٦٥) رقم =

والضحاك وغير واحد^(١): هم الحرورية، ومعنى هذا عن علي عليه السلام أن هذه الآية الكريمة تشمل الحرورية كما تشمل اليهود والنصارى وغيرهم لا أنها نزلت في هؤلاء على الخصوص، ولا هؤلاء، بل هي أعم من هذا فإن هذه الآية هي قبل خطاب اليهود والنصارى، وقبل وجود الخوارج بالكلية، وإنما هي عامة في كل من عبد الله على غير طريقة مرضية يحسب أنه مصيب فيها، وأن عمله مقبول، وهو مخطئ وعمله مردود، كما قال تعالى: ﴿وَجُودُ يَوْمِهِدْ خَشِيعَةٌ ۖ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ ۖ تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً﴾ [الغاشية: ٢ - ٤]، وقال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [الأنبياء: ٢٣] وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَغْمَلْتُمْ كُرْبًا يَفْقَهُوْنَ بِحَسْبِهِ الظُّلُمَاتُ مَاءً حَقًّا إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾ [النور: ٣٩]، وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ﴾ أي: نخبركم ﴿بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ ثم فسرهما^(٢) فقال: ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: عملوا أعمالاً باطلة على غير شريعة مشروعة مرضية

= (٧٢٦)، وابن جرير في «التفسير» (٤٢٦/١٥)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٦/١١٠) من طريق أبي الطفيل عنه به. وإسناده صحيح. وبعضهم - كالشاشي - ذكره مطولاً جداً، وفيه الشاهد، وفيه قسم آخر، خرجته في تعليقي على «الموافقات» (٥٢/١)، وعزاه الشاطبي في «الاعتصام» (٩٤/١، ٩٥ - بتحقيقي) لـ «جامع ابن وهب» ولعبد بن حميد، وعزاه في «الدر المنثور» (٤٦٥/٥) لابن مردويه وابن المنذر والقرطبي وسعيد بن منصور، وانظر: «مجموع فتاوى ابن تيمية» (٤٤٧/١٠ - ٤٤٩). وصح عن علي أنه فسر الآية بالرهبان. أخرج البخاري في «التاريخ الكبير» (١٧٢/٣/١) رقم (٥٤٨)، وابن جرير في «التفسير» (٤٢٣/١٥ - ٤٢٤)، وابن أبي حاتم في «التفسير» (٢٣٩٣/٧) رقم (١٣٠٠٠)، وابن وهب في «الجامع» (١٠١/١ - ١٠٢) (رقم ٢٣١ - التفسير)، والدارقطني في «المؤتلف والمختلف» (٦٤١/٢)، والخطيب في «الموضح» (٢٠٥/١)؛ عن عبد الله بن قيس أبي حميضة؛ قال: سمعتُ علي بن أبي طالب يقول في هذه الآية: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ [الكهف: ١٠٣]، قال: «إنهم الرهبان الذي حبسوا أنفسهم في السَّواري» وإسناده صحيح.

وقال الشاطبي في «الاعتصام» (٩٥/١ - بتحقيقي): «فقد يجتمع التفسيران في الآية، تفسير سعد بأنهم اليهود والنصارى، وتفسير علي بأنهم أهل البدعة، لأنهم قد اتفقوا على الابتداع، ولذلك فسر كفر النصارى بأنهم تأولوا في الجنة غير ما هي عليه، وهو التأويل بالرأي».

(١) انظر: «تفسير سفيان الثوري» (ص ١٧٩)، «معالم التنزيل» (١٩١/٤) - مع «تفسير الخازن»، «الدر المنثور» (٢٥٣/٤)، «فتح القدير» (٣٠٦/٣).

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «فسرهم».

مقبولة ﴿وَمَنْ يَحْسَبْ أَنَّهَمْ يُخْسِنُونَ صُنْعًا﴾ أي: يعتقدون أنهم على شيء، وأنهم مقبولون محبوبون، وقوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ﴾ أي: جحدوا آيات الله في الدنيا وبراهينه التي أقام على وحدانيته وصدق رسله وكذبوا بالدار الآخرة ﴿فَلَا نُفِئُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا﴾ أي: لا ننقل موازينهم، لأنها خالية عن^(١) الخير، قال البخاري^(٢) بسنده عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ليأتين الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة»، وقال: «اقرأوا إن شئتم: ﴿فَلَا نُفِئُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا﴾»^(٣).

فصل

قال محمد تقي الدين: علمنا مما نقله الحافظ ابن كثير عن السلف أن هذه الآية وما بعدها تشمل كل من عبد الله على طريقة غير مرضية، فدخل فيها اليهود والنصارى والوثنيون والخوارج، وكل مبتدع، لأن المبتدع على طريقة مضادة لسنة النبي ﷺ لم تكن في زمانه ديناً فلن تكون ديناً، كما قال مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «من ابتدع في الإسلام بدعة يراها حسنة، فقد زعم أن محمداً ﷺ خان الرسالة، لأنني سمعت الله يقول: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣] وما لم يكن يومئذ ديناً لا يكون اليوم ديناً»^(٤). ومما يدخل في هذه الآية بلا شك أصحاب الطرائق القدد، الذين ينتسبون إلى التصوف في هذا الزمان، فإنهم يخالفون ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه من وجوه:

الوجه الأول: إحداث التفريق بين المسلمين، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شَيْعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٩]، وقال تعالى في سورة الروم: ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شَيْعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾. وهذا ينطبق على أصحاب الطرائق غاية الانطباق، وقال النبي ﷺ: «إن بني إسرائيل تفرقوا على

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «من».

(٢) أخرجه البخاري (٤٧٢٩)، ومسلم (٢٧٨٥).

(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٩٩/٩ - ٢٠١) بتصرف.

(٤) ذكره صاحب «تهذيب الفروق» (٢٢٥/٤)، والشاطبي في «الاعتصام» (٦٢/١) و٣٦٨/٢ - بتحقيق). وانظر: «الإمام مالك مفسراً» (ص ١٦٨).

اثنتين وسبعين فرقة، وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار إلا واحدة»، قيل: من هم يا رسول الله؟ قال: «ما أنا عليه وأصحابي»^(١).

فهل أحدث الصحابة طرائق في الدين، فكانت هناك طريقة بكرية وطريقة عمرية، وطريقة عثمانية، وطريقة علوية، وطريقة جابرية، وطريقة مسعودية... إلخ؟! معاذ الله أن يتفرق أصحاب رسول الله ﷺ في دينهم.

الثاني: إنهم مبتدعون، وكل بدعة ضلالة، فكل مبتدع ضال.

الثالث: إن المتأخرين منهم مع جهلهم وضلالهم لا يريدون وجه الله بعملهم، بل يريدون الدنيا، فينطبق عليهم قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يَحْفَظُونَ عَنْهُمْ الْعَذَابَ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة: ٨٦] فإن الرجل منهم يدخل بلداً من البلدان لا يملك شيئاً، فيحتال على الناس ويعدهم ويمنيهم وما يعدهم إلا غروراً فيقول لهم: من دخل في طريقيتني أضمن له سعادة الدنيا والآخرة، وإن لم يدخل الجنة فليحاسبنني بين يدي الله من أخذ طريقيتي فذنوبه مغفورة بالغه ما بلغت، وقد زعم التجانيون في ما نسبوه^(٢) إلى شيخهم أبي العباس أحمد بن محمد التجاني المتوفى بفاس سنة ١٢٣٠ عن ثمانين سنة، أنه قال: واعلموا أنه لا يستطيع أحد من الرجال أن يدخل كافة أصحابه الجنة بلا حساب ولا عقاب ولو عملوا من الذنوب ما عملوا وبلغوا من

(١) أخرجه الترمذي (٢٦٤١)، والحاكم (١٢٨/١ - ١٢٩)، وابن وضاح القرطبي في «البدع» رقم (٢٧٠)، والآجري في «الشرعة» (ص ١٥ - ١٦)، و«الأربعين» رقم (١٣)، والعقيلي في «الضعفاء» (٢/٢٦٢)، وابن نصر المروزي في «السنة» رقم (٦٢)، والتميمي في «الحجة» رقم (١٦، ١٧)، واللالكائي في «السنة» رقم (١٤٧)، وابن بطة في «الإبانة» (١/٢٦٥)، وابن الجوزي في «تلبيس إبليس» (ص ١٦) من حديث عبد الله بن عمرو، وهو حسن بمجموع شواهد، فله شواهد عديدة من حديث أبي هريرة ومعاوية وأنس وغيرهم، وقد صححه جمع من الحفاظ وخرجت ما ورد في الباب في تعليقي على «الاعتصام» (٣/١٥٦، ١٦١)، وانظر: «الصحيحة» رقم (٢٠٣، ٢٠٤).

(٢) في كلامه هذا، وكذا في «الهدية الهادية» (٣٨) ميل من الهلالي إلى تبرئة التجاني نفسه، ومما ظفرت به في هامش «الهدية» بخط شيخنا العلامة محمد بو خبزة ما نصه: «كان أولى أن يلتمس له العذر قبل هذا الكلام محيي الدين بن العربي، فقد قال هذا وأكثر منه في وصيته بآخر «الفتوحات»! ولكن المحققين حكموا بكفره، وردّته، لموجباتها المتكاثرة، وممن حكموا عليه بذلك المؤلف الهلالي، فما باله لم يسلك هذا المسلك مع التجاني، بل نراه يميل إلى تبرئته بدون مبرر!»

المعاصي ما بلغوا إلا أنا وحدي، ووراء ذلك ما ضمنه لي فيهم سيد الوجود ﷺ أمر لا يحل ذكره، ولا يرى ولا يعرف إلا في الدار الآخرة، بشرى للمعتقد على رغم أنف المتقند، انظر كتابي: «الهدية الهادية إلى الطائفة التجانية»^(١).

قلنا: إن الرجل منهم يدخل البلد لا يملك شيئاً، وفي وقت قصير يتزوج أربع نسوة ويشيد القصور ويكون له الخدم والحشم، ويعيش عيشة الأمراء المترفين، مع أنه يزعم أنه يدعو إلى طريقة الزهد في الدنيا والانقطاع إلى العبادة.

الرابع: إن الشرك الذي ينصبه ليصيد به أولئك الجهال، هو الورد وهو أذكاء يعطيهم إياها يذكرونها صباحاً ومساءً بشروط يشترطها عليهم من طهارة واستقبال قبلة وتغميض العيون وعدم الكلام، ويزعم لهم أنهم إذا ذكروا تلك الأوراد بالإذن الخاص يدركون أسراراً عظيمة، ويرتقون في مراتب الإحسان إلى أعلى الدرجات، وتكون لهم كرامات ويدركون الولاية قبل موتهم، وإذا ذكروها بالإذن العام لا يكون لهم شيء من ذلك، فيقال له: هذه الأذكاء التي تريد أن تعطينا بأسرارها وأنوارها هل هي شيء نزل عليك بطريق الوحي، أم هي مما جاء به النبي ﷺ وأذن الله ورسوله فيها لجميع المسلمين؟ فلا يسعه إلا أن يقول: هي مما جاء به النبي ﷺ فيقال: إذا أنت كاذب ومحتال! فما أعطانا الله ورسوله منذ قرابة ١٤٠٠ سنة لا يمكن إعطاؤه ولا الإذن فيه؛ لأن ذلك من تحصيل الحاصل وهو محال، وقد نصبت هذا الشرك الشيطاني؛ لتستعبد الناس وتبتز أموالهم وتفسد عليهم دينهم.

الخامس: وهو الطامة الكبرى: أنه يقول لهم: تخيلوا صورتني عند ذكر الورد، وتخيلوا عموداً من النور يخرج من قلبي ويدخل قلوبكم، وهذا كفر، لأن تنوير القلوب لا يقدر عليه إلا الله، وليس مقصودي أن أحصي شرور شيوخ الطرائق فإنها لا تحصى^(٢)، ولكنني أشرت إلى شيء منها.

(١) انظر (ص ٨٢) وما بعد.

(٢) للهلال في مجلة «الشهاب» الجزائرية، المجلد الرابع، عدد (١٧١) بتاريخ ٢٦ جمادى الأولى ١٣٤٧هـ - ٨ نوفمبر ١٩٢٨ (ص ٣ - ٤) بعنوان (معنى الطريقي في العرف)، وله في المجلد نفسه، الأعداد (١٥٠ - ١٥٢) مقالة نشرت على ثلاث حلقات بعنوان (الطرائق في الحجاز، داء علاج الطرائق) وله أيضاً في (المجلد الرابع) العدد =

﴿الباب الخامس﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ۝﴾

[الكهف: ١١٠]

قال القاسمي في «تفسيره»^(١): «﴿قُلْ﴾ أي: لهؤلاء المشركين والكافرين من أهل الكتاب ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدٌ﴾ أي: خصصت بالوحي وتميزت عنكم به ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ﴾ أي: يخاف المصير إليه أو يأمل لقاءه ورؤيته أو جزاءه الصالح ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾ أي: في نفسه لائقاً بذلك المرجو، وهو ما كان موافقاً لشرع الله ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ أي: من خلقه إشراكاً جلياً، كما فعله الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه، ولا إشراكاً خفياً كما يفعله أهل الرياء، ومن يطلب به أجراً من المدح وتحصيل المال والجاه».

قال (ك): «﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ﴾ أي: ثوابه وجزاءه الصالح ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾ أي^(٢): كان موافقاً لشرع الله ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ وهو الذي يراد به وجه الله وحده لا شريك له، وهذان ركنان العمل المتقبل، لا بد أن يكون خالصاً لله صواباً على شريعة رسول الله ﷺ، ويروى أن رجلاً جاء إلى عبادة بن الصامت، فقال: أنبئني عما أسألك عنه، أرأيت رجلاً يصلّي ويتغني وجه الله، ويحب أن يحمد، ويصوم يتغني وجه الله، ويحب أن يحمد، ويتصدق يتغني وجه الله، ويحب أن يحمد، ويحج يتغني وجه الله، ويحب أن يحمد، فقال عبادة: ليس له شيء، إن الله تعالى يقول: أنا خير شريك فمن كان له معي شريك فهو له كله، لا حاجة لي فيه»^(٣).

= (١٧٠) (ص ٣ - ٥)، مقالة (سبيل الله وسبل الشيطان، لا طرق في الإسلام).

(١) (١٠٦/١١ - ١٠٧).

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وهو».

(٣) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٤٤١/١٥) وفيه شهر بن حوشب وهو ضعيف، وانظر:

«تفسير ابن كثير» (٢٠٤/٩ - ٢٠٥).

سورة مريم

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ۖ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ۖ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ۖ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ۖ﴾ [٣٣] ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ۖ [٣٤] مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَنَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ۖ [٣٥] وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ۖ [٣٦] فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ [مريم: ٣٠-٣٧]

قال القاسمي في قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾: «أنطقه الله بذلك أولاً تحقيقاً للحق في شأنه، وتنزيهاً لله تعالى عن الولد رداً على من يزعم ربوبيته وبنوته ﴿ءَاتَنِي الْكِتَابَ﴾ أي: الإنجيل، ﴿وَجَعَلَنِي نَبِيًّا وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ﴾ أي: كثير الخير، حيثما وجدت أبلغ وحي ربي لتقويم النفوس وكبح الشهوات والأخذ بها هو مناط السعادة^(١) والتعبير بلفظ الماضي في الأفعال الثلاثة إما باعتبار ما سبق في القضاء^(٢) المحتوم أو جعل الآتي لا محالة كأنه وجد ﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ أي: أمرني بالعبادة وإنفاق المال مدة حياتي ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ [٣٣] أي: مستكبراً عن طاعته وأمره. ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ [٣٤] ذلك [٣٥] أي: الذي فصلت نعوته الجليلة، وخصائصه الباهرة ﴿عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [٣٦] أي: لا ما يصفه به النصارى وهو

(١) في مطبوع «تفسير القاسمي»: «السعادات».

(٢) كذا في مطبوع «تفسير القاسمي»، وفي الأصل: «كالقضاء».

تكذيب لهم فيما يزعمونه على الوجه الأبلغ والمنهاج البرهاني حيث جعله موصوفاً بأضداد ما يصفونه، ﴿قَوْلِكَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمَتُّونَ مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (٢٥) ﴿أَي: ومن هذا شأنه كيف يتوهم أن يكون له ولد، وهذا كقوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقْنَاهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (٥٩) ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنَ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ (٦٠) ﴿آل عمران: ٥٩ - ٦٠﴾، ثم أشار إلى تنمة كلام عيسى من الأمر بعبادته تعالى وحده بقوله سبحانه: ﴿وَلَيْدَ اللَّهِ رَفِيٌّ وَيُكَبِّرُ فَأَعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ (٦١) ﴿أَي: قويم، اتبعه رشد وهدى، ومن خالفه ضل وغوي﴾^(١).

فصل

قال محمد تقي الدين: الشاهد هنا في قوله تعالى: ﴿وَلَيْدَ اللَّهِ رَفِيٌّ وَيُكَبِّرُ فَأَعْبُدُوهُ﴾ فلا يعبد إلا الله، فمن عبد الملائكة أو الأنبياء كعيسى بن مريم، أو الصالحين كأمه كمن عبد الشياطين، فهو مشرك وفي الأناجيل الأربعة أدلة صريحة صرح فيها عيسى بأنه عبد الله وأن الله ربه وإلهه، انظر كتابي: «البراهين الإنجيلية على أن عيسى داخل في العبودية وبريء من الألوهية»^(٢).

(١) انظر: «تفسير القاسمي» (١١/ ١٢٠ - ١٢١).

(٢) ذكر فيه من (ص ٥) إلى (ص ١٥) نصوصاً صريحة من الأناجيل في إثبات عبودية المسيح عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام، ابتداءً بقوله: «اقرأ من أول (الفصل الرابع) من «إنجيل متى» إلى الرقم (السادس والسابع)، ففيهما التصريح بأن عيسى عبد، والله سيد ورب، لقوله في (الآية السابعة)، قد كتب أيضاً: «لا تمتحن الرب إلهك» وفي هذا (الفصل نفسه) أن الشيطان حمل المسيح وأخذ يطوف به من مكان إلى مكان، فكيف يستطيع الشيطان أن يحمل الرحمن؟! تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

ثم أمره الشيطان أن يسجد له ويعبد وأطمعه بمال الدنيا، فكيف يتجرأ الشيطان على الله بمثل هذه الجراءة؟! ولما أراد منه الشيطان ذلك أجابه المسيح بقوله، قد جاء في الكتب السابقة: (لا تسجد إلا للرب إلهك وهو وحده تعبد). انظر (الآية العاشرة) لم يسم المسيح نفسه ابن الله، فيما أعلم، وإنما كان يسمى نفسه ابن الإنسان، إلا أنه سمع تسميته بذلك فلم ينكرها - بزعم الأناجيل - ولا خصوصية له في ذلك.

ففي لغة^(١) التوراة والأناجيل، كل تقي بر يسمى ابن الله وفي (الآية التاسعة) من (الفصل =

(١) كان للهلالي عناية قوية بترجمات التوراة والإنجيل، ووجدته يذكر واحدة منها بمدح ودقة في رسالة وجهها

للعلماء الأستاذ ربحي توفيق كمال، وهي محفوظة في دار العلوم ولكن، ووقعت بينهما مباحثات في كلمات =

= (الخامس) من «إنجيل متى»: «طوبى لصانعي السلام، لأنهم أبناء الله يدعون». وجاء في (الفصل نفسه) رقم (٤٥): «لتكونوا أبناء أبيكم الذي في السماء» وفي رقم (٤٨): «فكونوا أنتم كاملين، كما أن أباكم الذي في السماء كامل». وفي (الفصل السادس) رقم (١): «ولا فليس لكم أجر عند أبيكم الذي في السماء»، وفي (الفصل السابع) رقم (٢١) ترجمة كلمة (لورد) LORD هنا، بلفظة: رب إيهاماً للناس أن المسيح هو الله!! ولكن من تأمل بقية الآية يجدها تشهد على المسيح بالعبودية، فالترجمة الصحيحة^(١) هكذا: (ليس كل أحد يقول لي: يا سيدي يدخل ملكوت السماء، ولكن الذي يفعل إرادة أبي الذي في السماء) انتهت ترجمة الآية.

وقد تقدم أن إطلاق الأب على الله جاء في مواضع لا تحصى في الإنجيل، وليس خاصاً بالمسيح، وجاء في (الفصل ١١) رقم (٣٥): «أحمدك أيها الرب رب السماء والأرض، لأنك أخفيت هذه الأشياء عن الحكماء والفهماء وألهمتها الأطفال»، وفي (الفصل الرابع عشر) رقم (٢٣): «وبعدما صرف الجموع صعد إلى الجبل منفرداً ليصلي». أقول: إذا كان هو الله أو جزءاً من الله، فكيف يصلي فالصلاة لا تكون إلا من العبد الفقير المحتاج إلى رحمة. وهكذا أخذ في سرد الأدلة واحداً تلو الآخر، معتمداً على الأناجيل بغير العربية، وبيان تقصد التحريف فيها مُنوهاً بذكر محمد ﷺ في الأناجيل مثبتاً (ص ١٤ - ١٥) من «الأناجيل» أن القائل بالوحيته عدو الله، مقررأ أنه «تستحيل الوحيته، وتضمحل خرافة الأقانيم».

= في «التوراة»، تدلل على سعة اطلاع الأستاذ ريحي، ومدى وثوق العلامة الهلالي بدقته وسعة اطلاعه في هذا الميدان، ووجدت مقالة للعلامة اللغوي النصراني أنستاس ماري الكرمل في مجلته «لسان العرب» المجلد الثامن، أيلول ١٩٣٠م الجزء التاسع (ص ٦٦٥ - ٦٧٥) بعنوان (ترجمات التوراة)، ومما جاء فيها بعد ذكره لجملة من الأخطاء في الترجمة: «وتتبع كل ما هناك من الهفوات والزلات، والهفوات أمر يطول، ويستلزم وضع كتاب ضخم قائم بنفسه، يبين فيه سبب تصحيح تلك المعلولات، أو تلك المفاسد» وقال في آخرها:

«وسوء نقل الألفاظ الاصطلاحية في كل ما جاء في هذه الترجمة يطول طولاً يخرجنا عن موضوع المجلة ويدفعنا إلى معالجة ما ليس من مباحثها فاجتزأنا بهذه الإشارة. فيعلم من هذا البسط المجلد أننا فينا حاجة ماسة إلى نسخة توراة عربية صحيحة العبارة. وإن هذه الأمنية لم تتحقق إلي الهم. أما نسخة الموصل فهي في نظرنا أحسن من نسخة بيروت وإن كانت دون هذه حسناً في الطبع والضبط والورق. وأما النسخة العربية التي عني بطبعها البروتستان فلا يمكن أن تمسك بالأيدي للفتها الأعجمية وفساد تركيب عبارتها المكتوبة بحروف هرية وهي عن العربية بعيدة بعد الصينية عنها».

(١) ذكرنا في (٣١١/١) أن الهلالي تعلم الإنكليزية على يدي بعثة تبشيرية في الهند، وطلب منها نسخة من «الإنجيل» بالإنكليزية، وقرأها وأثبت منها أن المسيح ﷺ ليس بإله، وله في ذلك كتيب «البراهين الإنجيلية». وقد نشره - قبل - في عدة مجلات، سبق ذكرها، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

﴿الباب الثاني﴾

قوله: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾ (٤١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَتَابَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا (٤٢) يَتَابَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (٤٣) يَتَابَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا (٤٤) يَتَابَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (٤٥) قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَتَابَرِهِنَّ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَأَهْجُرَنِي مَلِيًّا (٤٦) قَالَ سَلِّمْ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا (٤٧) وَأَعِزِّ لَكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا (٤٨) فَلَمَّا أَغْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا (٤٩) وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا (٥٠) [مريم: ٤١ - ٥٠]

قال (ك): «يقول تعالى لنبية محمد ﷺ: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ﴾ واتلّه» (١) على قومك هؤلاء الذين يعبدون الأصنام، واذكر لهم ما كان من خبر إبراهيم خليل الرحمن، الذين هم من ذريته، ويدعون أنهم على ملته وقد ﴿كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾ مع أبيه كيف نهاه عن عبادة الأصنام، فقال: ﴿يَتَابَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾ أي: لا ينفعك ولا يدفع عنك ضرراً ﴿يَتَابَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾ (٢)، وإن كنت من صلبك، وتراني أصغر منك لأني ولدك، فاعلم أنني قد اطلعت من العلم من الله على ما لم تعلمه أنت ولا اطلعت عليه ولا جاءك بعد ﴿فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾ أي: طريقاً مستقيماً موصلاً إلى نيل المطلوب والنجاة من المراهوب ﴿يَتَابَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ﴾ أي: لا تطعه في عبادتك هذه الأصنام، فإنه هو الداعي إلى ذلك والراضي به، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَبْنَىٰ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ (٣) [يس: ٦٠].

وقال: ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنْتًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا

(١) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير» وفي الأصل: «واتل!»

(٢) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «يقول».

﴿١٧﴾ [النساء: ١١٧] وقوله: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا﴾ أي: مخالفاً مستكبراً عن طاعة ربه، فطرده وأبعده فلا تتبعه تصر مثله ﴿يَتَّبِعْتَنِي أَنِ أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابُ رَبِّكَ﴾ عذاب (١) شركك وعصيانك لما أمرك به ﴿فَتَكُونُ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾ يعني: فلا يكون لك مولى ولا نصيراً ولا (٢) مغنياً إلا إبليس، وليس إليه ولا إلى غيره من الأمور شيء، بل اتباعك له موجب لإحاطة العذاب بك، كما قال تعالى: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَرَزَيْنَا لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَغْوَيْنَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النحل: ٦٣]، وقوله تعالى: ﴿قَالَ أَرَأَيْتُ أَنتَ عَنِ الْهَيْتِ يَكْتُمُهُمُ الْآيَةُ﴾ يقول تعالى مخبراً عن جواب أبي إبراهيم لولده (٣) فيما دعاه إليه أنه (٤): ﴿أَرَأَيْتُ أَنتَ عَنِ الْهَيْتِ﴾ يعني أما (٥) تريد عبادتها ولا ترضاها، فانت عن سبها وشتمها وعبها، فإنك إن لم تنته عن ذلك، اقتصصت منك وشتمتك وسببتك، وهو قوله: ﴿لَا تُجِئَنَّكَ﴾ قاله ابن عباس والسدي وغيره (٦). وقوله: ﴿وَأَهْجُرَنِي مَلِيًّا﴾ قال ابن عباس وغير واحد: ﴿وَأَهْجُرَنِي مَلِيًّا﴾ قال: سوياً سالماً قبل أن تصيبك مني عقوبة (٧) فعندها قال إبراهيم لأبيه ﴿سَلِّمْ عَلَيْكَ﴾ كما قال تعالى في صفة المؤمنين: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَكَبُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَّا أَعْمَلُنَا وَلَكُمُ أَعْمَلُكُمْ سَلِّمْ عَلَيْكُمْ لَا تَبْنِي إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [القصص: ٥٥] ومعنى قول إبراهيم لأبيه: ﴿سَلِّمْ عَلَيْكَ﴾ يعني: أما أنا فلا ينالك مني مكروه ولا أذى، وذلك لحرمة الأبوة ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ ذَنْبًا﴾ (٨)

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «على».

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ناصرأ و».

(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «لولده إبراهيم».

(٤) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «قال».

(٥) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «إن كنت لا».

(٦) كذا في الأصل: وعند ابن كثير: «قاله ابن عباس والسدي وابن جريج والضحاك وغيرهم»، وصواب المذكور: «وغيرهما».

وأسنده ابن جرير (٥٥٢/١٥) عن السدي وابن جريج والضحاك، وأسنده ابن أبي حاتم (٢٤١٠/٧) عن ابن عباس.

(٧) أخرجه ابن أبي حاتم (٢٤١٠/٧) رقم (١٣١٤٠)، وابن جرير (٥٥٤/١٥)، وابن المنذر، كما في «الدر المنثور» (٢٧٢/٤)، ولم أظفر إلا بإسناد ابن جرير، وهو ضعيف.

(٨) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أي:».

ولكن سأسال الله فيك أن يهديك ويغفر ذنبك ﴿إِنَّكُمْ كَانَتْ فِي حَفِيَّا﴾ قال ابن عباس وغيره: لطيفاً^(١)، أي: في أن هداني لعبادته والإخلاص له^(٢).

وقال صاحب «اللسان»: «وحفا بالرجل حفاوة وحفاوة وحفاية وتحفى به واحتفى بالغ في إكرامه»، ثم قال: «وحفى الله بك، في معنى أكرمك الله»^(٣).

«وقد استغفر إبراهيم ﷺ لأبيه مدة طويلة، وبعد أن هاجر إلى الشام، وبنى المسجد الحرام، وبعد أن ولد له إسماعيل وإسحاق ﷺ، في قوله: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ (٤) [إبراهيم: ٤١] وقد استغفر المسلمون لقرباتهم وأهلهم^(٤) من المشركين في ابتداء الإسلام»^(٥).

قال محمد تقي الدين: أنزل الله تعالى من سورة التوبة: ﴿مَا كَانَتْ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ (٦) وَمَا كَانَتْ اسْتَغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ (٧) [التوبة: ١١٣، ١١٤] وقوله: ﴿وَأَعْتَزَلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي﴾ أي: اجتنبكم وأنبرأ منكم ومن آلهتكم التي تعبدونها من دون الله، ﴿وَأَدْعُوا رَبِّي﴾ أي: وأعبد ربي وحده لا شريك له، ﴿عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ وعسى هذه موجبة لا محالة، فإنه ﷺ سيد الأنبياء بعد محمد ﷺ.

﴿فَلَمَّا أَعْتَزَلْتُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ الآية، قال (ك): «يقول تعالى: فلما اعتزل الخليل أباه وقومه^(٦) بذله الله من هو خير منهم، وهب^(٧) له إسحاق ويعقوب، يعني: ابنه وابن إسحاق، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَيَعْقُوبُ نَافِلَةٌ﴾ [الأنبياء: ٧٢] وقال: ﴿وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبُ﴾ [هود: ٧١] ولا خلاف أن إسحاق والد يعقوب وهو نص القرآن في سورة البقرة ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ

(١) أخرجه ابن جرير (٦١٤/١٠) و(٥٥٦/١٥)، وابن أبي حاتم (١٦٢٨/٥) و(٢٤١٠/٧) رقم (١٣١٤١) وعزاه في «الدر المنثور» (١٥١/٣) إلى ابن المنذر وأبي الشيخ، وهو في «صحيفة علي بن أبي طلحة» رقم (٧٨٩).

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (٢٥٠/٩ - ٢٥٢).

(٣) «لسان العرب» (١٨٧/١٤ - حفي). (٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وأهلهم».

(٥) انظر: «تفسير ابن كثير» (٢٥٣/٩).

(٦) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «في الله».

(٧) في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «ووهب».

الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِنِسِيِّهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَاللَّهُ عَابِدُكَ إِبراهيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ ﴿البقرة: ١٣٣﴾ ولهذا إنما ذكر ههنا إسحاق ويعقوب، أي: جعلنا له نسلًا وعقبًا أنبياء أقر الله بهم عينه في حياته ولهذا قال: ﴿وَكَلَّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ فلو لم يكن يعقوب قد نبى في حياة إبراهيم لما اقتصر عليه ولذكر ولده يوسف فإنه نبى أيضاً، كما قال رسول الله ﷺ، في الحديث المتفق على صحته، حين سئل عن خير الناس؟ فقال: «يوسف نبي الله ابن يعقوب نبي الله ابن إسحاق نبي الله ابن إبراهيم خليل الله»^(١)، وفي اللفظ الآخر^(٢): «أنا الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم». وقوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ ﴿٥٥﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس^(٣): يعني: الثناء الحسن، وكذا قال السدي ومالك بن أنس وقال ابن جرير^(٤): «إنما قال: ﴿عَلِيًّا﴾ لأن جميع الملل والأديان يشنون عليهم، ويمدحونهم صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين»^(٥).

فصل

قال محمد تقي الدين: في هذا الكلام فوائد:

الأولى: إن العرب الشماليين كانوا ينتسبون إلى إسماعيل وإبراهيم، ويعظمونهما، فأمر الله سبحانه نبيه محمداً ﷺ، أن يحتج عليهم بما صنع إبراهيم مع أبيه حين دعاه إلى التوحيد فأبى، فكانت العاقبة لإبراهيم وذريته، وكانت عاقبة أبيه آزر لما أصر على الشرك، الخسران المبين.

الثانية: كل من عبد غير الله تعالى من الأصنام، والأوثان، والقباب، والغائبين، والأموات، وغير ذلك من المعبودات، فإنه يعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنه شيئاً، لأن الذي يسمع جميع الأصوات ويبصر جميع المبصرات في

(١) أخرجه البخاري (٣٣٨٣)، ومسلم (٢٣٧٨) بنحوه من حديث أبي هريرة.

(٢) أخرجه الترمذي (٣١١٦) وهو حسن، وانظر: «الصححة» (١٦١٧، ١٨٦٧).

(٣) أخرجه الطبري (٥٥٧/١٥)، وعزاه السيوطي في «الدر» (٢٧٢/٤) إلى ابن المنذر وابن أبي حاتم، وهو في «تفسيره» المطبوع (٢٤١٠/٧) رقم (١٣١٤٣) دون سند، ومذكور أيضاً في «صحيفة علي بن أبي طلحة» رقم (٧٩٠).

(٤) انظر: «تفسير ابن جرير» (٥٥٧/١٥).

(٥) انظر: «تفسير ابن كثير» (٢٥٣/٩ - ٢٥٤).

كل مكان، وفي كل وقت، هو الله وحده لا شريك له، والذي يغني أي: ينفع ويضر هو الله وحده لا شريك له، فمن عبد غيره فهو خاسر في الدنيا والآخرة.

الثالثة: المراد بالعلم هنا هو الوحي، فإن الله أوحى إلى خليله إبراهيم وعلمه التوحيد وأمره بالدعوة إليه، فمن جاءه الوحي وهو كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فهو حجة عليه، سواء أكان الذي جاء به صغيراً في السن أو كبيراً، متقدماً في الزمان أو متأخراً، والمشركون الأولون والآخرون يخالفون هذا، فالأولون قالوا: ﴿اجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥] وقالوا: ﴿مَا جِئْنَا بِهَذَا فِي الْآخِرَةِ إِنَّ هَذَا إِلَّا أَنْخِلَاقٌ﴾ [٧] ﴿أُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا﴾ [ص: ٧، ٨] وقالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] فرد الله تعالى عليهم بقوله: ﴿أَمَرَ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ [الزخرف: ٣٢]، وأمر الله رسوله ﷺ أن يقول: ﴿إِنَّمَا أَنذَرُكُمْ بِالْوَحْيِ﴾ [الأنبياء: ٤٥] وقال تعالى: ﴿فَاسْتَسْيِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [٤٣] ﴿وَأَنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ [الزخرف: ٤٣، ٤٤]، والمشركون والمبتدعون المتأخرون يقولون مثل ذلك: لم نزل نرى العلماء ونسمع حديثهم، وما أحد منهم قال لنا: لا تبناوا القباب على قبور الصالحين، ولا تذبحوا لهم، ولا تنذروا لهم، ولا تستغيثوا بهم، ولا تقيموا لهم مواسم وأعياداً، ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا أَنْخِلَاقٌ﴾ [ص: ٧] فأشبهه المشركون المتأخرون المشركين المتقدمين في أقوالهم وأفعالهم وعداوتهم للتوحيد واتباع السنة، كما قال تعالى: ﴿تَشَبَّهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [البقرة: ١١٨].

الرابعة: إن كل من عبد غير الله تعالى فهو عابد للشيطان، ولو عبد الملائكة والأنبياء.

الخامسة: إن كل من أصر على الشرك يمسّه عذاب من الرحمن في كل زمان ومكان، ولا يجد لنفسه ولياً ولا نصيراً.

السادسة: إن المشركين في كل زمان ومكان إذا رأوا إماماً مصلحاً يدعوهم إلى توحيد الله تعالى وترك عبادة آلهتهم وقال لهم: إن آلهتكم لا تضر ولا تنفع، ولا تسمع دعاءكم ولا تستجيب لكم، ولو سألتموها شربة ماء ما قدرت أن تعطيكُم قطرة واحدة، قالوا: هذا يسب آلهتنا وينتقصها، كما قال أبو إبراهيم لإبراهيم، وكما قالت قريش لمحمد رسول الله ﷺ، وكما يقول المشركون اليوم إذا قيل لهم: هذه القباب التي بنيتموها على القبور وصرتم تعبدونها بالذبح والنذر

والاستغاثة والدعاء، كل ذلك يوجب غضب الله عليكم، كما قال النبي ﷺ، فيما رواه مالك في «الموطأ»: «اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»^(١). يقولون: هذا يسب الأولياء ويتقصهم.

والأولياء قسمان: أولياء الرحمن، وأولياء الشيطان، فأولياء الرحمن: يكرهون بناء القباب على القبور، ويكرهون عبادتها، فإذا نهينا الناس عن البناء على القبور وعبادتها فإن عملنا هذا يحبه الله ورسوله ويحبه أولياء الرحمن - وهم: المؤمنون - وإنما يكرهه أولياء الشيطان، ونحن لا نخافهم ولا نبالي ببغضهم، قال تعالى في سورة آل عمران: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾ [آل عمران: ١٧٥] أي: يخوفكم أوليائه: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا اللَّهَ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

السابعة: من سفاهة عقول المشركين في كل زمان ومكان، أنهم يزعمون أن آلهتهم تتصرف في السموات والأرض، وتحيي وتميت، وتغني وتفقر، فإذا جاءهم نبي، أو أتباع نبي، وقالوا لهم: إن آلهتكم لا تنفع ولا تضر، ولا تعطي ولا تمنع، يغضبون، ولا يتركون الانتقام لتلك الآلهة، بل يعينونها بأيديهم وألسنتهم، ولم يشعروا أن هذا اعتراف منهم بعجزها، فأزر أبو إبراهيم أراد أن ينتقم لآلهته من إبراهيم، ولم يكتف بانتقامها هي؛ لسفاهة رأيه وتناقضه.

ولما حججت أول حجة سنة ١٣٤١هـ في زمان الشريف حسين، لقيت رجلاً من بلادنا، فيلاًياً من الغرفة، فدعاني للعشاء، وكان بواباً للملك حسين، فجاءني بطعام ملكي رفيع، وقال لي: يا ولد احفظ دينك وعقيدتك، فإن بلاد المشرق فيها عقائد كثيرة، وأكثرها ضلال، أما بلادنا المغرب فعقيدتهم واحدة على مذهب أهل السنة والجماعة، ومن أغرب هذه الفرق وأعجبها فرقة تسمى (الوهابية)^(٢)! وهم في شرق مملكة الحجاز، مجاورون لهذه المملكة، فهؤلاء يكرهون النبي، ولا يحبون أن يسمعوا اسمه، وإذا سمعوه غضبوا وقتلوا من ذكره لهم، وهم لا يقولون: لا إله إلا الله محمد رسول الله كما نقول نحن، بل يقولون بدل محمد رسول الله: لا إله إلا الله مالك يوم الدين، فأظهرت له التعجب، ولم يدر أنني من هذه الفرقة!!

(١) سبق تخريجه.

(٢) انظر - لزماً - ما قدمناه في (١/٦٥) حول هذه التسمية.

وبعد ذلك بقليل استولى الملك عبد العزيز بن سعود على الحجاز، ولما حججت الحجة الثانية، سنة ١٣٤٥هـ، أنزلني الملك عبد العزيز - رحمة الله عليه - في دار الضيافة، فبحثت عن ذلك الرجل الفلالي، فوجدته ودعوته إلى دار الضيافة الخاصة بي، فتغدى معي، فعرف حينئذ أنه لما كان ينصحيني كان مخطئاً مغفلاً، فسكت وكتم ما في نفسه.

فلما تغدينا ذهبنا إلى المسجد الحرام، فوجدنا الشيخ عبد الظاهر أبا السمح^(١) جالساً على الحصباء، وهو إمام المسجد الحرام وخطيبه، وسلمت عليه وجلست معه، فلما جلس رفيقي قال: يا رسول الله!! فقال الشيخ عبد الظاهر: قل: يا الله، فقال: ما أقول: إلا يا رسول الله، يا رسول الله، يا رسول الله، اقطع رأسي إن قدرت، أنا قلت: يا رسول الله أمام الأمير محمد أخي الملك عبد العزيز، ثم التفت إليّ، وقال: هذا الشر كله ما أصابني إلا بسببك! لا أرافك أبداً! فتبعته وصرت أتلف مع لعل الله أن يهديه فهرب ولم أره بعد ذلك.

وحدثني الشريف محمد من أهل مكة في تلك السنة نفسها سنة ١٣٤١، قال لي: كنت مسافراً من المدينة إلى مكة، وكان صاحب البعير الذي أركبه نجدياً وهابياً، فركب خلفي ليستريح فتنهدت وقلت: يا رسول الله، فلطمني لطمة أفقدتني صوابي وكدت أسقط من ظهر البعير، وقال لي: يا حمار ما تقول: يا الله؟! قال: فسكتُ على مضض.

ولما وصلت إلى مكة ودخلت بيتي تركته على الباب ينتظر الكراء، فجاءني أولادي يسلمون علي، فقلت لهم: يا أولادي! إن هذا النجدي الذي عند الباب لطمني لطمة ما أصبت بمثلها في عمري كله، لا معلم المكتب، ولا والدي، ولا أحد لطمني مثل تلك اللطمة، فأحضروا عصياً، وقالوا له: ادخل، فلما دخل ضربوه حتى طاب خاطري وكففتهم عنه، فقلت له: أيها الشرقي، هذا جزاء اللطمة التي لطمتني. وينبغي أن أنبه هنا على أن ذلك الأخ النجدي مع حسن نيته ارتكب خطأ، فهو يعلم أن الملك حسيناً كان يعادي أهل نجد، وقد منعهم من الحج اثنتي عشرة سنة، فكان ينبغي له أن يتلطف مع ذلك الرجل، ويقول له: يا أخي صل

(١) نشر العلامة الهلالي في مجلته «لسان الدين» السنة الأولى، الجزء السادس، محرم ١٣٦٥هـ - ديسمبر ١٩٤٦م (ص ١٥ - ١٩) مقالة عن صديقه عبد الظاهر، وهي بعنوان (لمحة من ترجمة الأستاذ أبي السمح إمام الحرم المكي)، وهي مودعة في كتابي «مقالات الهلالي» يسر الله نشره بخير وعافية.

على النبي واسأل حاجتك من الله واستغث به وحده، وتوسل إلى الله بمحبة النبي واتباع النبي والصلاة على النبي، فإن الله لا يرضى أن يدعى معه غيره، والنبي ﷺ لا يرضى بذلك، قال تعالى في آخر سورة النحل: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ والله يغفر لنا وله.

الثامنة: لما دعا إبراهيم الخليل أباه إلى الإسلام وامتنع من قبوله وغضب على إبراهيم وتوعده بالعقاب اعتزله، أي: تبرأ منه ومن دينه، وهذا هو الواجب على الموحّد إذا دعا أقاربه إلى توحيد الله تعالى وامتنعوا من قبوله أن يعلن براءته من شركهم، فإن الله تعالى يعوضه خيراً منهم، كما عوض إبراهيم بإسحاق ويعقوب، وبالمال الكثير، وستأتي زيادة على هذا في (سورة الممتحنة) إن شاء الله.

الباب الثالث

قوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾ (٨١) كَلَّا

سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا (٨٢) [مريم: ٨١، ٨٢]

قال (ك): «يخبر تعالى عن الكفار المشركين بربهم أنهم اتخذوا من دون الله (١) آلهة لتكون تلك الآلهة عِزًّا يعتزّون بها ويستنصرونها (٢)، ثم أخبر أنه ليس الأمر كما زعموا، ولا يكون ما طمعوا، قال: ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ﴾ أي: يوم القيامة ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ أي: بخلاف ما ظنوا فيهم، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَفِلُونَ﴾ (٥) وَإِذَا حُيِّرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ (٦) [الأحقاف: ٥، ٦]» (٣).

فصل

قال محمد تقي الدين: تقرر وتكرر في كتاب الله تعالى أن الآلهة أي: كل من عبد من دون الله يتبرأ من عابديه يوم القيامة، ويكون عدوًّا لهم كعيسى بن مريم والملائكة، وسيأتي مزيد على هذا إن شاء الله في (سورة سبأ)، وفي (سورة فاطر)، وفي (سورة الأحقاف).

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «دونه».

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «بهم ويستنصرونهم».

(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (٢٩٤/٩).

سُورَةُ طه

الباب الأول

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿طه﴾ مَا أُنزِلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴿٢﴾ إِلَّا
 نَذِيرَةً لِّمَن يَخْشَى ﴿٣﴾ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى ﴿٤﴾
 الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴿٥﴾ لَمَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا
 بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى ﴿٦﴾ وَإِن يُجْهَر بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾
 اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴿٨﴾ [طه: ١ - ٨]

قال (ك): «قد^(١) تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أول سورة البقرة بما أغنى عن إعادته، وقال جويبر عن الضحاك: لما أنزل الله القرآن على رسوله الله ﷺ، قام به هو وأصحابه، فقال المشركون من قريش: ما أنزل هذا القرآن على محمد إلا ليشقى، فأنزل الله تعالى: ﴿طه﴾ مَا أُنزِلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴿٢﴾ إِلَّا نَذِيرَةً لِّمَن يَخْشَى ﴿٣﴾»^(٢).

فليس الأمر كما زعمه المبطلون، بل من آتاه الله العلم فقد أراد به خيراً كثيراً، كما ثبت في «الصحيحين» عن معاوية قال: قال رسول الله ﷺ: «من

(١) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».

(٢) أخرجه أبو الشيخ في «تفسيره» - ومن طريقه الواحدي في «أسباب النزول» (ص ٢٠٥) - وإسناده ضعيف جداً، جويبر متروك. وورد نحوه عن ابن عباس عند ابن جرير (١٦/ ١٠٢)، وعزاه في «الدر» (٥٤٩/٥) لابن مردويه، وإسناده ضعيف جداً.

وورد عن علي بخلافه عند البزار في «البحر الزخار» (٩٢٦)، وإسناده ضعيف، ونحوه في «الشعب» (١٤١٦)، ط. الهندية عن ابن عباس، ومن مرسل الربيع بن أنس، أسنده القاضي عياض في «الشفاء» (٤١/١ - ٤٢)، وعزاه في «الدر» لعبد بن حميد وابن المنذر، وروي على وجوه وألوان وضروب أخرى، لم أر في أسانيد ما يركن إليه، ويعتمد عليه، والله أعلم.

يرد الله به خيراً يفقهه في الدين»^(١). ما أحسن الحديث الذي رواه الحافظ أبو القاسم في ذلك، حيث قال بسنده عن ثعلبة بن الحكم قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى للعلماء يوم القيامة إذا قعد على كرسيه لقضاء عبادته: إني لم أجعل علمي وحكمتي فيكم إلا وأنا أريد أن أغفر لكم على ما كان منكم ولا أبالي»^(٢). إسناده جيد، (وثعلبة بن الحكم). هذا، هو: (الليثي). ذكره أبو عمر في «استيعابه»^(٣) وقال: «نزل البصرة، ثم تحول إلى الكوفة، وروى عنه سماك بن حرب».

وقال قتادة: ﴿مَا أُنزِلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ لا والله ما جعله شقاء ولكن جعله رحمة ونوراً ودليلاً إلى الجنة، ﴿إِلَّا نَذْكِرْكَ لِمَنْ يَخْشَى﴾^(٤) إن الله أنزل كتابه وبعث رسوله^(٥) رحمة رحم بها عباد، ليتذكر ذاكر، ويستفح رجل بما سمع من كتاب الله، وهو ذكر أنزل الله فيه حلاله وحرامه، وقوله: ﴿تَزِيلَا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْفُلَى﴾ أي: هذا القرآن الذي جاءك يا محمد هو^(٦) تنزيل من ربك كل شيء ومليكه القادر على ما يشاء، الذي خلق الأرض بانخفاضها وكثافتها، وخلق السموات العلى في ارتفاعها ولطافتها.

وقوله: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾^(٧) تقدم الكلام على ذلك في سورة الأعراف، بما أغنى عن إعادته أيضاً، وإن المسلك الأسلم في ذلك طريقة السلف، إمرار ما جاء في ذلك من الكتاب والسنة من غير تكييف ولا تحريف، ولا تشبيه ولا تعطيل ولا تمثيل، وقوله: ﴿لَمْ يَأْتِ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا

(١) أخرجه البخاري (٣١١٦)، ومسلم (١٠٣٧).

(٢) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٨٤/٣) رقم (١٣٨١) وعنه أبو نعيم في «معركة الصحابة» (٤٨٧/١) رقم (١٣٨٦) من حديث ثعلبة بن الحكم، وذكره الهيثمي في «المجمع» وقال: «رواه الطبراني في الكبير ورجاله موثقون! وتابعه السيوطي في «اللآلئ المصنوعة» (١/٢٢١)! وفي إسناده العلاء بن مسلمة الرواسي، قال ابن حبان: «يروي الموضوعات عن الثقات»، وقال ابن طاهر: «كان يضع الحديث»، وقال الأزدي: «لا تحل الرواية عنه». نعم؛ للحديث شواهد، ولكنها شديدة الضعف. وانظر: «السلسلة الضعيفة» (٨٦٧).

(٣) انظر: «الاستيعاب» (ص ١٠٦، ط. دار الأعلام).

(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «رسله».

(٥) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».

(٦) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».

يَنْهَمَا وَمَا نَحَتَ الثَّرَى ﴿١١﴾ أي: الجميع في ملكه وفي قبضته وتحت تصرفه^(١) ومشيتته وإرادته وحكمه، وهو خالق ذلك ومالكة وإلهه لا إله سواه ولا رب غيره، وقوله: ﴿وَمَا نَحَتَ الثَّرَى﴾ المراد بالثرى: الأرض^(٢).

وقوله: ﴿وَلِنْ تَجْهَر بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ ﴿٧﴾ قال البيضاوي^(٣): «أي: وإن تجهر بذكر الله ودعائه فاعلم أنه غني عن جهرك، فإنه سبحانه يعلم السر وأخفى منه، وهو ضمير النفس وفيه تنبيه على أن شرع الذكر والدعاء والجهر فيهما ليس لإعلام الله، بل لتصوير الذكر في النفس^(٤) ورسوخه فيها، ومنعها عن الاشتغال بغيره وهضمها بالتضرع».

وقوله: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ ﴿٨﴾ أي: الذي أنزل عليك القرآن هو^(٥) الذي لا إله إلا هو، ذو الأسماء الحسنى، والصفات العلى، وقد تقدم بيان الأحاديث الواردة في الأسماء الحسنى في أواخر سورة (الأعراف) والله الحمد والمنة^(٦).

قال محمد تقي الدين: وما أنا ذا أذكر شيئاً مما ذكره الحافظ (ك) مما يتعلق بالأسماء الحسنى في سورة الأعراف:

«عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لله تسعة وتسعين اسماً مائة إلا واحداً، من أحصاها دخل الجنة وهو وتر يحب الوتر»، أخرجاه في «الصحيحين»^(٧).

ثم ذكر أن الترمذي رواه في «جامعه»^(٨)، وزاد ذكر الأسماء التسعة

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «تصرفه».

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (٩/ ١١٠ - ١١٢) بتصرف.

(٣) انظر: «تفسير البيضاوي» (٢/ ٤٣).

(٤) في مطبوع «تفسير البيضاوي»: «النفس بالذكر».

(٥) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الله».

(٦) انظر: «تفسير ابن كثير» (٩/ ٣١٥).

(٧) أخرجه البخاري (٦٤١٠)، ومسلم (٢٦٧٧) وفصلت في تخريجه في تعليقي على «الحنائيات» (١٢٨).

(٨) أخرجه الترمذي (٣٥٠٧)، وابن خزيمة في «صحيحه» - كما في «التلخيص الحبير» (٤/ ١٩٠) - وابن منده في التوحيد (٢٣٢، ٢٤٥، ٢٦٠، ٣٢٢، ٣٦٦) والزجاج في «تفسير أسماء الله الحسنى» (ص ٢)، وأبو بكر الإسماعيلي في «معجمه» (٢٢٧، ٢٢٨، ٢٢٩)، =

= وابن حبان (٨٠٨)، والطبراني في «الدعاء»، والحاكم في «معرفة علوم الحديث» (ص ١٤٧)، وفي «المستدرک» (١٦/١)، والبغوي (١٢٥٧)، والبيهقي (٢٧/١٠) وفي «الأسماء والصفات» (٥) وفي «الاعتقاد» (١٨ - ١٩) و«الدعوات الكبير» (٢٦٢)، و«الشعب» (١٠٢)، وأبو نعيم في «جزء طرق حديث: إن لله تسعة وتسعين اسماً» رقم (١٣ - بتحقيقي)، وأبو إسماعيل الهروي في «الأربعين في دلائل التوحيد» (٦)، وعبد الغني المقدسي في «التوحيد» رقم (٢٤)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٢٤/ ١٣٨ - ١٣٩)، والمزي في «تهذيب الكمال» (١٣/ ١٩٤ - ١٩٥)، وابن حجر في «جزئه في أسماء الله الحسنى» رقم (٢٩ - ٣٤ - بتحقيقي) من طريقين عن الوليد بن مسلم: ثنا شعيب بن أبي حمزة عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة رفعه.

قال الترمذي: «هذا حديث غريب، حدثنا به غير واحد عن صفوان بن صالح، ولا نعرفه إلا من حديث صفوان بن صالح، وهو ثقة عند أهل الحديث، وقد روى هذا الحديث من غير وجه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ، ولا نعلم في كثير شيء من الروايات له إسناد صحيح ذكر الأسماء إلا في هذا الحديث. وقد روى آدم بن أبي إياس هذا الحديث بإسناد غير هذا عن أبي هريرة عن النبي ﷺ، وذكر فيه الأسماء، وليس له إسناد صحيح».

قلت: لم يتفرد به صفوان عن الوليد بن مسلم، فقد تابعه موسى بن أيوب النصيبی، وثقه العجلي في «تاريخ الثقات»: رقم (١٦٥٥ - بترتيب الهيثمي)، وقال عنه أبو حاتم في «الجرح والتعديل» (١٣٤/١ - ١٣٥) رقم (٦٠٩): «صدوق».

أخرجه من طريقه الحاكم في «المستدرک» (١٦/١)، و«معرفة علوم الحديث» (١٤٨)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٥)، و«الدعوات الكبيرة» رقم (٢٦٢)، وابن منده (٢/ ٨٩) رقم (٢٣٢)، ومن طريقه: ابن حجر في «جزئه» رقم (٣٤).

قال الحاكم عقبه: «هذا حديث قد خرجاه في «الصحيحين» بأسانيد صحيحة، دون ذكر الأسامي فيه، والعلة فيه عندهما: أن الوليد بن مسلم تفرد بسياقته بطوله وذكر الأسامي فيه ولم يذكرها غيره، وليس هذا بعلة!! فإني لا أعلم اختلافاً بين أئمة الحديث أن الوليد بن مسلم أوثق وأحفظ وأعلم وأجل من أبي اليمان وبشر بن شعيب وعلي بن عياش وأقرانهم من أصحاب شعيب!!»

كأنه يريد أن هؤلاء روه عن شعيب بدون سياق الأسماء - وفصلت بيان ذلك في تعليقي على «جزء أبي نعيم» رقم (١٢) - بخلاف الوليد، ولا شك أن الزيادة من الثقة مقبولة ولا سيما إذا كان حافظاً فليست العلة عندهما مطلق التفرد بل احتمال كون السياق مدرجاً من بعض الرواة، ويؤيده مخالفة روايات في سياق الأسماء، وبيننا هذه المخالفة في تعليقنا على «جزء أبي نعيم» الأرقام (١٨، ٢٠ - مهم - ٥٢).

بل وقع فيه اختلاف بين الرواة أنفسهم عن صفوان، ففي رواية جعفر الفريابي «المانع»: بدل «الرافع»، وفي رواية الطبراني: «القائم الدائم» بدل «القباض الباسط» و«الشديد» بدل =

= «الرشيذ» وقدم وأخر كثيراً ووقع عنده: «الأعلى المحيط مالك يوم الدين»، ولم يقع عنده: «الودود المجيد» ولا «الحكيم» وفي روايته: «المغيث»، بدل «المقيت» ولم يقع عنده: «الحليم» وأثبت في مطبوع رواية الطبراني «المجيد»، والصواب أنها «المجيب». قال البيهقي في «الأسماء والصفات» (٨): «ويحتمل أن يكون التفسير وقع من بعض الرواة، وكذا في حديث الوليد بن مسلم ولهذا الاحتمال ترك البخاري ومسلم إخراج حديث الوليد في «الصحيح».

ونقله عبد العزيز النخشي^(١) عن كثير من العلماء، كما في «فتح الباري»: (٢١٥/١١) وفيه أيضاً: «وليست العلة عند الشيخين تفرد الوليد فقط، بل الاختلاف فيه، والاضطراب، وتدليسه، واحتمال الإدراج».

ونقل عبد الغني المقدسي في «التوحيد» (ص ٥٠) عن النخشي قوله: «ويقال: إن هذه الأسماء إنما جمعها وأخرجها الوليد بن مسلم من كتاب الله ﷻ، ورواها في الحديث، ولم تكن في الحديث، وإنما الحديث هو الذي رواه أبو اليمان، والله أعلم».

قلت: أخرج عثمان بن سعيد الدارمي في «الرد على المريسي» (١٢ - ١٣) من طريق هشام بن عمار قال: حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنا سعيد بن عبد العزيز: «لله تسعة وتسعون اسماً من أحصاها كلها دخل الجنة» وقال: «وكلها في القرآن: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ...﴾... وسرد الأسماء».

وهذا يؤكد أن سرد الأسماء في الحديث من قول سعيد، أدرجه الوليد في متن الحديث عن شيخ له شامي هو التنوخي الدمشقي، ثقة من أتباع التابعين، اختلط في آخر عمره. وقد سبق إلى هذا الاحتمال شيخ الإسلام ابن تيمية في «مجموع الفتاوى» (٣٧٩/٦) قال رحمه الله تعالى: «وقد اتفق أهل المعرفة بالحديث على أن هاتين الروایتين ليستا من كلام النبي ﷺ، وإنما كل منهما من كلام بعض السلف؛ فالوليد ذكرها عن بعض شيوخه الشاميين كما جاء مفسراً في بعض طرق حديثه؛ ولهذا اختلفت أعيانها عنه، فروى عنه إحدى الروايات من الأسماء بدل ما يذكر في الرواية الأخرى؛ لأن الذين جمعوها قد كانوا يذكرون هذا تارة وهذا تارة واعتقدوا - هم وغيرهم - أن الأسماء الحسنى التي من أحصاها دخل الجنة ليست شيئاً معيناً، بل من أحصى تسعة وتسعين اسماً من أسماء الله دخل الجنة أو: إنها وإن كانت معينة؛ فالاسمان اللذان يتفق معناهما يقوم أحدهما مقام صاحبه، كالأحد والواحد؛ فإن في رواية هشام بن عمار عن الوليد بن مسلم عنه، رواها عثمان بن سعيد «الأحد» بدل «الواحد» و«المعطي» بدل «المغني» وهما متقاربان، وعند الوليد هذه الأسماء بعد أن روى الحديث عن خلود بن دعلج عن قتادة عن ابن سيرين عن أبي هريرة.

=

(١) عبارته في تخريجه ل«الحائثيات» رقم (٤٨): «ويقال: إن هذه الأسماء إنما جمعها وأخرجها الوليد بن مسلم من كتاب الله ﷻ، ورواها في الحديث، ولم تكن في الحديث».

ثم قال هشام: وحدثننا الوليد: حدثنا سعيد بن عبد العزيز مثل ذلك، وقال: «كلها في القرآن ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ...﴾...» مثل ما ساقها الترمذي، لكن الترمذي رواها من طريق صفوان بن صالح، عن الوليد عن شعيب، وقد رواها ابن أبي عاصم، وبين ما ذكره هو والترمذي خلاف في بعض المواضع؛ وهذا كله مما يبين لك أنها من الموصول المدرج في الحديث عن النبي ﷺ في بعض الطرق، وليست من كلامه.

وقال شيخ الإسلام في «مجموع الفتاوى» (٩٦/٨ - ٩٧) أيضاً: «والحديث الذي في عدد الأسماء الحسنی الذي يذكر فيه: المتقم» فذكر في سياقه: «... البر، التواب، المنتقم، العفو، الرؤوف...» ليس هو عند أهل المعرفة بالحديث من كلام النبي ﷺ، بل هذا ذكره الوليد بن مسلم عن سعيد بن عبد العزيز - أو عن بعض شيوخه - ولهذا لم يروه أحد من أهل الكتب المشهورة إلا الترمذي، رواه من طريق الوليد بن مسلم يساق، ورواه غيره باختلاف الأسماء وفي ترتيبها يبين أنه ليس من كلام النبي ﷺ، وسائر من روى هذا الحديث، عن أبي هريرة، ثم عن الأعرج، ثم عن أبي الزناد، لم يذكروا أعيان الأسماء، بل ذكروا قوله ﷺ: «إن لله تسعة وتسعين اسماً، مئة إلا واحداً، من أحصاها دخل الجنة» وهكذا أخرجه أهل «الصحيح»، كالبخاري ومسلم وغيرهما، ولكن روي عدد الأسماء من طريق أخرى من حديث ابن سيرين عن أبي هريرة، ورواه ابن ماجه، وإسناده ضعيف، يعلم أهل الحديث أنه ليس من كلام النبي ﷺ وليس في عدد الأسماء الحسنی عن النبي ﷺ، إلا هذان الحديثان!!

وكلاهما مروى من طريق أبي هريرة، وهذا مبسوط في موضعه.

وقال أيضاً في «مجموع الفتاوى»: (٤٨٢/٢٢): «إن التسعة والتسعين اسماً لم يرد في تعيينها حديث صحيح عن النبي ﷺ، وأشهر ما عند الناس فيها حديث الترمذي الذي رواه الوليد بن مسلم عن شعيب بن أبي حمزة، وحفاظ أهل الحديث يقولون: هذه الزيادة مما جمعه الوليد بن مسلم عن شيوخه من أهل الحديث، وفيها حديث ثانٍ أضعف من هذا، رواه ابن ماجه، وقد روي في عددها من جمع بعض السلف».

وقال ابن كثير في «تفسيره»: (٢٠/١): «وجاء تعددها في رواية الترمذي وابن ماجه، وبين الروایتين اختلاف زيادة ونقصان»، وقال أيضاً فيه (٤٦١/٦ - ٤٦٣): «والذي عول عليه جماعة من الحفاظ: أن سرد الأسماء في هذا الحديث مدرج فيه، وإنما ذلك كما رواه الوليد بن مسلم وعبد الملك بن محمد الصنعاني، عن زهير بن محمد أنه بلغه عن غير واحد من أهل العلم أنهم قالوا ذلك، أي: إنهم جمعوها من القرآن، كما ورد عن جعفر بن محمد وسفيان بن عيينة وأبي زيد اللغوي، والله أعلم».

ونقله عنه الشوكاني في «تحفة الذاكرين» (٥٤) وذكر قبل ذلك أن حديث الترمذي قال فيه النووي في «الأذكار»: «حديث حسن!! قلت: نعم كذا قال في «الأذكار» (٩٤)!! وقال الشوكاني أيضاً: «وإن الحاكم وابن حبان صححا!!

قلت: صححه الحاكم لشواهده!! ثم قال الشوكاني: «ولا يخفأك أن هذا العدد قد =

= صححه إمامان وحسنه إمام، فالقول بأن بعض أهل العلم جمعها من القرآن غير سديد! ومجرد بلوغ واحد أنه رفع ذلك لا ينتهز لمعارضة الرواية ولا تدفع الأحاديث بمثله». قلت: وفي كلامه مناقشات:

الأولى: نعم، كلامه صحيح!! لو سلم مما ذكر آنفاً من النظر في سائر طرق الحديث والانتباه إلى الاختلاف والاضطراب والتدليس من قبل الرواة.

الثانية: ليس التصحيح والتحسين قائماً على القلة والكثرة، وإنما هو وفق القواعد المقررة عند أهل العلم المختصين بذلك.

الثالثة: إن ابن حبان والحاكم متساهلان في التصحيح، أما النووي فصنعتة تحقيق الأقوال الواردة في الفقه الشافعي، وليس له قدم راسخة في علم الحديث، وصدق السيوطي عندما قال فيه في «المنهج السوي»: «كانت تصنيفه تحصيلاً، وتحصيله تصنيفاً» أو ما معناه، ولذا أمر هو تلميذه ابن العطار بغسل ألف كراس من كتبه، كما صرح به في «تحفة الطالبين»: (٩٥ - بتحقيقنا)، رحمه الله رحمة واسعة.

وانظر تزمة مناقشة كلام الحاكم في تعليقنا على «جزء أبي نعيم» رقم (٥٢) مفصلاً.

الرابعة: لم ينفصل البحث مع الشوكاني رحمته الله بالقول بتصحيح الحديث، وإنما رد حجة واحدة لمضعفيه، بدليل قوله في آخر كلامه عليه: «وفي إسناده ضعف، وفي الباب غير ما ذكر وقد أطال الكلام أهل العلم على الأسماء الحسنی، قال ابن حزم: جاءت في إحصائها أحاديث مضطربة لا يصح منها شيء أصلاً». قلت: كلامه في «المحلى» (٣١/٨) فانظره فيه كاملاً.

والعجب من الأستاذ رجائي بن محمد المصري المكي، إذ نقل في رسالته «الترشيد في اعتبار حديث الأسماء برواية الوليد»: (٤٦ وما بعدها) تحت عنوان «ذكر من رجح قبول حديث أبي هريرة الذي ذكر فيه تفصيل الأسماء التسعة والتسعين برواية الوليد بن مسلم» تصحيحه أو قبوله عن علي بن المديني، وصدقة بن الفضل أبي الفضل المروزي، وأبي عيسى الترمذي وابن خزيمة وابن حبان والحاكم والنووي والبوصيري وابن حجر والشوكاني والقرطبي والرازي!!

ولم يورد كلاماً لأول اثنين عن الحديث، وإنما اكتفى بنقل توثيق الوليد عنهما!! ولا يستلزم ذلك أنهما يصححان أحاديثه كلها! وإلا فيلزمه القول: بأن كل من وثقه - كأحمد وأبي حاتم وأبي زرعة الرازيين وأبي مُشهر وغيرهم - يقولون بصحة هذا الحديث!! وأنى له نقل ذلك عنهم!! لا سيما وأن الوليد مدلس تدليس التسوية، وهذا النوع من التدليس يسمى عند المتقدمين (تجويداً) فيقولون: جوده فلان، يريدون ذكر فيه من الأجواد وحذف الأدنى، وسماء المتأخرون (تدليس التسوية) وذلك أن المدلس الذي سمع الحديث من شيخه الثقة عن ضعيف عن ثقة، يسقط الضعيف من السند، ويجعل الحديث عن شيخه الثقة عن الثقة الثاني بلفظ محتمل، فيستوي الإسناد كله ثقات، وهو شر أنواع التدليس وأفحشها؛ لأن شيخه - وهو الثقة الأول - ربما لا يكون معروفاً بالتدليس، فلا يحترز =

الواقف على السند عن عنعنه وأمثالها من الألفاظ المحتملة التي لا يقبل مثلها من المدلسين، ويكون هذا المدلس الذي يحتوز من تدليسه قد أتى بلفظ السماع الصريح عن شيخه، فأمن بذلك من تدليسه وفي ذلك غرر شديد! ولا يقال في مثل هذا النوع: وقد صرح بالتحديث!! لا بد من التصريح بالتحديث من قبل كل من فوق المدلس.

والنصوص في تدليس الوليد تدليس التسوية كثيرة لا تخفى على طالب الحديث. والمتأمل في كلام ابن حجر على الحديث في «الفتح» - ولم ينقل الأستاذ رجائي إلا منه - و«التلخيص» يجد أنه يقول: بأن سرد الأسامي من إدراج الوليد! وقد أملى عدة مجالس يثبت ذلك بالتفصيل، نشرناه على حدة، والله الحمد والمنة.

وكذا البوصيري: فإن كلامه صريح بتضعيف هذه الرواية في «مصباح الرجاجة»: (٢٠٧/٣) - (٢٠٨) وتعلق المذكور بقوله: «وطريق الترمذي أصبح شيء في هذا الباب!! ولا يفهم من ذلك أنه يصححه! والأعجب من ذلك كله: عد الترمذي في سلك مصححي الحديث أو قابليه وقد قرأت قوله في «جامعه» (٥٣١/٥) اتفاقاً فيه: «ليس له إسناده صحيح!!»

أما الرازي، فقال في كتابه «لوامع البينات شرح أسماء الله والصفات» (٨٤ - ٨٥): «وإن كثيراً من العلماء سلموا أن هذه الرواية المشتملة على ذكر الأسماء ليست في غاية القوة، إلا أن هذه الأسماء والصفات لما كان أكثرها مما نطق به القرآن، والأحاديث الصحيحة، ودل العقل على ثبوت مدلولاتها بأسرها في حق الله تعالى كان الأولى قبول هذا الخبر».

قلت: أسماء الله تعالى وصفاته توقيفية، فما دل النص عليها منها آمناً به، واعتدناه، والمبحث في الأسماء الواردة في الحديث: هل هي من إدراج الرواة، واستنبطوها من القرآن أم نطق بها المعصوم صلوات الله وسلامه عليه، فجواب الرازي المذكور لا يفيد شيئاً من ناحية الصنعة الحديثية مع الإشارة إلى دذنته حول ضعف الحديث، وعدم ثبوته وإن لم يقطع بذلك.

أما القرطبي فقد صحح الحديث في كتابه «الأسنى» كما ذكر في «تفسيره» (٣٢٥/٧)، وسبقه ابن العربي المالكي في «أحكامه» (٨٠٤/٤) بناءً على وجوده في «صحيح الترمذي»!! وقد صرح بذلك ابن العربي، فقال (٨١٦/٤): «ولا يدعون أحد منكم إلا بما في الكتب الخمسة، وهي كتاب «البخاري»، و«مسلم»، و«الترمذي»، و«أبي داود»، و«النسائي»، فهذه الكتب هي بدء الإسلام. وقد دخل فيها ما في «الموطأ» الذي هو أصل التصانيف، وذروا سواها، ولا يقولن أحد: أختار كذا، فإن الله قد اختار له وأرسل بذلك إلى الخلق رسوله...».

وفي إطلاق هذا الكلام نظراً إذ ما في عدا «الصحيحين» الحسن والضعيف أيضاً، ورحم الله العراقي حين قال في «ألفيته» فيمن سمي «جامع الترمذي»: «صحيحاً».

ومن عليها أطلق الصحيحاً فقد أتى تساهلاً صريحاً

ووجدت ابن حجر في «الفتح» (٢١٧/١١) ينقل عنه قوله: «يحتمل أن تكون الأسماء =

والتسعين وقال: «حديث غريب»، ثم رجَّح أن ذكر الأسماء مدرج من كلام بعض الرواة ولا يصح رفعه إلى النبي ﷺ، ثم قال: «إن أسماء الله [غير^(١)] منحصرة في [تسعة وتسعين]^(٢)»، واستدل على ذلك بالحديث الذي رواه الإمام أحمد في «مسنده»^(٣)، عن عبد الله بن مسعود عن رسول الله ﷺ، أنه قال: «ما أصاب أحداً

= تكلمة الحديث المرفوع، ويحتمل أن تكون من جمع بعض الرواة وهو الأظهر عندي». ولعله حسن سند حديث الترمذي مع قوله بالإدراج، فيزول حينئذ الإشكال، فتأمل! ثم وجدت نقل ابن حجر عن ابن العربي في كتابه: «عارضة الأحوزي» (٣٤/١٣)، وعرف فيه بالأسماء على وجه تفصيلي حسن، فراجعه فإنه مفيد. وأخيراً... فقد نص على أن سرد الأسماء من الإدراج الواقع في المتن: الغماري في «تسهيل المدرج إلى المدرج» رقم (٦٨)، و«الجامع المصنف مما في الميزان من حديث الراوي المضعف» (٤١/١)، و«ضوء الشموع» (١٦). ونقل ابن حجر في «الفتح» (٢١٧/١١) ضعف الحديث عن الداودي وأبي الحسن القابسي.

والخلاصة: الحديث ضعيف، يكفي للحكم بضعفه علة واحدة من علله، وهي الاضطراب في متنه، ولا أدري لم يتردد بعضهم في تضعيفه، مع أنهم يضعفون الحديث بأقل من هذا!!

ولمزيد من الاطلاع. ينظر: «الفتح» (٢١٤/١١ - ٢١٨)، و«التلخيص الحبير» (١٧٢/٤ - ١٧٥)، و«طرح التثريب» (١٤٧/٧ - ١٥٦)، و«سبل السلام» (١٠٨/٤ - ١١٠)، و«نيل الأوطار» (١٩٣/٨)، و«تحفة الأحوزي» (٢٦٠/٤ - ٢٦٣)، و«ضعيف الجامع الصغير» رقم (١٩٤٣ - ١٩٤٦)، و«مشكاة المصابيح» رقم (٢٢٨٨).

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ليست».

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «التسعة والتسعين».

(٣) أخرجه أحمد (٣٩١/١، ٤٥٢)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٢٥٣/١٠) و«المسند» (٢٢٣/١) رقم (٣٢٩)، والحاثر بن أبي أسامة (١٠٦٣ - «زوائد الهيثمي»)، والبخاري (١٩٩٤) أو (٣١٢٢ - «زوائده»)، والشاشي (١/ رقم ٢٨٢)، وأبو يعلى (٥٢٩٧/٩)، وابن منيع - كما في «إتحاف الخيرة المهرة» (٤٧٨/٦) - في «مسانيدهم»، وابن السني في «عمل اليوم والليلة» (٣٤٢)، وابن أبي الدنيا في «الفرج بعد الشدة» (٤٩)، وابن حبان (٩٧٢)، والطبراني في «الكبير» (١٠٣٥٢) وفي «الدعاء» (١٠٣٥)، والحاكم (٥٠٩/١ - ٥١٠)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٨) و«الدعوات الكبير» (١٦٤) و«القدر» (٤٦١)، والشجري في «الأمالي» (٢٣٢/١ - ٢٣٣) وقوام السنة الأصبهاني في «الترغيب» (١٣٠٤)، والدينوري في «المجالسة» (١٨٠٣/٥ - بتحقيقي)، وصححه شيخنا الألباني، وانظر: «الصحيحة» (١/ رقم ١٩٩)، و«العلل» للدارقطني (٢٠٠/٥ - ٢٠١) وتعليقي على «المجالسة» (١٨٠٣).

قط هم ولا حزن فقال: اللهم إني عبدك وابن عبدك وابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماض في حكمك، عدل في قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهب همي، إلا أذهب الله حزنه وهمه وأبدله مكانه فرحاً فقيل: يا رسول الله أفلا نتعلمها؟ فقال: «بلى ينبغي لكل من سمعها أن يتعلمها»^(١).

فصل

قال محمد تقي الدين: أسماء الله توقيفية، لا يجوز لنا أن نسمي الله تعالى إلا بما سمي به نفسه أو سماه به رسوله ﷺ، وفي هذا الكلام فوائد:

الأولى: إن الجهال في كل زمان ومكان يظنون أن عبادة الله تعالى شقاء، لما فيها من تعب الأجسام بزعمهم، والصبر على الآلام في الحر والقر والجهد في سبيل الله وما يترتب عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من الأذى في الله، هذا من بلادتهم وغلظ طبعهم، فإن كل من أحب شيئاً يتلذذ بتحمل الأذى في سبيله، كما قال المتنبي^(٢):

فليتك تحلو والحياة مريرةً وليتك ترضى والأنام غضاب
وليت الذي بيني وبينك عامراً وبينني وبين العالمين خراب
على أن الله ﷻ جعل العاقبة للمتقين والفوز والنصر لهم، وجعل للمجاهدين إحدى الحسينين، كما قال تعالى في سورة التوبة ﴿قُلْ هَلْ تَرْتَضُونَ إِنَّا إِذَا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَنَحْنُ نَرْتَضِ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ يَأْخُذَ فَرْتَضُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرْتَضُونَ﴾ [التوبة: ٥٢] وروى مسلم في «صحيحه»

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٦/ ٤٦٠ - ٤٦٤) بتصرف.

(٢) البيتان للمتنبي يخاطب بهما أبا فراس الحمداني، وهما في «ديوانه» (٢٤) و«بَيْتَةُ الدَّهْرِ» (٦٩/١) و«شرح ديوان أبي الطيب» للمعري (٢/ ١٩٦)، وذكرت في كتابي «شعر خالف الشرع» أن فيها غلوّاً، واستحسن ابن تيمية وابن القيم قولهما في حق الرب ﷻ، وعبارة ابن القيم في «مدارج السالكين» (٢/ ٣٠١، ط. الفقي): «ولقد أحسن أبو فراس في هذا المعنى، إلا أنه أساء كل الإساءة في قوله، إذ يقوله لمخلوق لا يملك له ولا لنفسه نفعاً ولا ضرراً» وذكرهما، وزاد ثالثاً:

إِذَا صَحَّ مِنْكَ الْوُدُّ فَالْكُلُّ هَيْئٌ وَكُلُّ الَّذِي فَوْقَ الثُّرَابِ ثُرَابٌ

من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «عجباً للمؤمن أمره كله خير، إن أصابته سراء شكر الله عليها فكان له خير، وإن أصابته ضراء صبر عليها فكان له خير، وليس ذلك إلا للمؤمن»^(١). أو كما قال عليه الصلاة والسلام.

فلذلك قال المشركون من أهل مكة لما رأوا النبي ﷺ وأصحابه يقومون بالليل يصلون ويتعبدون بالقرآن، قالوا من جهلهم: أنزل هذا القرآن لشقاء محمد وأصحابه، فرد الله عليهم بقوله: ﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾^(٢).

الثانية: إن كل من رزقه الله القرآن وحفظ ألفاظه ولم يتدبره ولم يعمل به بل تأكل به أو سحر به أو قرأه رياء وسمعة واقتخر به، فإنه يكون شقاء عليه ووبالاً.

الثالثة: المراد بالفقه في الدين: فهم معاني الكتاب والسنة، إذ هو الذي كان يسمى فقهاً، في خير القرون قرن النبي ﷺ، والذي يليه، والذي يليه، أما الفروع المولدة أو المستنبطة بلا دليل فليس ذلك بفقه.

قال أبو عمر بن عبد البر رحمه الله في قصيدته التي ذم بها المقلدين، وذكرها في كتابه «جامع بيان العلم وفضله»^(٣):

لا فَرْقَ بَيْنَ مَقْلَدٍ وَبِهِيْمَةٍ تَنْقَاذُ بَيْنَ جَنَادِلٍ وَدَعَائِرِ
فَإِذَا اقْتَدَيْتَ فَبِالْكِتَابِ وَسَنَةِ الْـ مَبْعُوثٌ بِالذِّينِ الْحَنِيفِ الطَّاهِرِ
وَإِذَا الْخِلَافُ أَتَى فَدُونَكَ فَاجْتَهِدِ وَمَعَ الدَّلِيلِ قِمْلٌ بِفَهْمٍ حَاضِرِ
وَقَسِ الْفُرُوعَ عَلَى الْأَصُولِ وَلَا تَقَسْ فَرَعاً بِفَرْعٍ كَالْجَهْوَلِ الْحَائِرِ
والفرق بين قياس الفروع على الأصول وقياس الفروع على الفروع، هو:
إن الأول قياس شيء غير مذكور في الكتاب والسنة على شيء مذكور فيهما،
لوجود الشبه التام بينهما، كقياس الأرز في إخراج صدقة الفطر على البُرِّ
والشعير، فإن القوت والادخار^(٤) يحصلان في الأصل الذي هو البُرُّ والشعير،

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه أبو الشيخ في «تفسيره» - ومن طريقه الواحدي في «أسباب النزول» (ص ٢٠٥) - من معضل الضحاك، وفيه جويبر وهو ضعيف جداً؛ نعم، وصله ابن جرير (١٠٢/١٦)، بنحوه عن ابن عباس ولكن إسناده ضعيف جداً أيضاً، فهو مسلسل بالعوفيين، ونسبه في «الدر المنثور» (٥٤٩/٥) إلى ابن مردويه، وسبق ذكره، والكلام عليه.

(٣) (٩٩٠/٢) وسيأتي ذكرها، وتعليق المصنف عليها في (١٧٤/٣) و(٦٢/٤).

(٤) عَلَيَّةُ المطعومات من الخلاف المتشعب بين الفقهاء، وله وزن، والذي اختاره المصنف =

وفي الفرع الذي هو الأرز، فلا نشك في أن الشارع لما ذكر الأنواع التي تخرج منها وهي البر، والشعير، والزبيب، والأقط - وهو اللبن المخيض بعد تجفيفه - ما أراد هذه الأشياء لذاتها، وإنما ذكرها لما فيها من التغذية، فكل ما أشبهها في ذلك فهو مثلها، فهذا قياس الفرع على الأصل. أما قياس الفرع على الفرع، فهو أن يفتي شخص غير معصوم باجتهاده في مسألة لتحليل أو تحريم، فيجاء المقلد ويجد شيئاً مشابهاً لما أفتى به ذلك المجتهد فيقيسه عليه بلا دليل من الكتاب والسنة^(١).

= هو مذهب المالكية، ولي عنه كلمة محزنة؛ انظرها في «شرح على الورقات» (٥٤٨ - ٥٥٣).
(١) إن الاستنباط من كلام المجتهد على جانب من الضعف، فإن جاز الاستناد إليه فعلى قدر الضرورة مع وجوب الاحتياط، ويشتد الأمر إذا علمنا أن أكثر المسائل المدونة في كتب الفروع ليست من نص الإمام، ولا مستنبطة من نضه، بل كل متأخر يستنبط من كلام من قبله، ففي مذهب الشافعي - مثلاً - تجد دحلان يستنبط من كلام الباجوري، والباجوري يستنبط من كلام البجيرمي، والبجيرمي يستنبط من كلام الشبراملسي، والشبراملسي من كلام ابن حجر، وابن حجر من كلام الزركشي، والزركشي من كلام النووي، وهكذا... ولعلك لا تصل إلى الإمام إلا بعشر درجات وأكثر! هذا مع أن كثيراً من العلماء يبنون الأحكام على استحسانهم، ومنهم من غلب عليه الميل إلى بعض المبتدعة، وكثير منهم من كان يعتقد الولاية لكل من حكي عنه ضرب من الغرائب التي يسمونها كرامات، ويتعصب له، ويؤلف في فضائله، ويكاد يجعل أقواله براهين قطعية، ومنهم من كان يعرض له الميل إلى أهل الدنيا والتعصب لهم، ومنهم من كان بينه وبين علماء عصره منافسة تحمله على مخالفتهم، كما وقع في قضية الصلاة المبتدعة في ليلة أول جمعة من رجب، كما حكاه أبو شامة في «الباعث» (ص ٢٠٩ - بتحقيقي). وبالجملة فالعوارض المشككة في صحة أقوالهم كثيرة.

وما مثَّل الشريعة إلا مثَّل ينبوع يخرج من جبل ويجري إلى مراحل كثيرة، وقد تكفل الملك بحفظ مجراه وتنظيفه ومنع اختلاط الأوساخ والأقذار والمياه المتغيرة به، وهناك سَوَاقٍ قد استقت منه، ويجري فيها من مائه إلى مراحل كثيرة أيضاً، ولكن الملك لم يتكفل بحفظها ولا حراستها؛ فهي مُعَرَّضَةٌ لاختلاط الأقذار والأوساخ والمياه الرديئة والمتغيرة بمائها، وكثير من تلك السواقي قد عَظُمَ وغَزُرَ ماؤه، فمن الناس من يستقبل من تلك السواقي ساقية أو ساقيتين أو أكثر؛ فيملأ من مائها بحيرة، ومنهم من يتجشم السفر إلى المعجى الذي تكفل الملك بحفظه فيملأ جَرَّةً أو جرتين أو ما قُسمَ له.

والمقصود أن الاستنباط من المذاهب جائز بقدر الضرورة، فمن كان أهلاً للاستنباط واضطُرَّ إليه في مسألة، ولم يقدر على تحصيل ما هو أوثق منه، واحتاط بقدر إمكانه؛ فلا حرج عليه إن شاء الله وإن أخطأ، وكذلك من تبعه ولم يقدر على تحصيل ما هو أوثق من قوله، ومع ذلك احتاط بقدر الإمكان.

الرابعة: قوله^(١): «وقعد على كرسیه»، مذهب السلف الإيمان بمثل هذا مع تنزيه الله تعالى من مشابهة المخلوقين، وسيأتي كلام (ك) في هذا المعنى.

﴿الباب الثاني﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَنَا أَخَذْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ﴾ (١٣) ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ (١٤) ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لُتَجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ﴾ (١٥) [طه: ١٣ - ١٥]

قال محمد تقي الدين: طالعت كل ما عندي من «التفاسير» لأجد تفسيراً تطمئن نفسي إليه في قوله تعالى: ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ فلم أجد شيئاً، ثم طالعت كتب اللغة فلم أحصل على طائل^(٢)، والأمر المهم في إيراد هاتين الآيتين هو الاستدلال بقوله تعالى: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي﴾ على توحيد الله تعالى في عبادته، فكل من صرف شيئاً من العبادة لغير الله تعالى، فقد اتخذ ذلك الشيء إلهاً مع الله، كأن يستغيث بغير الله أو يذبح لغير الله ولو مرة في عمره، وإن لم يفعل ذلك ورضي به ولم ينكره ولم يتبرأ منه، فهو كفاعله، أما قوله تعالى: ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ فأحسن ما قيل في تفسيره: أريد أن أخفيها، و(كاد) بمعنى (أراد) موجود في لغة العرب، قال الشاعر^(٣):

= ومن حكمة الله البالغة ورحمته السابغة أن غالب البدع لا يدعي أصحابها ومن شُبِّهَتْ عليهم أنها من أركان الإيمان ولا فرائض الإسلام ولا الواجبات المحتمة، وإنما غايتهم دعوى أنها مستحبة، وذلك تيسير من الله ﷻ لطريق الاحتياط لمن أراده، فما عليك إلا أن تتحرى فيما قيل: إنه مستحب، وقيل: إنه بدعة.

فإن كنت ممن يستطيع الوصول إلى المجرى المحفوظ؛ فانظر فإن وجدت ما يُلجج صدرك من الدلالة على أنه من الدين، أو على أنه ليس منه فالزم ذلك. وإن اشتبه عليك، فدعه عالماً أن اجتناب البدعة أحق من فعل المستحب، وأن ارتكاب البدعة من الخطر بحيث لا يوازنه ترك المستحب، على أنك بتركك لذلك الشيء حذراً من أن يكون بدعة لك أجر عظيم أعظم من أجر من فعل مستحباً، وإن فعلته مع خشية أن يكون بدعة فعليك إثم البدعة، وإن كان في نفس الأمر غير بدعة. قاله العلامة المعلمي اليماني في رسالته المهمة النافعة «رسالة في تحقيق البدعة» (٥٤ - ٥٧).

(١) في حديث ثعلبة بن الحكم، المتقدم قريباً، وهو مما لم يثبت، فتنبه!

(٢) انظر لها - لزماً -: «دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب» للعلامة الشنقيطي (ص ١٧٠ - ١٧٤).

(٣) البيتان في «ديوان الأخوة الأودي» (١٠) وقبلهما البيت الشهير:

وَالْبَيْتُ لَا يَبْتَنِي إِلَّا بِأَعْمَدَةٍ وَلَا عَمُودٌ إِذَا لَمْ تُرْسَ أَوْتَادُ
فَإِنْ تَجَمَّعَ أَوْتَادُ وَأَعْمَدَةٌ وَسَاكُنُ بَلَّغُوا الْأَمْرَ الَّذِي كَادُوا
(فكادوا) هنا أرادوا، قاله صاحب «اللسان»^(١). والقول الثاني: «إنها صلة
لا تدل على شيء، وهذا مرجوح»^(٢). وقوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا سَعَى﴾ أي:
بما تعمل كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُجْرُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التحریم: ٧] وقوله تعالى:
﴿وَأَنَا أَخَذْتُكَ﴾ الخطاب لموسى عليه السلام يعني: اخترتك لكلامي ورسالتي، فهو كقوله
تعالى في سورة الأعراف: ﴿قَالَ يَمُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلِمِي فَخُذْ
مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٤].

الباب الثالث

قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُمُ خُورٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ
وَالِلَّهِ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ صَرًّا
وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ

= لا يصلح الناسُ فوضى لا سراة لهم ولا سراة إذا جُهلَّ إليهم سادوا
والآيات في «أمالى القالي» (٢٢٨/٢) و«الحماسة البصرية» (٦٩/٢) و«مجموعة المعاني»
(١٥) و«نهاية الأرب» (٦٤/٣).

(١) انظر: «لسان العرب» (٣٨٥/٣ - كيد).

(٢) رجح الشنقيطي في «دفع إيهام الاضطراب» (١٧٠ - ١٧١) أن معنى الآية: أكاد أخفيها
من نفسي، أي: لو كان ذلك يمكن. وهذا على عادة العرب، لأن القرآن نزل بلغتهم،
والواحد منهم إذا أراد المبالغة في كتمان أمر قال: كتمته من نفسي؛ أي: لا أبوح
لأحد. ومنه قول الشاعر:

أَيَّامَ تَصَحَّبْنِي هِنْدٌ وَأَخْبَرُهَا مَا كَدْتُ أَكْتُمُهُ عَنْهَا مِنَ الْخَبْرِ
ونظير هذا من المبالغة قوله ﷺ في حديث السبعة الذين يظلمهم الله: «رجل تصدَّق بصدقة
فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه». وهذا القول مروى عن أكثر المفسرين. ومن
قال به: ابن عباس، ومجاهد وقتادة، وأبو صالح، كما نقله عنهم ابن جرير، وجعفر
الصادق، كما نقله عنه الألوسي في «تفسيره». ويؤيد هذا القول أن في «مصحف أبي»:
(أكاد أخفيها من نفسي)؛ كما نقله الألوسي وغيره.

وروى ابن خالويه أنها في «مصحف أبي» كذلك بزيادة: (فكيف أظهركم عليها). وفي
بعض القراءات بزيادة: (فكيف أظهرها لكم). وفي «مصحف عبد الله بن مسعود» بزيادة:
(فكيف يعلمها مخلوق). كما نقله الألوسي وغيره.

رَبِّكُمْ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴿٩٠﴾ قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى
يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى ﴿٩١﴾ قَالَ يَهْدُرُونَ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ﴿٩٢﴾ أَلَا
تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحَاقِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي
خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا
خَطْبُكَ يَاسَمِيرِيُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً
مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴿٩٦﴾ قَالَ
فَإَذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ
تُخْلَفَهُ وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ
فِي الْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ
كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾ ﴿طه: ٨٨ - ٩٨﴾

قال محمد تقي الدين: المهم في ذكر هذه الآيات، ذكر إنكار موسى على السامري ومن اتبعه من قوم موسى في اتخاذهم العجل الذهبي إلهًا من دون الله، مع أنه لا يتكلم ولا يسمع ولا يجيب سائلًا، وخواره ليس بكلام كالخوار الذي يفعله المتأخرون من أدعياء التصوف وأصحاب الطرائق القدد، ويكذبون على الله والناس، فيسمون ذلك الخوار ذكر الله^(١)، وقد أجمع أهل الأديان، وسائر العقلاء على أن ذكر الله لا بد أن يكون بلغة من اللغات، وأن يكون له معنى يفهمه الذاكر والسامع، وعباد القبور والأضرحة والقباب المزخرفة، شر من عبادة العجل، لأن العجل له خوار، وتلك الأضرحة ليس لها خوار، والفريقان كلاهما مشرك بالله، وعباد القبور وعباد عجل السامري شر من الوثنيين من أهل الهند الذين يعبدون البقرة الأنثى، لأن البقرة فيها حياة حقيقية وينتفع الناس بلبنها

(١) قال القرطبي في «تفسيره» في أوائل سورة الأنفال (٣٦٦/٧) عند قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: ٢]: «فهذه حالة العارفين بالله، الخائفين من سطوته وعقوبته، لا كما يفعله جهال العوام، والمبتدعة الطغام، من الزهيق والزئير، ومن الثهاق الذي يشبه ثهاق الحمير. فيقال لمن تعاطى ذلك، وزعم أن ذلك وجد وخشوع: لم تبلغ أن تساوي حال الرسول، ولا حال أصحابه في المعرفة بالله، والخوف منه، والتعظيم لجلاله، ومع ذلك فكانت حالهم عند المواعظ الفهم عن الله، والبكاء خوفًا من الله». وانظر بقلمي: «القرطبي والتصوف» (ص ٩ - ٢٠).

وأولادها، وكل من عبد غير الله محروم من نعمة العقل، وقد ذكر المفسرون في هذه القصة أشياء كثيرة من الخوارق، ونقل الرازي في «تفسيره» عن أبي مسلم إنكار ذلك، وإنكاره ينحصر في أمور^(١):

الأول: إن عجل السامري لم تكن فيه حياة، والخوار كان يسمع بسبب دخول الريح من منافذه وخروجها.

والثاني: إن قول السامري: ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ﴾، ليس معناها أنه أخذ قبضة من تراب حافر فرس جبريل ﷺ، وإنما هي قبضة معنوية من شريعة الرسول موسى ﷺ، ﴿فَنَبَذْنَاهَا﴾ تركتها وكفرت بها، وعلل ذلك بعلل تركت ذكرها اختصاراً.

الثالث: إن قوله: ﴿لَا يَسَاسُ﴾ يعني: أن موسى السامري حرمه الله من مخالطة الناس عقاباً له في الدنيا وعذاب الآخرة أكبر، وختمت الآيات بقول هارون: ﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلُّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ فلا خير في إله لا يتكلم ولا يعلم، والمعتزلة والمتأخرون من الأشعرية، ينفون الكلام عن الله تعالى وخطوهم في ذلك واضح، وقد اتفقت الفرقتان على أن القرآن ليس كلام الله، ثم تفرقتا في تأويل ذلك، فقالت المعتزلة: القرآن حروف وأصوات خلقها الله في الهواء، وقالت الأشعرية: القرآن حروف وأصوات تصدر من الناس، وتدل على معنى الكلام النفسي الذي ليس فيه حرف ولا صوت، وهذا الكلام النفسي شيء اخترعوه لا وجود له في الحقيقة، وقد شبهوا كلام الله بحديث النفس الذي يخطر في بال الإنسان، ويدور في خلده قبل أن يتكلم به، وهذا لا يسمى كلاماً إلا بقرينة، كأن يقول الرجل: قلت في نفسي.

والقرآن والحديث صريخان في نفي هذا الباطل، وأما القرآن: فقوله تعالى في سورة التوبة: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ﴾ فكلام الله هنا هو القرآن، وإنما يسمعه ذلك المستامن من لسان الرسول ﷺ وأما الحديث، فقول النبي ﷺ: «ما منكم من أحد إلا وسيكلمه ربه يوم القيامة ليس بيته وبينه ترجمان»^(٢). فبطل ما زعموه والله الحمد.

(١) انظر: «تفسير الرازي» (٢٢/٩٦ - ٩٨) بتصرف.

(٢) أخرجه البخاري (٧٥١٢)، ومسلم (١٠١٦) من حديث عدي بن حاتم.

سُورَةُ الْأَنْبِيَاءِ

الباب الأول

فَقُولْهُ تَعَالَى: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا إِلَهًا مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ﴾ (١) لَوْ كَانَ فِيهِمَا إِلَهٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَنَ اللَّهُ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (٢) لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ (٣) أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ إِلَهًا قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرٌ مِّن مَّعِيَ وَذِكْرٌ مِّن قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ (٤) وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ (٥) وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ (٦) لَا يَسْأَلُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ (٧) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِّن خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ (٨) وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِّن دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ (٩) [الأنبياء: ٢١ - ٢٩]

قال (ك): «ينكر تعالى على من اتخذ من دونه آلهة، فقال: ﴿أَمْ (١) اتَّخَذُوا إِلَهًا مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ﴾ أي: أهم يحيون الموتى وينشرونهم من الأرض؟ أي: لا يقدرُونَ على شيء من ذلك، فكيف جعلوها لله ندًا وعبدوها معه؟! ثم أخبر تعالى أنه لو كان في الوجود آلهة غيره لفسدت السموات والأرض، فقال: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا إِلَهٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ (٢) كقوله تعالى: ﴿وَمَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَدَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَنَ اللَّهُ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ (٣) وقال ههنا: ﴿فَسُبْحَنَ اللَّهُ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «بل».

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «السماء».

يَصِفُونَ» أي عما يقولون، أن له ولداً أو شريكاً ﴿١١﴾ وتقدس وتنزه عن الذي يفترون ويأفكون علواً كبيراً.

وقوله: ﴿لَا يَسْتَلْ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُمْتَلُونَ﴾ ﴿١٢﴾ أي: هو الحاكم الذي لا معقب لحكمه ولا يعترض عليه أحد لعظمته وجلاله وكبريائه وعلمه وحكمته وعدله ولطفه ﴿وَهُمْ يُمْتَلُونَ﴾ أي: هو سائل خلقه عما يعملون، كقوله: ﴿فَوَرَّيْكَ لَنَسْتَلَنَّهٗ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿١٣﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ [الحجر: ٩٢، ٩٣]، وهذا ﴿١٥﴾ كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ يَحْشُرُ وَلَا يُحَاكِرُ عَلَيْهِ﴾ [المؤمنون: ٨٨]. وقوله تعالى: ﴿أَوِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً﴾ إلى قوله: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ قال (ك): «يقول تعالى: ﴿أَوِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً﴾ قل: يا محمد ﴿هَآئِثَا بُرْهَٰنُكُمْ﴾ أي دليلكم على ما تقولون ﴿هَٰذَا ذِكْرٌ مِّنْ مَّعِيَ﴾ يعني: القرآن ﴿وَذِكْرٌ مِّنْ قَبْلِ﴾ يعني: الكتب المتقدمة على خلاف ما تقولونه وتزعمونه» ﴿١٦﴾، فكل كتاب أنزل على كل نبي أرسل ناطق بأنه لا إله إلا هو ﴿١٧﴾ ولكن أنتم أيها المشركون لا تعلمون الحق، فأنتم معرضون عنه ولهذا قال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيْهِ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ ﴿١٨﴾ كما قال تعالى: ﴿وَسَلِّ مِّنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيْهِ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ ﴿١٩﴾ [الزخرف: ٤٥] وقال: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦] فكل نبي بعثه الله يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له، والفطرة شاهدة بذلك أيضاً، والمشركون لا برهان لهم، ﴿مَجْهُومٌ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ [الشورى: ١٦].

وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ ﴿٢٠﴾ الآية، قال (ك): «يقول تعالى رداً على من زعم أن له تعالى وتقدس ولداً من الملائكة كمن قال ذلك من العرب، أن الملائكة بنات الله، فقال: ﴿سُبْحٰنَهُٓ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ أي: الملائكة عباد الله مكرمون عنده في منازل عالية، ومقامات سامية، وهم له في غاية الطاعة قولاً وفعلاً ﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ ﴿٢١﴾ أي: لا يتقدمون بين يديه بأمر ولا يخالفونه فيما أمرهم» ﴿٢٢﴾ به، بل يبادرون إلى فعله، وهو

(١) في الأصل: «ولداً وشريكاً وسبحانه» والمثبت من «تفسير ابن كثير».

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وهذه».

(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «تقولون وتزعمون».

(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الله». (٥) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أمر».

تعالى علمه محيط بهم، فلا يخفى عليه منهم خافية، ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾.

وقوله: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ كقوله: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥] وقوله: ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ [سبا: ٢٣] في آيات كثيرة في معنى ذلك ﴿وَهُمْ مِنْ خَشِيئِهِ﴾ أي: من خوفه ورهبته ﴿مُشْفِقُونَ وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ﴾ أي: من ادعى منهم أنه إله من دون الله أي مع الله ﴿فَذَلِكِ نَجْزِي جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ أي: كل من قال ذلك، وهذا شرط والشرط لا يلزم وقوعه كقوله: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَالِدِينَ﴾ [الزخرف: ٨١] وقوله: ﴿لَنْ أَشْرَكَ لِحُبِّنَ عَمَلِكِ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥] ^(١).

فصل

قال محمد نقي الدين: نفهم من هذا الكلام أموراً:

الأول: إن الله أنكر على المشركين اتخاذهم من دون الله آلهة مع أن تلك الآلهة مخلوقة لا خالقة ومتصرف فيها لا متصرفة، فلا تستطيع أن تخلق ذباباً ولو اجتمعت له، ولا تستطيع أن تميت حياً ولا أن تحيي ميتاً، فيعسى والملائكة ومن عبد من الأنبياء والصالحين مخلوقون مربوبون لا ينفعون ولا يضررون، فمن عبدهم خاسر في الدنيا والآخرة، وسيقول المشرك الجهول: نحن لا نتخذ الصالحين آلهة ولا نعبدهم!

وقد تقدم الرد على هذا الادعاء في مواضع كثيرة، ونزيد هنا فنقول: لو علمتم معنى لا إله إلا الله لعلمتم معنى العبادة، ولأقررتم بأنكم اتخذتم آلهة من دون الله وعبدتموهم، فإن كل من عبدته فقد اتخذته إلهاً، والعبادة ما يتقرب به إلى الله تعالى كالدعاء والاستغاثة والاستعانة بغير طريق الأسباب، والخوف بالغيب والرجاء والتوكل والذبح والنذر وجعل التحليل والتحریم لهم إلى غير ذلك.

الثاني: في قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا ءِلَهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ واضح، فتوحيد النظام يدل على وحدة المنظم، ووحدة الخط وتناسقه يدلان على وحدة

الكاتب، وهكذا يقال في جميع الصنائع، والله المثل الأعلى.

الثالث: في قوله تعالى: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ كل من عبد غير الله تعالى فهو فاسد العقل، مختل المزاج، لا يستطيع أن يقيم دليلاً على ما ارتكبه من الشرك فيلتجئ إلى قوله: إنا وجدنا آباءنا على هذا وقد كانوا أحسن منا، وهذه حجة داحضة، وهي حجة المشركين في كل زمان ومكان.

الرابع: في قوله تعالى: ﴿هَذَا ذِكْرٌ مِّن مَّعَىٰ وَذِكْرٌ مِّن قَبْلِي﴾ وسيأتي قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠]، وقال تعالى في سورة الزخرف: ﴿وَلَئِنَّ لَذِكْرَ لَّكَ وَلِقَوْلِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ [الزخرف: ٤٤] والمشركون والمقلدون في هذا الزمان يقولون: إن القرآن لا يستطيع أحد أن يفهمه، (لأن صوابه خطأ، وخطؤه كفر)^(١)، قالوا: وحسبنا كتب

(١) هذه المقولة كانت شائعة في المغرب، ووجدت في المجلة التي أسسها المصنف، واسمها «لسان الدين» السنة الثانية، الجزء السابع، بتاريخ ربيع الأول سنة ١٣٦٧هـ - يناير ١٩٤٨م (ص ١١ - ١٣)، مقالة بعنوان (صوابه خطأ وخطؤه كفر) وهذا نصها:

(صوابه خطأ وخطؤه كفر)

بقلم الأستاذ السلفي السيد محمد الفلاح^(٢)

هذا العنوان كثيراً ما شغل بال الطلبة، فصرفت كثيراً منهم عن الهداية إلى الغواية، وعن الحق إلى الضلال، وعن النجاة إلى الهلاك، كلمة عمرت الكتب بمترادفات، وإن كانت فظاعتها أكبر من كل تركيب يؤدي معناها، ومن المؤسف أنها خفيت حتى على أمثال الشاطبي، فقد ذكر قريباً من معناها في أواخر (الجزء الثالث) من كتابه «الموافقات»!

لا أقول: هذه الكلمة وحدها هي التي ظفرت بصرف الناس عن العلم الصحيح علم القرآن، ولكنني أعتقد أنها إحدى الأسباب التي حجبنا وحالت بيننا وبين روح الشريعة الخالص، فابن مسعود يقول لنا: «كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن». بينما أشياخ ما بعد القرون الثلاثة يحجرون على الناس وينهبون إلى أن القرآن له - لا أدري - كم من ألف ظهر وألف بطن يعدون!! وكيفما كان العالم لا شك أنه تبقى عليه أشياء من الظاهر والباطن فلا يسوغون له النظر في القرآن، ويجعلون القياس والنظر في القرآن متساويين، إذ التكلم في القرآن في نظرهم تقصيد لله، كان الإنسان يقول: هذا المعنى هو الذي قصده الله من القرآن، وهذا أمر عسير وجراحة خطيرة. وقد ورد في كتب «السنن» عن النبي ﷺ: «من قال في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ»^(٣)، وورد عن الصديق: «أي سماء تظلني، وأي أرض تقلني، إذا قلت في كتاب الله =

(١) نشر في مجلة «لسان الدين» السنة الثانية الجزء السابع بتاريخ ربيع الأول ١٣٦٧هـ، يناير ١٩٤٨م (ص ١١ - ١٣).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٩٥٢)، وأبو داود (٣٦٥٢)، والسنائي في «فضائل القرآن» (١١١)، وأبو يعلى (١٥٢٠) =

= برأيي^(١)، وهذا الاستدلال لا يصح لهم أما أولاً: لأن الله تعالى أنزل هذا القرآن للناس ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب، وأما ثانياً: فإن النبي ﷺ قد بين للناس حاجتهم منه، وهذه كانت وظيفته التي أمره الله بها في قوله: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ إِتِبَينَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾، ومن تتبع السنن المحمدية وجدها قد أزلت عن وجه الكتاب القناع، وأما ثالثها: فإننا لو طردنا هذه الأدلة التي معهم لهلكنا بتركنا كلام الله - وقد فعلنا فتردينا في هوة لا ندري متى نتخلص منها -؛ لأن النبي ﷺ قال: «تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا كتاب الله وستي^(٢)».

وقد كان أصحاب رسول الله ﷺ يذوقون معنى القرآن فيعملون به، ولا يتجاوزون آياته حتى يفهموها ويعملوا بمقتضاها، كما يقول لنا ابن مسعود وغيره. ومنهم من كان يخطئ في الفهم ولكن لا يؤاخذ بخطئه ما دام يعمل بما فهم، ويصحح فهمه على الرسول كما في قصة سيدنا عدي بن حاتم: جواد العرب، فإنه كان يضع فوق رأسه خيطين أبيض وأسود في ليالي رمضان، فما يزال يأكل حتى يتبينهما؛ لأنه قرأ ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ﴾، ولكن الرسول^(٣) زاد له ﴿مِنْ الْفَقْرِ﴾ في القراءة فلم يبق إلا أن يكونا كنايتين عن الليل والنهار، وكل ما ورد في الأدلة الشرعية في ذم الرأي في القرآن لا نحفل به في الحقيقة، فهل يعتقد عاقل أنه يباح له الكلام في الحلال والحرام؟ فيقول: هذا يؤكل، وهذا يحظر، وهذا ينزع من يد هذا المالك، وهذا يستحق، وهذا نكاح فاسد، وهذا صحيح، والحالة هذه وهو لا يعرف عشر آيات من كلام الله، ثم تراه يقول إذا عرضت له آية في صلاة أو كتاب: هذا كلام الله لا نستطيع أن نتكلم فيه، فإن قلت له: إنك تولف المجلدات الضخمة في علم الفقه، يجيبك بأن النوازل كلها مأخوذة من الكتاب والسنة نقحها من قبلنا وكفانا المؤونة، وهذه عبارة كادت تكون محل إجماع القاصرين المتفهمين، ونفرض إذا صححنا هذه الجملة السطحية أليس في القرآن غير مسائل الفقه؟ فأين الأخلاق؟ وأين التوجيه؟ وأين الحكم العجيبة والقصص الصادقة؟ وأين آيات الجنة والنار؟... ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آتَمُوا أَوَّلَ الذِّكْرِ وَالْآخِرَ وَمَا أَوَّلُ إِلَهِمُ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾، ولكنهم لم يفعلوا فكتبوا كتباً من عندهم.

وقالوا: ﴿هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيُشْكِرُوا بِهِ نَسْنًا قَلِيلاً قَوْلًا لَهُمْ﴾، والله يقص علينا أصدق =

= وفي «المفاريذ» (٣٢)، وابن بطه (٧٩٨) عن جندب بن عبد الله البجلي، وإسناده ضعيف، وفيه سهيل بن أبي حزم ليس بالقوي.

(١) له طرق كثيرة متعددة عن أبي بكر، وهي لا تخلو من كلام أو انقطاع، ولكنه بمجموعها يصل إلى درجة الحسن - إن شاء الله تعالى - وقد بيناها في التعليق على «إعلام الموقعين» (٣/٤٤٠)، والحمد لله.

(٢) الحديث صحيح، انظر تخريجه في التعليق على (٣/٢٧، ٢٨)، وانظر: «الصحيحة» (١٧٦١).

(٣) انظر الحديث بتمامه في: «صحيح البخاري» (٤٥٠٩، ٤٥١١)، و«صحيح مسلم» (١٠٩٠، ١٠٩١).

= القصص؛ لنعتبر بمن مضى ونحذر ما وقعوا فيه، ولأنه يعلم أنا لا نألو جهداً في تقصي آثارهم: «إنكم لتتبعن سنن من قبلكم شيراً بشيراً وفساً بفساً»، حتى أنهم لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه»^(١)، ثم في خلال هذه العواصف ما خلا وقت من ناس خدموا القرآن فجمعوا ما وصلهم من معانيه، ولكنهم تأثروا بأفكار قائلة: إن القرآن دون الوصول إلى حقيقة عقبات لا يقطعها إلا من نبغ في كذا وكذا من العلوم، فاستفروا الجهد، وطلبوا تلك العلوم فلما قصدوا إلى أداء ما عندهم من العلم، حشروا كل ما في أدمختهم في القرآن، وبعملهم هذا أصبح الطالب يقرأ في التفسير مجموعة من العلوم مبعثرة، وأتى قوم آخرون حسبوا القرآن إنما يُعنى بما تعلموه فحسب، فكان كلامهم تصنيفاً في العلم الذي تخرجوا فيه لا إيضاحاً للقرآن، ومن هذه الكتب «تفسير الزمخشري» فالقرآن عنده تقريباً كتاب اعتنى بالبلاغة والنحو وتناول مسائل في الكلام، ولكن في الخزانة العربية تفاسير يفهمها كل من أراد أن يعرف كتاب الله بعد أن يتناول مسائل النحو، من أجلها: «تفسير ابن كثير» و«تفسير الجلال السيوطي» المسمى بـ«الدر المنثور»، وقد عد كثير من المؤلفين وسائل القرآن.

فمنهم من جاوز الحد فجعل الفلسفة سبباً في معرفة القرآن! قال أبو إسحاق الشاطبي^(٢): «ولو عكس الإنسان لما بعد» وعدّ منها بعضهم علم الهيئة وعدّ منها علم الكلام، وهذا كله افتراء ولكن يبقى النظر في شيئين: علم اللسان العربي، وعلم الآثار، هل هما ضروريان لطالب التفسير؟ لأنه خطاب للعرب فلا يفهمه بعد فساد لغتهم إلا من حصلت له الملكة والدربة الدقيقة فيها، ولأن القرآن بلغه الرسول وبلغ معه تفسيره كما آية: ﴿إِنِّي لِلنَّاسِ...﴾ الخ، وكما في حديث: «أوتيت القرآن ومثله معه»^(٣) فتكون الوسيلة إليه هذا الطريق الوحيد، وهذا هو الذي ينبغي أن يعتد به، وإن كان في إمكان الجمهور أن يتعلم القرآن من إقراء العلماء لهم، وتبقى تبعة البحث عن تفسير الرسول للآية ملقاة على كاهلهم.

لكن الطالب الذي يرى نفسه متصديراً إلى تعليم الناس، يجب عليه أن يأتي البيت من بابه، ويبحث عن الدّر في مكانه، وما كان طلب مالك والبخاري وأحمد وغيرهم من الهداة إلا بحثاً عن الكتاب والسنة، لم يكن من شأنهم البحث عن مسائل علم الكلام، والنظر في الحال وما ذهب إليه الأشعري فيها، وما الجواب عنه في ذلك؟ فإن من تتبع مثل هذه الأبحاث خصوصاً رجلاً يقصد أن يكون غداً قدوة في الدين لا يظفر إلا بالخيبة، ولا يصبح بعد الجهد الجهد إلا كما قال خريّت ذلك الطريق الشهرستاني: لقد طفئت في تلك المعاهد كلّها وصيرت طرفي بين تلك المعالم

(١) الحديث صحيح، انظر تخريجه في التعليق على (١/١٨٧).

(٢) انظر: «الموافقات» (٤/١٩٨ - بتحقيقي).

(٣) الحديث صحيح، انظر تخريجه في تعليقي على «إعلام الموقعين» (٤/٨٣).

الفقه، فإنها مخضت القرآن والحديث وأخذت زبدتهما، ويعنون بكتب الفقه كتب الفروع المشتملة على الأخطاء الكثيرة، ومخالفة الكتاب والسنة، والآيات المذكورة وما في معناها حجة عليهم لو كانوا يعقلون، وما أحسن قوله تعالى: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾.

الخامس: قوله تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ آذَنَ﴾ ينفي الشفاعة الشريكية ويثبت الشفاعة التوحيدية، وهي التي تكون بعد رضى الله تعالى عن عقيدة المشفوع له وإذنه للشافع.

﴿الباب الثاني﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَكْلُؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُّعْرِضُونَ﴾ (٤٧) أَمْ هُمْ بِالْهَيْئَةِ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لَا

= فلم أر إلا واضعاً كفّ حائرٍ على ذقنٍ أو قارعاً سِنَّ نادم
ويا ليتنا طلبنا هذه العلوم على الوجه المجدي، ولكننا نطلبها على وجه لا يؤدي إلى فائدة ما، فكيف ترى قارئ «شرح البناني على السلم»؟ وما يجني وراء تلك الإشكالات؟ وليقل المحبُّ لها في أي مكان تنفعه وأي زمان يجد ذلك.
ثم ليقل طالب العلم القارئ للعقائد على طريقة السنوسي كيف يركب تلك الأقيسة؟ ومن يجادله في الوجود والقدرة وما معهما من الصفات.
والحق أننا نقلد ولا نسأل، غير أن لقراءة «السنوسية» - لكن أقصد «الصغرى» فإن له «الكبرى» و«صغرى الصغرى» - فائدة أخرى ينقلها لنا الأشياخ وأرباب الحواشي الذين جنوا على زمننا، تلك الفائدة هي ما تنبئك عنه هذه القصة:
رئي فلان في المنام، فستل: ما فعل الله بك؟ فقال: لما وضعت في قبري أتاني ملك وسألني: هل قرأت التوحيد؟ فقلت: نعم! قرأت مصنف فلان، فقال: لِمَ لَمْ تقرأ «السنوسية»؟ وضربني.

هذه القصة وحدها كافية لطلبة بله، وشيوخ جهال في الإكباب على ما لا فائدة فيه إلا تضییع الزمان، وقد بدأت علامات الرشد تظهر على المسلمين، فإنهم استيقظوا من نومتهم، ورأوا العزَّ والهداية في قرآنهم، فأصبحوا يتعلمونه في أوائل دراستهم، ولا ينقصنا الآن إلا عدم الإرشادات لمن يدرسون للتلاميذ، إذ من يظن به النفع بالإرشاد لا يزال متأثراً بـ«صوابه خطأ، وخطؤه كفر»، ولكن ليذهب الطلاب إلى تفهم كتابهم المقدس، فسوف يعدمون أصحاب هذا المبدأ الخبيث، وإنني لباحث عن كل ما خلفه السلف من الإرشاد فمطلعكم عليه.

يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾ [الأنبياء: ٤٢، ٤٣]

قال (ك): «يقول تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَكْلُؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ﴾ أي: بدل الرحمن، يعني: غيره، كما قال الشاعر^(١):

جاريةٌ لم تلبس المُرَقَّقا ولم تذق من البُقُولِ الفُسْتَقا

أي: لم تذق بدل البقول الفستق، وقوله تعالى: ﴿بَلْ هُمْ عَنْ نُصْحِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ﴾ أي: لا يعترفون بنعمة الله عليهم وإحسانه إليهم، بل يعرضون عن آياته وآلائه، ثم قال: ﴿أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا﴾ استفهام إنكار وتقرير وتوبيخ، أي: ألهم آلهة تمنعهم وتكلؤهم غيرنا؟ ليس الأمر كما توهموا ولا كما^(٢) زعموا، ولهذا قال: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ﴾ أي: هذه الآلهة التي استندوا إليها غير الله لا يستطيعون نصر أنفسهم ﴿وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ﴾ قال قتادة: لا يصحبون من الله بخير^(٣).

فصل

قال محمد تقي الدين: حدثني الثقة - وهو: عمار بن محمد الصائغ - أنه يوجد في نواحي سجلماصة (تافيلالت) قوم من المشركين يجعلون للدجاجة خراجاً سنوياً فيتكفلون لهم بحفظ أجزاء أجسادهم، أحدهم يضمن له حفظ رأسه من الآفات، فيعطيه عليه أجراً سنوياً، والآخر يحفظ له يديه، والثالث يحفظ له ما بين يديه ورجليه من ظهر ويطن، والرابع يحفظ له ماله، وهؤلاء الآلهة كل واحد منهم ينتمي إلى صاحب قبة من الأموات المشهورين بالصلاح، وإنما يعتمد في ذلك على جده.

(١) هو أبو نخيلة يعمر بن حزن السعدي، والبيت في «شرح ابن عقيل» (١٨/٢) وفيه «تأكل» وهو الصواب، إذ (المرقق): الرغيف الرقيق الواسع. والمعنى: يريد أن هذه الجارية بدوية لا عهد لها بالنعيم، ولم تستمرئ طعم الرفة، فهي تأكل يابس العيش، لا الرغفان الرقيقة الواسعة المستديرة، وتذوق من البقول ما يأكله البدو عادة، لا الفستق ونحوه مما هو طعام أهل الحضارة والرفاهية.

والبيت في «لسان العرب» (٥٨/٦) مادة (سكف) وأوله: «برية لم تأكل...». وكتب مصححه: «قوله: (برية): المشهور (جارية)، وهي هي».

(٢) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «قد».

(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (٤٠٦/٩) بتصرف.

وتوجد قرية اسمها (أولاد يوسف) عندهم خطارة، والخطارة عندهم جدول من الماء ينشأ من مياه آبار متعددة، أولها في مكان عال، وثانيها أسفل منه، والثالث أسفل من الثاني، وهكذا إلى آخر الآبار، ثم يوصل بعضها ببعض ويحفر لها مجرى يجري منه الماء إلى المزارع والبساتين، ولما حفر أجدادهم هذه الخطارة نذروا لصاحب قبة يسمونه سيدي أحمد الحبيب أن يعطوه في كل سنة مقداراً من المال، ليحفظ لهم هذه الخطارة فلا ينضب ماؤها، وبعد وفاته أخذوا يعطون ذريته ذلك المال المنذور.

وفي هذا الزمان سافر بعض أهل هذه القرية إلى البلدان التي ألقى فيها دروس التوحيد، وعلموا من سماع تلك الدروس أن الماء بيد الله هو الذي يعطيه أو يمنعه، ولا يستطيع أحد من الخلق أن يعطي قطرة أو يمنعها، فقالوا لقومهم: توبوا إلى الله، فإن هذا شرك في الربوبية والعبادة جميعاً، فدعوني لألقي عليهم درساً في التوحيد لعل الله يهدي إخوانهم ويجمع كلمتهم على توحيده ويستريحون من ذلك الخراج.

فسافرت إلى قريتهم وهي تبعد عن مكناس ٤٥٦ ميلاً، وأعطيتهم درساً من المغرب إلى العشاء، وأرجو الله أن ينفعهم به^(١).

وتوجد قرية أخرى في ناحية السيفة لهم خطارة، وقع لهم مثل ما وقع لقرية أولاد يوسف، وكان رجل منهم يأتي إلى مدينة أرفود ويحضر دروسي في التوحيد، فوحدهم الله تعالى، ودعا قومه إلى ترك دفع الخراج لذرية صاحب القبة الذي يعبدونه، فأبوا وقالوا له: أنت تريد أن تعرض نفسك للهلاك، أما نحن فلا نريد ذلك، فقال لهم: أما أنا فلا أدفع فلساً واحداً ولا حبة حنطة، ولي نوبة ماء هذه الخطارة - والنوبة عندهم يوم وليلة في كل خمسة عشر يوماً -، فإذا جاءت نوبتي قولوا لمعبودكم يوقف ماء الخطارة عن الجري، أو يجعل ماءها غوراً.

وعندنا في المغرب قبائل لا تعد ولا تحصى من العرب والبربر، يأتيهم أبناء الشيخ الذي يعبدونه في كل سنة، ويأخذون منهم الخراج، سمناً وصوفاً ودراهم

(١) وقد علمت بعد ذلك أنهم تركوا الخراج، وتابوا إلى الله تعالى، وبقيت خطارتهم على حالها. (منه).

وحبوا، وهم يشاهدون أبناء معبودهم يزنون ويشربون الخمر، ولا تنقص درجة تقديسهم عندهم مثقال ذرة؛ لاعتقادهم أن جدهم يدخلهم الجنة على أي حال كانوا، فنسأل الله تعالى ونتوسل إليه بأسمائه الحسنى، وبتوحيدها له الذي هدانا إليه بفضل، وباتباعنا لسنة نبيه الكريم، أن يزيدنا هدى ويختيم لنا بالحسنى، ويقوينا على الدعوة إلى توحيده، وينقذ بدعوتنا خلقاً كثيراً، كما فعل سبحانه فيما مضى، بل نريد أكثر من ذلك، والله ذو الفضل العظيم.

﴿الباب الثالث﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ (٥١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عِبَادِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَشْوَكَاءَ بَلَّاءِينَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوا أَجِئْنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مُدِيرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا مِمَّنْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُمْ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا فَأَتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوا إِنَّكَ أَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نَكَسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أَفَبِلَكُمْ وَلَمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ ﴿[الأنبياء: ٥١ - ٧٠]

قال (ك): «يخبر تعالى عن خليله إبراهيم عليه السلام أنه أتاه ﴿رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ﴾ أي: من صغره ألهمه الحق والحجة على قومه، كما قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا﴾

ءَاتَيْنَاهَا إِذْ هَمَّ عَلَى قَوْمِهِ ﴿٥٣﴾ [الأنعام: ٨٣] وقوله: ﴿وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ ^(١) أي: كنا عالمين أنه أهل لذلك، ثم قال: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ ^(٥٤) هذا هو الرشد الذي أوتيته من صغره الإنكار على قومه في عبادة الأصنام من دون الله ﷻ، فقال: ﴿مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ أي: معتكفون على عبادتها.

وقوله: ﴿قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ﴾ ^(٥٥) لم يكن لهم حجة سوى صنيع آبائهم الضلال، ولهذا قال: ﴿لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ أي: الكلام مع آبائكم الذين احتججتم بصنيعهم كالكلام معكم، فأنتم وهم في ضلال على غير الطريق المستقيم، فلما سقاه أحلامهم وضلل آباءهم واحتقر آلهتهم ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِينَ﴾ ^(٥٦) يقولون: هذا الكلام الصادر منك ^(٢) تقوله لآبَاءٍ أَوْ مُحَقِّقًا فِيهِ؟ فَإِنَّا لَمْ نَسْمَعْ بِهِ قَبْلَكَ.

﴿قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُمْ﴾ أي: ربكم الذي لا إله غيره هو الذي خلق السماوات والأرض وما حوت من المخلوقات التي ^(٣) ابتدأ خلقهن، وهو الخالق لجميع الأشياء ﴿وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ أي: وأنا أشهد أن لا إله غيره ولا رب سواه. وقوله تعالى: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ﴾ ^(٥٧) إلى قوله تعالى: ﴿بَلْ فَعَلَكُمْ كَيْدُهُمْ هَٰذَا فَتَنُواهُمْ لِئِنْ كَانُوا يَتَّبِعُونَ﴾:

قال (٤): «ثم أقسم الخليل قسماً أسمع به بعض قومه، ليكيدهن أصنامهم أي: ليحرصن على أذاهم وتكسيههم بعد أن يولوا مدبرين» ^(٤)، وكان لهم عيد يخرجون إليه، قال السدي: لما اقترب وقت ذلك العيد، قال أبوه: يا بني لو خرجت معنا إلى عيدنا لأعجبك ديننا، فخرج معهم، فلما كان ببعض الطريق، ألقى نفسه إلى الأرض وقال: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصفات: ٨٩]، فجعلوا يمشون عليه وهو صريع، فيقولون: مه، فيقول: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾، فلما جاز عامتهم وبقي ضعفاؤهم قال: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ﴾ فسمعه أولئك.

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وكان أصلاً».

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «عنك».

(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الذي».

(٤) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أي إلى عيدهم».

وقوله: ﴿جُنَادًا﴾ أي: حطاماً كسرها كلها ﴿إِلَّا كَبِيرًا ثُمَّ﴾ يعني: (١)
 الصنم الكبير عندهم، كما قال ﴿فَرَأَى عَلَيْهِمْ صَرَبًا يَافِينَ﴾ [الصافات: ٩٣].
 وقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ ذكروا أنه وضع القدم في يد كبيرهم لعلهم
 يعتقدون أنه هو الذي غار بنفسه، وأنف أن تعبد معه هذه الأصنام الصغار، فكسرها
 ﴿قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُمْ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (٢) أي: حين رجعوا وشاهدوا ما
 فعله الخليل بأصنامهم من الإهانة والإذلال الدال على عدم إلهيتها، وعلى سخافة
 عقول عابديها ﴿قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُمْ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (٣) أي: في صنيعة
 هذا ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ (٤) أي: قال من سمعه يحلف أنه
 ليكيدنهم، ﴿سَمِعْنَا فَتًى﴾ أي: شاباً ﴿يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ قال ابن أبي حاتم
 بسنده عن ابن عباس قال: ما بعث الله نبياً إلا شاباً ولا أوتي العلم عالم إلا وهو
 شاب (٥)، وتلا هذه الآية: ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ (٦).

وقوله: ﴿قَاتِلُوا بِهِ عَلَىٰ آتَيْنِ النَّاسِ﴾ أي: على رؤوس الأشهاد في الملأ
 الأكبر بحضرة الناس كلهم، وكان هذا هو المقصود الأكبر لإبراهيم عليه السلام، أن
 يبين (٧) في هذا المحفل العظيم كثرة جهلهم، وقلة عقلهم في عبادة هذه
 الأصنام التي لا تدفع عن نفسها ضرراً ولا [تملك] (٨) لها نصراً، فكيف يطلب
 منها شيء من ذلك ﴿قَالُوا أَأَتَتْ فَلَتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَتَّبِعُهُ﴾ (٩) قَالَ بَلْ فَعَلَهُمُ
 كِبِيرُهُمْ هَذَا﴾ يعني: الذي تركه ولم يكسره ﴿فَسَتَلَوْهُمْ إِنْ كَانُوا يَطْفُونَ﴾ (١٠)،
 وإنما أراد بهذا أن يبادروا من تلقاء أنفسهم فيعترفوا أنهم لا ينطقون [وأن] (١١)
 هذا لا يصدُر عن هذا الصنم، لأنه جماد، وفي «الصحيحين» (١٢) من حديث

(١) من مطبوع «تفسير ابن كثير»: وسقط من الأصل.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٢٤٥٥/٨) رقم (١٣٦٧١) من طريق سعيد بن منصور
 عن جرير بن عبد الحميد عن قابوس عن ابن عباس، وقابوس هذا هو ابن أبي ظبيان،
 قال البخاري في «التاريخ الكبير» (١٩٣/٧) رقم (٨٦١): قال أحمد بن عبد الله عن
 جرير بن عبد الحميد: أتينا - أي: قابوساً - بعد فساده، فهو ضعيف، ولكن لا يترك،
 كما في «سؤالات البرقاني للدارقطني» (٤١٨)، ولم يدرك ابن عباس، فإسناده ضعيف.

(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «يتبين». (٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «استطيع».

(٥) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «فإن».

(٦) أخرجه البخاري (٣٣٥٨)، ومسلم (٢٣٧١)، وخرجه مفصلاً في كتابي «من قصص الماضين
 من حديث سيد المرسلين» (ص ٨٩ - ٩٣)، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

هشام^(١) عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «إن إبراهيم عليه السلام لم يكذب غير ثلاث، اثنتين^(٢) في ذات الله: قوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾، وقوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ قال: وبينما هو يسير في أرض جبار من الجبابرة [ومعه سارة]^(٣) إذ نزل منزلاً، فأتى الجبار رجل فقال: قد نزل ههنا رجل بأرضك معه^(٤) امرأة أحسن الناس، فأرسل إليه، فجاء، فقال: ما هذه المرأة منك؟ قال: [هي] أختي، قال: فاذهب فأرسل بها إليّ، فانطلق إلى سارة، فقال: إن هذا الجبار قد سألني عنك، فأخبرته أنك أختي فلا تكذبيني عنده، فإنك أختي في كتاب الله، وإنه ليس في الأرض مسلم غيري وغيرك، فانطلق بها إبراهيم، ثم قام يصلي، فلما أن دخلت عليه فرأها أهوى إليها فتناولها، فأخذ أخذاً شديداً فقال: ادعي الله لي، ولا أضرك، فدعت له فأرسل، فأهوى إليها فتناولها، فأخذ بمثلها أو أشد، ففعل ذلك الثالثة، فأخذ فذكر مثل المرتين الأوليين، فقال: ادعي الله فلا أضرك، فدعت له: فأرسل، ثم دعا أدنى حُجَّابِه، فقال إنك لم تأتني^(٥) بإنسان، لكنك^(٦) أتيتني بشيطان، أخرجها، وأعطها هاجر، فأخرجت وأعطيت هاجر، فأقبلت، فلما أحس إبراهيم بمجبئها انفتل من صلاته، وقالت: مهيم؟ قال: كفى الله كيد الكافر الفاجر وأخدمني هاجر»^(٧).

وقوله تعالى: ﴿فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ﴾^(٨) إلى قوله تعالى: ﴿أَفِ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾^(٩).

قال (ك): «يقول تعالى مخبراً عن قوم إبراهيم حين قال لهم ما قال: ﴿فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: بالملامة في عدم احترازهم وحراستهم لآلهتهم، ﴿فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ﴾ أي: في ترككم لها مهمة لا حافظ عندها ﴿ثُمَّ تَكْسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ﴾ أي: ثم أطرقوا إلى^(٨) الأرض فقالوا: ﴿لَقَدْ عَلِمْتُمَا هَؤُلَاءِ﴾

(١) هو ابن حسان عن ابن سيرين عن أبي هريرة بالحديث المذكور، ولا أدري ما وجه حذف ابن سيرين، والاقصاف على (هشام) هكذا دون نسبة!

(٢) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «اثنتين».

(٣) من «تفسير ابن كثير»، وسقط من الأصل.

(٤) في «تفسير ابن كثير»: «إنه نزل بأرضك رجل معه».

(٥) كذا في «تفسير ابن كثير» وفي الأصل: «تأت».

(٦) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وإنما».

(٧) انظر: «تفسير ابن كثير»: «٤١١/٩ - ٤١٤».

(٨) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «في».

يَنْطِقُونَ ﴿١﴾ قال قتادة: أدركت القوم حيرة^(١) السوء، فقالوا: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ﴾ ﴿٢﴾ فكيف تقول لنا: سلوهم إن كانوا ينطقون، وأنت تعلم أنها لا تنطق؟ فعندها قال لهم إبراهيم لما اعترفوا بذلك: ﴿أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾ ﴿٣﴾ أي: أفلا تتدبرون ما أنتم فيه من الضلال والكفر الغليظ الذي لا يروج إلا على جاهل ظالم فاجر؟ فأقام عليهم الحجة وألزمهم بها، ولهذا قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ﴾ [الأنعام: ٨٣] الآية.

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ﴾ إلى قوله: ﴿الْأَخْسَرِينَ﴾ قال (ع): «لما دحضت حجتهم وبيان عجزهم، فظهر^(٤) الحق، واندفع الباطل، عدلوا إلى استعمال جاه ملكهم، فقالوا: ﴿حَرِّقُوهُ وَأَصْرُوا إِلَهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَعَلِينَ﴾ فجمعوا خطباً كثيراً جداً، قال السدي: حتى إن كانت المرأة لتمررض وتنذر^(٥) إن عوفيت أن تحمل خطباً لحريق إبراهيم، ثم جعلوه في حومة^(٦) من الأرض، وأصروها ناراً، فكان لها شرر عظيم، ولهب مرتفع، لم توقد نار قط مثلها، وجعلوا إبراهيم عليه السلام في كفة المنجنيق بإشارة رجل من أعراب فارس من الأكراد.

قال البخاري عن ابن عباس أنه قال: «حسبي الله ونعم الوكيل» قالها إبراهيم حين ألقي في النار، وقالها محمد ﷺ حين قالوا: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكَ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣] ﴿٧﴾. وقوله تعالى: ﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾ ﴿٨﴾ أي: المغلوبين الأسفلين؛ لأنهم أرادوا بنبي الله كيداً، فكادهم الله ونجاه من النار، فغلبوا هنالك^(٨).

(١) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير» وفي الأصل: «حسرة».

(٢) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وقال السدي: ﴿ثُمَّ لَكُسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ﴾ أي: في الفتنة وقال ابن زيد: في الرأي، وقول قتادة أظهر في المعنى، لأنهم إنما فعلوا ذلك حيرة وعجزاً ولهذا قالوا له: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ﴾».

(٣) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير» أي: إذا كانت لا تنطق وهي لا تنفع ولا تضر، فلم تعبدها من دون الله ﴿أَفِي لَكُمْ وَلَيْمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ﴿٩﴾.

(٤) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير» وفي الأصل: «وظهر».

(٥) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «تمررض فتنذر».

(٦) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «جوبة». (٧) أخرجه البخاري (٤٥٦٣).

(٨) انظر: «تفسير ابن كثير» (٤١١/٩ - ٤١٨) بتصرف.

فصل

قال محمد تقي الدين: في قصة إبراهيم عليه السلام فوائد:

الأولى: كل موحد وإن قلَّ علمه، يجد حجةً على توحيد الله تعالى يغلب بها أكبر علماء الشرك والتقليد، فمن ذلك أن رجلاً من المشركين في صعيد مصر باليريمون قال لموحد: أنتم وهابية تنكرون معجزات النبي ﷺ مع أنه حي يصلي في قبره، والأغوات^(١) - وهم خدام المسجد النبوي - يضعون له الماء للوضوء قبل كل صلاة، فقال له الموحد: أنت كفرت بإجماع المسلمين، وتنقصت رسول الله ﷺ شر تنقص، لأن الوضوء لا يكون إلا عن حدث والنبي ﷺ منزّه عن الحدث بعد أن انتقل إلى الرفيق الأعلى، فاعترف المشرك، وقال: أستغفر الله، والحكايات في هذا الباب كثيرة.

الثانية: حجة قوم إبراهيم: ﴿وَجَدْنَا آبَاءَنَا هَٰكَا عِدِيكَ﴾ هي حجة المشركين في كل زمان ومكان، وما أحسن جواب إبراهيم عليه السلام لقومه، إذ قال لهم: ﴿قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾.

الثالثة: إن قوم إبراهيم كانوا يوحدون الله تعالى في ربوبيته، ولذلك لم ينكروا عليه قوله: ﴿بَلْ زَكَّيْكُمْ رَبُّ الْمَوْتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُمْ وَأَنَا عَلَىٰ ذِكْرِ مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾ وكذلك المشركون في زمان النبي ﷺ كانوا يعترفون ويؤمنون أن الله رب كل شيء، ومليكه، والمتصرف فيه، بخلاف المشركين في هذا الزمان الذين اتخذوا من دون الله أولياء، واعتقدوا أنهم يتصرفون في العالم بالإحياء والإماتة، والإعطاء والمنع والنصر والهزيمة وإنزال المطر، والخصب أو القحط والجذب، فهؤلاء أغلظ كفراً وشركاً من أولئك^(٢).

(١) هما قسمان: قسم كان يقال له: (سنديس)، وقسم كان يقال له: (مكاره)، ولكل قسم جهة من الحرم المدني وقت التسريح ووقت التعمير، ولا يمكن أحد من القسمين أن يعلق أو ينزل في غير مدركه المعلوم، انظر: «رسائل في تاريخ المدينة» (ص ٧٧ - تحقيق حمد الجاسر).

(٢) ظفرت بكلمة في كتاب «تاريخ حركة الإصلاح والإرشاد وشيخ الإرشاديين أحمد محمد السوركتي في أندونيسيا» (ص ١١ - ١٢) نقلها عن الأديب الكبير المعروف مصطفى لطفى المنفلوطي (١٨٧٢ - ١٩٢٤) جاء فيها:

«المسلمون اليوم أكثر إشراكاً من المشركين، وأوسع منهم دائرة في تعدد الآلهة وكثرة المعبودات، فأى قلب لا ينفطر عند ما يرى المسلمين وهم ركع سجد على أعتاب قبر =

الرابعة: يجب على كل من قدر على تحطيم ما يعبد من دون الله من القباب والأحجار والأشجار أن يقتدي بخليل الله إبراهيم، وبخليله محمد ﷺ فكل منهما كسر الأصنام، وقد فعل ذلك الإخوان الموحدون رحمهم الله في الحجاز، فهدموا قبة حمزة ؑ والقباب التي كانت في البقيع، فجزاهم الله خيراً وأجزل ثوابهم.

الخامسة: تذكرنا قصة إبراهيم الخليل بمشركي هذا الزمان، فإنهم يبنون قبة على قبر بجانب الوادي، ويعبدون تلك القبة بالذبح والنذر، ويأتي السيل فيجرفها فيعيدون بناءها وعبادتها، ولا يفكرون بعقولهم في أن هذه القبة أو الروح المتلبسة

= ربما كان بينهم من هو خير من صاحب القبر في حياته... لماذا ينقم المسلمون على النصراني التثليث، وهم لم يبلغوا من الشرك مبلغهم؟ فالمسلمون يدينون بآلاف من الآلهة؛ أكثرها جذوع أشجار وجثث أموات وقطع أحجار من حيث لا يشعرون. فإذا أَلَمَّتْ بهم ملَّةٌ ذكروا الأموات قبل أن يذكروا الله، ونادوهم قبل أن ينادوه... جاء الإسلام بعقيدة التوحيد ليرفع نفوس المسلمين، ويغرس في نفوسهم الشرف والعزة، ليغتنق رقابهم من رق العبودية، فلا يذل صغيرهم لكبيرهم، ولا يهاب ضعيفهم قويهم. وقد ترك الإسلام بسر عقيدة التوحيد ذلك الأثر الصالح في نفوس المسلمين في العصور الأولى، فكانوا ذوي أنفة وعزة يضربون على يد الظالم إذا ظلم، ويقولون للسلطان إذا جاوز حُتّه في سلطانه: لا تغل في تقدير نفسك، ولا تخرج عن دائرتك، فإنما أنت عبد مخلوق لا رب معبود، واعلم أنه لا إله إلا الله.

هذه صورة من صور نفوس المسلمين في عصر التوحيد. أما اليوم وقد داخل عقيدتهم ما داخلها من الشرك الباطن تارة والظاهر تارة أخرى: فقد ذَلَّتْ رقابهم ونفوسهم وخفقت رؤوسهم فأصبحوا من الخاسرين.

هذا؛ ومتى فسد على الأمة دينها فسد عليها كل شيء، لأن الدين هو حجرة الزاوية التي قامت عليها جميع الحضارات القديمة والحديثة. وختام الحضارات ومسكها هي حضارة الإسلام المجيدة. وما المدنية الغربية اليوم إلا قبس منها وشعلة ضئيلة من نورها الباهر. قد يلحق الدين تبديل وتحريف في التأويل، وبدع تسلب منه رونقه وبهاءه حتى يخرج من كونه ديناً إلى كونه مجموعة خرافات ولهو ولعب، كما قال تعالى: ﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لُعِبًا وَهُوَ غُرَّتُهُمُ الدُّنْيَا﴾ [الأنعام: ٧٠] فيقيض الله لدينه رجالاً يجددون للأمة دينها. أجل؛ كل من يحاول تغيير ما ألفه الناس يكون معرضاً لسخط الجمهور ونقمته، وكل من يريد إحياء ما أمانته الجهل من سنن الأنبياء يجد من الشدائد والمكاييد ما وجدوه. ولكن إذا ثبت متكلاً على الله واثقاً بنصره، وقانعاً بما وهبه من علم وتقوى، ولم تستهوه الدنيا وزخارفها، ولم تفتتن نفسه بزينتها وشهواتها، فليبشر بالنصر المبين، والذكر الحسن في الأعقاب.

بها، لو كانت تستطيع أن تدفع أو تجلب لهم خيراً لدافعت عن نفسها، وصرفت السيل عن القبة وحفظتها منه، ولكن كذلك يطبع الله على قلوب المشركين وما أحسن قول الخليل لهم: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٥، ٩٦].

السادسة: الكذبتان الأوليان كانتا جهاداً في سبيل الله، والكذب في الجهاد واجب على أعداء الله، سعيّاً في هلاكهم، وأما الكذبة الثالثة فإنها دفاع عن النفس، واشتغاله بالصلاة التجاء إلى الله تعالى ليحفظ زوجته، فاستجاب الله دعاءه، وأنقذ سارة ورجعت سالمة غانمة، وهاجر هذه هي أم إسماعيل جد النبي ﷺ الأعلى.

السابعة: إن نصر الله للموحدين وإهلاكه للمشركين سنة الله التي قد خلت من قبل، ولن تجد لسنة الله تبديلاً، فإذا لم ينتصر الموحدون، وطال عليهم زمان غلبة أعدائهم فاعلم أن توحيدهم ضعيف، وإيمانهم ناقص، فإن الله وعد كل من نصر دينه الحق بالنصر، فقال تعالى في سورة محمد ﷺ: ﴿إِنْ نَصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمْ وَأُضِلَّ أَعْيُنُهُمْ﴾ وقال تعالى في سورة المؤمن: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ﴾ [غافر: ٥١] اللهم اجعلنا ممن نصر دينك ونصرته.

الباب الرابع

قوله تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [٨٣] فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ﴾ [٨٤] [الأنبياء: ٨٣ - ٨٤]

قال: (ك): «يذكر الله تعالى عن أيوب عليه السلام ما كان أصابه من البلاء في ماله وولده وجسده، وذلك أنه كان له من الدواب والأنعام والحرث شيء كثير، وأولاد كثير^(١) ومنازل مرضية، فابتلي في ذلك كله وذهب عن آخره ثم ابتلي في جسده - يقال: بالجذام - في سائر بدنه ولم يبق منه سليم سوى قلبه ولسانه يذكر بهما الله ﷻ، حتى عافه الجليس، وأفرد في ناحية من البلد ولم يبق أحد من

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «كثيرة».

الناس^(١) يحنو عليه سوى زوجته، كانت تقوم بأمره^(٢)، ويقال: إنها احتاجت فصارت^(٣) تخدم من أجله، وقد قال النبي ﷺ: «أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل»^(٤)، وفي الحديث الآخر: «يتلى الرجل على قدر دينه، فإن كان في دينه صلابة زيد في بلائه»^(٥)، وقد كان نبي الله أيوب عليه السلام غاية في الصبر، وبه يضرب المثل في ذلك»^(٦).

فصل

قال محمد تقي الدين: إنما ذكرت قصة أيوب هنا للاستدلال بها على أن الله تعالى لما ذكر لنا قصص الأنبياء وما أصابهم من المحن أخبرنا أنهم توجهوا إليه وسألوه تفريج كربهم وشفاء مرضهم، وإنما حكى لنا ذلك لتقتدي بهم فيما يصيبنا من المصائب، ولا ندعو مخلوقاً ولا نستعين به، فمن دعا المخلوق لتفريج كربهِ وشفاء داءه، فقد أشرك بالله.

الباب الخامس

قوله تعالى: ﴿وَذَا التُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ

- (١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «من الناس أحد».
- (٢) ثبت ذلك في حديث أخرجه ابن حبان (٢٨٩٨)، وأبو يعلى (٣٦١٧)، والبخاري (٢٣٥٧)، والحاكم (٥٨١/٢ - ٥٨٢)، وأبو نعيم (٣٧٤/٣ - ٣٧٥) عن أنس، بإسناد صحيح، وانظره مع تخريجه وفوائده في كتابي: «من قصص الماضين» (١٧٧ - ١٨٨).
- (٣) كذا مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «فسارت»!
- (٤) أخرجه الترمذي (٢٣٩٨)، وابن ماجه (٤٠٢٣)، والدورقي في «مسند سعد» (٤١)، وعبد بن حميد (١٤٦) - «المنتخب»، وأحمد (١٧٢/١، ١٧٤، ١٨٠، ١٨٥)، والطبراني (٢١٥)، والبخاري (١١٥٠ - ١١٥٥)، والدارمي (٢٧٨٣)، وابن أبي شيبة (٣/٢٣٣)، والطحاوي (٦١/٣)، وابن حبان (٢٩٠٠، ٢٩٢١)، وبحشل في «تاريخ واسط» (ص ٢٥٣)، والحاكم (٤٠/١، ٤١)، والبيهقي (٣/٣٧٢ - ٣٧٣)، وفي «الشعب»، من طريق مصعب بن سعد عن أبيه مرفوعاً، وإسناده حسن. وفي الباب عن جمع، انظر كتابي: «من قصص الماضين» (٢١٨)، «السلسلة الصحيحة» (١٤٣ - ١٤٥).
- (٥) سبق تخريجه.
- (٦) انظر: «تفسير ابن كثير» (٤٢٦/٩).

مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَبَجَّيْنَاهُ مِنَ الْعَذِّ وَكَذَلِكَ نُجِي
 الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ
 خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا
 لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا
 وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ ﴿٩٠﴾ [الأنبياء: ٨٧ - ٩٠]

قال محمد نقي الدين: رأيت «تفسير (ك)» لهذه الآيات فيه أقوال كثيرة لا
 غرض لنا بذكرها فأردت أن أفسرها حسب ما فهمته:

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا النُّونُ﴾... إلخ: ﴿النُّونُ﴾ هو الحوت، أي: واذكر صاحب
 الحوت، وهو يونس عليه السلام، لما ذهب مغاضباً لقومه، أي: أغضبه قومه، وهم أهل
 نينوى مدينة قديمة في العراق لا تزال آثارها موجودة بقرب الموصل في شمال
 العراق، وعندها قرية تسمى بهذا الاسم، وذلك أنه دعاهم إلى توحيد الله وطاعته
 وطاعة رسوله، فتباطؤوا فغضب عليهم وأوعدهم بعذاب الله، وذهب وتركهم فخافوا
 وخرجوا من مدينتهم بنسائهم وأطفالهم ومواشيهم، وأخذوا يجأرون إلى الله بالدعاء
 وتابوا إلى الله تعالى وآمنوا بما جاءهم به يونس فدفع الله عنهم العذاب، قال تعالى
 في سورة يونس: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمٌ يُوَسَّسُ لِمَا ءَامَنُوا كَشَفْنَا
 عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس: ٩٨].

هذا ما كان من أمر قوم يونس، أما يونس، فإنه وجد قومًا راكبين في سفينة
 فركب معهم فلما توسطت السفينة في البحر تلاطمت عليها الأمواج ورأى أهلها
 أنها مثقلة لا بدّ من إلقاء بعض الركاب في البحر، فاقترعوا (باللغة المغربية:
 ضربوا العود) فخرج سهم يونس على أنه هو الذي يلقي في البحر، ثم أعادوا
 الاقتراع فخرج سهمه أيضاً، ثم أعادوه مرة ثالثة، فخرج سهمه للمرة الثالثة فقام
 وألقى نفسه في البحر، فأمر الله حوتاً كبيراً أن يبتلعه ولا يضره، كما قال تعالى
 في سورة الصافات: ﴿وَإِنْ يُوَسَّسْ لِمَنِ الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿إِذْ أَتَىٰ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ ﴿فَسَاهَمَ﴾
 ﴿فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾ ﴿فَالْقَمْعُ الْخِثٌّ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾ ﴿لَلَيْتَ﴾
 ﴿فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ ﴿فَبَدَّدَتْهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ ﴿وَأَلْبَسْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّنْ﴾
 ﴿يَقْطِينٍ﴾ ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ يَاقَةَ آلِ نُؤودٍ﴾ ﴿فَتَأَمَّنُوا فَمَرَّغْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [الصافات: ١٣٩ - ١٤٨].

يقول سبحانه: ﴿وَإِنْ يُؤْخَذْ لِمَنْ أَلْزَمَ﴾ إلى أهل نينوى المدينة التي تقدم ذكرها ﴿إِذْ أَتَى﴾ أي: هرب من قومه لما عصوه وسماه الله أبقاً كما يسمى العبد الذي هرب من سيده؛ لأنه بارح قومه بغير إذن من الله تعالى: ﴿إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ السفينة الممتلئة بالركاب ﴿فَسَاهَمَ﴾ أي: اشترك مع أهلها في القرعة ﴿فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾، أي: المغلوبين ﴿فَالْقَمَّةُ الْخَوْثُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ أي: فعل ما يلام عليه، ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾ في بطن الحوت بقوله: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾، ﴿لَلَيْتَ فِي بَطْنِهِ﴾ أي: لبغي في بطن الحوت ﴿إِنِّي يَوْمَ يُعْمَلُونَ﴾ وكان بطن الحوت قبره، فلا يرجع إلى الحياة إلى يوم القيامة.

﴿فَبَدَّلَ اللَّهُ إِلَهُهٖ وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ أمر الله الحوت أن يلقيه على الأرض بشاطئ البحر ﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ أي: مريض بسبب ابتلاع الحوت له ﴿وَأَلْبَسْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّنْ يَقْطِينٍ﴾ وهو القرع، ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ أي: بل يزيدون على مائة ألف، فأمنوا بالله ورسوله يونس، ﴿فَتَنَزَّلْنَا إِلَىٰ بَيْتٍ عَلَيْهِ﴾ دفع الله عنهم العذاب بعد ما شاهدوه، وقوله تعالى: ﴿فَقُلْ أَن لَّنْ نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ هو من قدر بمعنى قدر المشدد الدال، يقال: قدر الله عليه كذا وكذا يقدره على وزن ضرب، وهذا الأمر مقدور، ويجمع على مقادير، قال الشاعر:

دَعِ الْمَقَادِيرَ تَجْرِي فِي أَعْنَتِهَا وَلَا تَبِيتَنَّ إِلَّا خَالِي الْبَالِ
مَا بَيْنَ غَمْضَةِ عَيْنٍ وَانْتِبَاهَتِهَا يَغْيِرُ الْأَمْرُ مِنْ حَالٍ إِلَىٰ حَالٍ

والمعنى: ﴿فَقُلْ أَن لَّنْ نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ عقاباً لما بارح قومه بلا إذن، فلما ابتلعه الحوت نادى في الظلمات وهي ثلاث ظلمات، قال ابن مسعود: «ظلمة بطن الحوت، وظلمة البحر، وظلمة الليل»^(١)، نادى قائلاً: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ توسل إلى الله بتوحيده واعترف بخطئه، وروى الترمذي وغيره عن سعد بن أبي وقاص عن النبي ﷺ قال: «دهوة ذي النون، ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ لم يدع بها مسلم ربه في شيء قط إلا استجاب له»^(٢).

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الفرج بعد الشدة» (ص ١٣)، والحاكم (٣٨٢/٢) وصححه، وابن أبي حاتم - وهو ليس في القسم المطبوع من «تفسيره» -، وأحمد في «الزهد» - وهو ليس في مطبوعه، كما في «الدر المنثور» (٢٦٠/١٠) -.

(٢) أخرجه الترمذي (٣٥٠٥)، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (٦٥٦، ٦٦٠، ٦٦١)، =

قال تعالى: ﴿فَاسْتَجِبْنَا لَهُمُ وَبَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُخَيِّجُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٨٨) أي: كما أنجينا يونس لما دعا بهذا الدعاء كذلك نتجي كل مؤمن مخلص إذا دعا به، ثم أخبر تعالى أن زكرياء عليه السلام لما نادى ربه ولم يكن له ولد يرث علمه وعلم آبائه، فاستجاب الله له وأصلح امرأته وكانت عاقراً؛ فحملت بيهيى، وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْـَٔرُونَ فِي الْخَيْرَاتِ...﴾ إلى آخره، أي: إن أولئك الأنبياء المذكورين كانوا يسارعون في الخيرات، أي: يبادرون إلى طاعة الله تعالى ويدعونهم ﴿رَغَبًا﴾ فيما عنده من الخير، ﴿وَرَهَبًا﴾، أي: خوفاً منه، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ (١) [فاطر: ٢٨].

فصل

قال محمد تقي الدين: وفي ذكر دعوة أيوب، ويونس، وزكرياء، تعليم من الله لنا كيف ندعوه، فإن أحداً منهم لم يقل: بحق إبراهيم ونوح، بل دعوا الله تعالى متوسلين إليه بتوحيده والتذلل له، وقوله تعالى: ﴿وَكَاثُوا لَنَا خَشِيعِينَ﴾ أي: خائفين، خاضعين متذللين، والخشوع روح الدعاء، قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ [المؤمنون: ١، ٢]

الباب السادس

قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَرَدُونَ﴾ (٩٨) لَوْ كَانَتْ هَؤُلَاءِ ءَالِهَةً مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا أُشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ

= وأحمد (١/ ١٧٠)، وأبو يعلى (٧٠٧، ٧٧٢)، والبزار (٣١٤٩، ٣١٥٠ - «زوائده») في «مسانيدهم»، والطبراني في «الدعاء» (١٢٤)، والدورقي في «مسند سعد» (٦٣)، وابن أبي حاتم في «التفسير» (٨/ ٢٤٦٥) رقم (١٣٧١٢)، وابن عدي (٦/ ٢٠٨٨)، والحاكم (١/ ٥٠٥ و ٣٨٢/ ٢ - ٣٨٣)، والبيهقي في «الشعب» (٦٢٠) من طريقين عن سعد، وأحدهما حسنة.

(١) انظر: «قصص الأنبياء» لابن كثير (ص ٣٤٧ - ٣٥٦، ط. النبلاء).

﴿٧٤﴾ لَا يَخْزِيهِمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَلَقَّيْنَاهُمْ أَلْمَلِكَةَ هَذَا يَوْمُكُمْ
الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٧٥﴾ [الأنبياء: ٩٨ - ١٠٣]

قال محمد تقي الدين: الخطاب هنا لمشركي مكة ومن سلك سبيلهم في
الشرك بالله، وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ يشمل الأوثان والأصنام من قباب أو
أحجار وأشجار، ويشمل الطواغيت الذين يدعون الناس إلى عبادتهم أو عبادة
غيرهم من المخلوقين، والحصب: ما يلقي في النار لتتقد، وقوله: ﴿أَنْتُمْ لَهَا
وَرِدُونَ﴾ أي: فيها داخلون، ﴿لَوْ كَانَتْ هَؤُلَاءِ الْأَصْنَامُ وَالْأَوْثَانُ هَالِهَةً﴾
حقاً، ما دخلوا جهنم ﴿وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ العابدون والمعبودون، ﴿لَمْ يَكُنْ فِيهَا
زَفِيرٌ﴾ أي: أنين، وتنفس شديد، ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾ من شدة العذاب.
ولما نزلت هذه الآية جاء عبد الله بن الزبيري إلى النبي ﷺ وجادله فقال:
إن بعض العرب يعبدون الملائكة، واليهود يعبدون عزيزاً، والنصارى يعبدون
عيسى ابن مريم وأمه، فهل هؤلاء أيضاً يدخلون جهنم؟ فأنزل الله تعالى جوابه^(١)،

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٥٣/١٢) رقم (١٢٧٣٩)، وابن حبان في «الصحيح» رقم
(١٧٥٨) - «موارد»، ومن طريقه ابن حجر في «موافقة الخبر الخير» (١٧٣/٢، ١٧٤)
بسند إلى ابن عباس؛ قال: لما نزلت: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ
جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَرِدُونَ﴾، قال عبد الله بن الزبيري: أنا أخصم لكم محمداً؛
فقال: يا محمداً! اليس فيما أنزل الله عليك ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ
جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَرِدُونَ﴾؟ قال: «نعم». قال: فهذه النصارى تعبد عيسى، وهذه
اليهود تعبد عزيزاً، وهذه بنو تميم تعبد الملائكة؛ فهؤلاء في النار؟ فأنزل الله ﷻ: ﴿إِنَّ
الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾.

وفي إسناده عاصم بن بهدلة، ضعفه جماعة.
وأخرجه البزار من طريق آخر عن ابن عباس، وفيه: «ثم نسختها ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ...﴾،
وفيه شرحبيل بن سعد مولى الأنصار، وثقه ابن حبان، وضعفه الجمهور، وبقي رجاله
ثقات، قاله الهيثمي في «المجمع» (٦٨/٧).

وأخرجه من طرق أخرى: الحاكم في «المستدرک» (٣٨٥/٢)، وابن جرير في «التفسير»
(٩٧/١٧)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص ٢٠٦)، والهروري في «ذم الكلام»
(ص ١٦٥)، وابن أبي حاتم والحاثر بن أبي أسامة وابن مردويه في «تفاسيرهم»، ومن
طريق ابن مردويه والواحدي والحاثر ابن حجر في «موافقة الخبر الخير» (١٧٢/٢)،
والضياء في «المختارة»، والخبر عند ابن هشام في «السيرة» (٢٥٩/١)، وابن كثير في
«البدایة والنهاية» (٨٨ - ٨٩)، وقال عنه في «تحفة الطالب» رقم (٢٣٥): «مشهور من
كتب التفسير والسير والمغازي»، وقال ابن حجر: «هذا حديث حسن».

وذلك قوله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٧١﴾﴾ أي: كل من عبد من دون الله، ولم يرض بعبادة العابدين، بل دعا إلى توحيد الله مبعد عن النار ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾ أي: صوتها ﴿وَهُمْ فِي مَا أَشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ﴾ من النعيم ﴿خَالِدُونَ﴾ باقون إلى الأبد ﴿لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ﴾ وهو الخوف الذي يحصل للمجرمين عند النفخة الأخيرة في الصور، كما قال تعالى في سورة النمل: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَتَوٍّ ذَاخِرِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [النمل: ٨٧] ﴿وَنُلْقِيَهُمْ الَّمَائِكَةَ﴾ أي: تستقبلهم بالبشرى قائلين لهم: ﴿هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ في الدنيا، وكان عبد الله بن الزبيري شاعراً شديداً العداوة للإسلام، ثم أسلم ومدح النبي ﷺ، فمن ذلك قوله^(١):

يا رسولَ الملِكِ إنَّ لِسَانِي رَاتِقٌ مَا فَتَقْتُ إِذْ أَنَا بُورٌ

= وقال في «الكافي الشاف» (ص ١١١ - ١١٢): «اشتهر في ألسنة كثير من علماء العجم وفي كتبهم أن النبي ﷺ قال في هذه القصة لابن الزبيري: «ما أجهلك بلغة قومك؛ فإني قلت: وما تعبدون، وهي لما لا يعقل، ولم أقل: ومن تعبدون»، وهو شيء لا أصل له، ولا يوجد لا مسنداً ولا غير مسند».

وقال في «موافقة الخبر الخبر» (٢/ ١٧٥): «ولهذا لا أصل له من طريق ثابتة ولا واهية»، ثم ذكر منشأ وهم من ذكر هذا الحديث.

وفي «تفسير آلوسي» (١٧/ ٨٦) نقلاً عنه زيادة على المذكور: «الوضع عليه ظاهر، والعجب ممن نقله من المحدثين».

وحكم قبله ابن العربي في «الناسخ والمنسوخ» (٢/ ٣٠٣) مثل هذا الحكم؛ فقال: «هذا خبر موضوع لا أصل له في السقيم؛ فكيف في الصحيح؟ ولا في الضعيف فضلاً عن القوي، ويدفعه القرآن؛ فإنه لو كان كما وضع هذا الملحد لما افتقرنا إلى الجواب بالآيات الثلاث، وكان فيما وبَّخهم به كفاية، وأيضاً؛ فإنه كان يجب أن يقال: (إن من سبق لهم منا الحسنى)، فتكون الآية مطابقة للحديث، ولكنه جاء بكلمة (الذين) التي هي معنى كلمة «ما»؛ فيكون معنى الآية الأولى: إنكم والذين تعبدون من دون الله، وتكون الآية الثانية تخصيصاً صحيحاً باللفظ للفظ، وبالمعنى للمعنى، ونحن لا نحتاج إلى هذا كله، ونعوذ بالله من التكلف للحق؛ فكيف بالتكلف للباطل؟! وانظر: «المعتبر» (ص ١٨٧) للزركشي، «الإيضاح» لمكي بن أبي طالب (٩٣، ٣٥١ - ٣٥٢)، «فهم القرآن» للمحاسبي (ص ٣٥٧، ٤٧٣)، «الموافقات» (٣/ ٣٦٢ - ٣٦٤، ٣٠ - ٣٣ - بتحقيق).

(١) البيتان في «طبقات فحول الشعراء» (١/ ٢٤٢) لابن سلام، و«جمهرة نسب قريش» (٢٨٨٩)، والأول منها في «إصلاح المنطق» لابن السكيت (١٢٥) وقال: «البور: الرجل الفاسد الهالك الذي لا خير فيه».

إِذْ أَجَارِيَ الشَّيْطَانُ فِي سَنَنِ الْغَيِّ وَمَنْ مَالٍ مَالَهُ مَشْبُورٌ
معناه: يا رسول مالك يوم الدين، إن لساني اليوم يمدحك ويصلح ما
أفسده حين كنت بوراً، أي: هالكاً بالكفر وحين كنت أجاري الشيطان، أجري
معه مطيعاً له في طريق الضلال، ومن يمل مع الشيطان ويطعه فهو هالك.

وفي (كتاب التوحيد) من «صحيح البخاري» في حديث رؤية المؤمنين
ربهم، ما نصه: «يجمع الله الناس يوم القيامة، فيقول: من كان يعبد شيئاً فليتبعه،
فيتبع من كان يعبد الشمس الشمس، ويتبع من كان يعبد القمر القمر، ويتبع من
كان يعبد الطواغيت الطواغيت»^(١) الحديث.

وهذا يزيد معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ
جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَرَدُونَ﴾^(٢) يزيده وضوحاً.

﴿الباب السابع﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحِي إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدٌ فَهَلْ
أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾^(٣) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ ءَاذَنْتُكُمْ عَلَى سَوَاءٍ وَإِنْ أَدْرَى
أَقْرَبُ أَمْ بَعِيدُ مَا تُوعَدُونَ ﴿١٣٩﴾ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ
وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١٤٠﴾ [الأنبياء: ١٠٨ - ١١٠]

قال (ك): «يقول تعالى آمراً رسوله صلوات الله وسلامه عليه أن يقول
للمشركين: ﴿إِنَّمَا يُوحِي إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ أي:
متبعون على ذلك، مستسلمون منقادون له ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أي: تركوا ما دعوتهم إليه
﴿فَقُلْ ءَاذَنْتُكُمْ عَلَى سَوَاءٍ﴾ أي: أعلمتكم أنني حرب عليكم^(٢) كما أنكم حرب
علي^(٣)، بريء منكم كما أنتم^(٤) برآء مني، كقوله: ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ
عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيغُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾^(٥) [يونس: ٤١] وقال: ﴿وَلِئَامًا
تَخَافُونَ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةٌ فَلْيُذِّكْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ﴾ [الأنفال: ٥٨] أي: ليكون علمك
وعلمهم بنبد اليهود على السواء، وهكذا ههنا ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ ءَاذَنْتُكُمْ عَلَى سَوَاءٍ﴾

(١) أخرجه البخاري (٧٤٣٧) من حديث أبي هريرة.

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «لكم». (٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «لي».

(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أنكم».

أي: أعلمتكم ببراءتي منكم، وبراءتكم مني لعلمي بذلك، وقوله: ﴿وَلَنْ أَدْرِيَتْ أَقْرَبُ أَمْ بَعِيدُ مَا تُوعَدُونَ﴾ أي: هو واقع لا محالة، ولكن لا علم لي بقربه ولا ببعده ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾ أي: إن الله يعلم الغيب جميعه، ويعلم ما يظهره العباد وما يسرون، يعلم الظواهر والضمائر ويعلم السر وأخفى، ويعلم ما العباد عاملون في جهرهم^(١) وإسرارهم وسيجزئهم على ذلك على^(٢) القليل والجليل^(٣).

فصل

قال محمد تقي الدين: هذا الإسلام الذي طلب منهم هو الإسلام ظاهراً وباطناً بالقلب والجوارح واللسان، وهذه السورة مكية ومع ذلك أمر الله رسوله أن يتبرأ من المشركين، فالتوحيد الصحيح لا يقوم إلا على الحب في الله والبغض في الله والولاية لله والعداوة لله^(٤).

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «إجهاركم».

(٢) من مطبوع «تفسير ابن كثير» وسقطت من الأصل.

(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (٩/٤٦١).

(٤) ذكر المصنف رَحِمَهُ اللهُ فِي كتابه «صيانة العرض» (ص ٣١) أن من كتبه «نصيحتي لصديقي العزيز: لا إيمان إلا بالحب في الله، والبغض في الله، والموالة في الله، والمعادة في الله»، وقال: «يسر الله إتمامه ونشره»، ولا أدري هل أتمه أم لا؟!

سُورَةُ الْحَجِّ

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ فِي شَيْئًا وَطَهَّرَ بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [الحج: ٢٦]

قال (ك): «هذا فيه تقرير وتوبيخ لمن^(١) عبد غير الله فأشرك^(٢) به، من قريش في البقعة التي أسست من أول يوم على توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له، فذكر تعالى أنه بوأ إبراهيم مكان البيت، أي: أرشده إليه^(٣)، وأذن له في بنائه، واستدل به كثير ممن قال: إن إبراهيم عليه السلام هو أول من بنى البيت العتيق، وإنه لم يبن قبله، كما ثبت في «الصحيح» عن أبي ذر، قلت: «يا رسول الله، أي مسجد وضع أول؟ قال: المسجد الحرام، قلت: ثم أي؟ قال: بيت المقدس، قلت: كم بينهما؟ قال: أربعون سنة»^(٤)، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا﴾ [آل عمران: ٩٦] [الآيتين]^(٥)، وقال تعالى: ﴿وَعَهْدَنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [البقرة: ١٢٥] وقد قدمنا ذكر ما ورد في بناء البيت من الصحاح والآثار بما أغنى عن إعادته ههنا.

وقال تعالى ههنا: ﴿أَنْ لَا تُشْرِكْ فِي شَيْئًا﴾ أي: ابنه على اسمي وحدي ﴿وَطَهَّرَ بَيْتِي﴾ قال قتادة ومجاهد: من الشرك^(٦) ﴿لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ﴾

(١) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «ممن».

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وأشرك».

(٣) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وسلمه له».

(٤) أخرجه البخاري (٣٣٦٦)، ومسلم (٥٢٠). (٥) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الآية».

(٦) أما أثر قتادة فقد أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٥٣٣/٢)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (٥٨/١). وأما أثر مجاهد فأخرجه ابن جرير أيضاً في «تفسيره» (٥٣٣/٢)، وهو في

«تفسير سفيان» (ص ٢١٠).

وَالرُّكْعَ الشُّجُورَ أَي: اجعله خالصاً لهؤلاء الذين يعبدون الله وحده لا شريك له، فالطواف به معروف، وهو أخص العبادات عند البيت فإنه لا يفعل ببقعة من الأرض سواها ﴿وَالْقَائِمِينَ﴾ أَي: في الصلاة، ولهذا قال: ﴿وَالرُّكْعَ الشُّجُورَ﴾ فقرن الطواف بالصلاة؛ لأنهما لا يشرعان إلا مختصين به، فالطواف عنده، والصلاة إليه في غالب الأحوال، إلا ما استثنى من الصلاة عند اشتباه القبلة، وفي الحرب وفي النافلة في السفر، والله أعلم^(١).

فصل

قال محمد تقي الدين: في هذا الكلام فوائد:

الأولى: إن المسجد الحرام وسائر المساجد الإسلامية إنما تؤسس على توحيد الله تعالى واتباع رسوله، ولا يجوز أن يحدث فيها شرك أو بدعة، فإن ذلك سعي في خرابها، كما قال تعالى في سورة البقرة: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا أَسْمُهُ وَاسْمُ مَنْ فِي حَرَامِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ١١٤]، فكل من أدخل شيئاً من الشرك أو البدعة في بيوت الله يناله هذا الوعيد.

الثانية: كلام الحافظ (رحمته) ودليله ظاهر في أن أول من بنى المسجد الحرام إبراهيم، وكان الروايات التي تقول: بأن أول من بناه الملائكة ثم آدم.. إلى آخرها لم تصح عنده.

الثالثة: قوله: «إلا عند اشتباه القبلة»، معناه أن من لم يعرف القبلة لغيم أو ظلمة أو لكونه غريباً في البلاد، فإنه يختار جهة ويصلي إليها، وإذا تبين أنه أخطأ فلا إعادة عليه، وكذلك المقاتلون في سبيل الله إذا لم يتمكنوا من استقبال القبلة لشغلهم بقتال العدو، يصلون إلى أي جهة تناسب غرضهم الحربي، وكذلك المسافر يجوز له أن يتنفل على دابته أينما توجهت به.

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٠/٤١ - ٤٢).

﴿الباب الثاني﴾

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ حُرْمَتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ. وَأُحِلَّتْ لَكُمْ الْآَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴿٣١﴾ حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣٢﴾ ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقَوَّى الْقُلُوبِ ﴿٣٣﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٣٤﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنَسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْآَنْعَامِ فَإِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخَضِتِينَ ﴿٣٥﴾ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الحج: ٣٠ - ٣٥]

قال محمد تقي الدين: قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ﴾ أي: الأمر المذكور من قبل ﴿وَمَنْ يُعْظَمْ حُرْمَتِ اللَّهِ﴾ كل ما حرمه أو أمر بتعظيمه، ﴿فَهُوَ﴾ أي: التعظيم ﴿خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ لما فيه من الثواب ورفع الدرجات، فإن من عظم حرمات الله عظمه الله، ومن لم يعظمها أهانه الله، ﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمْ الْآَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾ في سورة المائدة وغيرها كقوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَلْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أَهْلُ لَغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ذَلِكَمُ فَسَقٌ﴾ [المائدة: ٣] أي: الرجس الذي هو الأوثان، فإن عبادتها شر النجاسات المعنوية، كما قال تعالى في سورة التوبة: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ [التوبة: ٢٨] والأوثان كل جماد عبد من دون الله كالقباب والقبور والأشجار والأحجار، ﴿وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ أي: شهادة الزور، ﴿حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾ الحنفاء هم الموحدون المتبعون لملة إبراهيم، ﴿غَيْرَ مُشْرِكِينَ﴾ تفسير له وتوكيد، ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ﴾ أي: تقطع جسمه، ويأخذ كل منها نصيبه ﴿أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ﴾ أي: تسقطه ﴿فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ أي: بعيد، وهما نوعان من الهلاك.

﴿ذَلِكَ﴾ أي: الأمر المذكور ﴿وَمَنْ يُعْظَمْ شَعَائِرَ اللَّهِ﴾ أي: الإبل والبقر التي أهداها أصحابها لله، وجعلوا لها علامات تعرف بها وساقوها لينحروها ويذبحوها

في الحرم المكي، ﴿فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ أي: طاعتها لله، فلا يجوز التعدي عليها بنهب أو سرقة أو غير ذلك.

قال تعالى: ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾ كالركوب والحلب ﴿ثُمَّ مَحَلًّا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ ولا يحل نحرها أو ذبحها إلا في البيت العتيق: ما حوله من الأراضي، ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنَسَكًا﴾ أي: ذبحاً تعظيماً لله تعالى ورحمة للمساكين، ﴿لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ أي: عند ذبحها أو نحرها ﴿فَاللَّهُمَّ إِلَهُ وَحْدٌ﴾ وهو الله تعالى: ﴿فَلَهُ أَسْلِمُوا﴾ أي: اعبدوه وحده لا شريك له ﴿وَبَشِّرِ الْمُخَشِتِينَ﴾ المتذللين لله تعالى؛ المتواضعين الخاشعين ﴿الَّذِينَ إِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: خافت، ﴿وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ﴾ من البلايا والمصائب ﴿وَالْمُتَّبِعِينَ الصَّلَاةَ﴾ المحافظين عليها، الذين يحرصون على أركانها وشروطها، ويصلون صلاة رسول الله ﷺ لا يخالفونها أبداً ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ أي: يؤدون زكاة أموالهم ويتصدقون على قدر جهدهم. اهـ.

فصل

قال محمد تقي الدين: فتنَّبَّهوا أيها الإخوان الذين شرح الله صدورهم للتمسك بكتابه واتباع سنة نبيه لعظم شأن التوحيد عند الله تعالى، فإنه ذكره في هذه الآيات مرتين:

الأولى: في قوله تعالى: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾.

والثانية: في قوله تعالى: ﴿فَاللَّهُمَّ إِلَهُ وَحْدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا﴾ وكل من خاف غير الله بالغيب، ودعاه لجلب خير أو دفع شر بطريق الهمة والحال، لا بطريق الأسباب، فقد اتخذه إلهاً مع الله، وكفر بمعنى لا إله إلا الله، فلا ينفعه قولها باللسان أبداً، وكل من خالف رسول الله ﷺ في أمر من أمور الدين على عمد فقد كفر بمعنى محمد رسول الله، وقد تقدم هذا في مواضع.

الباب الثالث

قوله تعالى: ﴿أُذِّنَ لِلَّذِينَ يُقَتِّلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَدَمَتْ صَوَامِعُ وَبِيْعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا

أَسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلْيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾
الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَآمَرُوا
بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْأُمُورِ ﴿٤٢﴾ [الحج: ٣٩ - ٤١]

قال محمد نقي الدين: يتلخص تفسير هذه الآيات فيما يلي: لما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة بعدما بايعه أهلها ليلة العقبة بمنى وقوي المسلمون أذن الله له تعالى في قتال أعدائه^(١)، لأنهم ظلموا النبي ﷺ والمؤمنين به وأذوهم وطردهم من بلدهم، وهموا بقتل النبي ﷺ وأخرجوه من بلده وليس لهؤلاء المخرجين ذنب إلا أنهم قالوا: ربنا الله، والمراد بقولهم: ﴿رَبَّنَا اللَّهُ﴾، لا نعبد إلا الله، ونكفر بعبادة ما سواه.

والمشركون لا ينكرون عليهم توحيد الربوبية، فإنهم مقرون به، وإنما ينكرون عليهم توحيد الألوهية والعبادة، لأنهم قالوا كما في سورة ص: ﴿أَجْعَلِ الْأَلَمَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥] وقال تعالى في سورة الصافات: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [٢٥] وَيَقُولُونَ إِنَّا لَا نَارِكُوا إِلَهَيْنَا لِشَاعِي تَجْنُونَ ﴿٢٦﴾ [الصافات: ٣٥، ٣٦]. فرد الله تعالى عليهم بقوله: ﴿بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات: ٣٧] وقال تعالى في سورة الزمر: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الزمر: ٤٥] وقال تعالى في سورة المؤمن: ﴿ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تَوَلَّيْتُمْ﴾ [غافر: ١٢].

(١) أخرج أحمد (٢١٦/١)، والترمذي (٣١٧١)، والنسائي في «المجتبى» (٣٠٨٥)، وابن جرير في «التفسير» (١٧٢/١٧)، والطبراني (١٢٣٣٦)، والبزار في «البحر الزخار» (٦٩/١) رقم (١٦) وابن حبان (٤٧١٠)، والحاكم (٦٦/٢)، ٢٤٩ (٧/٣ - ٨) من طرق عن سعيد بن جبيرة عن ابن عباس قال: لما أخرج النبي ﷺ من مكة، قال أبو بكر: أخرجوا نبيهم، إنا لله وإنا إليه راجعون، ليهلكن، فنزلت ﴿أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَلَئِنْ اللَّهُ عَلَيَّ نَصْرِهِ لَلْقَدِيرُ﴾ [الحج: ٣٩] قال: فعرف أنه سيكون قتال، قال ابن عباس: هي أول آية نزلت في القتال.

قال الحاكم: «صحيح على شرط الشيخين» وأقره الذهبي، وهو كما قال، وانظر لذلك: «الإنجاد في أبواب الجهاد» (٢١/١ - ٢٢ - بتحقيقي)، و«زاد المعاد» (٦٣/٣ - ٦٤)، و«السيرة» لابن كثير (١٩٢/٢ - ٢٠٧).

فصل

قال محمد تقي الدين: وكذلك المشركون في هذا الزمان إذا قيل لهم: ادعوا الله وحده، وتوجهوا إليه، واتركوا أولياءكم، يقولون: (الله ورجاله)! وبعبارتهم الخاصة: (رب رجالو) يعنون أن الله لا يَكْفِيهِمْ ولا تقضى حاجتهم إلا إذا أشركوا به رجالاً مخلوقين، فأفَّ لهم!

ثم قال تعالى: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ وقد وعدهم بالنصر فقال تعالى في سورة محمد: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ نَصَرُوا اللَّهَ يُنْصَرُوا وَيُنِيبُ أَعْدَاكُمْ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمْ ءَاصِلٌ أَعْمَلْتُمْ ۖ﴾ [محمد: ٧، ٨] وقال تعالى في سورة المؤمن: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَادُ ۖ﴾ [غافر: ٥١] وقد فعل ﷺ من نزول هذه الآية إلى يومنا هذا وسيفعل ذلك إلى يوم القيامة، فكل هزيمة أصابت المؤمنين، فهي من ضعف إيمانهم وعدم قيامهم بالواجبات^(١).

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ...﴾ إلى آخره يعني: إن الله تعالى شرع الجهاد والدفاع بحكمته البالغة، ابتلاء منه لعباده، وأمر المؤمنين أن يدافعوا عن أنفسهم ودينهم، ولو تركوا الجو خالياً للمجرمين لتغلب أهل الباطل على أهل الحق، وعم الكفر والظلام وحينئذ تهدم معابد النصارى الخاصة بالرهبان وهي الصوامع، ومعابدهم العامة وهي البيع، ومعابد اليهود وهي الصلوات، ومعابد المسلمين وهي المساجد التي يذكر فيها اسم الله كثيراً، ولو شاء الله لأهلك المجرمين بعذاب من عنده، ولكن أراد سبحانه أن يبلو الناس بعضهم ببعض؛ لما في ذلك من الفوائد والنعم.

ثم أكد سبحانه وتعالى وعده بقوله: ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنْصُرُهُٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ فلا يهزم جنده ولا يذل أوليائه، والعجب من المفسرين الأولين فإنهم اختلفوا في معنى البيع والصلوات، وكل من يعرف شيئاً من السريانية والعبرانية^(٢) يعلم يقيناً أن (البيع) معابد النصارى العامة، وأصل البيعة، بيضة

(١) يؤكد: ما علقه البخاري في «صحيحه»: كتاب الجهاد والسير: باب عمل صالح قبل القتال عن أبي الدرداء قال: «إنما تقاتلون بأعمالكم».

(٢) للمصنف معرفة قوية بلغات متعددة، مثل: الإنجليزية، والفرنسية، والألمانية، والأردو، =

بالسريانية؛ لأن السريانيين كثيراً ما يقلبون الضاد عيناً، فيقولون للأرض: أرعى، وللبيضة: بيعى، وإنما سميت كنيسة النصارى بيعة عندهم، لأنهم كانوا يجعلون لها قبة على شكل بيضة، ثم عم استعمالها في كل كنيسة لهم، والصلاة معبد اليهود، فإنهم يسمون الصلاة (تِفْلَه) بسكون التاء وكسر الفاء ولام مشددة مفتوحة بعدها هاء لا ينطق بها، إلا أنهم يسمون كنيستهم بيت تفلَه أي: بيت الصلاة، والله در الإمام ابن جرير^(١) فإنه فسر البيع بكنائس النصارى، والصلوات بكنائس اليهود، ولم يشك.

ثم وصف الله ﷻ المؤمنين الذين يستحقون النصر بقوله ﷻ: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ٨١﴾ أي: نتائجها، فمن أحسن حسنت عاقبته، ومن أساء ساءت عاقبته، فعاقبة التوحيد فوز، وعاقبة الشرك خسران.

﴿الباب الرابع﴾

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْتَ مَا يَدْعُوتُ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنْتَ اللَّهُ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ٨٢﴾ [الحج: ٦٢]

قال (٨٢): «قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ﴾ أي: الإله الحق الذي لا تنبغي العبادة إلا له، لأنه ذو السلطان العظيم، الذي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وكل شيء فقير إليه ذليل لديه، ﴿وَأَنْتَ مَا يَدْعُوتُ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾ أي: من الأصنام والأنداد والأوثان، وكل ما عبد من دونه تعالى فهو باطل؛ لأنه^(٢) لا يملك ضرراً ولا نفعاً.

وقوله: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾، كما قال: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [الشورى: ٤] وقال: ﴿الْكَبِيرُ الْمُتَعَالَى﴾ [الرعد: ٩] فكل شيء تحت قهره

= والسريانية، والعبرانية، وكان يدرسها في بعض الجامعات المغربية. وله عناية في تتبع مشكلاتها وتاريخها، ظهر ذلك من مراسلاته مع أشهر من يتقنها في عصره، وهو الأستاذ الدكتور ربحي توفيق كمال - رحمه الله تعالى -.

(١) انظر: «تفسيره» (٥٨٦/٦)، وفيه أيضاً عن (الصلوات) عن بعضهم: «هي كنائس اليهود، تُدعى بالعبرانية: صَلُوتَا».

(٢) من مطبوع «تفسير ابن كثير» وسقط من الأصل.

وسلطانه وعظمته، لا إله إلا هو، ولا رب سواه، لأنه العظيم الذي لا أعظم منه، العلي الذي لا أعلى منه، الكبير الذي لا أكبر منه، تعالى وتقدس وتنزه ﷻ عما يقول الظالمون [المعتدون] ^(١) علواً كبيراً ^(٢).

فصل

قال محمد تقي الدين: ومن ذلك تعلم أن كل من دعا غير الله دعاء عبادة أو دعاء مسألة، فإنه مبطل ضال مشرك، لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً يوم القيامة.

الباب الخامس

قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ۝٧٦﴾ وَإِذَا نُنْتَلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُون بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرِّ مِن ذَٰلِكُمُ النَّارُ وَعَذَابُ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَسَّ الْمَصِيرُ ۝٧٧﴾ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرْبَ مَثَلٍ فَاستَمِعُوا لَهُ ۚ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ ۚ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ۝٧٨﴾ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ [الحج: ٧١ - ٧٤]

قال (ك): «يقول تعالى مخبراً عن المشركين فيما جهلوا وكفروا وعبدوا: ﴿مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾؛ يعني: حجة وبرهاناً، كقوله: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ ۚ إِنَّهُمْ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ ۝٧٧» ولهذا قال ههنا ﴿مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ أي: ولا علم لهم فيما اختلقوه واثفقوه، وإنما هو أمر تلقوه عن آبائهم وأسلافهم بلا دليل ولا حجة، وأصله مما سؤل لهم الشيطان، وزينه لهم، ولهذا توعدهم تعالى بقوله: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ أي: من ناصر ينصرهم من الله فيما يحل بهم من العذاب والنكال.

(١) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير». (٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٠/٩٢).

ثم قال: ﴿وَلِذَا ثُلَّى عَلَيْهِمْ ءَايَتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ أي: وإذا ذكرت لهم آيات القرآن والحجج والدلائل الواضحات على توحيد الله، وأنه لا إله إلا هو، وأن رسله الكرام حق وصدق ﴿يَكَاذُوبٌ يَسْطُوبُ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَتُنَا﴾ أي: يكادون يبادرون الذين يحتجون عليهم بالدلائل الصحيحة من القرآن، ويبسطون إليهم أيديهم وألسنتهم بالسوء.

﴿قُلْ﴾ أي: يا محمد لهؤلاء ﴿أَفَأَنْتُمْ كُفْرًا﴾ أي: النار وعذابها ونكالها أشق وأطم^(١) وأعظم مما تُخَوِّفُونَ به أولياء الله المؤمنين في الدنيا، وعذاب الآخرة على صنيعكم هذا أعظم مما تتلون منهم إن نلتهم بزعمكم وإرادتكم، وقوله: ﴿وَيَسَّ السَّيِّئَاتِ﴾ أي: وبس النار [مقيلاً ومنزلاً]^(٢) ومرجعاً وموتلاً ومقاماً ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾^(٣).

وقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرْبٌ مِّثْلُ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿لَقَوْهُ عَزِيزٌ﴾. قال (ك): «يقول تعالى منبهاً على حقارة الأصنام، وسخافة عقول عابديها: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرْبٌ مِّثْلُ﴾ أي: لما يعبد الجاهلون بالله المشركون به، ﴿فَاسْتَمِعُوا لَهُمْ﴾ أي: أنصتوا وتفهموا ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُمْ﴾ أي: لو اجتمع جميع ما تعبدون من الأصنام والأنداد على أن يقدروا على خلق ذباب واحد ما قدروا على ذلك، كما قال الإمام أحمد بسنده عن أبي هريرة مرفوعاً، قال: «ومن أظلم ممن [ذهب يخلق]^(٤) كخلفي؟ فليخلقوا مثل خلفي: ذرة أو ذبابة أو حبة»^(٥). وأخرجه صاحب «الصحيح» من طريق عُمارة عن أبي رُزعة، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: قال الله ﷻ: «ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلفي فليخلقوا ذرة فليخلقوا شعيرة»^(٥).

ثم قال تعالى أيضاً: ﴿وَلَنْ يَسْلُبَهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَفِذُوهُ مِنْهُ﴾ أي: هم عاجزون عن خلق ذباب واحد، بل أبلغ من ذلك عاجزون عن مقاومته والانتصار منه لو سلبهم شيئاً من الذي عليهم من الطيب، ثم [أرادوا أن يستنقذوه منه لما

(١) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «أشد وأهم».

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «منزلاً ومقيلاً».

(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير» «خلق خلقاً».

(٤) أخرجه أحمد (٣٩١/٢)، والبخاري (٥٩٥٣)، ومسلم (٢١١١) وغيرهم.

(٥) أخرجه البخاري (٥٩٥٣)، ومسلم (٢١١١).

قدروا^(١) على ذلك، هذا والذباب من أضعف مخلوقات الله وأحقرها، ولهذا قال: ﴿ضَعُفَ الطَّلِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ قال السدي وغيره: ﴿الطَّلِبُ﴾ العابد ﴿وَالْمَطْلُوبُ﴾ الصنم.

ثم قال: ﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ أي: ما عرفوا قدر الله وعظمته حين عبدوا معه غيره من هذه التي لا تقاوم الذباب لضعفها وعجزها ﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ أي: هو القوي الذي بقدرته وقوته خلق كل شيء، ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧] ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ ﴿إِنَّهُمْ هُوَ يُبْدِيهِ وَيُعِيدُهُ﴾ [البروج: ١٢، ١٣] ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨] وقوله: ﴿عَزِيزٌ﴾ أي: قد عز كل شيء فقهره وغلبه، فلا يُمانع ولا يُغالب لعظمته وسلطانه، وهو الواحد القهار^(٢).

فصل

قال محمد تقي الدين: في هذا الكلام فوائد:

الأولى: إن المشركين في كل زمان ومكان يعبدون من دون الله مخلوقين مثلهم، وليس لهم دليل على عبادتهم، لا من القرآن ولا من كتب الأنبياء السابقين، ولا يعلمون حقيقة ما يعبدون، فكلما وجدوا قبة مبنية ورأوا الناس يقصدونها لقضاء الحاجات عبدوها معهم، حتى بلغ بهم الأمر إلى أن عبدوا قبة مبنية على حمار، وأخرى مبنية على كلب، والمشرِك عديم العقل والتمييز، فلو سألته عن صاحب القبة والقبر الذي يعبد: متى وجد؟ وكيف كانت حاله؟ تجده جاهلاً كل الجهل، وهب أنه عرفه، وأنه كان عالماً صالحاً مستجاب الدعوة، أو نبياً رسولاً، أو ملكاً، فإن عبادته شرك بالله وكفر ولا تنفع العابد بل تضره وتهلكه.

الثانية: التمثيل دائماً بالأصنام غير جيد؛ لأن المشركين يعبدون الملائكة والأنبياء والصالحين وتمثيلهم، وهي الأصنام وقبورهم، والأماكن التي جلسوا فيها أو مروا بها، والشمس والقمر والكواكب وكل ذلك شرك وكفر.

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أردت أن تستنقذه منه لما قدرت».

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (٩٧/١٠ - ٩٨).

الثالثة: إن المشركين في كل زمان ومكان إذا دعاهم داع إلى توحيد الله تدمروا وتنمروا وظهر في وجوههم المنكر، ويكادون يبطشون بالداعي، وكثيراً ما يبطشون به فعلاً.

الرابعة: هذا مثل عظيم ضربه الله للمشركين وتحداهم به، فإن جميع المعبودين من الأبرار والفجار والأصنام والأوثان لا يستطيعون - ولو اجتمعوا - أن يخلقوا ذباباً، ونرى كثيراً من المشركين يذهبون إلى قبور الصالحين ويطلبون منهم الأولاد، وذلك من سفاهة عقولهم، فالذي لا يستطيع أن يوجد ذباباً، كيف يستطيع أن يخلق جنيناً في بطن أمه، ويحفظ عليه حياته في زمان الحمل وبعده، ﴿كَذَلِكَ يَطَّبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٥٩].

الخامسة: إن الله تعالى أخبر أن الذين يعبدهم المشركون كما أنهم عاجزون أن يخلقوا ذباباً، فهم عاجزون إذا سلبهم الذباب شيئاً أن يستردوه منه^(١)، فإذا

(١) ذكر غير واحد من المعاصرين ممن لهم عناية بالإعجاز العلمي أن الذبابة تمد فمها من أسفل رأسها إلى السطح المقابل له، مكونة بذلك أنبوباً لا متصاض الطعام؛ وإذا نظرت بدقة إلى الأنبوب الماص، لوجدت الطرف الملاصق لسطح الطعام متسعاً، وكأنه مكنسة كهربائية، بعد ذلك تبدأ الذبابة بفرض (إنزيم)، ليتمكنها من تحليل الطعام وتحويله إلى مادة سائلة لمساعدتها على امتصاصه خلال الأنبوب لتلك الذبابة، فالذبابة تبدأ بهضم الطعام قبل أن يدخل إلى جسمها، فإن الإنزيم (البروتينات المركبة) يعمل على تفكيك الطعام إلى مركبات بسيطة، فالطالب لا يمكنه استنقاذ ما سلبته الذبابة، لا بسبب العجز - مثلاً - عن استخدام أجهزة دقيقة تمكنه من تشريح الذبابة، واسترجاع ما استطعمته؛ بل لو فعل فلن يكون هو نفسه الطعام الذي سلبته الذبابة، وإنما يحتاج إلى تجميع مركباته التي قد تفككت، ولاحظ لو أنه أراد أخذ الطعام من فم الذبابة - ولو من بداية دخوله الماصة - فإن ذلك لن يجدي شيئاً، وذلك لأن الطعام قد تحول إلى مركبات مختلفة حتى قبل امتصاصه، لذلك ﴿لَا يَسْتَفِيدُوهُ مِنْهُ أَبَدًا﴾.

وهذه حقيقة علمية مسلمة، لا شية فيها، ولكن ما أثبتته العلم التجريبي يصح إضافته إلى أقوال المفسرين استنباطاً بما استجد، وهو استنباط قد يكون مراداً من الله سبحانه - والله أعلم بمراده -، وقد يكون استنباطاً وافق شمول معنى الآية مصادفة، فيكون صحيحاً في ذاته، مطابقاً للآية الكريمة في ذاتها، وإن كان غير مراد من منزل القرآن سبحانه، وما دام ذلك الكشف العلمي من معاني الآية الكريمة، فمعنى ذلك أنه ليس جميع معناها؛ بل ليس هو المراد رجحاناً؛ لأن كونه مقصوداً احتمال لا مرجح له، ولا مانع منه. والمعنى السابق المذكور في كتب التفسير لا يدفعه أي احتمال معتبر، فهو صحيح في ذاته، انظر مقالة (ضعف الطالب والمطلوب) للعلامة الشيخ أبي عبد الرحمن الظاهري، المنشور في «المجلة العربية»، العدد (٣٤٨) السنة (٣١) بتاريخ محرم ١٤٢٧هـ - فبراير ٢٠٠٦م.

كان شيخ الطريقة الذي يعبدُه أتباعه يأكل عسلاً مثلاً، وجاء ذباب فأخذ شيئاً من ذلك العسل، لا يستطيع الشيخ أن يقاومه ويسترده منه، ﴿مَضَعَكَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ مَا فَكَّرُوا اللَّهَ حَقَّ فَكْرِهِ﴾ ولو قدروه حق قدره ما عبدوا معه غيره، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾، لا يغلب من استنصره.

سُورَةُ الْمُؤْمِنُونَ

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَّقُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنَ إِلَهِ غَيْرِهِ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۝ (٢٣) فَقَالَ الْمَلَأُوا الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَنْفَضِّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ۝ (٢٤) إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جَنَّةٌ فَنَرَىٰصُورًا﴾
 بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾ [المؤمنون: ٢٣ - ٢٥]

قال (ك): «يخبر تعالى عن نوح عليه السلام حين بعثه إلى قومه لينذرهم عذاب الله وبأسه الشديد، وانتقامه ممن أشرك به وخالف أمره وكذب رسله، ﴿فَقَالَ يَتَّقُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنَ إِلَهِ غَيْرِهِ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ أي: ألا^(١) تخافون من الله في إشراككم به؟ فقال الملاء وهم السادة والأكابر منهم: ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَنْفَضِّلَ عَلَيْكُمْ﴾، يعنون: يترفع عليكم ويتعاضم بدعوى النبوة، وهو بشر مثلكم، فكيف أوحى إليه دونكم؟ ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً﴾ أي: لو أراد أن يبعث نبياً، لبعث ملكاً من عنده ولم يكن بشراً، ﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا﴾ أي: ببعث البشر ﴿فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ يعنون بهذا أسلافهم وأجدادهم في الدهور الماضية.

وقوله: ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جَنَّةٌ﴾ أي: مجنون فيما يزعمه، من أن الله أرسله إليكم واختصه من بينكم بالوحي، ﴿فَنَرَىٰصُورًا﴾ أي: انتظروا به ريب المنون، واصبروا عليه مدة حتى تستريحوا منه^(٢).

(١) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «لا»!

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٠/١٢٠).

فصل

قال محمد تقي الدين: تقدم الكلام في قصة نوح مع قومه، وسيأتي إن شاء الله، والمهم في هذا الموضع أن حجة قوم نوح وهي قولهم: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ هي حجة المشركين في هذا الزمان يقولون: لم نزل نرى العلماء ونسمع كلامهم، فما رأينا أحداً منهم ينكر بناء القباب على القبور والذبح لها، والنذور وإقامة المواسم حتى جاء هذا الرجل!!

﴿الباب الثاني﴾

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ (٣١) فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٣٢) وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِإِيقَاءِ الْآخِرَةِ أَتُرفَنَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ (٣٣) وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَسِرُونَ (٣٤) [المؤمنون: ٣١ - ٣٤]

قال محمد تقي الدين: يقول الله تعالى: وبعد قوم نوح أنشأنا قوماً آخرين، وأرسلنا إليهم رسولا منهم، وأول ما دعاهم إليه كسائر رسل الله أن اعبدوا الله وحده لا شريك له، ولا تعبدوا معه أحداً، فكذبوه وأنكروا البعث والمعاد، فدعا الله تعالى أن ينصره عليهم، فاستجاب الله دعاءه وأهلكهم، وتلك سنته سبحانه مع رسله، وكل من اتبعهم بصدق إلى يوم القيامة، اللهم اجعلنا ممن اتبع رسلك وخاصة أفضلهم محمداً ﷺ بصدق وإخلاص، فنصرتهم على أعدائهم، وأيدتهم بروح منك.

﴿الباب الثالث﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ (٥٢) فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فِرْحُونَ (٥٣) فَذَرَهُمْ فِي عَمَرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ (٥٤) أَيْحَسِبُونَ أَنَّما نُفِذُهُم بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَيْنَ (٥٥) سُارِعُ لَهْمٌ فِي الْخَيْرِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ (٥٦) إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ

﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُولَٰئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴿٦١﴾ [المؤمنون: ٥٢ - ٦١]

قال (ك): «قوله تعالى: ﴿وَلَنْ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أي: دينكم يا معشر الأنبياء دين واحد، وملة واحدة، وهو الدعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ولهذا قال: ﴿وَأَنَا رُبُّكُمْ فَاقْبَلُون﴾ وقوله: ﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا﴾ أي: الأمم الذين بعثت الأنبياء إليهم^(١)، ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فِرَاحُونَ﴾ أي: يفرحون بما هم فيه من الضلال لأنهم يحسبون أنهم مهتدون، ولهذا قال [تعالى مهدداً]^(٢) لهم ومتوعداً: ﴿فَذَرْنُهُمْ فِي غَتَرَتِهِمْ﴾ أي: في غيهم وضلالهم ﴿حَتَّىٰ يَخْرُجُوا﴾ أي: إلى حين حينهم وهلاكهم كما قال تعالى: ﴿فَهَلْ الْكَافِرِينَ أَتَيْنَهُمُ رِيبًا﴾ [الطارق: ١٧].

وقوله: ﴿يَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُسِّدُهُمْ بِهِ مِنْ نَّالٍ وَبَيْنَ﴾ ﴿سَارِجٍ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ﴿٥١﴾، يعني: أيظن هؤلاء المغرورون أن ما نعطيهم من الأموال والأولاد لكرامتهم علينا ومعزتهم عندنا، كلا ليس الأمر كما يزعمون في قولهم: ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾ [سبأ: ٣٥] لقد أخطأوا في ذلك وخاب رجاؤهم، بل إنما نعمل بهم ذلك استدراجاً وانظاراً وإملاءً، ولهذا قال: ﴿بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ كما قال تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [التوبة: ٥٥].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا تُحِلُّ لَهُمْ لِيَزَادُوا إِثْمًا﴾، وقال الإمام أحمد بسنده إلى عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم، وإن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الدين إلا من أحب، فمن أعطاه الله الدين فقد أحبه، والذي نفس محمد بيده لا يسلم عبد حتى يسلم قلبه ولسانه، ولا يؤمن حتى يأمن جاره بوائقه، قالوا: وما بوائقه يا رسول الله؟ قال: غشمة وظلمه، ولا يكسب عبد مالاً من حرام فينفق منه فيبارك له فيه، ولا يتصدق به فيقبل منه، ولا يتركه خلف ظهره إلا كان زاده إلى النار، إن الله لا يمحو السيئ بالسيئ، ولكنه يمحو السيئ بالحسن، إن الخبيث لا

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «إليهم الأنبياء».

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «متهدداً».

يَمَحُو الْخَبِيثَ^(١).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ تُشْفِقُونَ ٥٧﴾ إلى قوله: ﴿سَاقُونَ﴾، قال (ك): «يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ تُشْفِقُونَ ٥٧﴾ أي: هم مع إحسانهم وإيمانهم وعملهم الصالح مشفقون من الله خائفون منه وجلون من مكره بهم، كما قال الحسن البصري: إن المؤمن جمع إحساناً وشفقة، وإن الكافر^(٢) جمع إساءة وأمناً.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ يَخِشَوْنَ رَبَّهُمْ يُؤْمِنُونَ ٥٨﴾ أي: يؤمنون بآياته الكونية والشرعية، كقوله تعالى إخباراً عن مريم عليها السلام: ﴿وَصَدَقْتَ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُنْتِ مِنْ أَقْنَتِ مَا كَانَ إِنَّمَا^(٣) هُوَ عَنْ قَدَرِ اللَّهِ وَقَضَائِهِ، وَمَا شَرَعَهُ اللَّهُ فَهُوَ إِنْ كَانَ أَمراً فَمِمَّا يَحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ، وَإِنْ كَانَ نَهياً فَهُوَ مِمَّا يَكْرَهُهُ وَيَأْبَاهُ، وَإِنْ كَانَ خَبراً فَهُوَ حَقٌّ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ٥٩﴾ أي: لا يعبدون معه غيره، بل يوحدونه ويعلمون أنه لا إله إلا هو^(٤) واحداً صمداً لم يتخذ صاحبة ولا ولداً، وأنه لا نظير له ولا كفاء له.

وقوله^(٥): ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ٦٠﴾ أي: يعطون العطاء وهم خائفون وجلون^(٦) أن لا يتقبل منهم؛ لخوفهم أن يكونوا قد قصرُوا في القيام بشرط الإعطاء، وهذا من باب الإشفاق والاحتياط، كما قال الإمام أحمد والترمذي بسنده عن عائشة أنها قالت: يا رسول الله ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ٦٠﴾ هو الذي يسرق ويزني ويشرب الخمر وهو يخاف الله تعالى؟ قال: «لا يا بنت الصديق، ولكنه يصلي ويصوم ويتصدق

(١) أخرجه أحمد (٣٨٧/١) - ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (١٦٦/٤) -، والبخاري في «التاريخ الكبير» (٣١٣/٤)، والشاشي (٨٧٧)، وابن عدي في «الكامل» (١١٥٨/٣)، والبزار (٣٥٦٢ - «زوائده»)، والحاكم (٤٤٧/٢)، والبخاري (٢٠٣٠)، والبيهقي في «الشعب» (٥٥٢٤) مرفوعاً، وصوب الدارقطني في «العلل» (٢٧١/٥) وقعه.

وأخرج الموقوف: ابن المبارك في «الزهد» (١١٣٤)، والبخاري في «التاريخ الكبير» (٤/٣١٣)، والطبراني في «الكبير» (٨٩٩٠) وفصلت في نصرته في شرحي لجزء أبي عمرو الداني في علوم الحديث، وسميته «بهجة المتنفع» وفرغت منه، والحمد لله وحده.

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «المنافق». (٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «فإنما».

(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الله».

(٥) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «كقوله»!

(٦) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».

ويخاف الله ﷻ»^(١).

وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْمَغْزَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾، قال صاحب «جامع البيان في تفسير القرآن»: ﴿أُولَئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْمَغْزَاتِ﴾، أي: أولئك يسارعون في نيل خيرات الدارين بمزاولة الأعمال الصالحة، فيعطيهن خير الدنيا والآخرة ﴿وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ أي: يسبقون غيرهم.

فصل

قال محمد تقي الدين: في هذا الكلام فوائد:

الأولى: إن دين الأنبياء واحد، وإن اختلفت شرائعهم، فكلهم جاؤوا بعبادة الله وحده لا شريك له، وبإقامة العدل والإحسان بين الناس، كما قال تعالى في سورة الشورى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣] فليس في دين أي نبي شرك بالله ولا ظلم لعباد الله، فتفرقت الأمم في الدين وتنازعت، وتفرقت كل أمة منها إلى فرق، والناجون منهم هم المتبعون للرسول، ومن طبع الأحزاب والفرق أن يفرح كل حزب بما عنده، ويدعي أنه الحق، ولكن (عند الصباح يحمد القوم السرى)^(٢) - والصباح: الموت وما بعده - فحينئذ يفرح أهل الحق الذين وحدوا الله واتبعوا رسله، ويندم أهل الباطل الذين أشركوا بالله وابتدعوا في دين الله، والمثل الألماني يقول ما معناه: (الذي يضحك آخرأ هو خير الضاحكين)، يعنون بهذا المثل: إن الذي يضحك أولاً ثم يبكي آخرأ فضحكه شر عليه.

(١) أخرجه أحمد (١٥٩/٦)، والترمذي (٣١٧٥)، وابن ماجه (٤١٩٨)، والحميدي (٢٧٥)، وأبو يعلى (٤٩١٧)، والطبراني في «الأوسط» (٣٩٧٧)، والحاكم (٣٩٣/٢ - ٣٩٤)، وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه» - والبيهقي في «الشعب» (٧٦٢)، و«معرفة السنن والآثار» (٢٠٨٥٤)، وانظر: «الصحيحة» (٣٠٤/١ - ٣٠٦) رقم (١٦٢)، و«العلل» للدارقطني (١٩٣/١١)، وما مضى من «تفسير ابن كثير» (١٢٩/١٠ - ١٣٠).

(٢) مثل: أول من قاله خالد. وهو بيت شعر، وعجزه (وتنجلي عنهم غياباً بالكري)، يضرب للرجل يحتمل المشقة رجاء الراحة. انظر: «مجمع الأمثال» (٣١٨/٢): وجعله العسكري في «جمهرة الأمثال» (٤٢/٢) عجز بيت صدره: (قُلْتُ: أعزّي صاحبي ألا بلى)، ونسبه للجُميح. وانظر: «المستقصى» (١٦٨/٢)، «فصل المقال» (٢٠٩، ٢٦٦)، «الفاخر» (١٩٣)، «الحيوان» (٥٠٨/٦)، «معجم الأمثال العربية» (١٥٨٢/٢ - ١٥٨٤).

الثانية: قول النبي ﷺ: «إن الله لا يمحو السيئ بالسيئ»^(١)؛ مثال ذلك: من اغتصب أرضاً وزرعها واكتسب من زراعته مالاً كثيراً فحج به وتصدق وأنفق على الأراامل واليتامى، وبنى به المساجد لا يقبل الله منه شيئاً، لأن ذلك الاغتصاب سيئة، وتلك الأعمال التي عملها وظنها من الصالحات هي أيضاً سيئة، والسيئ لا يمحو السيئ، كمن غسل الدم بالدم.

الثالثة: قرأ الجمهور ﴿يُؤْتُونَ مَا آتَوْا﴾ من آتى الرباعي، بمعنى: أعطى، وقرئ «يأتون ما أتوا»^(٢) من أتى الثلاثي، أي: يفعلون ما فعلوا، وهي قراءة عائشة روتها عن النبي ﷺ^(٣) ولذلك التبس عليها الأمر فسألت عن الأفعال التي يفعلونها أهى المعاصي؟ فأخبرها النبي ﷺ^(٤) أنها الأعمال الصالحة وهم مع ذلك خائفون أن لا تقبل منهم؛ لأن محبطات الأعمال كثيرة، والحازم يغلب الخوف على الرجاء إلا في الاحتضار حين تنقطع الأعمال أو تكاد، ولو قرأت عائشة بقراءة الجمهور ما وقع لها التباس.

الرابعة: قول النبي ﷺ لعائشة: «لا يا بنت الصديق»^(٥). فيه تكريم لها

- (١) قطعة من حديث ابن مسعود المتقدم قريباً بتمامه، وهناك تخريجه.
- (٢) هذه قراءة ابن عباس وقتادة والأعمش والحسن والنخعي وعاصم الجحدري، قال الزجاج في «معاني القرآن» (١٦/٤) عن القراءتين: «وكلاهما جيد بالغ». وانظر: «المحتسب» (٩٥/٢)، «معاني القرآن» للفراء (٢٣٨/٢)، «البحر المحيط» (٦/٤١٠)، «تفسير الرازي» (١٠٨/٢٣)، «الكشاف» (٣٦٤/٢)، «تفسير ابن عطية» (١٠/٣٧١)، «زاد المسير» (٤٨٠/٥)، «الدر المصون» (١٩٢/٥).
- (٣) ورد ذلك في حديث فيه قول عائشة عن هذه القراءة:
- «أشهد أن رسول الله ﷺ كذلك كان يقرؤها، وكذلك أنزلت، أو قالت: أشهد لكذلك أنزلت وكذلك كان رسول الله ﷺ يقرؤها، ولكن الهجاء حُرِّفَ».
- أخرجه أحمد (٩٥/٦)، وإسحاق بن راهويه (١٦٤٤) مسند عائشة، والبخاري في «التاريخ الكبير» (٢٨/٩)، وابن جرير (٣٣/١٨)، وأبو عمر الدوري في «جزء فيه قراءات النبي ﷺ» رقم (٨٥، ٨٦)، وأبو أحمد الحاكم في «الكنى» - كما في «تعجيل المنفعة» (٤٨١) - بسند ضعيف، فيه أبو خلف مولى بني جمح مجهول.
- نعم، له طرق أخرى عند الحاكم (٢٣٥/٢، ٢٤٦)، والفراء في «معاني القرآن» (٢/٢٣٨)، ولكن مدارها على مجاهيل وضعفاء أو متروكين، ولذا لما صححه الحاكم، تعقبه الذهبي بقوله: «يحيى ضعيف» يريد ابن راشد.
- (٤) في حديث، تقدم لفظه وتخريجه. (٥) قطعة من حديث تقدم قريباً.

ولأبيها ﷺ، فويل للرافضة الذين يبغضونهما بغضاً شديداً، ومن العجب أنني لما كنت في العراق تخرجت على يدي في جامعة بغداد طالبة اسمها عائشة من الموصل، وكانت بيني وبين أخويها صداقة، فبقيت في بيتنا تنتظر التعيين، فعينتها وزارة المعارف معلمة في مدرسة ثانوية بمدينة كربلاء، وكربلاء مدينة شيعية فيها ضريح ينسب للحسين بن علي ﷺ وعليه قبة مذهبة، وهذا الضريح مكذوب؛ لأن قبر الحسين مجهول، لأنه قتل في فتنه، وكذلك القبة التي في القاهرة، يزعمون أن رأسه مدفون تحتها، هو كذب أيضاً، فإن رأسه حمل إلى يزيد بن معاوية، ولا يعرف ما جرى عليه بعد ذلك، والمقصود أن الطالبة المذكورة لم تقبل العمل في كربلاء؛ لأنه من المشهور عند الناس أن الشيعة الرافضة إذا وجدوا شخصاً اسمه أبو بكر أو عمر أو امرأة اسمها عائشة يؤذون من يسمى بهذه الأسماء وربما قتلوه.

وقد أخبرني الشيخ عمر خطاب أبو تلميذي (قيس خطاب) أنه يلاقي مشقة عظيمة وصعوبات في المعاملة بسبب اسمه^(١)، فقال لي: إن والدي جلبا عليّ شقاء بسبب تسميتهما لي بهذا الاسم، فكلما دخلت مكتباً من مكاتب الدولة، وسألني رئيسه: ما اسمك؟ فقلت: عمر، يظهر العبوس في وجهه، ولا يقضي حاجتي إلا بعد اللتيا والتي، فهؤلاء القوم الضالون يهينون ويبغضون من كرمهم الرسول وأحبهم، فالحمد لله الذي عافانا مما ابتلوا به.

﴿الباب الرابع﴾

قوله تعالى: ﴿مَا أَخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلِيٍّ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنَ إِلَهٍ إِذَا لَدَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَنَ اللَّهُ عَمَّا يُصِفُونَ ۚ عِلْمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَلَّىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [المؤمنون: ٩١، ٩٢]

«ينزه تعالى نفسه عن أن يكون له ولد أو شريك في الملك [والتصرف والعبادة]^(٢) فقال تعالى: ﴿مَا أَخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلِيٍّ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنَ إِلَهٍ إِذَا لَدَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ أي: لو قدر تعدد الآلهة لانفرد كل منهم بما خلق^(٣)،

(١) كذا في زمنه! أما اليوم فيقتل أهل السنة بسبب أسمائهم، ولا سيما في الحوادث الأخيرة، والفتن المدلهمة في العراق، وقى الله المسلمين شرورها، ونجى أهل السنة والجماعة منها، وحفظ الله بيضتهم، وكثرهم، وبارك فيهم، وعصم دماءهم وأموالهم وأعراضهم.

(٢) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير». (٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «يخلق».

فما كان ينتظم الوجود، والمشاهد أن الوجود منتظم، متسق كل من العالم العلوي والسفلي مرتبط ببعضه ببعض في غاية الكمال ﴿مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَوتٍ﴾ [المك: ٣] ثم لكان كل منهم يطلب قهر الآخر وخلافه، فيعلو بعضهم على بعض.

والمتكلمون ذكروا هذا المعنى وعبروا عنه بدليل التمانع، وهو أنه لو فرض صانعان فصاعداً، فأراد واحد تحريك جسم والآخر أراد^(١) سكونه، فإن لم يحصل مراد كل واحد منهما كانا عاجزين، والواجب لا يكون عاجزاً ويمتنع اجتماع مراديهما للتضاد، وما جاء هذا المحال إلا من فرض التعدد، فيكون محالاً فأما إن حصل مراد أحدهما دون الآخر، كان الغالب هو الواجب، والآخر المغلوب ممكناً، لأنه لا يليق بصفة الواجب أن يكون مقهوراً، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَنَ اللَّهُ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ أي: عما يقول الظالمون المعتدون في دعواهم الولد أو الشريك علواً كبيراً، ﴿عَلِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ أي: يعلم ما يغيب عن المخلوقات وما يشاهدونه، ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي: تقدس وتنزه وتعالى وعز وجل عما يقول الظالمون والجاحدون^(٢).

فصل

قال محمد تقي الدين: وتقدم في سورة الأنبياء قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلَهِةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢] وتقدم في سورة الإسراء: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلَهِةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا تُبْعَثُوا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ [٢١] سُبْحَنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عَلَواً كبيراً ﴿٤٣﴾ [الإسراء: ٤٢، ٤٣] فالنظام الواحد يدل على إله واحد، والألوهية لا توهب، لأنها خاصة بالواحد الأحد، ومن سخافة جهال المغاربة أنهم يقولون في الإنسان والحيوان والجماد: هذا الشيء فيه بركة، وكل ما فيه بركة بزعمهم يعبدونه حتى وصلوا إلى عبادة الحمير، ففي الدار البيضاء حجر يسمى للاحمارة تعبدته النساء^(٣).

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وأراد الآخر».

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٠/١٤٣ - ١٤٤).

(٣) للمصنف ثلاث مقالات في الرد على عابديه، كتبها استجابة لدعوة امرأة غيرة على التوحيد، ونشرها في جريدة «العلم» المغربية الأعداد (١١٣، ١١٩، ١٣١) بتاريخ ربيع الثاني وجمادى الأولى ١٣٨٠، وهي بعنوان (صور من حياتنا الاجتماعية)، وهي في كتابنا «مقالات الهلالي» يسر الله نشره بمنه وكرمه.

﴿الباب الخامس﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُمْ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّحِيمِينَ ﴿١١٨﴾﴾ [المؤمنون: ١١٧، ١١٨]

قال (ك): «يقول تعالى متوعداً من أشرك به غيره، وعبد معه سواه ومخبراً أن من أشرك بالله ﴿لَا بُرْهَانَ لَهُ﴾ أي: لا دليل على قوله فقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ﴾ وهذه جملة معترضة وجواب الشرط في قوله: ﴿فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ أي: الله^(١) يحاسبه على ذلك، ثم أخبر ﴿إِنَّهُمْ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ أي: لديه يوم القيامة فلا فلاح لهم ولا نجاة. وقوله تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّحِيمِينَ ﴿١١٨﴾﴾ هذا إرشاد من الله تعالى إلى هذا الدعاء، فالغفر إذا أطلق معناه: محو الذنب وستره عن الناس، والرحمة معناه: أن يسدده ويوفقه في الأقوال والأفعال»^(٢).

فصل

قال محمد نقي الدين: هاتان الآيتان معناهما واضح، وقد أجاد الحافظ ابن كثير في تفسيرهما، وتقدم البرهان على أن من دعا غير الله لقضاء حاجته أو تفريج كربته، فقد اتخذ ذلك المدعو إلهاً، وكفر بالله، بدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾، ومن تبرك بشجرة أو حجر فقد اتخذها إلهاً، وقد تقدم بسط ذلك في سورة الأعراف، وقول الإمام ابن كثير في قوله تعالى: ﴿لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ﴾: «إنها جملة معترضة» عندي فيه نظر، والظاهر أنها صفة لـ ﴿إِلَهًا﴾ وهي صفة لازمة كقول النحاة: خلق الله الزرافة يديها أطول من رجليها، فأطول حال لازمة، والحال أصلها صفة، ويجوز أن تكون هذه الجملة حالاً من ﴿إِلَهًا﴾؛ لأن النكرة إذا وصفت تجيء الحال بعدها، قال الشاعر:

نَجَّيْتَ يَا رَبُّ نَوْحاً وَاسْتَجَبْتَ لَهُ فِي فُلْكِ مَآخِرٍ فِي الْيَمِّ مَشْحُونَا
فَمَشْحُونَا: حال من الفلك؛ لأنها وصفت بماخر، وهي أيضاً حال لازمة.

(١) من مطبوع «تفسير ابن كثير»، وسقط من الأصل.

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٥٧/١٠ - ١٥٨) بتصرف.

سُورَةُ الْفُرْقَانِ

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ ﴿١﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ نَقْدِيرًا ﴿٢﴾ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا شُورًا ﴿٣﴾ [الفرقان: ١-٣]

قال (ك): «معنى ﴿تَبَارَكَ﴾: كثرت بركته وخيره، و﴿الْفُرْقَانُ﴾ هو القرآن؛ لأنه يفرق بين الحق والباطل، وقوله: ﴿عَلَى عَبْدِهِ﴾ هذه صفة مدح وثناء، وقوله: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ أي: إنما خصه بهذا الكتاب المفصل العظيم المبين^(١) المحكم الذي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ ﴿٤١﴾ [فصلت: ٤٢] الذي جعله فرقاناً عظيماً^(٢) ليخصه بالرسالة إلى من يستظل بالخضراء، ويستقل على الغبراء، كما قال ﷺ: «بعثت إلى الأحمر والأسود»^(٣). وقال: «إني أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي». فذكر منهم: «إنه كان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعث للناس عامة»^(٤)، كما قال^(٥) تعالى: ﴿قُلْ

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «العظيم المبين المفصل».

(٢) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «إنما خصه به».

(٣) أخرجه مسلم (٥٢٣)، وأبو عوانة (٣٩٥/١)، والترمذي (١٥٥٣)، وأحمد (٤١٢/٢)، وغيرهم من حديث أبي هريرة.

(٤) أخرجه البخاري (٣٣٥)، ومسلم (٥٢١) من حديث جابر.

وأخرجه مسلم (٥٢٢)، وأحمد (٣٨٣/٥)، والبيهقي (٢١٣/١) من حديث حذيفة.

(٥) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وقال الله».

يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴿[الأعراف: ١٥٨] الآية، أي: الذي أرسلني^(١) هو مالك السموات والأرض^(٢)، ﴿وَلَمْ يَنْخُذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَمْ شَرِيكٌ فِي الْمَلِكِ﴾ ونزه^(٣) نفسه عن الولد وعن الشريك، ثم أخبر أنه ﴿خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدْ رُفِعَ لَدُنْهُ فَتَقَرَّبَ﴾ أي: كل شيء مما سواه مخلوق مربوب، وهو خالق كل شيء، وربّه ومليكه وإلهه، وكل شيء تحت [قهره وتدييره وتسخيريه وتقديره]^(٤).

وقوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً﴾ إلى قوله: ﴿ثُورًا﴾. قال (ك): «يخبر تعالى عن جهل المشركين في اتخاذهم آلهة من دون الله، المالك لأزمة الأمور، الذي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، ومع هذا عبدوا معه من الأصنام ما لم^(٥) يقدر على خلق جناح بعوضة، بل هم مخلوقون ولا يملكون لأنفسهم ضرراً ولا نفعاً، فكيف يملكون لعبادتهم؟

﴿وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا ثُورًا﴾ أي: ليس لهم^(٦) من ذلك شيء بل ذلك كله مرجعه إلى الله^(٧) الذي يحيي ويميت، وهو الذي يعيد الخلائق يوم القيامة، أولهم وآخرهم: ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كَفَافٍ وَجَدُوهُمْ﴾ [القمان: ٢٨] فهو الله الذي لا إله غيره، ولا رب سواه، ولا تنبغي العبادة إلا له، لأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وهو الذي لا ولد له، ولا والد ولا عدل ولا نديد^(٨) ولا وزير ولا نظير، بل هو الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد^(٩). اهـ (ك).

فصل

قال محمد تقي الدين: قول (ك): «المن يستظل بالخضراء ويستقل على

- (١) من مطبوع «تفسير ابن كثير» وسقط من الأصل.
- (٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الذي يقول للشيء: كن، فيكون وهو الذي يحيي ويميت، وهكذا قال ههنا: ﴿الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ أَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾».
- (٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «فتزّه».
- (٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «قدره وتقديره وتسخيريه وتدييره».
- (٥) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «لا». (٦) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «إليهم».
- (٧) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «مرجعه كله إلى الله».
- (٨) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «بدل»!
- (٩) انظر: «تفسير ابن كثير» (٢٨٣/١٠ - ٢٨٤) بتصرف.

الغبراء»، الخضراء: هي السماء، والغبراء: هي الأرض، كما قال النبي ﷺ: «ما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء أصدق لهجة من أبي ذر»^(١). المراد بذلك أن محمداً ﷺ أرسل إلى جميع من هم على الأرض وتحت السماء من العقلاء - الإنس والجن - ليكون لهم نذيراً يحذرهم من عذاب الله إذا أقاموا على الشرك والمعاصي، ولم يمتثلوا ما أمرهم الله به.

الثانية: إن المشركين سفهاء؛ لأنهم اتخذوا آلهة من أهل الأرض، وآلهة أخرى من أهل السماء، مع علمهم بأنهم مخلوقون عاجزون لا يملكون لأنفسهم ضرراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة، فكيف يستطيعون أن ينفعوا غيرهم؟

الباب الثاني

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُوا أَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ۖ﴾ (٧) قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَءَابَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا ۖ﴾ (٨) فَقَدْ كَذَّبْتُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَنْ يَظْلِم مِّنْكُمْ نَذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ۖ﴾ [الفرقان: ١٧ - ١٩]

قال (ك): «يقول تعالى مخبراً عما يقع يوم القيامة من تقريع الكفار في عبادتهم من عبدوا من دون الله من الملائكة وغيرهم، فقال: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا

(١) أخرجه الترمذي (٣٨٠٢)، وابن حبان (٢١٣/١٠) رقم (٧٠٨٨) - «التعليقات الحسان»، والطبراني في «الأوسط» (٢٢٣/٥)، وابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (٢٣١/٢)، والحاكم (٣٤٢/٣) وقال: «صحيح على شرط مسلم» ووافقه الذهبي، وقال شيخنا الألباني في «الصحيحة» (٤٥٤/٥): «وهو كما قالوا على ضعف يسير في عكرمة بن عمار».

قال أبو عبيدة: وفي الباب ما يقويه، وهو حديث عبد الله بن عمرو، أخرجه ابن أبي شيبة (١٢٤/١٢)، وأحمد (١٦٣/٢)، (١٧٥، ٢٢٣)، والبخاري في «التاريخ الكبير» (٩/٢٣)، والترمذي (٣٨٠١)، وابن ماجه (١٥٦)، وابن سعد (٢٢٨/٤)، والدولابي في «الكنى والأسماء» (١٤٦/١)، والحاكم (٣٤٢/٣). وفي الباب عن أبي هريرة وأبي الدرداء، ومن مراسيل مالك بن دينار وابن سيرين، والحديث حسن بمجموع طرقه.

يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴿١﴾ قال مجاهد: هو عيسى [والعزير] والملائكة ﴿١﴾ ﴿فَيَقُولُ
 ءَأَنْتُمْ أَضَلُّلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ﴾ الآية، فيقول ﴿٢﴾ تبارك وتعالى [للمعبودين] ﴿٣﴾: أأنتم
 دعوتهم هؤلاء إلى عبادتكم من دوني، أم هم عبدوكم من تلقاء أنفسهم من غير
 دعوة منكم لهم؟ كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ
 لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي آلِهَتَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالِ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي
 بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتُمْ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ
 الْغُيُوبِ ﴿٤﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا (٤) اللَّهُ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ [المائدة: ١١٦،
 ١١٧] ﴿٥﴾ الآية.

ولهذا قال تعالى مخبراً عما يجب به المعبودون يوم القيامة: ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ
 مَا كَانَ يَلْبِغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ أي: ليس للخلائق كلهم أن يعبدوا
 أحداً سواك ﴿٦﴾ فنحن ما دعوناهم إلى ذلك، بل هم فعلوا ذلك من تلقاء أنفسهم
 من غير أمرنا ولا رضانا، ونحن برءاء منهم ومن عبادتهم، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ
 يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَكِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٧﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِسْنَا
 مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ ﴿٨﴾﴾ الآية [سبا: ٤٠، ٤١]
 ﴿وَلَكِنْ مَتَّعْتُهُمْ وَءَابَأَهُمُ﴾ أي: طال عليهم العمر ﴿حَقَّ سَوْءُ الذِّكْرِ﴾ أي: نسوا
 ما أنزلته إليهم على السنة رسلهم من الدعوة إلى عبادتك وحدك لا شريك لك،
 ﴿وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا﴾ قال ابن عباس: أي: هلكى ﴿٧﴾.

قال الله تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبَكُمْ بِمَا تَقُولُونَ﴾ أي: فقد كذبكم الذين عبدتم

(١) أخرجه ابن جرير (٤١٥/١٧) وابن أبي حاتم (٢٦٧٢/٨)، وهو في «تفسير مجاهد» (٢/٤٤٨). وعزاه في «الدر المنثور» (٦٥/٥) للفريابي وابن أبي شيبه وعبد بن حميد وابن المنذر، وما بين المعقوفتين سقط من الأصل، وهو في «تفسير ابن كثير» ومصادر التخريج.

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أي: فيقول الرب».

(٣) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير». (٤) في الأصل: «يعبدوا».

(٥) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «إلى آخر».

(٦) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «لا نحن ولا هم».

(٧) أخرجه ابن أبي حاتم (٢٦٧٣/٨) وابن جرير (٤١٧/١٧)، وهو في «صحيفة علي بن أبي طلحة» (رقم ٩٤٤)، ومثله في «تفسير مجاهد» (٢/٤٤٨)، وأسند عنه ابن جرير (٤١٧/١٧) والفريابي وابن أبي شيبه وعبد بن حميد وابن المنذر، كما في «الدر المنثور» (٦٥/٥).

[من دون الله] ^(١) فيما زعمتم أنهم لكم أولياء [أنهم] ^(٢) يقربونكم إلى الله زلفى، كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْبَيِّنَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأحقاف: ٥، ٦] وقوله: ﴿فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا﴾ أي: لا يقدرون على صرف العذاب عنهم ولا الانتصار لأنفسهم، ﴿وَمَنْ يَظْلِم مِّنْكُمْ﴾ أي: يشرك بالله ﴿نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾ ^(٣).

فصل

قال محمد تقي الدين: في هذا الكلام فوائد عظيمة النفع لمن فكر فيها وفهمها:

الأولى: إن الله تعالى يجمع العابدين والمعبودين يوم القيامة؛ ليخزي العابدين ويوقعهم في الحسرة والندامة، فيقول للمعبودين كعيسى بن مريم، وعزير والملائكة، والجن والصالحين: ﴿أَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءَ﴾ فقلتم: اعبدونا بالذبح والدعاء والنذر والاستغاثة والتوكل والرجاء والخضوع والتذلل، ونحن نتكفل لكم بقضاء حاجاتكم عند الله في الدنيا وندخلكم الجنة يوم القيامة؟ أم من تلقاء أنفسهم ضلوا السبيل فعبدوكم من دون الله، واعتمدوا عليكم في قضاء الحاجات وتفريج الكربات؟ فيجيب أولئك المعبدون عن سؤال الله تعالى لهم بقولهم: ﴿سُبْحَنَكَ﴾ ننزهك أن يعبد معك غيرك، ﴿مَا كَانَ يَلْبِغِي لَنَا﴾ أن نقول لهؤلاء المشركين ولا أن نرضى بعملهم، ولكن أنت يا رب متعتهم ومتعت آباءهم من قبلهم بطول العمر وسعة الجاه والأموال والأولاد حتى نسواذكرك ونبذوا كتابك وما جاءت به رسلك، وكانوا قوماً هالكين.

ثم يقول الله تعالى للعبادين: اسمعوا، ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ بِمَا تَقُولُونَ﴾ وتزعمون من أنهم كانوا راضين عنكم بعبادتكم لهم، فأنتم وهم في هذا اليوم عاجزون، لا يستطيعون صرف العذاب عنكم، ولا يستطيعون أن تنصروا أنفسكم ولا غيركم، ﴿وَمَنْ يَظْلِم مِّنْكُمْ﴾ ظلماً كبيراً - وهو الشرك بالله - أو ظلماً صغيراً - وهو المعاصي -، ﴿نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾. اهـ.

(١) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وأنكم اتخذتموهم قربانا».

(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٠/٢٩١ - ٢٩٣) بتصرف.

الباب الثالث

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَنْخَذُوكَ إِلَّا هُرُوءًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾ (٤١) **إِن كَادَ لَيُضِلَّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حَيْثُ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا** (٤٢) **أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوْنَهُ أَفَأَن تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا** (٤٣) **أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِن هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا** (٤٤) [الفرقان: ٤١ - ٤٤]

قال (٤): «يخبر تعالى عن استهزاء المشركين بالرسول ﷺ إذا رأوه، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنْخَذُوكَ إِلَّا هُرُوءًا﴾ الآية [الأنبياء: ٣٦] يصفونه^(١) بالعيب والنقص وقال ههنا: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَنْخَذُوكَ إِلَّا هُرُوءًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾ (٤١) أي: على سبيل التنقص والازدراء فقبحهم الله، كما قال: ﴿وَلَقَدْ اسْتَهْزَيْتُمْ بُرْسُلِي مِن قَبْلِكَ﴾ الآية [الأنعام: ١٠].

وقوله تعالى: ﴿إِن كَادَ لَيُضِلَّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا﴾ يعنون: أنه كاد يفتنهم^(٢) عن عبادة الأصنام^(٣) لولا أن صبروا وتجلدوا واستمروا عليها^(٤) قال الله تعالى متوعداً لهم ومتهدداً: ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حَيْثُ يَرَوْنَ الْعَذَابَ﴾ الآية.

ثم قال تعالى لنيبه منبهاً له^(٥) أن من كتب الله عليه الشقاوة والضلال، فإنه لا يهديه أحد إلا الله ﷻ: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوْنَهُ﴾ أي: مهما استحسّن من شيء ورآه حسناً^(٦) كان دينه ومذهبه كما قال تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوُّهُ عَلَيْهِ فَرَّاهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ﴾ الآية [فاطر: ٨] ولهذا قال ههنا: ﴿أَفَأَن تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ قال ابن عباس: «كان الرجل في الجاهلية يعبد الحجر الأبيض زماناً، فإذا رأى غيره أحسن منه عبد الثاني وترك الأول»^(٧).

ثم قال تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ﴾ الآية، أي:

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «يعنون». (٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «يشبههم».

(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أصنامهم».

(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «على عبادتها».

(٥) من مطبوع «تفسير ابن كثير» وسقطت من الأصل.

(٦) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «في هوى نفسه».

(٧) أخرجه ابن أبي حاتم (٢٦٩٩/٨) وعزاه في «الدر المنثور» (١١/١٨١) لابن مردويه أيضاً.

هم أسوأ حالاً من الأنعام السارحة، فإن تلك تفعل ما خلقت له، وهؤلاء خلقوا لعبادة الله وحده لا شريك له، فلم يفعلوا^(١) وهم يعبدون غيره ويشركون به مع قيام الحجة عليهم وإرسال الرسل إليهم^(٢).

فصل

قال محمد تقي الدين: كلُّ المشركين من عبّاد الشمس والقمر والملائكة والتمائيل وأرواح الأنبياء والصالحين وقبورهم والقباب المبنية عليها والأشجار التي جلسوا تحتها كلهم سواء، ولا يعقل أن يعبد أحد حجراً لأنه حجر، وإنما يعبدونه لأنه يعتقد أن روح معبوده متلبّسة به، وهي التي يرجو أن تقضي حاجته، وهذا من جهلهم بالله العظيم، الذي يقول في سورة البقرة: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦] والجهل أصل لما في النفس من داء، وقانا الله تعالى شر جهلنا، ورزقنا العلم النافع.

الباب الرابع

قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيراً ۝ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّراً وَنَذِيراً ۝ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مِن شَاءِ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ۝ وَتَوَكَّلْ عَلَىٰ الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً ۝ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَسَلِّ بِهِ خَبِيراً ۝ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُوراً ۝﴾ [الفرقان: ٥٥ - ٦٠]

قال (ك): «يخبر تعالى عن جهل المشركين في عبادتهم غير الله من الأصنام التي لا تملك لهم ضرراً ولا نفعاً^(٣) بلا دليل قادهم إلى ذلك، ولا حجة أدتهم إليه، بل بمجرد الآراء والتشهي والأهواء، فهم يوالونهم^(٤) ويقاتلون في

(١) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير». (٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٠/٣٠٩).

(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «نفعاً ولا ضرراً».

(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «يوالون لهم».

سبيلهم، ويعادون الله ورسوله [والمؤمنين]^(١) فيهم، ولهذا قال تعالى: ﴿وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا﴾ أي: عوناً في سبيل الشيطان على حزب الله، وحزب الله هم الغالبون، كما قال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُم يُنصَرُونَ﴾ (٧٤) لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُّحْضَرُونَ﴾ (٧٥) [يس: ٧٤، ٧٥] أي: آلهتهم التي اتخذوها من دون الله لا تملك لهم نصراً، وهؤلاء الجبهة للأصنام جند محضرون، يقاتلون عنهم ويذبون عن حوزتهم، ولكن العاقبة والنصر^(٢) لله ولرسوله [وللمؤمنين]^(٣) في الدنيا والآخرة، قال مجاهد: ﴿وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا﴾ قال: «يظاهر الشيطان على^(٤) معصية الله ويعينه»^(٥).

ثم قال تعالى لرسوله ﷺ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ (٥١) أي: بشيراً للمؤمنين، ونذيراً للكافرين، مبشراً بالجنة لمن أطاع الله، ونذيراً بين يدي عذاب شديد لمن خالف أمر الله، ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِن أَجْرٍ﴾ أي: على هذا البلاغ^(٦) وإنما أفعل ذلك ابتغاء وجه الله تعالى ﴿لِّمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾ (٥٨) [التكوير: ٢٨] ﴿إِلَّا مَن شَاءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ أي: طريقاً ومسلماً ومنهجاً يقتدي فيها بما جئت به.

ثم قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَىٰ الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ أي: في أمورك كلها كن متوكلاً على الله الحي الذي لا يموت أبداً الذي ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (٢) [الحديد: ٣] الدائم الباقي السرمدي الأبدي الحي القيوم رب كل شيء ومليكه، اجعله ذخرك وملجأك، وهو الذي يتوكل عليه ويفزع إليه، فإنه كافيك وناصرك ومؤيدك ومظفرك، كما قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الرُّسُولُ بِبَلَاغٍ مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِنَّ لَّكَ تَفْعَلُ مَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧] وروى ابن أبي حاتم بسنده عن شهر بن حوشب قال: لقي سلمان النبي ﷺ في بعض فجاج المدينة فسجد له فقال: «لا تسجد لي يا سلمان، واسجد للحي الذي

(١) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير». (٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «والنصرة».

(٣) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».

(٤) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير» ومصادر التخریج، وفي الأصل: «في».

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم (٢٧١١/٨) وابن جرير (٤٧٧/١٧)، وينحوه في «تفسير مجاهد»

(٢/٤٥٥)، وعزاه في «الدر المنثور» (٧٤/٥) إلى الفريابي وسعيد بن منصور وابن أبي

شيبه وعبد بن حميد وابن المنذر.

(٦) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وهذا الإنذار من أجرة أطلبها من أموالكم».

لا يموت»^(١)، وهذا مرسل حسن.

وقوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ﴾ أي: اقرن بين حمده وتسبيحه، ولهذا كان رسول الله ﷺ يقول: «سبحانك اللهم ربنا وبحمدك»^(٢) أي: أخلص له العبادة والتوكل، كما قال تعالى: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [المزمل: ٩].

وقوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِهِ يَذُنُوبَ عِبَادِهِ خَيْرًا﴾ أي: لعلمه^(٣) التام الذي لا يخفى عليه خافية، ولا يعزب عنه مثقال ذرة.

وقوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ الآية، أي: هو الحي الذي لا يموت، وهو خالق كل شيء وربّه ومليكه الذي خلق بقدرة وسلطانته السموات السبع في ارتفاعها واتساعها، والأرضين السبع في سفولها وكثافتها ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ أي: يدبر الأمر ويقضي الحق، وهو خير الفاصلين، وقوله: ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَسَلَّ بِهِ خَيْرًا﴾ أي: استعلم عنه من هو خير به عالم به واقتد به، وقد علم أنه لا أحد أعلم بالله ولا أخبر به من عبده ورسوله محمد صلوات الله وسلامه عليه، سيد ولد آدم على الإطلاق في الدنيا والآخرة الذي لا ﴿يُنْقِطُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ [٣] إِنَّ هُوَ إِلَّا وَحْدَىٰ يُوْحَىٰ [١] ﴿فما قاله [هو الحق]^(٤) وما أخبر به فهو الصدق^(٥) وهو الإمام المحكم، الذي إذا تنازع الناس في شيء، وجب ردّ نزاعهم إليه، فما وافق^(٦) أقواله وأفعاله فهو الحق، وما خالفها^(٧) فهو مردود على قائله وفاعله كائناً من كان، قال الله تعالى: ﴿فَإِنْ تَنَزَّعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ الآية [النساء: ٥٩] ولهذا قال تعالى: ﴿فَسَلَّ

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٢٨١٣/٨) رقم (١٥٢٩١)، وأبو نعيم في «تاريخ أصبهان» (١٠٣/٢)، والطبري في «تاريخه» (٢٣٤/١)، ط. الكتب العلمية، والدبلي في «مسند الفردوس» (٣٨٧/٥) رقم (٨٥١٠)، ط. الكتب العلمية) وهو مرسل، ولكن له شواهد هو بها حسن إن شاء الله تعالى، منها: حديث أنس، وابن أبي أوفى، وأبي هريرة: وخرجتها في تعليقي على «إعلام الموقعين» (٣٩٣ - ٣٩٤)، وانظر: «الإرواء» (٥٨ - ٥٤/٧).

(٢) أخرجه البخاري (٧٩٤) من حديث عائشة.

(٣) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «بعلمه»!

(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «فهو حق». (٥) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «صدق».

(٦) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «يوافق». (٧) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «يخالفها».

يَوْمَ خَيْرًا»، قال مجاهد في قوله تعالى: ﴿فَتَشَلُّ يَوْمَ خَيْرًا﴾ قال: «ما أخبرتك من شيء فهو كما أخبرتك»^(١).

ثم قال تعالى منكرأ على المشركين الذين يسجدون لغير الله من الأصنام والأنداد: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ؟ أَيْ: لا نعرف الرحمن وكانوا ينكرون أن يسمى الله باسمه الرحمن، كما أنكروا ذلك يوم الحديبية حين قال النبي ﷺ للكاتب: «اكتب (بسم الله الرحمن الرحيم)»، فقالوا: لا نعرف الرحمن ولا الرحيم ولكن اكتب كما كنت تكتب: باسمك اللهم^(٢)، ولهذا أنزل الله تعالى: ﴿قُلْ أَدْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الإسراء: ١١٠] أي: هو الله وهو الرحمن وقال في هذه الآية: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ؟ أَيْ: لا نعرفه ولا نقر به، ﴿أَسْجُدْ لِمَا تَأْمُرُنَا﴾ أَيْ: لمجرد قولك: ﴿وَرَأَدَهُمْ قُورًا﴾ فأما المؤمنون فإنهم يعبدون الله الذي هو الرحمن الرحيم ويفردونه بالإلهية ويسجدون له، وقد اتفق العلماء^(٣) رحمهم الله على أن هذه السجدة التي في الفرقان مشروع السجود عندها لقارئها ومستمعها كما هو مقرر في موضعه، والله ﷻ أعلم^(٤).

فصل

قال محمد تقي الدين: لقد أجاد الحافظ ابن كثير في تفسير هذه الآيات، ولم يترك مقالاً لقائل، والمشركون في هذا الزمان وفي كل زمان لا يريدون أن يصدّقوا أن آلهتهم لا تنفع عبادتها، ولا يضر ترك عبادتها.

وفي هذه السنة سنة ١٣٩٤هـ انقطع المطر في المغرب وطال انقطاعه فأبى المشركون أن يصلوا صلاة الاستسقاء وتشاءموا منها، وعمد بعضهم إلى ثور

(١) أخرجه ابن أبي خاتم (٢٧١٥/٨) وعزاه السيوطي في «الدر المنثور» (١١/١٩٧ - ط. هجر) إلى الفريابي وسعيد بن منصور وابن جرير. وهو عند ابن جرير (١٧/٤٨١) عن ابن جريج قوله.

(٢) أخرجه البخاري (٢٧٣١، ٢٧٣٢)، ومن حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم.

(٣) حكى الإجماع على السجدة المتفق عليها الطحاوي في «شرح معاني الآثار» (١/٣٥٩ - ٣٦٠) وعدّ هذا الموطن منها. وانظر: «مراتب الإجماع» (ص ٣١ - ٣٢) و«الإقناع» (٢/٦٠٥ - ٦٠٩ رقم ١٠٦٧) لابن القطان، وهو أكبر موسوعة تراثية في الإجماع.

(٤) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٠/٣١٥ - ٣١٨) بتصرف.

فاشتروه بثمانمائة درهم، وساروا به إلى الوثن المنصوب على قبر إدريس بن عبد الله ﷺ، وذبحوه له متوسلين بذلك لنزول المطر فحيب الله سعيهم^(١). وأخبرني تلميذي الشاب النجيب المحقق علي بن أحمد الريسوني^(٢) أن السفهاء من أهل شفشاون ذبحوا بقرة سوداء في موضع يسمى رأس الماء بقرب الكهف المنسوب إلى الجنية مسعودة، ومشوا حفاة حاسري الرؤوس إلى قبر الشيخ الوافي، كل ذلك فعلوه لطلب الغيث فردهم الله خائبين^(٣)، ﴿وَمَا دُعَاةُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾.

﴿الباب الخامس﴾

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾﴾ [الفرقان: ٦٨ - ٧١]

أخرج البخاري ومسلم وأحمد وغيرهم عن عبد الله بن مسعود: سئل رسول الله ﷺ: أي الذنب أكبر؟ قال: «أن تجعل لله نداً وهو خلقك»، قال: ثم أي؟ قال: «أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك»، قال: ثم أي؟ قال: «أن تزاني حليلة جارك»، قال عبد الله: وأنزل الله تصديق ذلك، ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ الآية^(٤).

(١) فصل المصنف في هذه الحادثة في «ديوانه» وفي غير ما مقالة له. ولا داعي للتطويل، والله المستعان.

(٢) ظفرتُ بمجموعة مراسلات بينه وبين المصنف، تدل على سعة اطلاع هذا التلميذ، وأنه حقيق بالوصف المذكور.

(٣) انظر: ما قدمناه في تقديمنا لهذا الكتاب عن معرفة المصنف لما عليه الناس من مخالقات في توحيد الألوهية، وممارستهم لذلك في شتى البقاع والصقاع التي زارها ودعي إليها، وأكثر ما ذكر ذلك في كتابه «الدعوة إلى الله في أقطار مختلفة».

(٤) سبق تخريجه.

وروى الإمام أحمد بسنده عن المقداد بن الأسود رضي الله عنه، يقول: قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «ما تقولون في الزنا؟» قالوا: حرمه الله ورسله، فهو حرام إلى يوم القيامة، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: «لأن يزني الرجل بعشر نسوة أيسر عليه من أن يزني بامرأة جاره»، قال: «فما تقولون في السرقة؟» قالوا: حرمها الله ورسوله فهي حرام، قال: «لأن يسرق الرجل من عشرة أبيات أيسر عليه من أن يسرق من بيت جاره»^(١).

وقوله تعالى: ﴿يَلْقَ أَثَامًا﴾ أي: جزاء [وعقاباً]^(٢). وفسره بما بعده مبدلاً منه، وهو قوله تعالى: ﴿يُضَاعَفْ لَهُ الْكَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ أي: يكرر عليه ويغلظ، ﴿وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا﴾ أي: حقيراً ذليلاً ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ﴾ أي: في الدنيا إلى الله ﷻ من جميع ذلك فإن الله يتوب عليه^(٣).

(١) أخرجه أحمد (٨/٦)، والبخاري في «الأدب المفرد» (١٠٣)، وفي «التاريخ الكبير» (٨/٥٤)، والطبراني في «الكبير» (٢٠/٢٠٥ رقم ٦٠٥) وفي «الأوسط» (٦٣٢٩)، وإسناده جيد. وقال المنذري في «الترغيب» (٢/٩٢٠ - بعناتي) والهيتمي في «المجمع» (٨/١٦٨): «رجال ثقات» قلت: وله شواهد، يصح بها إن شاء الله تعالى، وانظر «السلسلة الصحيحة» (٦٥).

(٢) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وبعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وهذا أشبه بظاهر الآية ولهذا فسرته....».

(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٠/٣٢٤ - ٣٢٦) بتصرف.

سُورَةُ الشُّعَرَاءِ

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿وَأْتَلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ
 ٧٠ ﴿قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَّلُهَا عَنْكَيْهِمْ ٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ
 ٧٢ ﴿أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ٧٣﴾ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ٧٤
 قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ٧٥ ﴿أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ ٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ
 لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ٧٧ ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي
 وَيَسْقِينِ ٧٩ ﴿وَإِذَا مَرَضْتُ فَهُوَ يَشفِينِ ٨٠﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ
 ٨١ ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِي
 حُكْمًا وَالْحَقِّقْ بِالصَّالِحِينَ ٨٣ ﴿وَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ٨٤﴾
 وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ٨٥ ﴿وَاعْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الصَّالِينَ ٨٦﴾ وَلَا
 تُخْزِنِي يَوْمَ يُنْعَثُونَ ٨٧ ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ
 سَلِيمٍ ٨٩ ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُنْقِذِينَ ٩٠﴾ وَبُرِزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ٩١ وَقِيلَ لَهُمْ أَنْ
 مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ٩٢ ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْصُرُونَ ٩٣﴾ فَكَبَّوْا فِيهَا
 هُمْ وَالْغَاوُونَ ٩٤ وَجُودٌ إِلَّا يَلْسَ أَجْمَعُونَ ٩٥ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ٩٦ تَاللَّهِ
 إِنْ كُنَّا لِنَظُنُّكَ ضَلَّالٍ مُبِينٍ ٩٧ ﴿إِذْ تُسَوِّكَم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ٩٨﴾ وَمَا أَصْلَانَا إِلَّا
 الْمُجْرِمُونَ ٩٩ ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ ١٠٠﴾ وَلَا صِدِّيقٍ حَمِيمٍ ١٠١ ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً
 فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ١٠٢﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ١٠٣ وَلَنْ
 رَبَّكَ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ١٠٤ ﴿ [الشعراء: ٦٩ - ١٠٤]

قال (ك): «هذا إخبار من الله تعالى عن عبده ورسوله وخليله إبراهيم عليه السلام

إمام الحنفاء، أمر الله تعالى رسوله محمداً ﷺ أن يتلوه على أمته ليقبضوا به، في الإخلاص والتوكل، وعبادة الله وحده لا شريك له، والتبرؤ من الشرك وأهله، فإن الله تعالى أتى إبراهيم رشدته من قبل^(١)، أي: من صغره إلى كبره، فإنه من وقت نشأ وشب أنكر على قومه عبادة الأصنام مع الله ﷻ، ف﴿قَالَ لِأَيِّهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ﴾ أي: ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون^(٢)، أي: مقيمون^(٣) على عبادتها ودعائها ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكَ إِذْ تَدْعُونَ﴾ ﴿٧١﴾ أَوْ يَنْفَعُونَكَ أَوْ يَضُرُّونَ﴾ ﴿٧٢﴾ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ ﴿٧٣﴾؛ يعني: اعترفوا بأن أصنامهم لا تفعل شيئاً من ذلك، وإنما رأوا آباءهم كذلك يفعلون، ﴿فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ حَرَّوْنَ﴾ ﴿٧٤﴾ [الصفات: ٧٠].

فعند ذلك قال لهم إبراهيم: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ الْأَقْلَامُونَ﴾ ﴿٧٥﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٧٦﴾ أي: إن كانت هذه الأصنام شيئاً ولها تأثير، فلتخلص إلي بالمساءلة فإنني عدو لها لا أبالي بها^(٤) ولا أفكر فيها، وهذا كما قال تعالى مخبراً عن نوح ﷺ: ﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ﴾ الآية [يونس: ٧١]، وقال هود ﷺ: ﴿إِنِّي أَشْهَدُ أَنَّ اللَّهَ وَاشْهَدُوا إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَشْرِكُونَ مِنْ دُونِهِ فَكَيْفَ يُجِيبَا إِذَا لَا تُظْهَرُونَ﴾ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ ربي وَرَبُّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِعَصَمَتِهَا إِنْ رَفَعْتَ يَدَكَ إِلَىٰ صَرْبٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ ﴿٥٦﴾ [هود: ٥٤ - ٥٦]، وهكذا تبرأ إبراهيم من آلهتهم فقال^(٥): ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ﴾ الآية [الأنعام: ٨١] وقال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ﴾ [الممتحنة: ٤] إلى قوله: ﴿حَتَّىٰ تَوَمَّلُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ ﴿٦١﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيِّدِي﴾ ﴿٦٢﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ ﴿٦٣﴾ [الزخرف: ٢٦ - ٢٨]؛ يعني: لا إله إلا الله^(٦).

وقوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ ﴿٧٨﴾ إلى قوله: ﴿خَطِيطٌ بِوَرَقٍ الْذِي﴾؛ يعني: لا أعبد إلا الذي يفعل هذه الأشياء ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ ﴿٧٨﴾ أي: هو

(١) دليله: قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِينَ﴾ ﴿٥١﴾ [الأنبياء: ٥١].

(٢) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: ﴿قَالُوا تَعْبُدُونَ أَصْنَامًا فَظَلُّوا مَا عَنِكُمُ﴾ ﴿٧١﴾.

(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «مقيمين». (٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أباليها».

(٥) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وقال».

(٦) ورد هذا التفسير عن غير واحد من السلف، وانظر: «تفسير ابن وهب» (١٤٦/٢) و«تفسير مجاهد» (١٨٥/٢)، «والدعاء» للطبراني (١٥٤١، ١٥٤٢).

الخالق الذي قدر قدراً وهدى الخلائق إليه فكل يجري على [ما قدر له] ^(١) وهو الذي يهدي من يشاء، ويضل من يشاء ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ﴾ ^(٢) أي: هو خالقي ورازقي بما سخر ويسر من الأسباب السماوية والأرضية، فساق المزن، وأنزل الماء وأحى به الأرض، وأخرج به من كل الثمرات رزقاً للعباد، وأنزل الماء عذاباً زلالاً ^(٣) ﴿سُقِيهِ﴾ ^(٤) مِمَّا خَلَقْنَا أَنْفَكُمْ وَأَنَا بَقِيَّةُ كَثِيرٍ ^(٥) [الفرقان: ٤٩].

وقوله: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ ^(٦) أسند المرض إلى نفسه وإن كان عن قدر الله وقضائه وخلقه، ولكن أضافه إلى نفسه أدباً كما قال تعالى آمراً للمصلي أن يقول: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ^(٧) [الفاتحة: ٦] إلى آخر السورة، فأسند الإنعام والهداية إلى الله تعالى، والغضب حذف فاعله أدباً، وأسند الضلال إلى العبيد، كما قالت الجن ﴿وَأَنَّا لَا تَدْرِي أَشَرُّ أُرِيدَ يَمَنَ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ ^(٨) [الجن: ١٠] وكذا قال إبراهيم: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ ^(٩) أي: إذا وقعت في مرض فإنه لا يقدر على شفائي أحد غيره بما يقدر من الأسباب الموصلة إليه ﴿وَالَّذِي يُبَسِّئُ ثُمَّ يُحْيِي﴾ ^(١٠) أي: هو الذي يحيي ويميت لا يقدر على ذلك أحد سواه فإنه هو الذي يبدئ ويعيد، ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ ^(١١) أي ^(٣): لا يقدر على غفران ^(٤) الذنوب في الدنيا والآخرة إلا هو ﴿وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ ^(٥) [آل عمران: ١٣٥] وهو الفعال لما يشاء.

وقوله تعالى: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا﴾ إلى قوله تعالى: ﴿أَنَّى اللَّهُ يَفْلِتِ سَلِيمٌ﴾، هذا سؤال من إبراهيم عليه السلام أن يؤتیه ربه حكماً، قال ابن عباس: «وهو العلم» ^(٥)، وقوله: ﴿وَالْحَقِّنِي بِالصَّلَاحِينَ﴾ أي: اجعلني مع الصالحين في الدنيا والآخرة، كما قال النبي ﷺ عند الاحتضار: «اللهم في الرفيق الأعلى» ^(٦) قالها ثلاثاً، و[في] ^(٧) الحديث في الدعاء: «اللهم أحينا مسلمين، وأمتنا مسلمين،

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «قَدَّرَ».

(٢) كذا مطبوع «تفسير ابن كثير» وفي الأصل: «يسقيه»!

(٣) بعدما في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «هو الذي».

(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «غَفَّرَ».

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم (٢٧٨١/٨) (رقم ٥٧٠٧).

(٦) أخرجه البخاري (٦٥٠٩)، ومسلم (٢١٩١) من حديث عائشة.

(٧) من مطبوع «تفسير ابن كثير» وسقط من الأصل.

والحقنا بالصالحين، غير خزايا ولا مبديلين»^(١) وقوله: ﴿وَجَعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ (٨٤) أي: واجعل لي ذكراً جميلاً بعدي أذكر به، ويقتدي بي في الخير، كما قال تعالى: ﴿وَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ (٨٨) سَلَّمَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (٨٩) كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٩٠) [الصافات: ١٠٨ - ١١٠].

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ﴾ (٩٥) أي: أنعم علي في الدنيا ببقاء الذكر الجميل بعدي، وفي الآخرة بأن تجعلني من ورثة جنة النعيم.

وقوله: ﴿وَأَغْفِرْ لَأَيِّبٍ﴾ الآية، كقوله: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ﴾ [إبراهيم: ٤١] وهذا مما رجع عنه إبراهيم عليه السلام كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَتْ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَيِّبِهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾، وقد قطع الإلحاق في استغفاره لأبيه فقال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا أَمْلَأُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [المتحة: ٤].

وقوله: ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ (٩٧) أي: أجزني من الخزي يوم القيامة، يوم يبعث الخلائق أولهم وآخرهم، قال البخاري بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «يلقى إبراهيم أباه فيقول: يا رب إنك وعدتني أن لا تخزني يوم يبعثون، فيقول الله تعالى: إني حرمت الجنة على الكافرين»^(٢)، وفي (أحاديث الأنبياء) بهذا الإسناد بعينه منفرداً به، ولفظه: «يلقى إبراهيم أباه أزر يوم القيامة على وجه أزر فترة وعبرة، فيقول له إبراهيم: ألم أقل لك: لا تعصني؟ فيقول لإبراهيم: فالיום لا أعصيك، فيقول إبراهيم: يا رب، إنك وعدتني أن لا تخزني يوم يبعثون، فأخزي أخزي من أبي [الأبعد]^(٣)؟ فيقول الله تعالى: إني حرمت

(١) أخرجه أحمد (٤٢٤/٣) والبخاري في «الأدب المفرد» (٦٩٩) والنسائي في «الكبرى» (٦/١٠٤٤٥) - وهو في «عمل اليوم والليلة» (٦٠٩) - والبزار (١٨٠٠) - «زوائد» وابن أبي عاصم في «السنن» (٣٨١) والطبراني (٤٥٤٩) وفي «الدعاء» (١٠٧٥) والحاكم (٢/٥٠٦ - ٥٠٧، ٢٣/٣ - ٢٤) وأبو نعيم (١٢٧/١٠) والبيهقي في «الدعوات الكبير» (١٧٣) من حديث عبيد بن رفاع، وهم بعض الرواة في اسمه، كما في «المسند»، وصححه الحاكم على شرط الشيخين، وتعقبه الذهبي بقوله: «الحديث مع نظافة إسناده منكر، أخاف أن يكون موضوعاً» وقال في «السيرة النبوية» (٤١٩/١ - ٤٢٠ - ط. الرسالة): «هذا حديث غريب منكر»! وصححه شيخنا الألباني في «صحيح الأدب المفرد» (ص ٢٥٩ - ٢٦٠/رقم ٥٣٨) وفي «تخريج فقه السيرة» (٢٦٤).

(٢) أخرجه البخاري في «صحيحه» (٤٧٦٩).

(٣) سقطت من الأصل، وهي عند البخاري، وكذا عند ابن كثير.

الجنة على الكافرين، ثم يقال^(١): يا إبراهيم انظر تحت رجلك^(٢)؛ فَيَنْظُرُ، فإذا هو^(٣) بذيخ متلطح، فيؤخذُ بقوائمه فيُلقي في النار^(٤).

قال صاحب «اللسان»: «وفي حديث القيامة: «وينظر الخليل ﷺ، إلى أبيه، فإذا هو بذيخ متلطح». الذبيح: ذَكَرُ الضَّبَاع، فأراد^(٥) بالتلطح التلطح برجيعة أو بالطين^(٦).

وقوله: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ (٨٨) أي: لا يقي المرء من عذاب الله ماله ولو افتدى بملء الأرض ذهباً ﴿وَلَا بَنُونَ﴾ أي: لو افتدى بمن في^(٧) الأرض جميعاً، ولا ينفع يومئذٍ إلا الإيمان بالله وإخلاص الدين له، والتبرؤ من الشرك [وأهله]^(٨)، ولهذا قال: ﴿إِلَّا مَنْ آتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ (٨٩) أي: سالم من الدنس والشرك. وقوله تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (٩٠) ... إلخ.

قال (ع): ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ﴾ أي: قربت وأدنت من أهلها مزخرفة^(٩) مزيّنة لناظرها، وهم المتقون الذين رغبوا فيها على ما في الدنيا، وعملوا لها [في الدنيا]^(١٠) ﴿وَبُرِزَتِ الْجَنَّةُ لِلْقَائِمِينَ﴾ (٩١) أي: أظهرت وكشف عنها وبدت منها عنق فزفرت زفرة بلغت منها القلوب الحناجر، وقيل لأهلها تقريعاً وتوبيخاً: ﴿إِنَّ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْصُرُونَ﴾ (٩٢) أي: ليست الآلهة التي عبدتموها من دون الله من تلك الأصنام والأنداد تغني عنكم اليوم شيئاً، ولا تدفع عن أنفسها، فإنكم وإياها اليوم ﴿حَصَبٌ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَرِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨].

وقوله: ﴿فَتُكَبَّرُ فِيهَا هُمْ وَالْقَائِمُونَ﴾ (٩٣) قال مجاهد: «يعني: [قد هووا]

(١) كذا في «صحيح البخاري» و«تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «يقول»!

(٢) كذا في «صحيح البخاري» و«تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «انظر تحت رجلك».

(٣) سقط من الأصل، وهو من «صحيح البخاري» و«تفسير ابن كثير».

(٤) أخرجه البخاري: أحاديث الأنبياء: باب قول الله تعالى: ﴿وَأَعْتَدَ اللَّهُ لِرِجَالِهِمْ جَلِيلًا﴾ (٣٣٥٠).

(٥) في مطبوع «اللسان»: «وأراد».

(٦) انظر: «لسان العرب» (١٦/٣ - ذبيح).

(٧) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «على»!

(٨) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».

(٩) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «بزخرفة».

(١٠) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».

فيها^(١)، وقال غيره: كبكبوا^(٢) فيها والكاف مكررة كما يقال: صرصر، والمراد أنه ألقي بعضهم على بعضهم من الكفار وقادتهم الذين دعواهم إلى الشرك، ﴿وَحَرِّدْ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾^(٣) أي: ألقوا فيها عن آخرهم ﴿قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ﴾^(٤) تَلَّوْهُ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ^(٥) إِذْ سَأَلْتُم بِرَبِّ الْغَالِيَةِ^(٦) أي: يقول الضعفاء للذين استكبروا ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أُنْتُمْ مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ﴾، ويقولون وقد عادوا على أنفسهم بالملامة: ﴿قَالَهُ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾^(٧) إِذْ سَأَلْتُم بِرَبِّ الْغَالِيَةِ^(٨) أي: في العبادة كالدعاء والذبح والنذر وغير ذلك، ﴿فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ﴾^(٩) أي: ليس لنا شافع يشفع لنا عند الله فينجينا من عذابه، ﴿وَلَا صَافِيٍّ جَمِيعٍ﴾^(١٠) أي: يهتم بأمرنا ويتألم لنا، لأن المشرك لا يستطيع أحد أن يشفع فيه.

وقد تقدم أن الله لم يقبل شفاعة إبراهيم في أبيه أزر، ولا استغفار محمد ﷺ لعمه أبي طالب^(١١)، وقوله تعالى: ﴿قَالُوا أَن لَّنَا كَرَّةٌ فَتَكُونُ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾^(١٢) وذلك أنهم يتمنون أن يردوا إلى دار الدنيا ليعملوا بطاعة ربهم فيما يزعمون، والله تعالى يعلم أنهم ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨].

وقد أخبر الله تعالى عن تخاصم أهل النار في سورة (ص) ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُّمُ أَهْلِ النَّارِ﴾^(١٣) [ص: ٦٤] ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾^(١٤) أي: في محاجة إبراهيم لقومه، وإقامة الحجة عليهم في التوحيد لآية - أي: لدلالة واضحة جلية - على أنه لا إله إلا الله: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَمَوْ أَعِزُّ الرَّحِيمِ﴾^(١٥) القادر على تعجيل الانتقام، ﴿الرَّحِيمِ﴾ بالإمهال لكي يؤمنوا هم أو أحد من ذريتهم^(١٦).

فصل

قال محمد تقي الدين: في هذا الكلام فوائد:

- (١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «فدهوروا»، والمثبت من «تفسير ابن أبي حاتم» (٨/ ٢٧٨٥) رقم (١٥٧٤٦). ثم وجدته بلفظ «دُهوروا» عند ابن جرير (٥٩٧/١٧)، وعزاه له ولا بن أبي حاتم بهذا اللفظ السيوطي في «الدر المنثور» (١١/ ٢٧٤ - ط. هجر).
- (٢) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «كببوا»!
- (٣) سيأتي تخريج ذلك مفصلاً، والله الموفق.
- (٤) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٠/ ٣٥٠ - ٣٥٦) بتصرف.

الأولى: لماذا قص الله علينا قصة إبراهيم مع قومه وأمر نبيه محمداً ﷺ أن يتلوها علينا؟ قال (ك): «لنقتدي به في الإخلاص والتوكل وعبادة الله وحده لا شريك له، والتبرؤ من الشرك وأهله». فهذه أربعة أمور:

الأول: الإخلاص هو تصحيح القصد وإرادة وجه الله تعالى في كل ما نقوله ونعتقد ونفعله وندعو الناس إليه.

الثاني: الثقة بالله تعالى، والاعتماد عليه وعدم الخوف من المشركين والمنافقين.

الثالث: إخلاص العبادة لله وحده لا شريك له.

الرابع: وهو شرط في صحة ما تقدم، وقليل من يتفطن له في هذا الزمان، وهو التبرؤ من الشرك وأهله، قال تعالى في سورة الممتحنة: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كُفَرًا بِكُمْ وَيَدَايِنَا مِنَ الْغُفْوَةِ وَآلِ الْبُغْيَاءِ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ﴾ [الممتحنة: ٤] وقال تعالى في سورة الزخرف: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٦١﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾﴾ [الزخرف: ٢٦، ٢٧] وقال تعالى في سورة مريم: ﴿وَأَعْتَزِّلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾﴾ [مريم: ٤٨] وقال في هذه السورة: ﴿أَفَرَأَيْتُمَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ ﴿٦١﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٢﴾﴾ إلى آخر ما تقدم.

فنحن نقول لعباد القبور والأضرحة والقباب: ﴿إِنَّا بُرَءُؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ ولا يتم توحيدنا إلا بذلك، هذا بعد أن نتلطف معهم، ونقيم لهم الحجج على أن ما يفعلونه هو الشرك الأكبر، ثم يصرون على عملهم، ولا نستثني من ذلك أحداً لا أباً ولا أمّاً ولا أخاً ولا عمّاً ولا صديقاً، وقد عسر هذا على بعض الموحدين، وعدوه من التشدد والخروج من الحكمة، وهم محجوجون بما تقدم وبغيره.

الثانية: إن تماثيل الصالحين، وهي الأصنام والأوثان وهي قبورهم وقبابهم والأحجار التي جلسوا عندها والأماكن التي مروا بها، وسائر آثارهم، إذا دعاها الداعي لا تسمع دعاءه ولا تراه، وكذلك أرواحهم؛ لأن السعيد من المعبودين تكون روحه في الجنة، فهي مشغولة بالنعيم عن سماع دعاء من دعاها ولنفرض أنها سمعته فإنها تكرهه وتمقت ذلك الداعي، لأنه أشرك بالله، ولا تجيبه أبداً إلى

يوم القيامة، قال تعالى في سورة فاطر: ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُونَ بَشِرِكِكُمْ وَلَا يَبْنِيكَ مِثْلَ خَيْرِ﴾ [فاطر: ١٤] وإن كانت أرواح المعبودين شقيّة، فإنها لا تسمع دعاء العابدين، لأنها مشغولة بالعذاب.

الثالثة: جواب المشركين لإبراهيم الخليل، وجواب المشركين لخير أبنائه محمد ﷺ حين سئلوا، من خلق السماوات والأرض، و﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْبَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [النحل: ٦٥]، كان اعترافاً بعجز آلهتهم، وأنها لا تسمع ولا تنفع، إلا أنهم اقتدوا بآبائهم.

قال محمد تقي الدين: أما المشركون في هذا الزمان، فإنهم أشد جهلاً وأغلظ كفراً^(١)، فإنهم يزعمون أن آلهتهم تسمعهم إذا استغاثوا بها، وتتصرف في العالم وتنفع وتضر، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

الرابعة: ذكر الله لنا سبحانه أربعة من الرسل كلهم خوْفهم المشركون من قومهم، وحذروهم أن تصيبهم آلهتهم بسوء، فقالوا لهم كلهم في المعنى: أجمعوا أمركم وادعوا شركاءكم وكيدونا ولا تمهلونا طرفة عين، وكذلك المشركون في هذا الزمان، يخوْفون الموحّدين من غضب آلهتهم ويقولون لهم: احذروا الأولياء أن يصيبوكم بالمصائب التي لا طاقة لكم بها، ولما خرجت من الطريقة التجانية^(٢) على يد شيخنا محمد بن العربي العلوي^(٣) رحمة الله عليه في فاس في ربيع الأول سنة ١٣٣٨هـ ورجعت إلى وجدة، حيث كنت معلماً عند الشيخ أحمد سكيرج^(٤)، لابنه عبد الكريم وابن أخيه عبد السلام، وكان يجلّني ويكرمني، وكنا

(١) سبقت كلمة مهمة في هذا الباب للأديب الشهير المنفلوطي - رحمه الله تعالى -، انظرها في التعليق على (ص ٦٧).

(٢) انظر قصة رجوعه مفضلة في تقديمنا للكتاب، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

(٣) ذكره الهلالي في أكثر من موطن من كتابنا هذا، وقال عنه فيما سيأتي (٣/١٧٥): «يوجد في زماننا هذا بصيص من نور الكتاب والسنة أوقده شيخنا محمد بن العربي العلوي، واقتبسه من كتب الشيوخ الربانيين ابن تيمية وابن القيم - رحمهما الله - وزادنا الله من هذا النور». ولهذا الشيخ ترجمة في «إتحاف المطالع بوفيات القرن الثالث عشر والرابع» (٥٨٣/٢) ومجلة «البصائر» العدد (٣٠)، السنة الأولى، ٥ أفريل ١٩٤٨م، وانظر «آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي» (٢/١٩٣)، وما سيأتي (٤/١٢٧).

(٤) درس الهلالي عليه مدة، وظهرت إرهاصات نبوغ الهلالي وهو في طور الدرس عند هذا =

في الهوى سواء، هو مقدم كبير في الطريقة التجانية وأنا مريد.

فلما علم أنني نبذت الطريقة التجانية نبذ النوى، أظهر الحزن، وجمع عليّ علماء وجدة، فناظروني فظهرت عليهم بالحجج القاطعة، فخوفوني من انتقام الشيخ، وذكروني بما نُسب^(١) إلى الشيخ أحمد التجاني، أنه قال: من ترك طريقته وأخذ طريقتنا فلا خوف عليه لا من الله ولا من رسوله ولا من شيخه أيّاً كان، من الأحياء أم من الأموات، أما من أخذ طريقتنا هذه الأحمدية المحمدية الإبراهيمية الحنيفية التجانية وتركها، فإنه يحل به البلاء دنیا وأخرى، ولا يموت إلا كافراً قطعاً، وبذلك أخبرني سيد الوجود ﷺ يقظة لا مناماً^(٢)، فقلت لهم: دعوني من هذا الوعيد الذي لم يرد في كتاب الله ولا في سنة رسول الله ولا قام عليه دليل بل هو مضاد للدليل كما أخبرتكم بالأدلة القاطعة، فغضبوا وقالوا للشيخ أحمد سكيرج: (هذا مُفلس) لا تنفع فيه النصيحة، والمفلس - بفتح اللام وتشديده، وضم الميم وتسكن تخفيفاً - في اللغة المغربية هو الذي بلغ غاية الضلال.

ووقع لي مثل ذلك في تطوان لما أصابني مرض الربو، زعم المشركون أن السيد السعيد هو الذي أصابني بذلك المرض، لأنني قلت لهم: لا تذبحوا له ولا تطلبوا منه حاجة، فإنه لا يضر ولا ينفع، وكنت أعلم أن سبب المرض هو التعرض للبرد بعد الخروج من الحمام، وعلمت بعد ذلك بالتجربة أن هذا النوع من الربو دواؤه الانتقال من قرب البحر إلى الأماكن التي هواؤها جاف خال من الرطوبة، لأنني إذا كنت في البلاد البعيدة من البحر، كسجلماسة، ومدينة مراكش، ومدينة النبي ﷺ، ومكة، وشمال العراق، لا يصيبني أبداً، فأين غضب السيد السعيد وانتقامه مني حين أكون في البلاد البعيدة من البحر، وهل سيدي السعيد يرضى أن يعبد الناس؟ لو كان كذلك لما كان صالحاً، إذ لا يرضى

= الشيخ. انظر «السلفية الوهابية في المغرب» (ص ١٥)، وقال الهلالي عن شيخه هذا في مقال «الإسلام يكافح الاستعمار»: «وله فضل عليّ كبير». وانظر «الهدية الهادية» (١٢ - ١٣) و«الديوان» (ق ٩٣، ١٩٦) كلاهما للهلالي.

(١) هذا التشكيك في غير محله، أفاده أستاذنا فضيلة الشيخ العلامة محمد بوخبرة فيما قدمناه عنه (ص ٢٣).

(٢) هذه خرافة، كشفت عن أصحابها وأضرارها ومن زيفها من المعتبرين في كتابي «قصص لا تثبت» (١٧١/٣ - ٢٤٧)، فانظر إن أردت الاستزادة.

بعبادة الناس له إلا شيطان أو طاغوت، فما أسفه عقول المشركين!

الخامسة: يوجد كثير من الدجاجلة يضمنون الجنة لغيرهم بدراهم معدودة، ويقولون لهم: نحن آل النبي لا تمسنا النار، وقد ضمنناكم فلا تمسكم النار حتى تمسنا، وهؤلاء مجرمون كاذبون على الله، فمحمد رسول الله ﷺ لم يستطع أن يدخل عمه أبا طالب الجنة، ولما استغفر له نهاه الله تعالى بقوله في سورة التوبة: ﴿مَا كُنْتَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ﴾ الآية [التوبة: ١١٣]، وفي «صحيح البخاري» أن رسول الله ﷺ قال: «يا فاطمة بنت محمد سلبني من مالي ما شئت وأنقذني نفسك من النار، لا أهني عنك من الله شيئاً»، وقال مثل ذلك لعمته صفية، ولعمه العباس، ولأقرب الناس إليه، بني هاشم^(١)، وقد رأينا هنا أن إبراهيم إمام الحنفاء ﷺ يشفع لأبيه آزر فلا يقبل الله شفاعته فيه، بل يمسحُ أباه آزر ذيحاً متلطخاً بما يخرج منه، ثم يأمر به فيلقى في جهنم^(٢).

﴿الباب الثاني﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا مَّا خَرَفْتَ كُفُّوكَ مِنَ الْمُعَذِّبِينَ﴾ (١١٣) وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ (١١٤) وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١١٥) فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ (١١٦) وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (١١٧) الَّذِي يَرْبِكَ حِينَ تَقُومُ (١١٨) وَتَقْلُبُكَ فِي السَّجْدِينَ (١١٩) إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٠)

[الشعراء: ٢١٣ - ٢٢٠]

قال (ع): «يقول تعالى آمراً بعبادته وحده لا شريك له، ومخبراً أن من أشرك به عذبه، ثم قال تعالى آمراً لرسوله ﷺ أن ينذر عشيرته الأقربين، أي الأدين إليه، وأنه لا يخلص أحداً منهم إلا إيمانه بربه ﷻ وأمره أن يلين جانبه لمن اتبعه من عباد الله المؤمنين، ومن عصاه من خلق الله كائناتاً من كان فليتبرأ منه، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (١١٦) وهذه النذارة الخاصة لا تنافي العامة بل هي فرد من أجزائها، كما قال تعالى:

(١) سيأتي لفظه وتخرجه قريباً.

(٢) مضى لفظ الحديث الوارد في ذلك مع تخرجه قريباً.

﴿لِئَنْذَرَ قَوْمًا مَّا أُنْذِرَ ءَابَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ﴾ [يس: ٦] وفي «صحيح مسلم»^(١): «والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني، ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار». وقد وردت أحاديث كثيرة في نزول هذه الآية الكريمة فلنذكرها:

الحديث الأول: رواه البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما أنزل الله ﷻ: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [١٢٤] أتى النبي ﷺ الصَّفَا، فصعد عليه ثم نادى: يا صباحاه! فاجتمع الناس إليه بين رجل يجيء إليه، وبين رجل يبعث رسوله، فقال رسول الله ﷺ: «يا بني عبد المطلب، يا بني فهر، يا بني لؤي، أرايتم لو أخبرتكم أن خيلاً بسفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم صدقتموني؟»، قالوا: نعم، قال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد»، فقال أبو لهب: تباً لك، سائر اليوم أما دعوتنا إلا لهذا؟ وأنزل الله ﴿تَبَّتْ يُدَا أَيْ لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [المسد: ١]^(٢).

الحديث الثاني: روى الإمام مسلم وأحمد عن عائشة قالت: لما نزلت: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [١٢٤] قام رسول الله ﷺ فقال: «يا فاطمة ابنة محمد، يا صفية ابنة عبد المطلب، يا بني عبد المطلب، لا أملك لكم من الله شيئاً، سلوني من مالي ما شئتم»^(٣).

الحديث الثالث: روى الإمام البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لما نزلت هذه الآية ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [١٢٤] دعا رسول الله ﷺ قريشاً فعم وخص فقال: «يا معشر قريش، أنقذوا أنفسكم من النار، يا معشر بني كعب، أنقذوا أنفسكم من النار، يا معشر بني هاشم أنقذوا أنفسكم من النار، يا فاطمة بنت محمد أنقذي نفسك من النار، فإني والله لا أملك لكم من الله شيئاً إلا أن لكم رحماً سألها بيلالها»^(٤).

وقوله تعالى: ﴿وَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ [١٢٧] أي: في جميع أمورك فإنه

- (١) أخرجه مسلم (١٥٣) من حديث أبي هريرة.
- (٢) أخرجه البخاري (٤٨٠١)، ومسلم (٢٠٨)، وأحمد (٣٠٧/١)، والترمذي (٣٣٦٣).
- (٣) أخرجه مسلم (٢٠٥)، وأحمد (١٣٦/٦، ١٨٧)، والترمذي (٢٣١٠).
- (٤) أخرجه أحمد (٣٦٠/٢)، ومسلم (٢٠٤)، والترمذي (٣١٨٥)، وأخرجه البخاري (٤٧٧١) بنحوه.

مؤيدك وحافظك وناصرك^(١) ومظفرك^(٢)، وقوله تعالى: ﴿الَّذِي يَرَبُّكَ حِينَ تَقُومُ﴾^(٣) وَتَقْبُكُ فِي السُّجُودِ ﴿١٢٢﴾ قال في الصلاة يراك وحدك ويراك في الجمع^(٣)، وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾^(٤) أي: ﴿السَّمِيعُ﴾ لأقوال عباده، ﴿الْعَلِيمُ﴾ بحركاتهم وسكناتهم^(٤).

فصل

قال محمد تقي الدين: نستفيد من هذا الكلام فوائد:

الأولى: إن كل من دعا مع الله غيره لجلب خير أو دفع شر، فإن الله يعذبه في الدنيا وفي الآخرة، وقد وجه الله تعالى الخطاب لنبيه وخير خلقه محمد ﷺ مع علمه سبحانه أنه معصوم من الشرك ومن المعاصي كلها، ليبين لنا أن كل من أشرك به، ولو بلغ في العبادة وعلو المنزلة كل مبلغ، فإن الله يحبط عمله ويعذبه، ولا يستطيع أحد أن يشفع فيه، حتى لو فرض المحال، وهو أن نبياً من الأنبياء أشرك بالله، فإن الله يعذبه، وتعليق الحكم على المستحيل موجود في القرآن، قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلَهِةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢] وقد تقدم تفسيره.

الثانية وهي من أهم المسائل: أمر الله تعالى لنبيه أن يحذر أقرب الناس إليه من عذاب الله لثلاث يتكلموا على قرابتهم منه، ويتكاسلوا عن العمل أو يتجرؤوا على ارتكاب المعاصي، اعتماداً على أنهم أقرب الناس إلى سيد الشفعاء، وأنه يشفع لهم، ويخلصهم من العذاب، وقد قام النبي ﷺ بما أمره الله تعالى به خير قيام، فأنذر الأقربين كلهم حتى أنذر أقرب الناس إليه ابنته فاطمة، وخوفها من عذاب الله، وأخبرها أنه لا يخلصها من العذاب إلا توحيد الله تعالى وطاعة رسوله، وأن القرابة وحدها لا تغني عنها شيئاً.

الثالثة: إن من آمن بالله واتقاه يكون معه بنصره وتأييده، وأنه لا يتوكل إلا على الله في جلب الخير ودفع الشر.

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ناصرك وحافظك».

(٢) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «مُغْلٍ كلمتك».

(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الجميع».

(٤) انظر: «تفسير ابن كثير» (٣٠/٣٧٤ - ٣٧٦، ٣٨٢).

سُورَةُ التَّوْبَةِ

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿إِنِّي وَجَدْتُ أُمَّرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَا سَجَدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَاءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٢٦﴾﴾ [النمل: ٢٣ - ٢٦]

قال معين الدين ابن الشيخ صفى الدين في «جامع البيان في تفسير القرآن»: ﴿إِنِّي وَجَدْتُ أُمَّرَأَةً﴾ أي: بلبقيس تملكهم، الضمير لسبأ باعتبار أهلها، ﴿وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ يحتاج إليه الملوك: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ بالنسبة إلى عروش أمثالها، من ذهب مكلل بأنواع الجواهر ﴿وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ فلا يهتدون إلى قبائح أعمالهم ﴿فَصَدَّهُمْ﴾ منعهم ﴿عَنِ السَّبِيلِ﴾ طريق الحق، ﴿فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ إليه ﴿أَلَا سَجَدُوا﴾ أي: صدهم أو زين لهم أعمالهم لئلا يسجدوا، من قرأ^(١): ﴿أَلَا﴾ بالتخفيف فمعناه: ألا يا قوم اسجدوا، وهو استئناف أمر من الله بالسجود أو من الهدهد أو من سليمان ﴿لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَاءَ﴾، يظهر ما خفي في غيره وهو عام لإنزال المطر وإنبات النبات، وإنشاء البنين والبنات وغيرها في السموات والأرض ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾

(١) هذه قراءة أبي جعفر والكسائي ورويس عن يعقوب والزهري والسلمي وطلحة وحميد الأعرج والحسن والشنبوذي والمطويعي وقتادة وأبي العالية والأعمش وابن أبي عبة. ونسبت لابن عباس. انظر: «الكشف عن وجوه القراءات» (١٥٦/٢)، «النشر» (٢/٣٣٧)، «الحجة» (٢٧٠) لابن خالويه، «التذكرة في القراءات الثمان» (٢/٢٧٤)، «إعراب القراءات السبع وعللها» (١٤٨/٢)، «معجم القراءات» (٥٠٤/٦).

تَعْلَمُونَ ﴿١﴾ فله استحقاق السجود، لا لكرة تدور على الفلك بأمر مديرها ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ ﴿٢﴾ المحيط بجملة المكونات».

فصل

قال محمد تقي الدين: النظر هنا في آيتين:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَبَدَّلْنَاهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ الشمس أعظم آية من آيات الله التي نشاهدها بالبصر في هذه المجموعة الشمسية من الكواكب السيارة، والنجوم البعيدة والقمر، وقد جعلها الله تعالى سبباً لحياة الحيوان والنبات، وجعل الأرض التي نسكنها تبعد من الشمس بمقدار معين دقيق لو زاد شيئاً قليلاً في البعد من الشمس لجمد كل ما على ظهر الأرض من حيوان ونبات، ولو دنا قليلاً من الشمس لاحترق كل ما عليها من حيوان ونبات، فكيف يتجاسر الملحدون والقردة الذين يقلدونهم على القول: بأن هذا العالم أوجد نفسه وهو يدبر نفسه، هؤلاء مغالطون مخادعون لأنفسهم قبل غيرهم.

ولما كانت الشمس أعظم المخلوقات التي نشاهدها افتتن بها قوم من الذين يغترون بالظواهر، ولا ينظرون ما وراءها فاتخذوها إلهاً يعبدونها من دون الله، ومن بقاياهم الشعب الياباني، فإنهم يعتقدون أن ملكهم المسمى عندهم (مكدو) هو ابن الشمس، فهم يعبدونه من دون الله، ويوجد في شمال بلاد (نرويج) قوم من أهل البادية يسكنون الخيام في تلك الأراضي القطبية الشديدة البرد، فإنها في وقت شتائها تغيب عنها الشمس ثلاثة أشهر^(١)، ولكن القمر يبقى ظاهراً فهم يعبدونه، وأما أهل المدن فإنهم نصارى كسائر الأوربيين.

ولو كانت الشمس هي التي أوجدت نفسها، وهي التي تدبر نفسها، ولها علم وإرادة تسير باختيارها، لكان هناك العذر لمن يعبدها، ولكنها مخلوقة لها أجل محدود لم تكن من قبل ثم كانت، وإذا انقضى أجلها تفتى.

وقد قدر علماء الفلك في هذا العصر حسب حدسهم وتخمينهم عمر

(١) للمصنف رحلة قام بها إلى بلاد النرويج، ذكرها في مقالة له بعنوان «الشمس في نصف الليل» نشرت في مجلة «دعوة الحق» المغربية، العدد الخامس، السنة الحادية عشرة، سنة ١٩٦٧ - ١٩٦٨م (ص ٦١ - ٦٤) وفي مجلة «الجامعة الإسلامية» العدد السابع، بتاريخ محرم ١٣٩٠هـ (ص ٣٥ - ٤٤)، وفي ضمن كتابنا «مقالات الهلالي»، يسر الله نشره.

الشمس بعشرين ألف مليون سنة، وزعموا أن نصف هذه المدة قد مضى ونصفها باقي، وهو عشرة آلاف مليون سنة، ولا يوجد أحد منهم في هذا الزمان يدعي أن الشمس أزلية، ولا أنها تطلع باختيارها وتغرب باختيارها، وتعطي الضوء والحر من تريد وتمنعهما ممن تريد، وعباد البقر في الهند أقل حماقة من عباد القبور، فلا ينبغي أن يعبد إلا رب العرش العظيم، وهو على كل شيء قدير^(١).

﴿الباب الثاني﴾

قوله تعالى: ﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا قَالَتْ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ٤٤﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَاحِبًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ٤٥ قَالَ يَتَقَوَّمُ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ٤٦ قَالُوا أَطِيعْنَا بَكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَاعْتَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ٤٧﴾ [النمل: ٤٤ - ٤٧]

قال محمد تقي الدين: إن كثيراً من أهل هذا الزمان الذي لم يقتلوا «تفسير (ك)» درساً وبحناً يخيل لهم أن فيه خرافات إسرائيلية تكدر صفوه، فيجب حذفها، فأقول لهم: على رسلكم، ومن ذا الذي حرم علينا ذكر الإسرائيليات وروايتها إذا كانت فيها فائدة؟ كيف وقد قال النبي ﷺ: «بلغوا عني ولو آية، وحدّثوا عن بني إسرائيل ولا حرج»^(٢)؟ فكان هؤلاء يعارضون النبي ﷺ ويقولون: لا تحدّثوا عن بني إسرائيل، ففي الحديث عنهم حرج، فإذا روى المفسرون السابقون، كابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والسدي، والحسن البصري، وكبار أئمة الحديث، كأبي بكر بن أبي شيبة شيخ البخاري ومسلم حكايات كثيرة عن

(١) للمصنف أربع وعشرون مقالة نشرت في مجلة «دعوة الحق» بعنوان «دواء الشاكين وقامع المشككين»، وعمل هو على نشر بعضها في كتاب طبع عن دار الفتح، بيروت، سنة ١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م في (١٩١ صفحة) بعنوان «الطريق إلى الله»، فيه كثير من آيات الله الكونية، التي تدل على أن الله حق، ومنها كلام مفصل على الفلك والشمس وغيرها.

(٢) أخرجه البخاري (٣٤٦١) من حديث عبد الله بن عمرو، وأطلت النفس في تخريجه في تعليقي على «أوهام الحاكم» (ص ١٣٥ - ١٣٦) للحافظ عبد الغني بن سعيد الأزدي وعلى «جزء الجويباري» (رقم ٢٣) للبيهقي.

بني إسرائيل، منها ما يصح ومنها ما لا يصح، فلا يسع الحافظ (ك) إلا أن يذكر ذلك في «تفسيره».

ولكن هل كان يصدق كل ما روي في ذلك أو يعتمد عليه في إثبات حكم؟
الجواب: لا، ثم لا، وقد آتاه الله من العلم والحكمة ما يمنعه من ذلك، فقد ذكر ﷺ في قصة سليمان وبلقيس أخباراً عجيبة غريبة وختمها بقصة طويلة عزهاها إلى الإمام أبي بكر بن أبي شيبة، ثم قال بعد حكايتها عند قول ابن أبي شيبة: «ما أحسنه من حديث»، ما نصه: «قلت: بل هو حديث منكر غريب جداً، ولعله من أوهام عطاء بن السائب على ابن عباس، والله أعلم، والأقرب لي مثل هذه السياقات أنها متلقة عن أهل الكتاب مما يوجد^(١) في صحفهم، كروايات كعب، ووهب، سامحهما الله تعالى فيما نقلنا^(٢) إلى هذه الأمة من أخبار بني إسرائيل من الأوابد والغرائب والعجائب، مما كان ومما لم يكن، ومما حرف وبدل ونسخ، وقد أغنانا^(٣) الله سبحانه عن ذلك بما هو أصح منه وأنفع وأوضح وأبلغ، والله الحمد والمنة^(٤)».

فصل

قال محمد تقي الدين: أفبعد هذا يُتَّهم (ك) بالغفلة وحشو كتابه بالإسرائيليات والحكايات الخيالية؟ اللهم لا، إنه بريء من ذلك^(٥)، ثم قال في

(١) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «وجد».

(٢) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «نقلناه»!

(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أغنى». (٤) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٠/٤١٣).

(٥) انظر: تفصيل ذلك في كتاب «ابن كثير ومنهجه في التفسير» (ص ٣١٤ - ٣٢٧)، وفيه (ص ٣١٥): «وفي ظني أن الحافظ ابن كثير هو أحد المفسرين القلائل الذين هاجموا بشدة هذه الخرافات الإسرائيلية، ولطالما حذر منها أثناء تفسيره»، وانظر منه (٣٢٥ - ٣٢٦) حول (الإسرائيليات في قصة سليمان وبلقيس).

هذا وقد تابعت الكلمات على شكر صنيع ابن كثير في نقد الإسرائيليات، فها هو الشيخ محمد حسين الذهبي يقول في كتابه «الإسرائيليات في التفسير والحديث» (ص ١٨٠ - ١٨١): «وكذلك حين يفسر يتوخى في «تفسيره» الصحيح، وما يذكره من العليل: ينقده ويكشف عن مواطن الضعف فيه، وما يرويه من إسرائيلييات: يكشف عن زيفه وفساده، ويحذر منها أبلغ التحذير. وعلى الجملة فلم نر من المفسرين رجلاً كان له من قوة النقد للمأثورات، وتميز جياها من زيوفها مثل ما كان لابن كثير ﷺ».

بقية تفسير الآيات: أصل الصرح في كلام العرب هو القصر وكل بناء مرتفع، قال الله ﷻ إخباراً عن فرعون لعنه الله، أنه قال لوزيره هامان: ﴿أَتِنِ لِي مَرَحًا لَعَلِّي أَتْلُعُ﴾ الآيات، والصرح قصر في اليمن عالي البناء، والمراد المبني بناء محكماً أملس.

﴿وَمِنْ قَوَارِيرٍ﴾ أي: زجاج، وتمريد البناء تمليسه، ومارد: حصن بدومة الجندل، والغرض أن سليمان ﷺ اتخذ قصراً عظيماً منيفاً من زجاج لهذه الملكة ليربها عظمة سلطانه وتمكنه، فلما رأت ما أتاه الله وجلالة ما هو فيه وتبصرت في أمره، انقادت لأمر الله تعالى، وعرفت أنه نبي كريم، وملك عظيم، وأسلمت لله ﷻ وقالت: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ أي: فيما سلف من كفرها وشركها وعبادتها وقومها للشمس من دون الله ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: متابعة لدين سليمان في عبادته لله وحده لا شريك له الذي خلق كل

= وقال أيضاً (ص ١٩١ - ١٩٢): «ولكن مهما يكن من شيء؛ فابن كثير خير من رأينا من المفسرين موقفاً من الإسرائيليات، فهو يتعقبها إلا ما ندر، ويبين ما فيها من زيف وفساد، وليت لنا من ينقد ما في كتب التفسير من روايات إسرائيلية وغير إسرائيلية على طريقة ابن كثير ومنهجه... إذن لكان قد أسدى إلى المشتغلين بالتفسير فضلاً لا ينسى، وجميلاً لا يجحد».

ويقول العلامة الشيخ أحمد شاكر في اختصاره لـ «تفسير ابن كثير» المسمى «عمدة التفاسير» (٥/١ - ٦): «إنه - أي «تفسيره» - معلم ومرشد لطالب الحديث؛ يعرف به كيف ينقد الأسانيد والمتون، وكيف يميز الصحيح من غيره، فهو كتاب في هذا المعنى تعليمي عظيم، ونفعه جليل كثير».

فكيف يدعي مع هذا بعض ناشريه - وهم الأساتذة الذين أشرفوا على طبعة الشعب^(١) من هذا «التفسير» - أنه حفل بالكثير من الإسرائيليات التي لا تستند إلى نقل ولا إلى عقل؟! والتي هي أشبه بالخيالات والأساطير منها بالآثار، كيف يتجرؤون على هذا، وهم الذين عايشوا «تفسيره» تحقيقاً وتخريجاً؟!

هكذا انقلب الإمام الناقد البصير الواعي إلى حاطب ليل! يحفل «تفسيره» بالكثير من الإسرائيليات؟ فموقف ابن كثير على التحقيق، كما قال المصنف - رحمه الله تعالى -، وهو موقف الناقد المهاجم المحذر منها.

شيء، فقدره تقديرًا، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ مِّنْهُم مَّوَدَّةً صَالِحًا﴾ إلى قوله: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّتَعَبُونَ﴾.

قال (ع): «يخبر تعالى عن ثمود وما كان من أمرها مع نبيها صالح عليه السلام، حين بعثه الله إليهم فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ﴿فَإِذَا هُمْ فِي مَكَانٍ يَخْتَصِمُونَ﴾، قال مجاهد: «مؤمن وكافر»^(١) كقوله تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتْمَلُونِ أَمْ يَكِلِ الْأَمْرَ إِلَىٰ يَدَيْهِمْ أَفَلَا يَذَّكَّرُونَ﴾^(٢) قال الذين استكبروا إنا بما أرسل الله مؤمنون ﴿٧٥﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالْآلِئَةِ آمِنٌ بِهِ كَفَرُوا ﴿٧٦﴾ [الأعراف: ٧٥، ٧٦].

قال: ﴿قَالَ يَنْفِرُ لِمَن سَتَعْلَمُونَ وَالسَّيِّئَةُ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾ أي: لم تدعون بحضور العذاب ولا تطلبون من الله رحمته، ولهذا قال: ﴿لَوْلَا سَتَعْلَمُونَ اللَّهُ لَعَلَّكُمْ تَرْحَمُونَ﴾ قالوا أطعنا بك وبين معك أي: ما رأينا على وجهك ووجوه من اتبعك خيراً، وذلك أنهم لشقائهم كان لا يصيب أحداً منهم سوء إلا قال: هذا من قبل صالح وأصحابه، قال مجاهد: تشاءموا بهم^(٣)، وهذا كما قال تعالى: إخباراً عن قوم فرعون: ﴿فَإِذَا جَاءَهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَّعَهُ﴾ [الأعراف: ١٣١] وقال تعالى: ﴿وَإِنْ تُصِيبَهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ [النساء: ٧٨] أي: بقضائه وقدره^(٤)، وقال تعالى مخبراً عن أهل القرية إذ جاءها المرسلون: ﴿قَالُوا إِنَّا نَطَّيَّرُكُمْ إِنَّا نَطَّيَّرُكُمْ لَنْ يَمُرُّ بَكُمُ الْمَلَائِكَةُ وَلَيَمْسِكَنَّ الْعَذَابُ أَيْدِيَهُمْ﴾^(٥) قالوا طعركم معكم [يس: ١٨ - ١٩] الآية، وقال هؤلاء: ﴿أَطَّيَّرْنَا بِكَ وَبَيْنَ مَعَكَ قَالَ طَعَّرِكُمْ عِندَ اللَّهِ﴾ أي: الله يجازيكم على ذلك، ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّتَعَبُونَ﴾ قال قتادة: تبتلون بالطاعة والمعصية، والظاهر أن المراد بقوله: ﴿مُتَعَبُونَ﴾ أي: تستدرجون فيما أنتم فيه من الضلال^(٤).

(١) أخرجه ابن أبي حاتم (٢٨٩٨/٩) رقم (١٦٤٥٢) وابن جرير (٨٦/١٨) والفریابی وابن أبي شیبة وعبد بن حمید وابن المنذر، كما في «الدر المنثور» (٣٨٦/١١) - ط. هجر، وهو في «تفسير مجاهد» (٥٢٠).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم (٢٨٩/٩) رقم (١٦٤٥٩). وانظر: «الدر المنثور» (٣٨٦/١١) - ط. هجر.

(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «بقدر الله وقضائه».

(٤) انظر: «تفسير ابن كثير» (٤١٤/١٠ - ٤١٥).

﴿الباب الثالث﴾

قوله تعالى: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ۗ اللَّهُ خَيْرٌ مَّا يُشْرِكُونَ﴾ (٥٩) ﴿أَمِنْ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنبِتُوا شَجَرَهَا ۗ أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ بَلٌّ لَهُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ (٦٠) ﴿أَمِنْ جَعَلِ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ بَلٌّ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٦١) ﴿أَمِنْ يُحْيِي الْمُتْطَرِّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ۗ أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ (٦٢) ﴿أَمِنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَّحَ بُشْرًا^(١) بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۗ أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (٦٣) ﴿أَمِنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۗ أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ قُلٌّ هَكَأُو بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٦٤) ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ (٦٥) [النمل: ٥٩ - ٦٥]

قال (ك): «يقول تعالى آمراً رسوله ﷺ أن يقول: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أي: على نعمه على عباده من النعم التي لا تعد ولا تحصى، وعلى ما اتصف به من الصفات العلى والأسماء الحسنى، وأن يسلم على عباد الله الذين اصطفاهم واختارهم، وهم رسله وأنبيأؤه الكرام عليهم من الله [أفضل]^(٢) الصلاة والسلام، وهكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيره: إن المراد بعباده الذين اصطفاهم^(٣) الأنبياء، قال: وهو كقوله تعالى: ﴿سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ

(١) في الأصل: (نُشْرًا) وسيثبتها المصنف في الشرح بالرسم الذي ذكرناه، و«نُشْرًا» قراءة نافع وأبي عمرو وأبي جعفر ويعقوب وابن كثير، بالنون مضمومة وضم الشين بعدها، وقرأ ابن عامر والحسن (نُشْرًا) بضم النون وسكون الشين. انظر: «السبعة» (٢٨٣)، «الكشف عن وجوه القراءات» (٤٦٥/١)، «الحجة» لابن خالويه (١٥٧)، «إتحاف فضلاء البشر» (٣٣٣/٢).

(٢) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».

(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «اصطفى: هم».

﴿٣٧﴾ وَسَلِّمْ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٨﴾ وَلَعَنَ اللَّهُ رِبِّي الْعَالَمِينَ ﴿٣٩﴾ [الصفات: ١٨٠ - ١٨٢]

وقال الثوري والسدي: هم أصحاب محمد ﷺ - ورضي عنهم أجمعين - وروي نحوه عن ابن عباس [أيضاً] ^(١) ولا منافاة، فإنهم إذا كانوا من [عباد الله] ^(٢) الذين اصطفى، فالأنبياء بطريق الأولى والأخرى، والقصد أن الله تعالى أمر رسوله ومن اتبعه بعد [ذكره] ^(٣) لهم، ما فعل بأوليائه من النجاة والنصر والتأييد، وما أحل بأعدائه من الخزي والنكال والقهر، أن يحمده على جميع أفعاله، وأن يسلموا على عباده المصطفين الأخيار.

وقوله تعالى: ﴿لِلَّهِ خَيْرٌ مَّا يُشْرِكُونَ﴾ استفهام إنكاري ^(٤) على المشركين في عبادتهم مع الله آلهة أخرى، ثم شرع تعالى يبين أنه [المنفرد] ^(٥) بالخلق والرزق والتدبير دون غيره، فقال تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ﴾ أي [خلق] ^(٦) تلك السموات [في ارتفاعها] ^(٧) وصفاتها، وما جعل فيها من الكواكب النيرة والنجوم الزاهرة، والأفلاك الدائرة، و[خلق] ^(٨) الأرض في استفالها ^(٩) وكثافتها، وما جعل فيها من الجبال [والأطواد والسهول والأوعار] ^(١٠) والفيافي والقفار، [والزروع والأشجار] ^(١١) والشمار والبحار ^(١٢) والحيوان على اختلاف الأصناف والأشكال والألوان وغير ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ أي: جعله رزقاً للعباد،

(١) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير». والأثر أخرجه ابن أبي حاتم (٢٩٠٦/٩) رقم (١٦٤٩٥) وابن جرير (٩٨/١٨) والبيزار (٢٢٤٣ - «زوائد») وإسناده ضعيف جداً، مداره على الحكم بن ظهير، متروك رمي بالرفض، واتهمه ابن معين، كذا في «التقريب» (١٤٤٥)، وعزاه في «الدر المنثور» (٣٨٨/١١) لابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر.

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «عباده». (٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ما ذكر».

(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «إنكار». (٥) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «المتفرد».

(٦) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».

(٧) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «بارتفاعها».

(٨) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «باستفالها».

(٩) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «والأوعار والسهول».

(١٠) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «والأشجار والزروع».

(١١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «والبحور».

﴿فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ﴾ أي بساتين ﴿ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ أي: منظر حسن وشكل بهي ﴿مَا كَانَتْ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا﴾ أي: لم تكونوا تقدرّون على إنبات أشجارها^(١) وإنما يقدر على ذلك الخالق الرازق المستقل بذلك المنفرد به دون ما سواه من الأصنام والأنداد، كما يعترف به هؤلاء المشركون، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]، ﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [العنكبوت: ٦٣] أي: هم معترفون بأنه الفاعل لجميع ذلك وحده لا شريك له، ثم هم يعبدون معه غيره مما يعترفون أنه لا يخلق ولا يرزق، وإنما يستحق أن يفرد بالعبادة من هو [المنفرد]^(٢) بالخلق والرزق، ولهذا قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ﴾ أي: إله مع الله يعبد؟ وقد تبين لكم ولكل ذي لب ممن يعترفون^(٣) به أيضاً أنه الخالق الرازق، ومن المفسرين من يقول معنى قوله: ﴿أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ﴾^(٤) فعل هذا وهو يرجع إلى معنى الأول، لأن تقدير الجواب أنهم يقولون: ليس ثم أحد فعل هذا معه، بل هو المتفرد به، فيقال: كيف تعبدون معه غيره، وهو المستقل المتفرد بالخلق والرزق والتدبير؟ كما قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ﴾ [النحل: ١٧] الآية.

وقوله تعالى ههنا: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ ﴿أَمَّنْ﴾^(٥) في هذه الآيات كلها تقديره: أمن يفعل هذه الأشياء كمن لا يقدر على شيء منها؟ هذا معنى السياق، وإن لم يذكر الآخر؛ لأن في قوة الكلام ما يرشد إلى ذلك، وقد قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ثم قال في الآية الأخرى^(٦): ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعِدُونَ﴾ أي: يجعلون لله عدلاً ونظيراً، وهكذا قال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَنِيتٌ ءَانَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ [الزمر: ٩] أي: أمن هو هكذا كمن ليس كذلك، ولهذا قال تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٩]. ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّنْ رَبِّهِ قَوْلٌ لِّلْقَسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِّنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الزمر: ٢٢]، وقال

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «شجرها». (٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «المتفرد».

(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «يعرفون».

(٤) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أي: إله مع الله».

(٥) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أمن».

(٦) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «آخر الآية».

تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد: ٣٣] أي: أمن هو شهيد على أفعال الخلق، حركاتهم وسكناتهم، يعلم الغيب جليله وحقيقه كمن هو لا يعلم ولا يسمع ولا يبصر من هذه الأصنام التي عبدوها؟ ولهذا قال: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ﴾ [الرعد: ٣٣] وهكذا هذه الآيات الكريكات كلها، وقوله تعالى: ﴿أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا﴾ إلى قوله: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

قال (ع): «يقول تعالى: ﴿أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا﴾ أي: قارة ساكنة ثابتة لا تميد ولا تتحرك بأهلها ولا^(١) ترجف بهم، فإنها لو كانت كذلك لما طاب عليها العيش والحياة، بل جعلها من فضله ورحمته مهاداً بساطاً، ثابتة لا تتزلزل ولا تتحرك كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بَنَاءً﴾ [غافر: ٦٤].

[وقوله]^(٢): ﴿وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا﴾ أي: جعل فيها الأنهار العذبة الطيبة [شقيها]^(٣) في خلالها، وصرفها فيها ما بين أنهار كبار وصغار وبين ذلك، وسيرها شرقاً وغرباً وجنوباً وشمالاً، بحسب مصالح عباده في أقاليمهم وأقطارهم، حيث ذرأهم في أرجاء الأرض ويسير إليهم^(٤) أرزاقهم بحسب ما يحتاجون إليه.

﴿وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيًا﴾ أي: جبالاً شامخة ترسي الأرض وتثبتها لئلا تميد بكم، ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾ أي: جعل بين المياه العذبة والمالحة حاجزاً، أي: مانعاً يمنعها من الاختلاط لئلا يفسد هذا بهذا، وهذا بهذا، فإن الحكمة الإلهية تقتضي بقاء كل منهما على صفته المقصودة منه، فإن البحر الحلو، هو هذه الأنهار السارحة الجارية بين الناس، والمقصود منها أن تكون عذبة زلالاً، يسقي^(٥) الحيوان والنبات^(٦) منها، والبحار المالحة^(٧) المحيطة بالأرجاء والأقطار من كل جانب^(٨)، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ

(١) من مطبوع «تفسير ابن كثير»، وسقطت من الأصل.

(٢) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير». (٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «تشقيها».

(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «سير إليهم».

(٥) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «تسقي».

(٦) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «والثمار».

(٧) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «هي».

(٨) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «والمقصود منها أن يكون ماؤها ملحاً أجاجاً، لئلا يفسد الهواء بريحتها».

فَرَأَتْ هَذَا يَلُحُّ أَجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَجِجْرًا مَّخْجُورًا ﴿٥٣﴾ [الفرقان: ٥٣]، ولهذا قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ مَعَ اللَّهِ﴾ أي: فعل هذا، [أو يعبد] ^(١) على القول الأول ^(٢) وكلاهما متلازم صحيح، ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: في عبادتهم غيره.

وقوله تعالى: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أُولَئِكَ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٥٤﴾﴾:

قال (ك): «ينبه تعالى أنه هو المدعو عند الشدائد، المرجو عند النوازل، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَاهُ﴾ [الإسراء: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْتَرُونَ﴾ [النحل: ٥٣] وهكذا قال ههنا: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ أي: من هو الذي [لا] ^(٣) يلجأ المضطر [إلا] ^(٣) إليه، والذي لا يكشف ضر المضرورين ^(٤) سواه.

وروى الإمام أحمد بسنده عن جابر بن سليم الهَجِيمِي قال: أتيت رسول الله ﷺ وهو محتبٌ بشملة وقد وقع هُذْبُها على قدميه، فقلت: أيكم محمد رسول الله؟ فأومى بيده إلى نفسه، فقلت: يا رسول الله أنا من أهل البادية وفيّ جفاؤهم فأوصني، قال: «لا تحقرن من المعروف شيئاً، ولو أن تلقى أخاك ووجهك منبسط، ولو أن تفرغ من دلوك في إناء المستسقي، وإن امرؤ شتمك بما يعلم فيك فلا تشتمه بما تعلم فيه، فإنه يكون لك أجره وعليه وزره، وإياك وإسبال الإزار، فإن إسبال الإزار من المخيلة، وإن الله لا يحب المخيلة، ولا تسبّن أحداً» ^(٥). قال: فما سببت أحداً ولا شاة ولا بعيراً.

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وبعد». (٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الآخر».

(٣) من مطبوع «تفسير ابن كثير»، وسقط من الأصل.

(٤) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «المضطرين»!

(٥) أخرجه أحمد (٦٣/٥، ٦٤، ٩٤)، والبخاري في «التاريخ الصغير» (١/١١٨)، وفي «التاريخ الكبير» (٢/٢٠٦)، وفي «الأدب المفرد» (١١٨٢)، والنسائي في «الكبرى» (٩٦٩١ - ٩٦٩٤)، وأبو داود (٤٠٧٥)، والترمذي (٢٧٢١)، والطيالسي (٢٠٨)، وعبد الرزاق (١٩٩٨٢)، وابن أبي شيبة (٨/٣٩١ - ٣٩٣)، وأبو عبيد في «الخطب والمواظع» (رقم ١٥ - بتحقيقي)، وابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (١١٨٥)، وابن سعد (٧/٤٤)، وابن قانع في «معجم الصحابة» (١/١٤٢)، والدولابي في «الكنى» (١/٦٦)، وابن حبان (٥٢١)، والطبراني (٦٣٨٥ - ٦٣٨٨)، والحاكم (٤/١٨٩)، والبيهقي (١٠/٢٣٦) والحديث صحيح، وانظر: «الكبائر» (٣٩١ - ٣٩٢ رقم ٣٤٦ النشرة الثانية - بتحقيقي).

وقال أبو حاتم بسنده عن عبيد الله بن أبي صالح قال: «دخل علي طائوس يعودني، فقلت: ادع الله لي يا أبا عبد الرحمن، فقال: ادع لنفسك فإنه يجب المضطر إذا دعا»^(١). وذكر الحافظ ابن عساكر في ترجمة رجل حكى عنه أبو بكر محمد بن داود الدينوري المعروف بالدقي الصوفي، قال هذا الرجل: كنت أكارى على بغل لي من دمشق إلى بلد الزبداني، فركب معي ذات مرة رجل، فمررنا [في]^(٢) بعض الطريق على طريق غير مسلوكة، فقال لي: خذ في هذه فإنها أقرب، فقلت: لا خبرة لي فيها، فقال: بل هي أقرب فسلكنها فانتهينا إلى مكان وعرواد عميق، وفيه قتلى كثير^(٣)، فقال لي: أمسك رأس البغل حتى أنزل، فنزل وتشمر وجمع عليه ثيابه وسل سكيناً معه، وقصدي ففررت من بين يديه وتبعني، فناشدته الله، وقلت: خذ البغل بما عليه. فقال: هو لي وإنما أريد قتلك، فخوَّفته الله والعقوبة، فلم يقبل فاستسلمت بين يديه، وقلت: إن رأيت أن تتركني حتى أصلي ركعتين، فقال: وعجل فقمْتُ أصلي فأرتج عليَّ القرآن، فلم يحضرني منه حرف واحد فبقيت واقفاً متحيراً وهو يقول: هيه افرغ، فأجرى الله على لساني قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَا وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ فإذا أنا بفارس قد أقبل من فم [الواد]^(٤) وبيده حربة، فرمى بها الرجل، فما أخطأت

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «التفسير» (٢٩١٠/٩) رقم (١٦٥١٩)، والخطيب في «تالي تلخيص المتشابه» (رقم ١١٥ - بتحقيقي)، وعبيد الله بن أبي صالح مقبول، كما في «التقريب».

وكره السلف طلب الدعاء من الغير إن دخل فيه أمر زائد، صار الدعاء بتلك الزيادة مخالفاً للسنة، كأن يعتقد فيه أنه مثل النبي، أو أنه وسيلة إلى أن يُعتقد ذلك، أو يُعتقد أنه سنة تلزم، أو تجري في الناس مجرى السنن الملتزمة. قال شيخ الإسلام في «قاعدة جلية» (ص ٧١، ط. ربيع): «هذا ليس من المقتدين بالرسول، المؤمنين به في ذلك، بل هذا من السؤال المرجوح الذي تركه إلى الرغبة إلى الله وسؤاله - وتحرف في جميع الطبقات إلى «ورسوله»: وهو تحريف قبيح يفضي إلى الشرك والعباد بالله - أفضل من الرغبة إلى المخلوق وسؤاله، وهذا كله من سؤال الأحياء السؤال الجائر المشروع»، وانظر فيما ورد عن السلف في ذلك مع توجيهه: «المجانسة» (٧٠/٤ - ٧١)، و«الاعتصام» (٣١٤/٢ - ٣١٩) وتعليقي عليهما.

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «على».

(٣) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «كثيرة»!

(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الوادي».

فؤاده، فخرٌ صريعاً، فتعلقت بالفارس، وقلت [له] ^(١): بالله من أنت؟ فقال: أنا رسول الذي يجيب المضطر إذا دعاه، ويكشف السوء، قال: فأخذت البغل والحمل ورجعت سالماً ^(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾ أي: يخلف قرن قرناً ^(٣) قبلهم وخلفاً لسلف كما قال تعالى: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفَ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَةِ قَوْمٍ آخَرِينَ﴾ [الأنعام: ١٣٣] ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾ أي: قوماً يخلف بعضهم بعضاً، كما قدمنا تقريره ^(٤) ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ مَعَ اللَّهِ﴾ أي: يقدر

(١) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».

(٢) القصة في «تاريخ دمشق» (٢٥١/٦٨ - ٢٥٢، ط. دار الفكر)، ورويت على ضروب وألوان، فوردت عن (أبي معلق) وفي القصة: «رجل من أصحاب النبي ﷺ من الأنصار» عند ابن أبي الدنيا في «مجايب الدعوة» رقم (٢٣)، و«الهواتف» رقم (١٤) - ومن طريقه اللالكائي في «كرامات الأولياء» رقم (١١١)، وعبد الغني في «الترغيب في الدعاء» رقم (٦١) - وأبي موسى المديني في «الوظائف»، وابن بشكوال في «المستغِيثين بالله» رقم (٣)، والضياء في «العدة للكرب والشدة» رقم (٣٢)، وابن الأثير في «أسد الغابة» (٥/٣٠٢)، وابن حجر في «الإصابة» (٣٨٠/٧)، وإسنادها مظلم، وقال الذهبي في «التجريد» (٢/٢٠٤): «أبو معلق الأنصاري له حديث عجيب، لكن في سنده الكلبي، وليس بثقة»، وهي مسندة عند أبي سعيد النقاش في «فنون العجائب» (رقم ٨٣ - بتحقيقي) مما قصه عبد الله بن سلام على النبي ﷺ، وفي إسنادها عبد المنعم بن إدريس اليماني قصاص مشهور، ليس يعتمد عليه، تركه غير واحد، واتهم.

وأسندها المعافى النهرواني في «الجلس الصالح» عن بعض بني إسرائيل، وكذا ذكرها التنوخي في «الفرج بعد الشدة» (ص ٤٩ - ٥٠).

وشاعت وذاعت قديماً وحديثاً، وفي «الحلية» (٢٩٢/٧ - ٤٩٤) أن ابن عيينة كان يطلب من رجل وقعت له أن يقوم ويحدث بها، وهكذا ذكرها عنه الدميري في «حياة الحيوان الكبرى» (١/٢٧٨ - ٢٧٩) ثم وجدتها مسندة عند ابن شاهين في «جزء من حديثه عن شيوخه» رقم (٢٧)، وزادت عليها الألسنة، وغيّرت فيها الأسنة، كما تراه - مثلاً - في «آداب الدعاء» (٧٣ - ٧٤) للأفغهي نقلاً عن الشيخ عبد القادر الجيلاني، وتناقلها وطار بها أي مطار الشيخ عبد الحميد كشك - رحمه الله تعالى - وجماعة التبليغ، وهما في هذا العصر من أكبر مصادر الأحاديث الضعيفة والموضوعة، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم!

(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «قرناً لقرن».

(٤) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير» بعد كلام: «ولهذا قال تعالى: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾».

على ذلك، أو: إله مع الله يعبد؟ وقد علم أن الله هو المتفرد^(١) بفعل ذلك [وحده لا شريك له]^(٢) وقال تعالى: ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ أي: ما أقل تذكرهم فيما يرشدهم إلى الحق ويهديهم إلى الصراط المستقيم.

وقوله تعالى: ﴿أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَّحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أُولَئِكَ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل: ٦٣] يقول تعالى: أمن يهديكم في ظلمات البر والبحر^(٣) بما خلق من الدلائل السماوية والأرضية، كما قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَنَّا وَابْتَلَمْنَا هُم يَهْتَدُونَ﴾ [النحل: ١٦] وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النَّجْمَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ [الأنعام: ٩٧] الآية [وقال تعالى]^(٤): ﴿وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَّحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ أي: بين يدي السحاب الذي فيه مطر يغيث [الله]^(٥) به عباده المجدبين^(٦) القنطين، ﴿أُولَئِكَ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ﴿أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُولَئِكَ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاثُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آي: هو الذي بقدرته وسلطانه يبدأ الخلق ثم يعيده، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ [البروج: ١٢، ١٣]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]. ﴿وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: بما ينزل من مطر السماء وينبت من بركات الأرض، كما قال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ﴾ [النمل: ١١] وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّالِحِ [الطارق: ١١، ١٢] فهو تبارك وتعالى ينزل من السماء ماء مباركاً فيسلكه^(٧) ينابيع في الأرض ثم يخرج به [منها]^(٨) أنواع الزروع والشمار والأزاهير وغير ذلك من ألوان شتى، ﴿كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَانِ﴾ [طه: ٥٤]، ولهذا قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ مَعَ اللَّهِ﴾ أي: فعل هذا، وعلى القول الآخر يعبد^(٩)، ﴿قُلْ هَاثُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ على

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «المنفرد». (٢) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».

(٣) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أي:».

(٤) سقط من الأصل، وأثبتته من مطبوع «تفسير ابن كثير».

(٥) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».

(٦) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الآزليين».

(٧) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «فيسكنه».

(٨) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».

(٩) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «بعد هذا».

صَحَّة مَا تَدْعُونَهُ مِنْ عِبَادَةِ آلِهَةٍ أُخْرَى ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ فِي ذَلِكَ، وَقَدْ عَلِمَ أَنَّهُ لَا حُجَّةَ لَهُمْ [فِي ذَلِكَ] ^(١) وَلَا بَرَهَانَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُمْ لَا يُفْلِحُونَ﴾ ^(٢) [المؤمنون: ١١٧].

﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ ^(٣) يقول تعالى أمراً رسوله ﷺ أَنْ يَقُولَ مُعَلِّماً لِجَمِيعِ الْخَلْقِ: إِنَّهُ لَا يَعْلَمُ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ [إِلَّا اللَّهُ] ^(١) وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِلَّا﴾ ^(٢)، اسْتِثْنَاءٌ مُنْقَطِعٌ أَيْ: لَا يَعْلَمُ أَحَدٌ ذَلِكَ إِلَّا اللَّهُ ﷻ، فَإِنَّهُ الْمُنْفَرِدُ ^(٣) بِذَلِكَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ٥٩] الْآيَةُ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ...﴾ [القمان: ٣٤] إِلَى آخِرِ السُّورَةِ، وَالْآيَاتُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ ^(٤) أَيْ: وَمَا يَشْعُرُ الْخَلَائِقُ السَّاكِنُونَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِوَقْتِ السَّاعَةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿نُفِثَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْثَةٌ﴾ [الأعراف: ٨٧] أَيْ: ثَقُلَ عِلْمُهَا عَلَى أَهْلِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ بِسَنَدِهِ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: «مَنْ زَعَمَ أَنَّهُ يَعْلَمُ - تَعْنِي: النَّبِيَّ ﷺ - مَا يَكُونُ فِي غَدٍ، فَقَدْ أَعْظَمَ عَلَى اللَّهِ الْفَرِيَةَ، لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾» ^(٥).

وَقَالَ قَتَادَةُ ^(٦): «إِنَّمَا جَعَلَ [اللَّهُ] ^(٧) هَذِهِ النُّجُومَ ثَلَاثَ [خِصَالٍ] ^(٨): جَعَلَهَا زِينَةً لِلسَّمَاءِ، وَجَعَلَهَا يَهْتَدَى بِهَا، وَجَعَلَهَا رَجُوماً لِلشَّيَاطِينِ، فَمَنْ تَعَاطَى فِيهَا غَيْرَ ذَلِكَ، فَقَدْ قَالَ بِرَأْيِهِ وَأَخْطَأَ حَظَّهُ، وَأَضَاعَ نَصِيبَهُ، وَتَكَلَّفَ مَا لَا عِلْمَ لَهُ بِهِ، وَإِنْ أَنَا سَأَلْتُ ^(٩) جَهْلَةً بِأَمْرِ اللَّهِ قَدْ أَحْدَثُوا مِنْ هَذِهِ النُّجُومِ كِهَانَةً: مَنْ أَعْرَسَ بِنَجْمٍ كَذَا وَكَذَا

- (١) غَيْرَ مُوجُودٍ فِي مَطْبُوعِ «تَفْسِيرِ ابْنِ كَثِيرٍ». (٢) فِي مَطْبُوعِ «تَفْسِيرِ ابْنِ كَثِيرٍ»: «إِلَّا اللَّهُ».
- (٣) فِي مَطْبُوعِ «تَفْسِيرِ ابْنِ كَثِيرٍ»: «الْمُنْفَرِدُ».
- (٤) فِي مَطْبُوعِ «تَفْسِيرِ ابْنِ كَثِيرٍ»: «وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ».
- (٥) أَخْرَجَهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ فِي «التَّفْسِيرِ» (٢٩١٣/٩) رَقْمَ (١٦٥٣٥)، وَمُسْلِمٌ (١١٧) مَطْوِلاً، وَالتِّرْمِذِيُّ (٣٠٦٨) وَغَيْرُهُمْ.
- (٦) بَعْدَهَا فِي مَطْبُوعِ «تَفْسِيرِ ابْنِ كَثِيرٍ»: «إِنَّ اللَّهَ».
- (٧) غَيْرَ مُوجُودٍ فِي مَطْبُوعِ «تَفْسِيرِ ابْنِ كَثِيرٍ».
- (٨) فِي مَطْبُوعِ «تَفْسِيرِ ابْنِ كَثِيرٍ»: «خِصَالَاتٍ» وَفِي مَطْبُوعِ «تَفْسِيرِ ابْنِ أَبِي حَاتِمٍ»: «خِصَالٌ».
- (٩) فِي مَطْبُوعِ «تَفْسِيرِ ابْنِ كَثِيرٍ»: «نَاساً».

كان كذا وكذا، ومن سافر بنجم كذا وكذا كان كذا وكذا، ومن ولد بنجم كذا وكذا كان كذا وكذا، ولعمري ما من نجم إلا يولد به الأحمر والأسود والقصير والطويل والحسن والدميم^(١)، وما علم هذا النجم وهذه الدابة وهذا الطائر بشيء من الغيب، وقضى الله تعالى أنه^(٢) ﴿لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُنْعَثُونَ﴾ لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله، وما يشعرون أيان ينعثون^(٣). رواه ابن أبي حاتم عنه بحروفه، وهو كلام جليل متين^(٤).

فصل

قال محمد تقي الدين: في هذا الكلام فوائد:

الأولى: إن كل من يقرأ الآيات ويفهم معناها ويبقى معتقداً بجواز عبادة غير الله تعالى بالدعاء وبالاستغاثة والذبح والنذر والخوف والرجاء والتوكل والخضوع والتذلل، فلا شك أن الله تعالى ختم على قلبه وسمعه وجعل على بصره غشاوة، فمن يهدي من أضل الله؟

الثانية: ذكر الله تعالى في هذه الآيات خمسة عشر دليلاً، كل واحد منها كاف شاف في أنه لا يعبد إلا الله، ومن عرف ذلك الدليل، وعبد غير الله، فهو أضل من الأنعام:

الأول: خلق السموات والأرض.

الثاني: إنزال الماء من السماء.

الثالث: إنبات النبات من حداثق وغيرها.

الرابع: جعل الأرض قراراً.

الخامس: خلق الجبال في الأرض لثبيتها.

السادس: جعل الأنهار تجري خلالها.

السابع: خلق حاجز بين الماء العذب والماء المالح.

(١) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير» بدال مهملة، وفي الأصل بذا م معجمة.

(٢) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «أن»!

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «التفسير» (٢٩١٣/٩) رقم (١٦٥٣٦)، والخطيب في «القول في علم النجوم» (ص ١٨٥).

(٤) انظر: «تفسير ابن كثير» (٤١٨/١٠ - ٤٢٦) بتصرف.

الثامن: إجابة المضطر وغوث الملهوف كصاحب البغل.

التاسع: كشف السوء كله من فقر ومرض وسجن وغير ذلك من أنواع الضيق والكرب.

العاشر: جعل الله الناس خلفاء في الأرض يخلف بعضهم بعضاً، يعمر الأرض قوم ثم يذهبون، ويأتي قوم آخرون، وهكذا إلى يوم القيامة.

الحادي عشر: هداية الله الناس في أسفارهم في ظلمات البر والبحر بنجوم السماء، وعلامات الأرض.

الثاني عشر: إرسال الله الرياح مبشرات بين يدي المطر.

الثالث عشر: إن الله يبدأ الخلق ثم يفنيهم ثم يعيدهم.

الرابع عشر: إن الله يرزق عباده أنواعاً من الرزق، بعضها من السماء وبعضها من الأرض.

الخامس عشر: استئثار الله تعالى بعلم الغيب.

الثالثة: تكرار قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُ آيَاتٌ أَنْ يَسْأَلَ الْخَلْقَ﴾ خمس مرات، وقد فسرنا بعض المفسرين بقولهم أله يعبد مع الله؟ وفسرها آخرون بقولهم: أله آخر هناك فعل ذلك؟ والجواب: لا، لأن المشركين في ذلك الزمان يعتقدون جازمين أنه لا يفعل ذلك إلا الله، فيقال لهم: لماذا تعبدون غيره إذا؟!

﴿الباب الرابع﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوا الْقُرْآنَ فَمَنْ أَهْتَدَىٰ فَأِنَّمَا يَهْتَدَىٰ لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيَرْبِكُمْ أَيْنَئِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبَّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [النمل: ٩١ - ٩٣]

قال (ك): «يقول تعالى مخبراً عن رسوله^(١) وأمرأ له أن يقول: ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ﴾، كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّكُم﴾ [يونس: ١٠٤] وإضافة^(٢) الربوبية إلى البلدة على سبيل التشريف لها

(١) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «الرسوله».

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أضاف».

والاعتناء بها، كما قال تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۖ﴾ [٢] الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ﴿١﴾﴾ [قرش: ٣، ٤].

وقوله تعالى: ﴿الَّذِي حَرَمَهَا﴾ أي: الذي إنما صارت حراماً شرعاً وقدرأً بتحريمه لها، كما ثبت في «الصحيحين» عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ يوم فتح مكة: «إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض، فهو حرام بحرمه الله إلى يوم القيامة، لا يعضد شوكة ولا ينفر صيده، ولا يلتقط لقطته إلا من عرفها، ولا يختلى خلاها...»^(١) الحديث بتمامه.

وقوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُنْ كُلُّ شَيْءٍ﴾ من باب عطف العام على الخاص، أي: هو رب هذه البلدة، ورب كل شيء ومليكه، [لا إله إلا هو]^(٢).

﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ أي: الموحدين المخلصين المنقادين لأمره المطيعين له وقوله: ﴿وَأَنْ أَتْلُوا الْقُرْآنَ﴾ أي: على الناس أبلغهم إياه، كقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ۝٥٨﴾ [آل عمران: ٥٨]، وكقوله تعالى: ﴿نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ﴾ [القصص: ٣] الآية أي: أنا مبلغ ومنذر: ﴿فَمَنْ أَهْتَدَىٰ فَلِنَّمَا يَهْتَدِ لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ أي: لسي [أسسوة بالرسول]^(٣) الذين أنذروا قومهم، وقاموا بما عليهم من أداء الرسالة إليهم وخلصوا من عهدتهم، وحساب أممهم على الله تعالى، كقوله تعالى: ﴿فَلِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾، وقال: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾.

﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا﴾ أي: الله الحمد الذي لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه، [والإنذار]^(٤) إليه، ولهذا قال تعالى: ﴿سَرُّهُمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أي: بل هو شهيد على كل شيء، وقال ابن أبي حاتم بسنده عن أبي هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «يا أيها الناس لا يغترون أحدكم بالله، فإن الله لو كان غافلاً شيئاً لأغفل البعوضة

(١) أخرجه البخاري (١٨٣٤)، ومسلم (١٣٥٣)، وأبو داود (٢٠١٨)، والترمذي (١٥٩٠).

(٢) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».

(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «سوية الرسل».

(٤) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «والإعذار».

والخردلة والذرة»^(١)، وكان الإمام أحمد ينشد هذين البيتين، إما له وإما لغيره^(٢) :
إذا ما خلوت الدهر يوماً فلا تقل خَلَوْتُ ولكن قل عليّ رقيبٌ
ولا تحسبن الله يغفل ساعة ولا أن ما يخفى عليه يغيبُ

فصل

قال محمد تقي الدين: أمر الله رسوله ﷺ وأمر أمته تبعاً له بعبادة الله وحده لا شريك له، رب كل شيء، وأمره أن يكون من المسلمين، أي: الذين أسلموا نفوسهم وقلوبهم لله رب العالمين، ووحدوه وأطاعوه، وأمره بقراءة القرآن لوجه الله لا لغرض آخر، قال تعالى: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرِ فَهَوَ لَكُمْ إِنْ أَجَرَى إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ [سبأ: ٤٧] فمن قرأ القرآن لغرض آخر من أغراض الدنيا كتحصيل المال أو الفخر، فإنه يكون عليه وبالاً.

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «التفسير» (٢٩٣٧/٩) رقم (١٦٦٥٩)، وانظر تخريجه مفصلاً في (٣/٣٢٠).

(٢) وقع اضطراب شديد في نسبة هذين البيتين لا سيما الأول؛ فنسب للحسن بن عمرو الإباضي في «ديوان الخوارج» (٢٥٩ - ٢٦١)، و«شعر الخوارج» (ص ٩١). ونسب لصالح بن عبد القدوس في «شعره» (ص ١٣٣)، وهو في «ديوان أبي نواس» (ص ٦١٥)، وله في «شرح الصولي» (٩٧٨)، و«زهدياته» (٧١)، و«تاريخ دمشق» (١٣/٤٥٥ - ٤٥٦) و«روح المعاني» (١١٧/٢٤) للآلوسي، و«شعر الدعوة الإسلامية في العصر العباسي الأول» (مقطع ٢٩).

وكان يتمثل به الشافعي في «مناقب الشافعي» للبيهقي (١٠٨/٢)، و«مناقب الرازي» (١٩٦) لابن أبي حاتم، و«تاريخ دمشق» (٤١٥/٥١) لابن عساكر، و«طبقات الشافعية» (١٤/١) للإسنوي. وتمثل به الإمام أحمد في «الحلية» (٢٢٠/٩)، و«تاريخ بغداد» (٢٠٥/٥)، و«طبقات الحنابلة» (٨٣/١)، و«مناقب الإمام أحمد» (ص ٢٦٥)، و«عين الأدب والسياسة» (ص ١٨٦)، و«المنهج الأحمد» (٢٥/١).

وهو في «أخلاق الوزيرين» (ص ٣٧٤) لنصيح بن منظور الفقعسي، وفي «ربيع الأبرار» (٤٢٣/٢)، و«روضة العقلاء» (ص ١٣)، و«الأمالي» (٩١/٢)، و«الإحياء» (٣٩٨/٤)، و«إتحاف السادة المتقين» (٩٨/١٠)، و«المخلاة» (٧٢) دون نسبة.

ونسبت للحجاج بن يوسف التيمي في «عيون الأخبار» (٣٤٧/٢)، ط. دار الكتب العلمية، و٣٢٢/٢، ط. المصرية، و«البيان والتبيين» (١٧٤/٣)، و«حماسة البحتري» (٣٣٠)، و«الأغاني» (١١٩/١٨) ونسبت لأبي العتاهية وهي في «ديوانه» (١٤، ١٥)، وانظر: «المجالسة» لأحمد بن مروان الدينوري (١٠٤/٤ - ١٠٥ - بتحقيقي) والتعليق على «ديوان الخوارج»، وتخريج د. معيد على «حماسة الظرفاء».

سُورَةُ الْقَصَصِ

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ (١٧)
 قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا
 إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿١٨﴾ وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمُ فَلَمْ
 يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ﴿١٩﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ
 مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ
 ﴿٢١﴾ فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَىٰ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ ﴿٢٢﴾
 وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ
 وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا
 يُعْلِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْخِزْيُ الْأَوَّلِيُّ وَالْآخِرُ وَلَهُ
 الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا
 إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَمْ لَا تَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ قُلْ
 أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهُ
 غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِاللَّيْلِ تَسْكُونُونَ فِيهِ أَمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾ وَمَنْ رَحِمْتِهِ
 جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ
 ﴿٢٨﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٩﴾
 وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعِلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ
 وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾ [القصص: ٦٢ - ٧٥]

قال (ع): «يقول تعالى مخبراً عما يوبخ به الكفار المشركين يوم القيامة

حيث يناديهم، فيقول: ﴿أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾، يعني: أين الآلهة التي كنتم تعبدونها في الدار الدنيا من الأصنام والأنداد؟! ﴿هَلْ يَنْصَرُونَ أَوْ يُنصَرُونَ﴾ [الشعراء: ٩٣] وهذا على سبيل التقريع والتهديد، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرْكُمُ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ نَقَطَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾﴾ [الأنعام: ٩٤].

وقوله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ يعني: من ^(١) الشياطين والمردة والدعاة إلى الكفر ﴿رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ فشهدوا عليهم أنهم أغووههم فاتبعوهم ثم تبرؤوا من عبادتهم، كما قال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾﴾ [مریم: ٨١، ٨٢] وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْفَیْئَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأحقاف: ٥، ٦]، وقال الخليل عليه السلام لقومه: ﴿إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْفَیْئَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَلَيَعْلَنَ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ﴾ [العنكبوت: ٢٥] الآية، وقال الله تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٦ - ١٦٧] ولهذا قال: ﴿وَقِيلَ أَدْعُوا شُرَكَاءَكُمْ﴾ ليخلصوكم مما أنتم فيه كما كنتم ترجون منهم في الدار الدنيا ﴿فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ﴾ أي: وتيقنوا أنهم صائرون إلى النار لا محالة.

وقوله: ﴿لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ﴾ أي: فودُّوا حين عاينوا العذاب لو أنهم كانوا من المهتدين في الدار الدنيا، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا ﴿٥١﴾ وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاعِدُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٢﴾﴾ [الكهف: ٥٢، ٥٣].

وقوله: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾﴾ النداء الأولى عن سؤال التوحيد، وهذا فيه إثبات النبوات: ماذا كان جوابكم للمرسلين إليكم

(١) من مطبوع «تفسير ابن كثير» وسقطت من الأصل.

[و] (١) كيف كان حالكم معهم؟ وهذا كما يسأل العبد في قبره: من ربك؟ ومن نبيك، وما دينك؟ فأما المؤمن؛ فيشهد أنه لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، وأما الكافر فيقول: هاه، هاه، لا أدري (٢)، ولهذا لا جواب له يوم القيامة غير السكوت، لأن ﴿وَمَنْ كَانَتْ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ۖ﴾ [الإسراء: ٧٢]، ولهذا قال تعالى: ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ (٣)، وقال مجاهد: فعُميت عليهم الحجج فهم لا يتساءلون بالأنساب، وقوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ أي: في الدنيا ﴿فَعَسَىٰ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ﴾ أي: يوم القيامة، ﴿وَعَسَىٰ﴾ من الله موجبة، فإن هذا واقع بفضل الله ومنته (٣) لا محالة.

وقوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ إلى قوله: ﴿يَرْجُونَ﴾: قال (ك): «يخبر تعالى أنه المنفرد بالخلق والاختيار، وأنه ليس له في ذلك منازع، ولا معقب قال (٤) تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ أي: ما يشاء، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، فالأمور كلها خيرها وشرها بيده، ومرجعها إليه.

وقوله: ﴿مَا كَانَتْ لَهُمْ الْخِيَرَةُ﴾ نفى على أصح القولين، كقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَىٰ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦] وقد اختار ابن جرير (٥)، أن ما ههنا بمعنى: الذي، تقديره: ويختار الذي لهم خيرة، وقد احتج بهذا المسلك طائفة المعتزلة على وجوب مراعاة الأصلح (٦)، والصحيح أنها نافية، كما نقله ابن أبي حاتم عن ابن عباس (٧) وغيره أيضاً، فإن المقام في بيان انفراده تعالى بالخلق، والتقدير، والاختيار، وأنه

(١) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».

(٢) سيأتي الحديث بطوله في (١٢٧/٥)، (١٠/٦)، (١٢١، ١٦٨) وهناك تخريجه.

(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ومنته». (٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «فقال».

(٥) انظر: «تفسيره» (٢٩٩/١٨ - ٣٠٠).

(٦) انظر مذهبهم في: «شرح الأصول الخمسة» (٥٢٣ - ٧٧٩)، «المغني في أبواب التوحيد والعدل» (٤٧/١٤)، وانظر مناقشتهم في: «المسائل الاعتزالية في تفسير الكشاف» (١/ ١٩١ - ٢٩٢، ٢١٢، ٢١٤، ٤١٢، ٤١٣).

(٧) يشير إلى قصة، أخرجها عبد الرزاق (٣٩٧٥)، وابن أبي حاتم في «التفسير» (٩/ ١٧٦٨٨)، والبيهقي (٤٥٣/٢) يستفاد منها أن رأي ابن عباس في (ما) أنها نافية، وعزاها السيوطي في «الدر المنثور» (٥١/١٢) لابن مردويه أيضاً.

لا نظير له في ذلك، ولهذا قال: ﴿سُبْحَنَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي: من الأصنام والأنداد التي لا تخلق ولا تختار شيئاً.

ثم قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ (١٦) أي: يعلم [ما تكن] (١) الضمائر، وما تنطوي عليه السرائر، كما يعلم ما تبديه الظواهر من سائر الخلائق، ﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخَفٍ بِالنُّيْلِ وَسَارِبٍ بِالنَّهَارِ﴾ (١٧) [الرعد: ١٠]، وقوله: ﴿وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ [أي: هو] (٢) المنفرد بالإلهية فلا معبود سواه، كما لا رب يخلق ويختار سواه. ﴿لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ﴾ أي: في جميع ما يفعله، هو المحمود عليه لعدله (٣) وحكمته ﴿وَلَهُ الْحُكْمُ﴾ أي: الذي لا معقب له لقهره وغلبته وحكمته ورحمته ﴿وَلِلَّهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي: جميعكم يوم القيامة فيجزى (٤) كل عامل بعمله من خير وشر، ولا يخفى عليه منهم خافية في سائر الأعمال.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَتَيْتُمُوهَ إِن جَعَلَ اللَّهُ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾: قال (ك): «يقول تعالى ممتناً على عباده بما سخر لهم من الليل والنهار اللذين لا قوام لهم بدونهما، وبين أنه لو جعل الليل دائماً عليهم سرمداً إلى يوم القيامة، لأضر ذلك بهم ولستمته (٥) النفوس وانحصرت منه، ولهذا قال تعالى: ﴿مَنْ إِلَهُ غَيْرَ اللَّهِ يَأْتِيَكُمْ بِضِيَاءٍ﴾ أي: تبصرون به وتستأنسون بسببه: ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾».

ثم أخبر تعالى أنه لو جعل النهار سرمداً [أي] (٦): دائماً مستمراً إلى يوم القيامة؛ لأضر ذلك بهم ولتعبت الأبدان، وكَلَّتْ من كثرة الحركات والأشغال، ولهذا قال تعالى: ﴿مَنْ إِلَهُ غَيْرَ اللَّهِ يَأْتِيَكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ﴾ أي: تستريحون من حركاتكم وأشغالكم ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾».

﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ﴾ أي بكم: ﴿جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ أي: خلق هذا وهذا ﴿لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ أي: في الليل ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي: في النهار بالأسفار

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «مكتمة».

(٢) من مطبوع «تفسير ابن كثير»، وسقط من الأصل!

(٣) كذا مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «بعده».

(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «فيجازي».

(٥) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «سئمه».

(٦) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».

والترحال والحركات والأشغال، وهذا من باب اللف والنشر وقوله: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي: تشكرون الله بأنواع العبادات في الليل والنهار ومن فاته شيء بالليل استدركه بالنهار، أو بالنهار استدركه بالليل، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنۢ أَرَادَ أَنۢ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان: ٦٢]. والآيات في هذا كثيرة، ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [٧٤] وَزَعَنَّا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [٧٥].

وهذا أيضاً نداء [ثان] ^(١) على سبيل التوبيخ والتقريع ^(٢) لمن عبد مع الله إلهاً آخر، يناديهم الرب على رؤوس الأشهاد، فيقول: ﴿أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أي: في دار الدنيا، ﴿وَزَعَنَّا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ قال مجاهد: يعني: رسولاً ^(٣)، ﴿فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ أي: على صحة ما ادعيتموه من أن الله شركاء ﴿فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ﴾ أي: لا إله غيره فلم ينطقوا ^(٤).

فصل

قال محمد تقي الدين: فائدة: المعبودون من دون الله قسمان: أبرار وغيرهم، فالأبرار: الملائكة والأنبياء، كعيسى بن مريم، والصالحون كأصل أصنام قوم نوح.

وغیر الأبرار قسمان: قسم دعوا الناس إلى عبادتهم أو رضوا بها، كفرعون والسدنة الأولين للأصنام، وسدنة القباب المعبودة، والقسم الثاني: الأصنام والأوثان ^(٥)، فالأصنام تماثيل الصالحين أو الأنبياء، ولو في نظر من يعبدونهم، والأوثان: كل جماد عبد من دون الله كالشمس والقمر والنجوم والقباب والقبور والأشجار والأحجار والمياه والنار.

(١) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «التقريع والتوبيخ».

(٣) أخرجه ابن جرير (٣٠٧/١٨)، وابن أبي حاتم (٣٠٤/٩)، والفريابي وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر - كما في «الدر المنثور» (١٣٦/٥) -، وهو في «تفسير مجاهد» (ص ٥٣١).

(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ولم يحيروا جواباً» ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أي: ذهبوا فلم ينفعوهم، وما مضى من «تفسير ابن كثير» (٤٧٧/١٠ - ٤٨١).

(٥) انظر: ما قدمناه من التفريق بين (الصنم) و(الوثن).

وهؤلاء الشركاء المذكورون في هذه الآية من الصنف الأول من (القسم الثاني)، وهم الذين يدعون الناس إلى عبادتهم أو يرضون بها، وذلك لقولهم: ﴿رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا كَمَا غَوَيْنَا﴾ أما قولهم: ﴿تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ﴾ فهو تبرؤ لا ينفعهم لأنهم في دار الجزاء.

وأما قولهم: ﴿مَا كَانُوا بِإِيَانَا يَتَّبِعُونَ﴾ فإنه يحتمل وجهين: أحدهما: تبرأ إليك اليوم من عبادتهم لنا في دار الدنيا. والثاني: إنهم كانوا يعبدون الشيطان الذي زين لهم عبادتنا، فإن كل عابد لغير الله هو عابد للشيطان كما قال تعالى: ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَّا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا﴾ [النساء: ١١٧ - ١١٨] وقال تعالى في سورة يس: ﴿أَلَمْ نَعْهَدْ إِلَيْكُمْ بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [يس: ٦٠ - ٦١].

فائدة ثانية: قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ [٦٥] أي:
هل قلتم لهم: سمعنا وأطعنا، أو قلتم: سمعنا وعصينا، فمن قال: سمعنا وأطعنا، فهم المسلمون، فإن قالوها ظاهراً وباطناً فهم المخلصون إذ نجوا من الرياء والسمعة، وهم السعداء الذين ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [البينة: ٨]، وإن قالوها بألسنتهم دون قلوبهم وأعمالهم، فهم المنافقون والمتمذهبون المقلدون، إذا وجدوا حجة من كتاب الله أو سنة رسوله تخالف مذهبهم، أو تخالف ما وجدوا عليه آبائهم، رفضوا قبولها وأصروا على اتباع آبائهم وعادات بلادهم، فهم من المنافقين، وسيأتي الكلام على ذلك في (قسم توحيد الاتباع) إن شاء الله.
وقوله تعالى: ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ [٦٦] أي: لا يجدون جواباً، فيكتبون حين يصرح الأئمة ببراءتهم منهم ويقولون: ﴿تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا﴾ أمرناهم بتقليدنا ولا باتخاذ المذاهب والتعصب لها، وإنا كنا نأمر الناس باتباع كتابك وسنة نبيك يا رب، فيسقط في أيديهم ويندمون حين لا يفيد الندم.

فائدة ثالثة: قوله: ﴿عَسَى﴾ من الله موجبة يعني: إن الله وعد المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن يكونوا من المفلحين يوم القيامة، الذين فازوا بما أمَلُوا، ونجوا مما خافوا، فإن قيل: فما فائدة التعبير بعسى؟ ولماذا لم يقل: فأولئك من المفلحين؟ فالجواب: والله أعلم، أن فائدتها أن يكون العبد بين الخوف والرجاء، وأن لا يتكل على عمله، ولذلك كان كبار الصحابة يخافون على

أنفسهم النفاق، وفي «صحيح البخاري» أن عمر بن الخطاب سأل حذيفة بن اليمان بقوله: أنشدك الله هل ذكر لك النبي ﷺ اسمي في أسماء المنافقين؟ قال: لا، ولا أزكي بعدك أحداً^(١).

فائدة رابعة: أكثر البلدان جعل الله لهم نهاراً وليلاً في كل أربع وعشرين ساعة، وسكان الأراضي القطبية، كما في شمال نرويج جعل الله لهم السنة أربعة أقسام، القسم الأول زمان الربيع، فيه نهار وليل لكن كل يوم ينقص الليل ويزيد النهار، وفصل الصيف: كله نهار لا تغيب الشمس فيه مدة ثلاثة أشهر بالحساب الشمسي، وفصل الخريف: فيه ليل ونهار، ولكن كل يوم ينقص النهار ويزيد الليل بعكس الربيع مدة ثلاثة أشهر، وعند ذلك يجيء الشتاء: وهو كله ليل لا تظهر فيه الشمس مدة ثلاثة أشهر، وقد شاهدت ذلك بنفسي، وشاهده من معي [لما]^(٢) وصلنا تلك البلاد في فصل الصيف الذي لا تغيب فيه الشمس^(٣)، وهذا هو الزمان المناسب لزيارة تلك البلاد لشدة البرد في الفصول الأخرى، فسبحان الخلاق العليم.

﴿الباب الثاني﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ ءَايَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَىٰ

(١) عزوه للبخاري وهم! والذي فيه (٣٧٤٣) قوله أبي الدرداء لعقمة: «أليس فيكم أو منكم صاحب السر الذي لا يعلمه غيره؟ يعني: حذيفة. قال عقمة: قلت: بلى»، وخبره في معرفة أسماء المنافقين معروف، تراه عند ابن أبي شبة (١٩/١٢، ٥٨)، والنسائي في «الكبرى» (٨٥٠٤، ٨٥٠٥، ٨٥٠٦)، والترمذي (٣٧٢٢)، والفسوي في «المعرفة والتاريخ» (٥٤٠/٢)، والقطيعي في «زوائد الفضائل» (١٠٩٩)، والحاكم (٣/٣٨١)، وأبو نعيم (٦٨/١)، وهو صحيح.

وقصة عمر مع حذيفة على الرغم من شيوعها إلا أنني لم أظفر بسند معتبر لها، والذي وقفت عليه قريباً من اللفظ الذي أورده المصنف: ما أخرجه الطبراني (٢٣/٧١٩) عن أم سلمة قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من أصحابي من لا يراني بعد أن أموت أبداً». فجاء عمر ودخل عليها، فقال: أنشدك الله أنا منهم؟ قالت: لا، ولا أزكي أحداً بعدك أبداً، فبكى عمر ﷺ.

وانظر: «مسند أحمد» (٦/٢٩٨، ٣١٢).

(٢) سقط من الأصل، والسياق يقتضيه.

(٣) للمؤلف مقالة منشورة في رحلته للنرويج، أشرنا إليها في تعليقنا على (ص ١٢٤)، وهي ضمن كتابي «مقالات الهلالي»، يسر الله إخراجه بخير وعافية.

رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾

[القصص: ٨٧، ٨٨]

قال (ك): ﴿وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ﴾، أي: لا تتأثر لمخالفتهم لك، وصدّهم الناس عن طريقك ولا تبال^(١) فإن الله مُعَلِّمُ كَلِمَتِكَ، ومؤيّد دينك، ومظهر ما أرسلك به على سائر الأديان، ولهذا قال: ﴿وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ﴾ أي: إلى عبادة ربك وحده لا شريك له: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾. وقوله: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا تليق العبادة إلا له، ولا تنبغي الإلهية إلا لعظمته.

وقوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ إخبار بأنه الدائم الباقي الحي القيوم، الذي تموت الخلائق ولا يموت، كما قال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٦٦﴾ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٦٧﴾﴾ [الرحمن: ٢٦، ٢٧]. فعبر بالوجه عن الذات، وهكذا قوله ههنا: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ أي: إلا إياه، وقد ثبت في «الصحيحين»^(٢) من طريق أبي سلمة عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أصدق كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل»^(٣)

وقال مجاهد والثوري في قوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ أي: إلا ما أريد به وجهه، وحكاه البخاري في «صحيحه» كالمقرر له^(٤).

قال ابن جرير^(٥): «ويستشهد من قال ذلك بقول الشاعر^(٦):

أستغفر الله ذنباً لست مُحْصِيَهُ رَبِّ الْعِبَادِ إِلَيْهِ الْوَجْهُ وَالْعَمَلُ

وهذا القول لا ينافي القول الأول، فإن هذا إخبار عن كل الأعمال أنها

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ولا تلوي على ذلك ولا تباله».

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الصحيح».

(٣) أخرجه البخاري (٣٨٤١)، ومسلم (٢٢٥٦).

(٤) سياّتي تخريجه. (٥) في «التفسير» (٣٥٣/١٨ - ٣٥٤).

(٦) البيت في «معاني القرآن» للفراء (٣١٤/٢) وهو في «خزانة الأدب» (١١١/٣)، وقال:

«وهذا البيت من أبيات سيبويه الخمسين التي لا يعرف قائلها»، قلت: وهو في «الكتاب»

(٣٧/١) لسيبويه.

باطلة إلا ما أريد به^(١) وجه الله تعالى من الأعمال الصالحة المطابقة للشريعة الإسلامية، والقول الأول مقتضاه أن كل الذوات فانية^(٢) وزائلة إلا ذاته تعالى وتقدس^(٣)، فإنه الأول والآخر الذي هو قبل كل شيء وبعد كل شيء، وقوله: ﴿وَلَهُ الْحُكْمُ﴾ أي: الملك والتصرف ولا معقب لحكمه، ﴿وَالَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي: يوم معادكم فيجزىكم بأعمالكم، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر^(٤).

فصل

قال محمد تقي الدين: معنى التفسير الأول أن كل شيء يفنى ولا يبقى إلا الحي الباقي، سبحانه لا إله إلا هو، ومعنى التفسير الثاني: إن كل ما أنفقه الإنسان أو عمله، ولم يقصد به التقرب إلى الله تعالى، فهو ضائع لا ينفعه في الدار الآخرة، فيكون الوجه بمعنى التوجه، كما في قول الشاعر^(٥): «إليه الوجه والعمل»، أي: نتوجه ونعمل له.

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «بها».

(٢) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وهالكة».

(٣) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».

(٤) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٠/٤٩١ - ٤٩٢) بتصرف.

(٥) في البيت المتقدم قريباً.

سُورَةُ الْعَنْكَبُوتِ

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنْتَبَكِرُ بِهِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت: ٨]

قال (ك): «يقول تعالى أمراً عباده بالإحسان إلى الوالدين بعد الحث على التمسك بتوحيده، فإن الوالدين هما سبب وجود الإنسان، ولهما إليه غاية الإحسان، فالوالد بالإنفاق، والوالدة بالإشفاق، ولهذا قال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَمْرًا أَوْ لَا تَنْهَهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ [الإسراء: ٢٣ - ٢٤] ومع هذه الوصية بالرأفة والرحمة والإحسان إليهما في مقابلة إحسانهما المتقدم، قال تعالى: ﴿وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ أي: وإن حرصا عليك أن تتابعهما على^(١) دينهما إذا كانا مشركين، فأياك وإياهما، فلا تطعهما في ذلك، فإن مرجعكم إليَّ يوم القيامة، فأجزيك بإحسانك إليهما وصبرك على دينك، وأحشرك مع الصالحين، لا في زمرة والديك وإن كنت أقرب الناس إليهما في الدنيا، فإن المرء يحشر يوم القيامة مع من أحب، أي حبا دينيا^(٢)».

فصل

قال محمد تقي الدين: بر الوالدين أعظم الواجبات بعد توحيد الله ﷻ، وعقوقهما شر المعاصي بعد الإشراك بالله، ومع أن الله أوصى بالإحسان إليهما،

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «في». (٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٠/٤٩٥).

فإذا أمرا بمعصية الله أو بالشرك بالله وجبت معصيتهما في ذلك، إذ «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق»^(١)، وفي الحديث أن أم سعد بن أبي وقاص قالت له: لا آكل ولا أشرب حتى تكفر بمحمد، فأخبر النبي ﷺ فقال له: «دعها» فبقيت ثلاثة أيام لا تأكل ولا تشرب، فلما اشتد جوعها وعطشها أكلت وشربت^(٢).

وفي الحديث أيضاً أن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق كان في غزوة بدر كافراً يقاتل مع المشركين ثم أسلم بعد ذلك، فقال لأبيه: لقد هدفت لي يوم بدر فلم أقتلك، فقال له أبو بكر ﷺ: «أما إنك لو هدفت لي لقتلتك»^(٣) ومن هذا نعلم أن استعمال كتاب هذا العصر، (هدف واستهدف)، بمعنى: قصد، جهل عظيم باللغة العربية^(٤) فإن معناهما نصب نفسه هدفاً لمن يرميه، ومن ذلك قولهم:

(١) ورد بهذا اللفظ من حديث عمران بن حصين، أخرجه القضاعي في «مسند الشهاب» (٨٧٣)، وعلقه الخطيب في «تاريخ بغداد» (١٤٥/٣) من طريق محمد بن جعفر الوركاني حدثنا يحيى الأبح عن محمد بن سيرين عنه.

وإسناده جيد؛ لكن في سماع محمد بن سيرين من عمران نظر، وفي بعض طرق الحديث سماعه منه، وهذا بحاجة إلى بحث.

ورواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٣٨١/١٨) من طريق يحيى بن سليم، عن هشام بن حسان، عن الحسن بن عمران، ويحيى بن سليم - هو الطائفي - فيه كلام، والحسن مدلس، وقد عنعن، وفي سماعه من عمران نظر أيضاً.

ورواه ابن أبي شيبه (٥٤٦/١٢) من طريق مبارك بن فضالة، عن الحسن، عن النبي ﷺ مرسلًا.

واعلم أن حديث عمران بن حصين هذا ثابت من طرق عنه بلفظ: «لا طاعة لمخلوق في معصية الله»، رواه أحمد (٤٢٦/٤ و ٤٣٢ و ٤٣٦ و ٦٦/٥ و ٦٧)، والطيالسي (٨٥٦)، وعبد الرزاق (٢٠٧٠٠)، والبزار (١٦١٣ و ١٦١٤ و ١٦١٥ و ١٦١٦)، والطبراني في «الكبير» (٣١٥٩ و ٣١٦٠ و ٣٢٤/١٨ و ٣٦٧ و ٣٨١ و ٣٨٥ و ٤٠٧ و ٤٣٢ و ٤٣٨)، وصححه ابن القيم في «إعلام الموقعين» (٨٩/٢ - بتحقيقي) باللفظ المزبور، الله الموفق، لا رب سواه.

(٢) أخرجه مسلم (١٧٤٨)، والترمذي (٣١٨٩)، وأحمد (١٨٥/١) في قصة مطولة بنحوه، وهذا لفظ الطبراني في «العشرة» أفاده ابن كثير في «تفسيره» (٥٤/١١).

(٣) أخرجه الدينوري في «المجالسة» (١٠٧٦ - بتحقيقي) - ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١٢٧/٣٠ - ١٢٨) - والخبر في «غريب الحديث» (٥٧٨/١) لابن قتيبة، و«النهاية» (٢٥١/٥)، و«الفاق» (٩٧/٤).

(٤) انظر: «تقويم اللسانين» (ص ٩١ - ٩٢) رقم (٣٩) للمصنف. فقد أسهب في بيان ذلك، =

«مَنْ أَلْفَ فَقَدْ اسْتُهْدِفَ»، أي: نصب نفسه هدفاً للطاعنين في كتابه.

﴿الباب الثاني﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَأَشْكُرُوا لَهُ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾ [العنكبوت: ١٦ - ١٧]

قال (ك): «يخبر تعالى عن عبده ورسوله وخليته إبراهيم إمام الحنفاء أنه دعا قومه إلى عبادة الله وحده لا شريك له، والإخلاص له في التقوى وطلب الرزق منه وحده لا شريك له، وتوحيده في الشكر، فإنه المشكور على النعم لا مُسَدِّ لها غيره، فقال لقومه: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ﴾ أي: أخلصوا له في^(١) العبادة والخوف.

﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: إذا فعلتم ذلك^(٢) حصل لكم الخير في الدنيا والآخرة، واندفع عنكم الشر في الدنيا والآخرة، ثم أخبر^(٣) تعالى أن الأصنام التي يعبدونها^(٤) والأوثان لا تضر ولا تنفع، وإنما اختلقت^(٥) لها أسماء فسميت^(٦) موها^(٦) آلهة، وإنما هي مخلوقة مثلكم، وهي لا تملك لكم رزقاً، ﴿فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ﴾، وهذا أبلغ في الحصر، كقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ [الفاتحة: ٥]، ﴿رَبِّ آتِنِي لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ﴾ [التحريم: ١١] ولهذا قال: ﴿فَابْتَغُوا﴾ أي: فاطلبوا^(٧) ﴿عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ﴾ أي: لا عند^(٨)

= وقال: «ومن ذلك تعلم أن استعمال العرب للإهداف والاستهداف في وادٍ واستعمال المعاصرين لهما في وادٍ آخر».

- (١) من مطبوع «تفسير ابن كثير»، وسقط من الأصل.
- (٢) من مطبوع «تفسير ابن كثير»، وسقط من الأصل.
- (٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أخبرهم».
- (٤) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «تعبدونها» بالخطاب!
- (٥) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أنتم».
- (٦) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «سميت^(٦) موها».
- (٧) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «واطلبوا».
- (٨) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «تعبدوا».

غيره، فإن غيره لا يملك شيئاً، ﴿وَاعْبُدُوهُ وَأَشْكُرُوا لَهُ﴾ أي: كلوا من رزقه، واعبدوه وحده، واشكروا له على ما أنعم به عليكم ﴿إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي: يوم القيامة فيجازي كلَّ عامل بعمله^(١).

فصل

قال محمد نقي الدين: ملة إبراهيم هي الحنيفية التي أمر الله نبيه محمداً ﷺ باتباعها وأتمته تبع له، فأهل هذه الملة لا يتوجهون بقلوبهم ولا بألسنتهم ولا بذبائهم ونذورهم إلا إلى الله وحده، جازمين بأن غيره لا يملك لنفسه ضرراً ولا نفعاً، فكيف يملك ذلك لغيره؟

الباب الثالث

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٥]

قال (ع): ﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ يقول لقومه مقرعاً لهم وموبخاً على سوء صنيعهم في عبادتهم للأوثان: إنما اتخذتم هذه لتجتمعوا على عبادتها في الدنيا صداقة وألفة منكم بعضكم بعضاً^(٢) في الحياة الدنيا، وهذا على قراءة من نصب ﴿مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ﴾ على أنه مفعول له، وأما على قراءة الرفع^(٣)، فمعناه: إنما اتخذكم هذا لتحصل^(٤) المودة

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٥٠٠/١٠) بتصرف.

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «لبعض».

(٣) قرأها بالرفع وخفض نون (بينكم) على الإضافة: ابن كثير وأبو عمرو والكسائي ورويس وابن محيصن واليزيدي ويعقوب ومجاهد والحسن وأبو زيد عن المفضل وعلي بن نصر. وقرأ الأعشى عن أبي بكر عن عاصم والشموني والبرجمي (مودة بينكم) بالرفع ونصب الظرف.

ومنها من قرأها بالرفع والتثنية، ونصب الظرف بعده، وانظر: «البحر المحيط» (٧/١٤٨)، «معاني القرآن» للزجاج (١٦٧/٤)، «التذكرة في القراءات الثمان» (٢/٤٩٠)، «تفسير ابن عطية» (٣٧٨/١١)، «الكشاف» (٤٩٤/٢)، «روح المعاني» (١٥١/٢٠).

(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «يحصل لكم».

في الدنيا فقط ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ ينعكس هذا الحال فتقلب^(١) هذه الصداقة والمودة بغضاً^(٢) وشنائاً، ثم ﴿يَكْفُرُ^(٣) بَعْضُكُم بِبَعْضٍ﴾ أي: تتجاهدون ما كان بينكم، ﴿وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ أي: يلعن الأتباع المتبوعين والمتبوعون الأتباع، ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ [الأعراف: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧].

وقال ههنا: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَسُكُمُ النَّارُ﴾ الآية، أي: ومصيركم ومرجعكم بعد عرصات القيامة إلى النار، وما لكم من ناصر ينصركم ولا منقذ ينقذكم من عذاب الله، وهذا حال الكافرين، فأما المؤمنون فبخلاف ذلك، قال ابن أبي حاتم بسنده عن أم هانئ أخت علي بن أبي طالب، قالت: قال لي النبي ﷺ: «أخبرك أن الله تعالى يجمع الأولين والآخرين يوم القيامة في صعيد واحد، فمن يدري أين^(٤) الطرفين؟» قالت: الله ورسوله أعلم، [قال]: «ثم ينادي مناد من تحت العرش: يا أهل التوحيد، إن الله قد عفا عنكم، قال: فيقوم الناس قد تعلق بعضهم ببعض في ظلمات الدنيا - يعني المظالم - ثم ينادي: يا أهل التوحيد ليعف بعضكم عن بعض وعلى الله الثواب»^(٥).

فصل

قال محمد تقي الدين: وهذه الآية تنطبق على أصحاب المواسم الذين يجتمعون كل سنة عند الأوثان، فيذبحون لها ويختلطون رجالاً ونساء ويستوجبون

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «فتبقى». (٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «بغضة».

(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «فيكفر».

(٤) هكذا في الأصل، والظاهر أنه: «من أي الطرفين؟» (منه).

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم في «التفسير» (٣٠٤٩/٩) رقم (١٧٢٤٢)، والطبراني في «الأوسط» رقم (٤٨٠٣) من طريق محمد بن إسماعيل الأحمسي، ثنا أبو عاصم الثقفي الربيع بن إسماعيل عن عمرو بن سعيد بن جعدة بن هبيرة المخزومي عن أبيه عن جده عن أم هانئ به، وإسناده ضعيف جداً. قال الطبراني: «لا يروى عن أم هانئ إلا بهذا الإسناد، تفرد به أبو عاصم»، وقال الهيثمي في «المجمع» (٣٥٥/١٠): «وفيه أبو عاصم - الربيع بن إسماعيل - منكر الحديث، قاله أبو حاتم». وما مضى من «تفسير ابن كثير» (٥٠٣/١٠ - ٥٠٤).

بذلك غضب الله تعالى، روى مالك في «الموطأ» عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار أن رسول الله ﷺ قال: «اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»^(١). اهـ.

فإذا كان غضب الله يشتد على من بنى المساجد على قبور الأنبياء وجعل صلاته ودعائه عند قبورهم، وإن كان يدعو الله وحده ولا يشرك به شيئاً، فما بالك بأصحاب المواسم الذين يشدون الرحال من بلدان بعيدة بنسائهم وأولادهم إلى الوثن، ويذبحون له ويطوفون بضريحه، ويتمسحون به ويستغيثون به، لا شك أن غضب الله يكون عليهم أشد، وستصير تلك المودة التي جمعتهم على الأوثان عداوة يوم القيامة حين ينكشف الغطاء، ويتبين لهم أنهم كانوا خاسرين ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ [الكهف: ١٠٣ - ١٠٤].

﴿الباب الرابع﴾

قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ أَخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (٤١) إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴿٤٣﴾ [العنكبوت: ٤١ - ٤٣].

قال (ك): «هذا مثل ضربه الله تعالى للمشركين في اتخاذهم آلهة من دون الله، يرجون نصرهم ورزقهم، ويتمسكون بهم في الشدائد، فهم في ذلك كبيت العنكبوت في ضعفه ووهنه فليس في أيدي هؤلاء من آلهتهم إلا كمن يتمسك ببيت العنكبوت، فإنه لا يجدي عنه شيئاً، فلو علموا هذا الحال لما اتخذوا من دون الله أولياء، وهذا بخلاف المسلم المؤمن قلبه لله، وهو مع ذلك يحسن العمل في اتباع الشرع، فإنه متمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها لقوتها وثباتها، ثم قال متوعداً لمن عبد غيره وأشرك به^(٢): إنه تعالى يعلم ما هم عليه

(١) سبق تخريجه.

(٢) من مطبوع «تفسير ابن كثير»، وسقطت من الأصل.

من الأعمال، ويعلم ما يشركون به من الأنداد ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصَفَهُمْ﴾ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿[الأنعام: ١٣٩]﴾.

ثم قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ (٤٣) أي: وما يفهمها ويتدبرها إلا الراسخون في العلم والمتضلعون^(١) منه، وروى ابن أبي حاتم بسنده^(٢) عن عمرو بن مرة قال: ما مررت بآية من كتاب الله لا أعرفها إلا أحزنني لأنني سمعت الله يقول: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ (٤٣) ﴿٣﴾.

فصل

قال محمد تقي الدين: قال الله تعالى في سورة السجدة: ﴿ذَلِكَ عَلِيمٌ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ (١) الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴿[السجدة: ٦ - ٧]﴾، فكل ما خلقه الله فهو حسن كامل واف بالغرض الذي خلق لأجله، فبيوت النمل في غاية الإحكام وحسن الهندسة، تتحير فيها الألباب، وبيوت النحل كذلك، وأعشاش الطيور، فكذلك بيت العنكبوت هو في غاية الكمال، واف بالغرض الذي خلق لأجله، وليس فيه نقص ولا عيب، ولكن لو أن الإنسان اتخذ بيتاً من نسج العنكبوت لا يصلح أن يكون له مسكناً لا يقيه حرّاً ولا برداً ولا مطراً ولا يحفظه من السراق واللصوص، فهو كالعدم، فكذلك الذين اتخذوا أولياء يعبدونهم مع الله لا ينفعونهم بشيء، ولا يدفعون عنهم شيئاً من الضر، فهذا وجه الشبه بين المشركين وبين من اتخذهم من نسيج العنكبوت.

الباب الخامس

قوله تعالى: ﴿يَعْبَادِي الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِنِّي فَاعْبُدُونِ﴾ (٥٦)

[العنكبوت: ٥٦]

قال (ك): «هذا أمر من الله تعالى لعباده المؤمنين بالهجرة من البلد الذي لا يقدرّون فيه على إقامة الدين إلى أرض الله الواسعة، حيث يمكن إقامة الدين بأن

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «المتضلعون» من غير واو في أوله.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٣٠٦٤/٩) رقم (١٧٣٢٧).

(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (٥١٢/١٠ - ٥١٣) بتصرف.

يُوحِدُوا اللَّهَ وَيَعْبُدُوهُ كَمَا أَمَرَهُمْ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَعْبَادِي الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِنِّي فَاعِبُكُمْ ۝٥٦﴾، قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ بِسَنَدِهِ عَنِ الزَّبِيرِ بْنِ الْعَوَامِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الْبِلَادُ بِلَادُ اللَّهِ، وَالْعِبَادُ عِبَادُ اللَّهِ، فَحَيْثَمَا أَصَبْتَ خَيْرًا فَأَقُمْ»^(١).

ولهذا لما ضاق على المستضعفين بمكة مقامهم بها، خرجوا مهاجرين إلى أرض الحبشة، ليأمنوا على دينهم هناك، فوجدوا خير المنزلين [هناك]^(٢) أصحمة النجاشي ملك الحبشة - رحمه الله تعالى - فأواهم^(٣) وأيدهم بنصره وجعلهم^(٤) ببلاده، ثم بعد ذلك هاجر رسول الله ﷺ وأصحابه^(٥) الباقون إلى المدينة النبوية يثرب المطهرة^(٦).

فصل

قال محمد تقي الدين: حاصل هذا الكلام أن المسلم لا يجوز له أن يقيم في بلد لا يستطيع أن يعلن فيه توحيد الله والبراءة من الشرك وأهله، وقد ضمن الله سبحانه لكل موحد صادق أن يهيئ له مكاناً في هذه الأرض الواسعة يستطيع أن يحقق فيه توحيد الله تعالى، فعليه أن يسعى بجده^(٧)، والله لا يخلف الميعاد.

(١) أخرجه أحمد (١/١٦٦)، والطبراني في «الكبير» (٢٥٠)، وفيه مجاهيل، ولذا ضعفه السخاوي في «المقاصد» (ص ١٤٧) وقبله العراقي في «تخريج أحاديث الإحياء» (٢/٢٢٤). وقال الهيثمي في «المجمع» (٤/٧٢): «فيه جماعة لم أعرفهم» نعم، لأوله شاهد عند أبي داود (٣٠٧٦) من حديث عروة، يكون - إن شاء الله تعالى - حسناً به.

(٢) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».

(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أواهم».

(٤) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «سُيُومًا».

(٥) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «والصحابه».

(٦) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٠/٥٢٥).

(٧) قال النووي في «روضة الطالبين» (١٠/٢٨٢): «المسلم إذا كان ضعيفاً في دار الكفر، لا

يقدر على إظهار الدين، حرّم عليه الإقامة هناك، وتجب عليه الهجرة إلى دار الإسلام».

وقيد ذلك بالقدر على الهجرة، فقال: «فإن لم يقدر على الهجرة فهو معذور إلى أن يقدر».

وقد تكلمت على هذه المسألة بتفصيل وتقعيد وتدليل في كتابي «السلفيون وقضية فلسطين»

(ص ١٤ - ٣٧)، وفي تعليقي على «الإنجاد في أبواب الجهاد» لابن المناصف (١/٦٧ -

٧٥)، وذكرت أسماء الرسائل التراثية في موضوع الهجرة، وجلّيت حقيقة فتوى شيخنا

الألباني في هجرة أهل فلسطين - أعادها الله إلى حظيرة الإسلام والمسلمين -، وانظر له =

سُورَةُ الرُّومِ

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِّنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاتٌ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ ﴿١٣﴾﴾ [الرّوم: ١٢ - ١٣]

قال (ك): ﴿وَيَوْمَ نَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾﴾ قال ابن عباس: يبأس المجرمون^(١)، ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِّنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاتٌ﴾ أي: ما شفعت فيهم الآلهة التي كانوا يعبدونها من دون الله تعالى وكفروا بهم وخانوهم أحوج ما كانوا إليهم^(٢).

فصل

قال محمد تقي الدين: المراد بالمجرمين هنا المشركون، أخبر الله تعالى أنهم يبأسون من رحمة الله يوم القيامة، ومن عبودهم من الملائكة والأنبياء والصالحين وتمائيلهم وقبابهم وآثارهم، لا ينفعونهم بشيء يوم القيامة، بل يكفرون بعبادتهم، ويكونون لهم أعداء، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُونَ بَشِرِكِكُمْ﴾ [فاطر: ١٤] وقال تعالى: ﴿وَإِذَا خُيِّرَ النَّاسُ كَانُوا لِمَنْ أَعْدَاءُ وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿١﴾﴾ [الأحقاف: ٦].

= في الموضوع: «السلسلة الصحيحة» التعليق على حديث رقم (٢٨٥٧)، وينظر كتاب أخينا الشيخ حسين العوايشة - حفظه الله -: «الفصل المبين في مسألة الهجرة ومفارقة المشركين»، وكتاب الشيخ العلامة المحدث حماد الأنصاري رَحِمَهُ اللهُ «إعلام الزُّمَرَة بأحكام الهجرة»، وهما مطبوعان.

(١) لم يعزه في «الدر المنثور» (٥٨٧/١١) إلا لابن أبي حاتم، وهو في «تفسيره» (٩/ ١٧٤٧١) ضمن الفوت غير المسند، المتمم من «الدر».

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٧/١١).

﴿الباب الثاني﴾

قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَلْ لَّكُمْ مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَفْهَمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا يَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ الَّذِينَ قَرَعُوا دِيْنَهُمْ وَكَانُوا شَبَعًا كُلِّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾ وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاهُمْ مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَالَيْنَهُمْ فَتَمْنَعُوا فُسُوفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الروم: ٢٨ - ٣٥]

قال (ك): «هذا مثل ضربه الله تعالى للمشركين به العابدين معه غيره، الجاعلين له شركاء، وهم مع ذلك معترفون أن شركاءه من الأصنام والأنداد عبيد له ملك له، كما كانوا^(١) يقولون: لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك^(٢)»، فقال تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ أي: تشهدونه وتفهمونه من أنفسكم، ﴿هَلْ لَّكُمْ مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ﴾ أي: [يرضى أحدكم]^(٣) أن يكون عبده شريكاً له في ماله، فهو وهو فيه على السواء، ﴿تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ أي: تخافون أن يقاسموكم الأموال، قال أبو مجلز: إن مملوكك لا تخاف أن يقاسمك مالك، وليس له ذلك^(٤)، كذلك الله لا شريك له، والمعنى: أن أحدكم يأنف من ذاك^(٥)، فكيف تجعلون

(١) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «في تليبتهم».

(٢) سبق تخريجه.

(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «لا يرتضى أحد منكم».

(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ذاك». (٥) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ذلك».

﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا﴾^(١) من خلقه، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾ [النحل: ٦٢]^(٢). اهـ.

قال محمد تقي الدين: ومعنى ذلك مفسر بقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾^(٣) [النحل: ٥٧] وقال تعالى في سورة النجم: ﴿الْكُفْرُ وَلَهُ الْأُنثَى﴾^(٤) تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى ﴿٢١﴾ [النجم: ٢١ - ٢٢] وهذا شأن المشركين يصفون الله تعالى بما يكرهونه لأنفسهم، ولو وصفوا الله بصفاتهم لكانوا كافرين جاهلين ظالمين، فكيف إذا وصفوه بما لا يرضونه لأنفسهم؟ كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون، ما أوضح بيان الله تعالى وما أشد عمى بصائر المشركين.

رجوع إلى بقية تفسير (ك): «ولما كان التنبيه بهذا المثل على براءته تعالى ونزاهته عن ذلك»^(٣) بطريق الأولى والأحرى، قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ نَقُصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ ثم قال تعالى مبيناً أن المشركين إنما عبدوا غيره سفهاً من أنفسهم وجهلاً ﴿بَلْ أَتَعْتِ الْآيَاتِ ظَلْمًا﴾ أي: المشركون، ﴿أَهْوَاءَهُمْ﴾ أي: في عبادتهم الأنداد ﴿يَغْتَرِ عَلَيْهِمْ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ﴾ أي: فلا أحد يهديهم إذا كتب الله ضلالهم، ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ أي: ليس لهم عن قدرة الله^(٤) منقذ ولا مجير ولا محيد لهم عنه، لأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

وقوله تعالى: ﴿فَأَقْوَ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ إلى قوله: ﴿يَقْرَحُونَ﴾. قال (ك): «يقول تعالى: فسدد وجهك واستمر على الدين الذي شرعه الله لك من الحنيفية - ملة إبراهيم التي هداك الله لها وكملها لك غاية الكمال -، وأنت مع ذلك لازم فطرتك السليمة التي فطر الله الخلق عليها، فإنه تعالى فطر خلقه على معرفته وتوحيده وأنه لا إله غيره.

وقوله تعالى: ﴿لَا بَدِيلَ لِمَا يَخْلُقُ اللَّهُ﴾ قال بعضهم: معناه: لا تبدلوا خلق الله فتغيروا الناس عن فطرتهم التي فطرهم الله عليها، فيكون خبراً بمعنى الطلب،

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الله الأنداد».

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (٢٤/١١ - ٢٥)، ولابن القيم في «الإعلام» (٢/ ٢٨١ - ٢٨٢ - بتحقيقي)، و«المدارج» (١/ ٢٤٠)، و«الجواب الكافي» (ص ٢٠٧) كلام قيم على المثل المذكور في الآيات، فلينظر.

(٣) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير». (٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ذلك».

كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ [آل عمران: ٩٧] وهو^(١) معنى حسن صحيح.
وقال آخرون: هو خبر على بابه، ومعناه: إنه تعالى ساوى بين خلقه كلهم في الفطرة على الجبلة المستقيمة، لا يولد أحد إلا على ذلك، ولا تفاوت بين الناس في ذلك، ولهذا قال ابن عباس وغيره في قوله: ﴿لَا بُدَّيْلَ لِيَخْلُقَ اللَّهُ﴾ أي: لدين الله، وقال البخاري: «قوله: ﴿لَا بُدَّيْلَ لِيَخْلُقَ اللَّهُ﴾ لدين الله، خُلِقَ الأولين: [دين الأولين]^(٢) والفطرة: الإسلام»^(٣)، قال البخاري^(٤) بسنده أن أبا هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من مولود يولد إلا على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تُتَبَّعُ البهيمة بهيمةً جمعاء، هل تُحِسُّونَ فيها من جدعاء؟» ثم يقول: ﴿فَطَرَتْ اللَّهُ أَلْقَى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيَّهَا لَا بُدَّيْلَ لِيَخْلُقَ اللَّهُ ذَلِكَ أَلَيْسَ الْقَيِّدُ؟»
وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ أَلَيْسَ الْقَيِّمُ﴾ أي: التمسك بالشرعية والفطرة السليمة هو الدين^(٥) المستقيم، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾، أي: فلهذا^(٦) لا يعرفه أكثر الناس، فهم عنه ناكبون، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَنْ تُطْعَ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يَهْتَدُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الآية [الأنعام: ١١٦].

وقوله تعالى: ﴿مُتَّبِعِينَ إِلَيْهِ﴾ قال ابن زيد وابن جريج^(٧): أي: راجعين إليه ﴿وَأَتَقَوْهُ﴾ أي: خافوه وراقبوه، ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ وهي الطاعة العظيمة، ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ أي: بل كونوا من الموحدين المخلصين له العبادة لا يريدون بها سواه، قال ابن جرير بسنده عن يزيد بن أبي مريم قال: «مر عمر رضي الله عنه بمعاذ بن جبل فقال عمر: ما قوام هذه الأمة^(٨)؟ فقال معاذ: ثلاث وهن

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وهذا».

(٢) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»: و«صحيح البخاري»، وفي الأصل: «والآخرين على الدين».

(٣) كذا في «صحيح البخاري» كتاب التفسير، باب ﴿لَا بُدَّيْلَ لِيَخْلُقَ اللَّهُ﴾ (قبل رقم ٤٧٧٥)، وهكذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «والإسلام».

(٤) أخرجه البخاري (٤٧٧٥)، ومسلم (٢٦٥٨).

(٥) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «القويم».

(٦) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ولهذا».

(٧) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «وابن جرير»!!

(٨) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «الآية»!!

المنجيات: الإخلاص، وهي الفطرة ﴿فَطَرَتَ اللَّهُ إِلَيْنَا فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْنَا﴾، والصلاة: وهي الملة، والطاعة، وهي: العصمة، فقال عمر: صدقت^(١).

وقوله تعالى: ﴿مَنْ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِبَعًا كُلَّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ أي: لا تكونوا من المشركين الذين^(٢) فرقوا دينهم أي: بدلوه وغيروه وآمنوا ببعض وكفروا ببعض وقرأ بعضهم^(٣): (فارقوا دينهم) أي: تركوه وراء ظهورهم^(٤)، وهؤلاء كاليهود والنصارى والمجوس وعبدة الأوثان وسائر أهل الأديان الباطلة مما عدا أهل الإسلام، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِبَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ﴾ الآية [الأنعام: ١٥٩]، فأهل الأديان قبلنا اختلفوا فيما بينهم على آراء وملل باطلة وكل فرقة منهم تزعم أنهم على شيء وهذه الأمة أيضاً اختلفوا فيما بينهم على نحل كلها ضلالة إلا واحدة وهم أهل السنة والجماعة المتمسكون بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وبما كان عليه الصدر الأول من الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين في قديم الدهر وحديثه، كما روى^(٥) الحاكم في «مستدرکه» أنه

(١) أخرجه ابن جرير في «التفسير» (٤٩٣/١٨ - ٤٩٤)، ولم يعزه في «الدر المنثور» (١/١١) (٩٠٠) إلا له! وإسناده ضعيف، وفيه انقطاع.

(٢) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «قد».

(٣) هذه قراءة حمزة والكسائي وتروى عن علي بن أبي طالب، وابن عامر في رواية، وكان يقرأ بها الأعمش. انظر: «معاني القرآن» للفراء (٣٢٥/٢)، «الحجة» (٤٣٨/٣) للفارسي، «الإتحاف» (٣٩/٢)، «التيسير» (١٠٨)، «النشر» (٢٦٦/٢)، «تفسير ابن عطية» (٤١/٢١)، «الاعتصام» (٨٥/١)، وفي تعليقي عليه تخريج قراءة (فارقوا) عن علي، وبيان ضعف إسنادها إليه.

(٤) قال أبو علي الفارسي في «الحجة» (٤٣٨/٣): «ومن قرأ (فارقوا)، فالمعنى: باينوه، وخرجوا عنه، وإلى معنى ﴿فَرَّقُوا﴾ يؤول، ألا ترى أنهم لما آمنوا ببعضه وكفروا ببعضه فارقوه كله، فخرجوا عنه، ولم يتبعوه؟».

وقال صديقنا الشيخ محمد بازمول - حفظه الله - في كتاب «القراءات وأثرها في التفسير والأحكام» (٥٥٣/٢):

«بَيَّنَّتْ الآية بالقراءتين أن حال من فارق دينه وحال من فرق في دينه، فأمن ببعض وكفر ببعض أنه حال واحد، ومآل واحد، وفي الآية بالقراءتين إشعار بأن مآل من فرق في دينه إلى المفارقة لدينه، نسأل الله العفو والعافية». قال: «وفيها بالقراءتين أيضاً تحذير من الحزبية التي تفرق المسلمين، وأنها ليست من الإسلام في شيء»، وانظر في ذم الحزبية ما علقناه على (٨٨/٤ - ٩٥)، فإنه مهم، والله الموفق.

(٥) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «رواه».

سئل ﷺ عن الفرقة الناجية منهم، فقال: «من كان على ما أنا عليه اليوم وأصحابي»^(١).

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَنَّ النَّاسُ ضُرَّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ إلى قوله: ﴿يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ﴾. قال (ك): «يقول تعالى مخبراً عن الناس أنهم في حال الاضطرار يدعون الله وحده لا شريك له، وأنه إذا أسبغ عليهم النعم إذا فريق منهم في حالة الاختيار يشركون بالله ويعبدون معه غيره.

وقوله تعالى: ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَانِسْتَهُمْ﴾ هي لام العاقبة عند بعضهم، ولام التعليل عند آخرين، ولكنها تعليل لتقييض الله لهم ذلك، ثم توعدهم بقوله: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ قال بعضهم: والله لو توعدني حارس درب لخفت منه، فكيف والمتوعد ههنا الذي يقول للشيء: كن، فيكون.

ثم قال تعالى منكرأ على المشركين فيما اختلقوه من عبادة غيره^(٢) بلا دليل ولا حجة ولا برهان: ﴿أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا﴾ أي: حجة ﴿فَهُوَ يَتَكَلَّمُ﴾ أي: ينطق ﴿بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ﴾ وهذا استفهام إنكار، أي: لم يكن شيء من ذلك»^(٣).

فصل

قال محمد تقي الدين: فائدة: هذا المثل لا يبقى شكاً لكل امرئ تدبره ولم يختم الله على قلبه، أن عبادة غير الله باطلة، وذلك لأن كل شيء خلقه الله ملك لله تعالى، سواء أكان عاقلاً كالملائكة والأنبياء والصالحين، أم غير عاقل كالأصنام والأوثان، ولا يوجد شخص عاقل يرضي أن يشاركه عبده في ماله، لأنه من جملة ماله، فكيف يتخذون من عبيد الله شركاء يعبدونهم معه بالذبح والنذر، والاستغاثة وغيرها من أنواع العبادة.

تجادلت امرأتان منذ مدة قريبة وهما مغريتان، إحداهما موحدة والأخرى مشركة، وكانتا جالستين في المسجد النبوي، فقالت الموحدة للمشركة: لا ينبغي لك أن تستغيثي بنبي ولا بصالح، بل يجب عليك أن تستغيثي بالله وحده، فلم

(١) أخرجه الحاكم (١/١٢٨، ١٢٩) وقد سبق تخريجه، مفصلاً، والحمد لله وحده.

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الأوثان».

(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (١١/٢٥ - ٣١) بتصرف.

تقبل المشركة، ورأت أن عدم الاستغاثة بالأنبياء والصالحين يحطّ من قدرهم، لأن مقامهم عند الله عال. فقالت الموحدة للمشركة: أترضين أن يتزوج عليك زوجك امرأة أخرى؟ فقالت: لا ثم لا. فقالت لها: أليس ذلك حلالاً في دين الإسلام؟! فقالت: بلى، ولكنني لا أرضى بذلك، لأن ذلك يدل على أنني لا أملاً عينه ولا أكفي رغبته، فقالت الموحدة: فكيف ترضين الله رب العالمين ما لا ترضينه لنفسك؟! فإن من دعا غير الله لم يكفه الله، فتأملت المرأة المشركة كلام الموحدة ففقهت واعترفت بخطئها، والله المثل الأعلى.

ومن العجائب التي شاهدناها في بلدان مختلفة أن العامي الأمي من الرجال والنساء إذا وُحِدَ الله يفتح له باب العلم والفهم، حتى إنه يناظر علماء المشركين فيفهمهم ويهزمهم، كان معنا في بغداد رجل من الفلاحين لا يعرف إلا قراءة المصحف بلحن وصعوبة، فلما وُحِدَ الله وتمسك بسنة الرسول ﷺ صار علماء المذهب الحنفي يخافونه، وإذا رأوه في طريق سلكوا غيره، صلى مرة في المسجد المنسوب إلى أبي حنيفة رحمته الله، ويسمونه جامع الإمام الأعظم، وهذا لقب منحه جهال الحكام من الأتراك لأبي حنيفة رحمته الله، فصار المرء لا يسمع إلا مذهب الإمام الأعظم، وقول الإمام الأعظم، فقلت لهم: إن الإمام الأعظم على الإطلاق هو رسول الله ﷺ، ويطلق هذا اللفظ على خليفة المسلمين، فقالوا: إنك تبغض أبا حنيفة، فقلت: لا أبغضه، لأنه من أئمة السلف المثبتين لصفات الله تعالى كلها، ومنها علوه تعالى، واستواؤه على عرشه، وهو بريء ممن يفتي بالتقليد أو يقضي به أو يبيح التفرق في الدين، أو يعتقد اعتقاد الجهمية بأن الله ليس فوق العرش، بل هو في كل مكان، ولكنكم تعبدون خيلاً، وتسمونه الإمام الأعظم.

ومن الحكايات الطريفة التي وقعت لذلك الشيخ الفلاح وهو أبو عبد الله أنه ذهب قصداً ليغيظ غلاة المقلدين فصلّى معهم في مسجد أبي حنيفة فلما قال الإمام: ﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ٧]، قال أبو عبد الله: آمين، ورفع صوته ومدّه بها، وكان الإمام رقيق الدين خرج من المذهب الشافعي ودخل في المذهب الحنفي ليكون إماماً لذلك المسجد، فلما فرغ من الصلاة غضب على أبي عبد الله وقال رافعاً صوته: من ذا الذي يصرخ بآمين (ليش الله أصمخ)؟! يعني: هل الله أصم؟ فقال له أبو عبد الله على البديهة: وأنت لماذا تصرخ بقولك: ﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾، ليش الله أصمخ؟! فقال له: أنت (وكح) أي: وقح، فقال أبو

عبد الله: (أنا ما وكح) ولكن متمسك بسنة النبي، فقال الحاضرون: كيف تجادل العالم وأنت جاهل؟! فقال أبو عبد الله: بل هو الجاهل أو المخالف للسنة على عمد، لأن الجهر بالتأمين سنة^(١)، ولا يستطيع هو أن يزعم أنه ليس بسنة. اهـ.

فائدة ثانية: قول البخاري رحمته الله: «خلق الأولين»، إشارة إلى قوله تعالى حكاية عن قول قوم هود لنبيهم حين دعاهم إلى عبادة الله وحده واتباع رسوله هود عليه السلام، أجابوه بقولهم: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَضْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ إِنَّ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٦ - ١٣٨]، قرئ^(٢) «خُلُقُ الأولين» بفتح فسكون، بمعنى: كذب الأولين لأن الخلق والاختلاق في اللغة هو الكذب، قال تعالى في سورة العنكبوت: ﴿إِنَّمَا تَقْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثِنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ [العنكبوت: ١٧] أي: يكذبون كذباً، وقرئ^(٣) بضم الخاء واللام، بمعنى: العادة والطبيعة، فعلى القراءة الأولى يكون المعنى: هذا الذي تدعوننا إليه يا هود إنما هو كذب الأمم السابقة وأساطيرهم وليس من الله كما تدعي، وعلى القراءة الثانية يكون المعنى على أحد وجهين:

الأول: هذا الذي تقوله يا هود ليس من الله، وإنما هو من عادة الأولين.

الثاني: معناه: نحن على عادة الأولين ودينهم، لا ننتقل عن ذلك إلى ما تدعوننا إليه، وهذا أضعف الأقوال وأقواها أولها. اهـ.

فائدة ثالثة: قول (ك): «خبر بمعنى الإنشاء» أي: لا تبدلوا خلق الله، فعلى هذا يكون المعنى لا تبدلوا أيها الناس دين الله الذي بعث به رسله، وهو: توحيده وإقامة العدل والإحسان بين الناس، ومحاسن الأخلاق، وتحكيم شرع الله، فإن الله خلق عباده على الفطرة، فمتى عرض عليهم دين الحق مالت إليه قلوبهم وانشرحت له صدورهم ما لم تغير فطرتهم بتعليم كُفري، كالمجوسية،

(١) انظر في ذلك كتابي: «القول المبين في أخطاء المصلين» (ص ٢٤٥ - ٢٤٧).

(٢) هذه قراءة ابن مسعود وعلقمة والحسن وأبي عمرو وابن كثير والكسائي ويعقوب وسهل. انظر: «البحر المحيط» (٣٣/٧ - ٣٤)، «الإتحاف» (٣٣٣)، «الكشف» (١٥١/٢)، «السبعة» (٤٧٢)، «النشر» (٣٣٥/٢)، «الحجة» لابن خالويه (٢٦٨)، «إعراب القراءات السبع وعللها» (١٣٦/٢)، «زاد المسير» (١٣٧/٦)، «تفسير ابن عطية» (١٣٧/١١)، «الدر المصون» (٢٨٢/٥).

(٣) هذه قراءة نافع وابن عامر وعاصم وحمزة وأبي عمرو وخلف والأعمش وشيبة، ورجحها الطبري. انظر المراجع السابقة.

واليهودية، والنصرانية، وعبادة الأوثان، والابتداع في دين الله كطرق المتصوفة التي فرقت الناس وأفسدت عليهم دينهم ودنياهم.

وحتى بعد ما تغير الفطرة ويقع صاحبها في الضلال إذا جاءه داع يدعو إلى دين الحق، ولم يكن عنده مانع من اتباع الهوى^(١)، يتلقى الدعوة بفرح، ويتوب إلى الله ويتمسك بدين الحق، ويتعجب من نفسه كيف كان يقرأ القرآن ولا يتدبره ولا يفهم معناه مع وضوحه، لأن ذلك التعليم الخبيث الذي سبق له أعماه عن فهم القرآن، ولا سيما وقد حرفه المضلون وسدوا باب فهمه، وفتحوا أبواباً أخرى من الجهالات والضلالات، فالحمد لله الذي هدانا لهذا الذي كنا نخرجنا من الظلمات إلى النور، فله الحمد في الأولى والآخرة.

فائدة رابعة: قول الإمام (ك): «وهذه الأمة أيضاً اختلفوا فيما بينهم على نحل كلها ضلالة... إلى آخره».

قال محمد تقي الدين: ومن الضلال إحداث المذاهب والتعصب لها، كما بيّنه (ك) ﷺ فيجب على المسلمين في كل زمان ومكان أن يكونوا في دين الله كما كان أصحاب رسول الله ﷺ، لم تكن عندهم مذاهب ولا طرق ولا فرق ولا نحل، فلو كان التفرق حقاً لكان أصحاب رسول الله ﷺ على مذاهب بكرية، وعمرية، وعثمانية، وعلوية، حاشاهم من ذلك، وهم خير القرون، نسأل الله أن يجعلنا ممن اتبعهم بإحسان.

﴿الباب الثالث﴾

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [الروم: ٤٠ - ٤٢]

(١) ذكر ابن القيم في «هداية الحيارى» (ص ١٨) الأسباب المانعة من قبول الحق، فهي جديرة بأن تحفظ وتنتشر، ولأخينا فضيلة الشيخ حمد العثمان كتاب مطبوع بعنوان «الصوارف عن الحق»، وهو مهم.

قال (ك): «وقوله ﷻ: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ﴾ أي: هو الخالق الرازق يخرج الإنسان من بطن أمه عرياناً^(١)، لا علم له، ولا سمع ولا بصر ولا قوة^(٢)، ثم يرزقه جميع ذلك بعد ذلك، والرياش واللباس والمال والأملك والمكاسب، كما قال الإمام أحمد بسنده عن حبة وسواء ابني خالد قالا: دخلنا على النبي ﷺ وهو يصلح شيئاً، فأعناؤه، فقال: «لا تياسا من الرزق ما تهزئت^(٣) رؤوسكما، فإن الإنسان تلده أمه أحمر ليس عليه قشرة، ثم يرزقه الله ﷻ»^(٤).

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُيَسِّتُكُمْ﴾ أي: بعد هذه الحياة ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ أي: يوم القيامة.

وقوله تعالى: ﴿هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ﴾ أي: الذين تعبدونهم من دون الله ﴿مَنْ يَفْعَلْ مِنْ دَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي: لا يقدر أحد منهم على فعل شيء من ذلك، بل الله ﷻ هو المستقل بالخلق والرزق والإحياء والإماتة، ثم يبعث الخلائق يوم القيامة، ولهذا قال بعد هذا كله ﴿سُبْحَنُكُمْ وَعَتَلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي: [تقدس وتعالى] وتنزه وتعاظم وجل وعز عن أن يكون له شريك، أو نظير أو مساو أو ولد أو والد؛ بل هو الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحداً^(٥).

وقوله تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ﴾ إلى قوله: ﴿كَانَ أَكْثَرُهم مُّشْرِكِينَ﴾. قال القاسمي: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ أي: كثرت المضار والمعاصي على وجه الأرض وعلى ظهر السفن في لجج البحر ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ أي: من الآثام والموبقات، ففشا الفساد وانتشرت عدواه، وتوارثه جيل

(١) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «عريان»!

(٢) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «قوي»!

(٣) في الأصل: «تهزئت»! والصواب المثبت.

(٤) أخرجه أحمد (٤٦٩/٣)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٤٥٣)، وفي «التاريخ الكبير» (٩٢/٣)، وابن ماجه (٤١٦٥)، وابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (١٤٦٦)، وابن سعد (٣٣/٦)، وابن حبان (١٠٨٨)، والطبراني في «الكبير» (٣٤٧٩)، ٣٤٨٠، ٦٦١٠، (٦٦١١)، والبيهقي في «الشعب» (١٣٤٩)، وفي «الآداب» (٩٥١)، وإسناده ضعيف، فيه سلام بن شرحبيل، لم يوثقه غير ابن حبان. وانظر: «الضعيفة» (٤٧٩٨).

(٥) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «تعالى وتقدس».

(٦) انظر: «تفسير ابن كثير» (٣٣/١١).

عن جيل أينما حلوا وحيثما ساروا، ﴿لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ اللام للعاقبة، أي ظهور الشرور بسببهم مما استوجبوا به أن يذيقهم الله وبال أعمالهم^(١). وقيل: اللام للعلة على معنى أن ظهور الجذب والقحط والغرق بسبب شؤم معاصيهم، لِيُذِيقَهُمْ وبال بعض أعمال في الدنيا، قبل أن يعاقبهم بجميعها في الآخرة لعلهم يرجعون عما هم عليه، كقوله تعالى: ﴿وَمَا أَصْبَحُ مِنْ مُّصِيبِكُمْ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠] ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّشْرِكِينَ﴾ (٤٤) ﴿أَي: أذاقهم^(٢) سبحانه سوء العاقبة، لشركهم المستتبع لكل إثم وعصيان^(٣)».

فصل

قال محمد تقي الدين: فائدة: جمعت هذه الآيات بين توحيد الربوبية في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ «وما بعده» وتوحيد الإلهية في قوله تعالى: ﴿سُبْحَنَهُ وَقَوْلَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

فائدة ثانية: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ مقروناً بالشرك والمعاصي وخصوصاً في البلدان التي أسعد الله أهلها بالإسلام بعد أن كانوا لا شيء، فأعطاهم العزة والسيادة والعلم، واستخلفهم في أرضه، وكانت لهم البلاد، ثم رجعوا على أعقابهم وتنكروا للإسلام ونبذوا شريعته، فجعلهم الله أسفل سافلين، وسلبهم ما منحهم، فصاروا أذل الناس وأحقرهم، وأفقرهم وأجهلهم وصاروا أذنباً بعد أن كانوا رؤوساً، اللهم إنا نعوذ بك من الحور بعد الكور، ﴿وَمَنْ يُدِلْ رِجْمَةً اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [البقرة: ٢١١].

(١) بعدها في مطبوع «تفسير القاسمي»: «إرادة الرجوع».

(٢) في مطبوع «تفسير القاسمي»: «فأذاقهم».

(٣) انظر: «تفسير القاسمي» (١٣/ ١٨٤ - ١٨٥).

سُورَةُ الْقَمَانِ

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَنُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَبْنَىٰ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَلَدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهَنَا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفَصَّلُوهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلَوْلَايَكَ إِلَىٰ الْمَصِيرِ ﴿١٤﴾ وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾ [لقمان: ١٣ - ١٥]

قال (ك): «يقول تعالى مخبراً عن وصية لقمان لولده، وقد ذكر^(١) الله تعالى [لقمان]^(٢) بأحسن الذكر، وأنه^(٣) آتاه الحكمة، وهو يوصي ولده الذي هو أشفق الناس عليه وأحبهم إليه، فهو حقيق أن يمنحه أفضل ما يعرف، ولهذا أوصاه أولاً بأن يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئاً، ثم قال محذراً له: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ أي: هو أظلم الظلم، وتقدم في (سورة الأنعام) الكلام على قوله: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ في (الباب التاسع) عند قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢] وفيها حديث مرفوع إلى النبي ﷺ^(٤).

ثم قرن وصيته إياه بعبادة الله وحده البر^(٥) بالوالدين، كما قال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: ٢٣] وكثيراً ما يقرن تعالى بين ذلك في القرآن وقال ههنا: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَلَدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهَنَا﴾

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ذكره».

(٢) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير». (٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «فإنه».

(٤) انظره في (٣٤٧/١) وهناك تخريجه.

(٥) كذا مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «بالبر».

[ذات وهن أو تهن ﴿وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ﴾ أي: تضعف] ^(١) ضعفاً [فوق] ^(٢) ضعف، [فإنها لا تزال يتضاعف ضعفها] ^(٣).

وقوله: ﴿وَفَصَلُّ فِي عَمَلَيْنِ﴾ أي: تربيته وإرضاعه بعد وضعه في عامين ^(٤)، ومن ههنا استنبط ابن عباس وغيره ^(٥)، من الأئمة أن أقل مدة الحمل ستة أشهر، لأنه قال في الآية الأخرى: ﴿وَحَمَلُهُمْ وَفَصَلُّهُمْ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحقاف: ١٥] وإنما يذكر تعالى تربية الوالدة وتعبها ومشقتها في سهرها ليلاً ونهاراً، ليذكر بإحسانها

- (١) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «قال عطاء الخراساني».
- (٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «على». (٣) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».
- (٤) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «كما قال تعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنْمِ الرُّضَاعَةَ﴾ [البقرة: ٢٣٣]».
- (٥) يشير المصنف إلى ما أخرجه مالك في «الموطأ» (٨٢٥/٢ - رواية يحيى)، ومن طريقه إسماعيل بن إسحاق القاضي في «أحكام القرآن» كما في «المعتبر» رقم (٢٠٨)، والبيهقي في «الكبرى» (٤٤٢/٧ - ٤٤٣) أنه بلغه أن عثمان بن عفان أتى بامرأة قد ولدت في ستة أشهر، فأمر بها أن ترضع، فقال له علي بن أبي طالب: ليس ذلك عليها، وقد قال الله تعالى في كتابه: ﴿وَحَمَلُهُمْ وَفَصَلُّهُمْ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾، وقال: ﴿وَفَصَلُّهُمْ فِي عَمَلَيْنِ﴾ وقال: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾؛ قال: فالرضاعة أربعة وعشرون شهراً، والحمل ستة أشهر.

ووصله ابن أبي ذئب في «موطئه» - كما في «الاستذكار» (٧٣/٢٤)، ومن طريقه ابن جرير في «التفسير» (١٠٢/٥)، وابن شبة في «تاريخ المدينة» (٩٧٩/٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» - ومن طريقه ابن حجر في «موافقة الخبر الخبر» (٢١٤/٢) - من طريق يزيد بن عبد الله بن قسيط عن بعة بن عبد الله الجهني به مطولاً، قال ابن حجر: «وهذا موقوف صحيح» وقال: وأظن مالكاً سمعه من ابن قسيط؛ فإنه من شيوخه.

ثم قال: «وقد أخرج إسماعيل القاضي في كتاب «أحكام القرآن» بسند له فيه رجل مبهم عن ابن عباس أنه جرى له مع عثمان في نحو هذه القصة الذي جرى لعلني، فاحتمل أنه كان محفوظاً أن يكون توافق معه، وأما احتمال التعدد؛ فبعيد جداً».

قلت: وأخرج ما جرى بين ابن عباس مع عثمان - كما قال المصنف -: ابن شبة في «تاريخ المدينة» (٩٧٧/٣)، وابن جرير في «التفسير» (٣٤/٥)، ط. شاكراً، وسعيد بن منصور في «سننه» (٦٩/٢/٣)، وعبد الرزاق في «المصنف» (٣٥١/٧)، وهذه رواية ثقات أهل مكة، والرواية الأولى رواية أهل المدينة، وأهل البصرة يرونها لعمر مع علي؛ كما عند ابن شبة في «تاريخ المدينة» (٩٧٩/٣)، والبيهقي في «الكبرى» (٤٤٢/٧).

وانظر: «الاستذكار» (٧٤/٢٤ - ٧٥)، و«المعتبر» (ص ١٩٤) للزركشي، و«تفسير ابن كثير» (١٣٤/٤، ١٥٧).

المتقدم إليه، كما قال تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيْنِي صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٤] ولهذا قال: ﴿إِن أَشْكُرْ لِي وَلَوْلَاكَ إِلَى الْمَصِيرِ﴾ أي: فإني سأجزيك على ذلك أوفر جزاء.

قال ابن أبي حاتم بسنده عن سعيد بن وهب، قال: قدم علينا معاذ بن جبل وكان بعثه النبي ﷺ فقام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «إني رسول رسول الله ﷺ إليكم، أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، وأن تطيعوني لا ألوكم خبيراً، وإن المصير إلى الله وإلى الجنة أو إلى النار، إقامة فلا ظعن، وخلود فلا موت»^(١).

وقوله: ﴿وَلِنْ جَهْدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطْعَمُهُمَا﴾ أي: إن حرصاً عليك كل الحرص على أن تتابعهما على دينهما، فلا تقبل منهما ذلك، ولا يمنعك ذلك من أن تصاحبهما في الدنيا معروفاً، أي: محسناً إليهما ﴿وَأَتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾؛ يعني: المؤمنين.

﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ قال الطبراني في «كتاب العشرة»^(٢) بسنده عن داود بن أبي هند: أن سعد بن مالك قال: أنزلت في هذه الآية، ﴿وَلِنْ جَهْدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطْعَمُهُمَا﴾ الآية، قال: «كنت رجلاً باراً بأمي، فلما أسلمت قالت: يا سعد، ما هذا الذي أراك قد أحدثت، لتدعن دينك هذا أو لا أكل ولا أشرب حتى أموت فتعير بي فيقال: يا قاتل أمه، فقلت: لا تفعلني يا أماه، فإني لا أدع ديني هذا لشيء، فمكثت يوماً وليلة لم تأكل، فأصبحت قد جهدت، فمكثت يوماً آخر وليلة لم تأكل، فأصبحت قد جهدت، فمكثت يوماً وليلة أخرى لا تأكل فأصبحت قد اشتد جهدها، فلما رأيت ذلك قلت: يا أماه والله لو كانت لك مائة نفس فخرجت نفساً نفساً ما

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «التفسير» - كما في «تفسير ابن كثير» (٥٤/١١) -، والحاكم (٨٣/١)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١٦/٦٢١) من ثلاثة طرق عنه، هو بها حسن - إن شاء الله تعالى -، وبعث النبي ﷺ معاذاً لليمن ثابت في «الصحيحين»، وانظر: «إتحاف المهرة» (٢٧٤/١٣).

(٢) عزاه له: ابن كثير في «تفسيره» (٥٤/١١) وأورد إسناده بتمامه، ووقع تصريحه بأن نزول الآية كانت فيه عند مسلم في «صحيحه». انظر الهامش الآتي.

وكتاب «العشرة» للطبراني في ثلاثين جزءاً حديثياً، لم نظفر له بأثر، ولم نفر عنه بخبر، وانظر كتاب: «الحافظ الطبراني وجهوده في خدمة السنة النبوية» (ص ١٣٦) للشيخ محمد أحمد صالح.

تركت ديني هذا لشيء، فإن شئت فكلي وإن شئت لا تأكلي، فأكلت»^(١).

فصل

قال محمد تقي الدين: فائدة: لقد عظم الله شأن بر الوالدين إذ قرن الإحسان إليهما بتوحيده الذي هو أشرف العبادات وأعظمها، فيفهم من ذلك أن بر الوالدين أعظم العبادات بعد توحيد الله تعالى، ومع ذلك لم يبح لعباده أن يرضوا والديهم إذا أرادوا منهم أن يشركوا بالله تعالى، وتأمل قصة سعد بن مالك مع أمه تزدد علماً وتحقيقاً للتوحيد، جعلنا الله وإياك من أهله.

الباب الثاني

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ (٢٢) وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُمْ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٢٣) نُنَعِّمُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ (٢٤) [لقمان: ٢٢ - ٢٤]

قال (ك): «يقول تعالى مخبراً عمن أسلم وجهه لله، أي: أخلص له العمل وانقاد لأمره واتبع شرعه، ولهذا قال: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ أي: في عمله باتباع ما به أمر وترك ما عنه زجر ﴿فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾ أي: فقد أخذ موثقاً من الله متيناً أنه لا يعذبه، ﴿وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُمْ﴾ (٢) لا تحزن [عليهم يا محمد]^(٣) في كفرهم بالله وبما جئت به، فإن قدر الله نافذ فيهم، إلى الله مرجعهم فينبئهم ﴿بِمَا عَمِلُوا﴾، أي: فيجزئهم عليه ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ فلا تخفى عليه خافية.

ثم قال تعالى: ﴿نُنَعِّمُهُمْ قَلِيلًا﴾ أي: في الدنيا ﴿ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ﴾ أي: نلجئهم ﴿إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ أي: فظيع صعب شاق على النفوس، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ مَتَّعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ

(١) أخرجه مسلم (١٧٤٨)، والترمذي (٣١٨٩)، وأحمد (١/١٨١)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٣٣١/٢٠) وغيرهم.

(٢) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أي:».

(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «يا محمد عليهم».

نَذِيرُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٥﴾ [يونس: ٦٩ - ٧٠] ^(١).

فصل

قال محمد تقي الدين: إسلام الوجه هنا، معناه: توحيد الله تعالى في ربوبيته وعبادته وأسمائه وصفاته، واتباع الوحي الذي أنزله على نبيه، كما قال تعالى في سورة البقرة: ﴿إِذْ قَالَ لِمُؤَيَّدِيهِ رَبُّهُ: أَسْلِمْتُ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ^(٢) وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ ﴿[البقرة: ١٣١ - ١٣٢] انظر ما تقدم في (الباب الحادي عشر) من (سورة البقرة).

قوله سبحانه: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ دليل على شهادة أن محمداً رسول الله ﷺ والعمل بمقتضاها، وهو محبة النبي ﷺ واتباعه في كل ما جاء به من أمور الدين، كما أن إسلام الوجه لله تعالى يتضمن معنى لا إله إلا الله، وهذا كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾ [فصلت: ٣٠] ف﴿رَبُّنَا اللَّهُ﴾ تضمنت معنى، (لا إله إلا الله)، و﴿ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾، تضمنت معنى (محمد رسول الله) ومثل ذلك حديث سفيان بن عبد الله قال: قلت: يا رسول الله: قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً غيرك؟ قال: «قل: آمنت بالله، ثم استقم» ^(٣)، رواه مسلم.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزَنكَ كُفْرُهَا﴾؛ يعني: أن من أشرك بالله ولم يسلم وجهه إليه، أو أعرض عن اتباع رسول الله فهو كافر فلا يحزنك كفره، فسوف يمتع قليلاً ثم يضطر إلى عذاب غليظ.

الباب الثالث

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (٢٩) ذَلِكَ يَأْنِ لِلَّذِينَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَطْلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفَلَكَ يَجْرِي فِي الْبَحْرِ يَنْعَمَتِ اللَّهُ

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٧٦/١١).

(٢) أخرجه مسلم (٣٨) وأطلت النفس في تخريجه في تعليقي على «المجالسة» رقم (١٧٢١).

لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوَجٌّ كَانُلْتَلَّى دَعَوْا اللَّهَ تَخْلِصِنَا لَهُ الَّذِينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْنَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾ [لقمان: ٢٩ - ٣٢]

قال (ك): «يخبر تعالى أنه ﴿يُؤَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ﴾ بمعنى: يأخذ منه في النهار فيطول ذاك ويقصر هذا، وهذا يكون زمن الصيف يطول النهار إلى الغاية ثم يشرع في النقص، فيطول الليل ويقصر النهار. وهذا يكون في الشتاء.

﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ قيل: إلى غاية محدودة، وقيل: إلى يوم القيامة، وكلا المعنيين صحيح، وقال ابن أبي حاتم بسنده^(١) عن ابن عباس أنه قال: «الشمس بمنزلة الساقية، تجري في السماء بالنهار في فلکها، فإذا غربت جرت بالليل في فلکها تحت الأرض حتى تطلع من مشرقها، وكذلك القمر». إسناده صحيح. وقوله: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ كقوله: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الحج: ٧٠] ومعنى هذا أنه تعالى الخالق العالم بجميع الأشياء، كقوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ الآية [الطلاق: ١٢].

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ﴾ أي: إنما يظهر لكم آياته لتستدلوا بها على أنه الحق أي: الموجود الحق، الإله الحق، وأن كل ما سواه باطل، فإنه الغني عما سواه، وكل شيء فقير إليه، لأن كل ما في السموات والأرض، الجميع خلقه وعبيده، لا يقدر أحد منهم على تحريك ذرة إلا بإذنه، ولو اجتمع كل أهل الأرض على أن يخلقوا ذباباً لعجزوا عن ذلك، ولهذا قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ ﴿٣٢﴾ أي: ﴿الْعَلِيُّ﴾ الذي لا أعلى منه، ﴿الْكَبِيرُ﴾ الذي هو أكبر من كل شيء، فكل شيء خاضع حقير بالنسبة إليه.

(١) عزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٣٢٢/٥) إلى ابن إسحاق، وابن جرير وابن أبي حاتم، وهو ليس في مطبوع «تفسير ابن جرير» عند هذه الآيات، وهو ساقط من مطبوع «تفسير ابن أبي حاتم»، وأورد ابن كثير (٧٩/١١) إسناده، وقد صححه! ووجدته في «الهيئة السنية» رقم (١٩١) للسيوطي، ولم يعزه إلا إلى ابن أبي حاتم، ثم وقفت على إسناده ابن أبي حاتم، فأخرجه من طريقه أبو الشيخ في «العظمة» (٤/١١٥٠ - ١١٥١) رقم (٦٣٠) وإسناده رجاله ثقات، إلا أن أبا صالح كاتب الليث كثير الغلط، وكانت فيه غفلة.

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي﴾ إلى قوله: ﴿كُلَّ خَنَازِيرٍ كَافِرٍ﴾، قال (ك): «يخبر تعالى أنه الذي سخر البحر لتجري فيه الفلك بأمره، أي: بلطفه وتسخيره، فإنه لولا ما جعل في الماء من قوة يحمل بها السفن لما جرت، ولهذا قال: ﴿لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِنَا﴾ أي: من قدرته ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ أي: صبار في الضراء شكور في الرخاء.

ثم قال تعالى: ﴿وَلِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلُلِ﴾ أي: كالجبال والغمام ﴿دَعَوْا آلَهُمْ مُخْلِصِينَ لَهُمُ مِنَ الْمَوْتِ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَلِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُهُ﴾ [الإسراء: ٦٧] وقال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكبُوا فِي الْفُلِ﴾ الآية.

ثم قال تعالى: ﴿فَلَمَّا بَجَّهْتُمْ إِلَى الْبَرِّ فَيَنْتَهِمُ مُقْتَصِدٌ﴾ قال مجاهد: أي: كافر^(١)، كأنه فسر المقتصد ههنا بالجاحد كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا بَجَّهْتُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَجْعَلُ إِعَابَتُنَا إِلَّا كُلَّ خَنَازِيرٍ كَافِرٍ﴾ فالختار هو الغدار، قاله مجاهد^(٢) والحسن^(٣) وقتادة^(٤) ومالك عن زيد بن أسلم^(٥)، وهو الذي كلما عاهد نقض عهده، والخنز أتم الغدر وأبلغه، قال عمرو بن معديكرب^(٦):

وإِنَّكَ لَوِ رَأَيْتَ أَبَا عُمَيْرٍ مَلَأَتْ يَدَيْكَ مِنْ غَدْرِ وَخَشَرٍ

وقوله: ﴿كَافِرٍ﴾ أي: جحود للنعم لا يشكرها، بل يتناساها ولا يذكرها^(٧).

(١) أخرجه ابن جرير (٥٨٠/١٨)، وابن أبي حاتم (٣١٠١/٩) رقم (١٧٥٦٣) وعزاه السيوطي في «الدر المنثور» (١٦٨/٥) إلى ابن أبي شيبه والفريابي وابن المنذر، وهو عند البغوي في «معالم التنزيل» (٢٩٤/٦) وغيره.

(٢) انظر: «تفسير مجاهد» (٥٠٦/٢)، و«تفسير ابن جرير» (٥٨٠/١٨، ٥٨١)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (٣١٠١/٩).

(٣) انظر: «تفسير الحسن البصري» (٢٨١/٤) رقم (٨١٨ - جمع شير علي شاه)، و«تفسير ابن جرير» (٥٨١/١٨)، و«زاد المسير» (٣٢٨/٦).

(٤) انظر: «تفسير عبد الرزاق» (١٠٦/٢)، «تفسير ابن جرير» (٥٨١/١٨)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (٣١٠١/٩)، و«الدر المنثور» (١٦٨/٥).

(٥) انظر: «الإمام مالك مفسراً» (٣١٧/٣٧٥).

(٦) البيت في «ديوانه» (١٠٥).

(٧) انظر: «تفسير ابن كثير» (٧٩/١١ - ٨١).

فصل

يقول محمد تقي الدين: فائدة: جمعت هذه الآيات بين توحيد الربوبية وتوحيد العبادة فمن قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ﴾، إلى ﴿خَيْرٌ﴾ آية دالة على توحيد الربوبية، وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ﴾ الآية دالة على توحيد العبادة.

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلُوكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ﴾ الآية دالة على توحيد الربوبية، وقوله تعالى: ﴿وَلِذَا غَشِيَهُمْ مَوَاجٌ﴾ الآية دالة على توحيد العبادة، وتفسير ابن عباس^(١) لجريان الشمس يعلم منه أن الشمس حين تغيب عن قوم تطلع على آخرين، فهي تجري دائماً ليلاً ونهاراً حتى ينتهي عمرها، ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨].

(١) المتقدم لفظه قريباً، وهناك تخريجه.

سُورَةُ الرَّحْمٰنِ

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِّن دُونِهِ مِّن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [السجدة: ٤]

قال (ك): «يخبر تعالى أنه الخالق للأشياء، فخلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش، وقد تقدم الكلام على ذلك، ﴿مَا لَكُمْ مِّن دُونِهِ مِّن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ﴾ أي: بل هو المالك لأزمة الأمور، الخالق لكل شيء، المدبر لكل شيء، القاهر على كل شيء، فلا ولي لخلقه سواه، ولا شفيع إلا من بعد إذنه ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾؛ يعني أيها العابدون غيره، المتوكلون على من عداه، تعالى وتقدس وتنزه أن يكون له نظير أو شريك [أو وزير أو ند] ^(١) أو عديل، لا إله إلا هو، ولا رب سواه» ^(٢).

فصل

قال محمد تقي الدين: فائدة: قوله: «تقدم الكلام على ذلك» يعني: في (سورة الأعراف)، وجميع الصحابة والتابعين والأئمة المجتهدين وأئمة الحديث يعتقدون أن الله فوق عرشه الذي هو أعظم المخلوقات، وعرشه فوق سمواته ويحاربون عقيدة من يقول: إن الله في كل مكان، وسأعرض لذلك بإقامة البراهين والبحث والتحقيق في (قسم توحيد الأسماء والصفات) في (الجزء الثالث) من (هذا الكتاب) ^(٣) إن شاء الله تعالى.

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أو نديد أو وزير».

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (٩٠/١١).

(٣) انظر منه (٨٩/٥) وما بعد) من نشرتنا هذه، والله الموفق للخيرات، والهادي للصالحات.

قوله: «فلا ولي لخلقه سواه» العقيدة الشائعة عند أكثر من ينتسب إلى الإسلام أنهم يقولون بوجود أولياء ينفعون ويضرون، وقد منحهم الله التصرف^(١) في العالم، يفعلون ما يشاؤون، يحيون الأموات، ويميتون الأحياء، ويعطون كل من سألهم حاجته، وهذه عقيدة أهل الكفر والشرك، وقد نفى الله الأولياء في مواضع لا تحصى من كتابه العزيز:

فقال تعالى في سورة الأعراف: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ [الأعراف: ٣] وقال تعالى في سورة الشورى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيفٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ [الشورى: ٦] وقال تعالى في هذه السورة أيضاً منكرأ على المشركين اتخاذ الأولياء: ﴿أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَأَلَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

فالمسلم الحقيقي الموحد ليس له إلا ولي واحد، وهو الله سبحانه، قال تعالى في سورة الأعراف أمراً رسوله محمداً ﷺ: ﴿قُلْ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنْظَرُونَ إِنَّ وَلِيَّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَلَ الْكِتَابُ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٥ - ١٩٦] وقال في سورة الأنعام: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ اتَّخَذُ وَلِيًّا فَأَطِيعِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٤]. اهـ.

(١) تحرف في الأصل إلى «التصرف»!

(٢) في الأصل: «أفغير»!

سُورَةُ الْاَحْزَابِ

الباب الاول

قوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ ﴿٣﴾ [الأحزاب: ٣]

قال (ك): «﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ أي: في جميع أمورك وأحوالك ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ أي: وكفى به وكيلاً لمن توكل عليه وأناب إليه»^(١).

فصل

قال محمد تقي الدين: التوكل^(٢): هو الاعتماد بالقلب على الله وحده في جلب كل محبوب ودفع كل مكروه، فطالب العلم يبذل جهده في التعلم، ولا يتوكل على جهده بل يتوكل على الله في بلوغ النجاح، والزارع يبذل كل جهده في الحرث وإصلاح التربة، واستعمال المخصبات، ولا يتكل على ذلك، بل على الله وحده، فإن من اعتمد على حوله وقوته وكله الله إلى نفسه.

الباب الثاني

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَلْعَنُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَحْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ

﴿وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ ﴿٣٩﴾ [الأحزاب: ٣٩]

قال (ك): «يمدح تبارك وتعالى: ﴿الَّذِينَ يَلْعَنُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ﴾ أي: إلى خلقه ويؤدونها بأمانتها ﴿وَيَحْشَوْنَهُ﴾ أي: يخافونه ولا يخافون أحداً سواه فلا تمنعهم سطوة أحد عن إبلاغ رسالات الله تعالى ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ أي: وكفى بالله ناصراً ومعيناً، وسيد الناس في هذا المقام - بل وفي كل مقام - محمد رسول الله ﷺ، فإنه قام بأداء الرسالة وإبلاغها إلى أهل المشارق والمغارب إلى

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (١١/١١٢). (٢) سقط من الأصل!

جميع أنواع بني آدم، وأظهر الله تعالى كلمته ودينه وشرعه على جميع الأديان والشرائع، فإنه قد كان النبي [قبله إنما] ^(١) يبعث إلى قومه خاصة، وأما هو ﷺ فإنه بعث إلى جميع الخلق عربهم وعجمهم. ﴿قُلْ يَكَايْهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

ثم ورث مقام البلاغ عنه أمته من بعده ^(٢)، فكان أعلى من قام بها بعده أصحابه ﷺ بلغوا عنه كما أمرهم في جميع أقواله وأفعاله وأحواله، في ليله ونهاره وحضره وسفره وسره وعلايته، فرضي الله عنهم وأرضاهم ثم ورثه ^(٣) كل خلف عن سلفهم إلى زماننا هذا، فبنورهم يقتدي المهتدون، وعلى منهجهم يسلك الموفقون، فنسأل الله الكريم المنان أن يجعلنا من خلفهم، روى الإمام أحمد وابن ماجه بسندهما ^(٤) عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «ولا يحقرن أحدكم نفسه أن يرى أمر الله فيه»، فقال: «ثم لا يقوله، فيقول الله: ما يمنعك أن تقوله؟ فيقول: رب خشيت الناس؟ فيقول: فأنا أحق أن يخشى» ^(٥).

فصل

قال محمد تقي الدين: أثنى الله تعالى على ﴿الَّذِينَ يُلْقُونَ رِسَالَتَ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ﴾، وأخبر أنه ينصرهم ويعينهم، وقد بين الحافظ (ك) من هم هؤلاء المعنيون بهذا وأنهم الأنبياء وورثتهم، فلا يكون منهم حقاً وصدقاً إلا من اتصف بخشية الله وحده، ولم يخش أحداً غيره، وتكفل الله سبحانه لمن كانت هذه صفته بالنصر والعون، فنسأل الله تعالى أن يجعلنا منهم. اهـ.

(١) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».

(٢) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «بعد».

(٣) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «ورث».

(٤) أخرجه أحمد (٣٠/٣)، وعبد بن حميد (٩٧١)، وابن ماجه (٤٠٠٨)، والبيهقي (٩٠/١٠ - ٩١)، وأبو نعيم في «الحلية» (٣٨٤/٤)، وإسناده ضعيف لانقطاعه، أبو البخري لم يسمع من أبي سعيد، وبينهما راوٍ مبهم، وضعفه شيخنا الألباني أيضاً.

(٥) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٧٤/١١ - ١٧٥).

﴿الباب الثالث﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ (٧٦) لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٧٧﴾ [الأحزاب: ٧٢ - ٧٣]

قال محمد تقي الدين: ذكر الحافظ (ك) في تفسير هذه الآية روايات كثيرة، حاصلها أن الأمانة هي الفرائض، والإنسان هو آدم، ثم ذكر أحاديث الأمانة أنقل شيئاً منها، روى أحمد والشيخان بسندهم^(١) عن حذيفة رضي الله عنه قال: «حدثنا رسول الله ﷺ حديثين، قد رأيت أحدهما، وأنا أنتظر الآخر، حدثنا: «إن الأمانة نزلت في جدر قلوب الرجال»^(٢)، ثم نزل القرآن، فعلموا من القرآن، وعلموا من السنة»^(٣)، ثم حدثنا عن رفع الأمانة فقال: «ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من

(١) أخرجه أحمد (٣٨٣/٥)، والبخاري (٦٤٩٧)، ومسلم (١٤٣)، والترمذي (٢١٧٩)، وابن ماجه (٤٠٥٣) وغيرهم.

(٢) الجذر: الأصل، فجذر الشجرة: أصلها، وجذر الأربعة اثنان، وخص الرجال بالذكر لأنهم المخاطبون، فالنساء مثلهم، وذلك على حد قول الشاعر:

كُتِبَ الْقَتْلُ وَالْقِتَالُ عَلَيْنَا وَعَلَى الْغَانِيَاتِ جَرُّ الدُّيُولِ

(٣) من المعلوم أن الشجرة لا تبقى حية إلا بمادة تسقيها وتُثمِّيها، فإذا قطع عنها السقي أوشكت أن تيبس، فهكذا شجرة الإسلام في القلب، إن لم يتعاهدها صاحبها بسقيها كل وقت بالعلم النافع والعمل الصالح، والعود بالتذكر على التفكر، والتفكر على التذكر إلا أوشكت أن تيبس، فالفطرة التي جعلها الله في أعماق الإنسان كالنبته، تحتاج إلى سقي ونماء، وسقيها بالعلم، ونماؤها بالعمل، وهكذا كان الصحابة، علموا الكتاب والسنة، وحافظوا على الفطرة.

وبالجملة فالغرس إن لم يتعاهده صاحبه أوشك أن يهلك، ومن هنا تعلم شدة حاجة العباد إلى ما أمر الله به من العبادات على تعاقب الأوقات وعظيم رحمته وتمايم نعمته وإحسانه إلى عباده بأن وُظِّفَها عليهم، وجعلها مادة لسقي غراس التوحيد الذي غرسه في قلوبهم.

ومنها: إن الغرس والزرع النافع قد أجرى الله سبحانه العادة أنه لا بُدَّ أن يُخَالَطَهُ دَعَلٌ وَتَبَّتْ غَرِيبٌ لَيْسَ مِنْ جَنْسِهِ، فَإِنْ تَعَاهَدَهُ رَبُّهُ وَقَّاهُ وَقَلَّعَهُ كَمَلِ الْغَرَسِ وَالزَّرْعِ، وَاسْتَوَى، وَتَمَّ نَبَاتُهُ، وَكَانَ أَوْفَرَ لثْمَرَتِهِ، وَأَطْيَبَ وَأَرْحَى، وَإِنْ تَرَكَهُ أَوْشَكَ أَنْ يَغْلِبَ عَلَى الْغَرَسِ وَالزَّرْعِ، وَيَكُونَ الْحَكْمُ لَهُ، أَوْ يَضْعَفُ الْأَصْلُ وَيَجْعَلَ الثَّمَرَةُ ذَمِيمَةً نَاقِصَةً بِحَسَبِ كَثْرَتِهِ وَقَلَّتِهِ، وَمَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ فِقْهُ نَفْسٍ فِي هَذَا وَمَعْرِفَةٌ بِهِ، فَاتَهُ رَنْجٌ كَبِيرٌ وَهُوَ لَا يَشْعُرُ؛ =

قلبه، فيظل أثرها مثل أثر المَجْل كجمر دحرجته على رجلك تراه منتبراً، وليس فيه شيء». قال: ثم أخذ حصي فدحرجه على رجله قال: «فيصبح الناس يتبايعون لا يكاد أحد يؤدي الأمانة، حتى يقال: إن في بني فلان رجلاً أميناً! حتى يقال للرجل: ما أجلده وأظرفه وأعقله، وما في قلبه حبة خردل من إيمان»، ولقد أتى علي زمان وما أبالي أيكم بايعت إن كان مسلماً ليردنه علي دينه، وإن كان نصرانياً أو يهودياً ليردنه عليّ ساعيه، فأما اليوم فما كنت لأبيع منكم إلا فلاناً وفلاناً»^(١).

١ - قال صاحب «اللسان»: «مَجَلَّتْ يده بالكسر وَمَجَلَّتْ تَمَجَّلَ وَتَمَجَّلَ مَجَلًّا وَمَجَلًّا وَمُجُولًا لَغْتَان، نَفِطَتْ مِنَ العمل، أي: [تفرحت]^(٢) من [الشغل بها]^(٣) فمرنت وصلبت وثنخن جلدتها، [وتحجرت]^(٤) وظهر فيها ما يشبه البَثَر من العمل بالأشياء الصلبة الخشنة. وفي حديث فاطمة^(٥) أنها شكت إلى علي عليه السلام، مَجَل يديها من الطحن، وفي حديث حذيفة: «فيظل أثرها مثل أثر المَجَل»، وَأَمَجَلُهَا العمل^(٦).

٢ - قال صاحب «اللسان»^(٧): «النَّبَرَة: الورم في الجسد، وقد انتبر، ومنه

= فالمؤمن دائماً سعيه في شيتين: سَفَى هذه الشجرة، وتنقية ما حولها، فبسقيها تبقى وتدوم، وتنقية ما حولها تكمل وتتم، والله المستعان وعليه التكلان. [ولا حول ولا قوة إلا به]. أفاده ابن القيم في «الإعلام» (٣٠٢/٢ - ٣٠٣ - بتحقيقي).

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٢٥٠/١١ - ٢٥١، ٢٥٥) بتصرف.

(٢) في مطبوع «اللسان»: «نَفِطَتْ». (٣) في مطبوع «اللسان»: «العمل».

(٤) في مطبوع «اللسان»: «وتعَجَّر».

(٥) الحديث طويل، انظره عند أحمد (١٠٦/١)، والحميدي (٤٤)، وابن سعد (٢٥/٨)، والبيهقي في «الشعب» (٢٥٩/٣)، وأبي نعيم (٤١/٢) وفي «الأربعين» (١٦)، وهو صحيح. وفيه طلب علي وفاطمة من رسول الله ﷺ الخادم، وإرشاده لهما بالتسبيح والتحميد والتكبير قبل النوم، وهذا القسم منه عند البخاري (٣١١٣، ٣٧٠٥، ٥٣٦١، ٥٣٦٢، ٦٣١٨)، ومسلم (٢٧٢٧) وغيرهما، وبَيَّنَّ ذلك في تعليقي على «رجحان الكفة» للسخاوي (١٠٩ - ١١٢)، ونقل عن ابن تيمية أنه استخلص من القصة المشار إليها أنَّ من واطب على هذا الذكر عند النوم لم يُصَبْه إعياء، لأنَّ فاطمة رضي الله عنها شكت التعب من العمل، وأحالها ﷺ على ذلك، وينظر لهذا: «فتح الباري» (١٢٥/١١).

(٦) انظر: «لسان العرب» (٦١٦/١١ - مجل).

(٧) انظر: «لسان العرب» (١٨٩/٥ - نبر).

حديث عمر رضي الله عنه: «إياكم والتخلُّ بالقصب، فإن الفم يَنْتَبِر منه»، أي يَنْقُط.

٣ - ساعيه: المكلف بأخذ الجزية منه، قال الإمام أحمد بسنده ^(١) عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «أربعٌ إذا كنَّ فيك فلا عليك ما فاتك من الدنيا: حفظ أمانة^(٢)، وصدق حديث، وحسن خليفة، وعفة [في]^(٣) طعمة^(٤)»، وروى أبو داود عن ابن بريدة عن أبيه رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من حلف بالأمانة فليس منا»^(٥).

وقوله تعالى: ﴿لِعَذَابِ اللَّهِ الَّذِينَ الْتَفَقَيْنَ وَالْمُفَقَيْنَ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكِينَ﴾ أي: إنما حمل ابن آدم الأمانة وهي التكاليف ﴿لِعَذَابِ اللَّهِ الَّذِينَ الْتَفَقَيْنَ﴾ منهم ﴿وَالْمُفَقَيْنَ﴾ وهم الذين يظهرون الإيمان خوفاً من أهله ويبطنون الكفر متابعة لأهله، ﴿وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكِينَ﴾، وهم الذين ظاهرهم وباطنهم على الشرك بالله ومخالفة رسوله^(٦)، ﴿وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾، أي: ويرحم^(٧) المؤمنين من الخلق [الذين آمنوا]^(٨) بالله وملائكته وكتبه ورسله^(٩)، العاملين

(١) أخرجه أحمد (١٧٧/٢)، وابن وهب في «الجامع» (٨٤/١)، والحاكم (٣١٤/٤)، وعنه البيهقي في «الشعب» (٥٢٥٧) بإسناد منقطع، الحارث بن يزيد التخرمي لم يسمع عبد الله بن عمرو؛ نعم، له طريق أخرى موصولة، أخرجه الخرائطي في «مكارم الأخلاق» (ص ٦، ٢٧، ٥٢)، والبيهقي في «الشعب» (٥٢٥٨) وقال: «هذا الإسناد أتم وأصح»! قال أبو عبيدة: نعم، ولكن فيه ابن لهيعة والأصح منهما ما أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (١٢٠٤) عن عبد الله بن عمرو موقوفاً، وإسناده صحيح.

(٢) في الأصل: «أمانتك»! والمثبت من «المسند».

(٣) سقطت من الأصل، وأثبتها من «المسند».

(٤) أي: يتعفف عن الحرام والمشتبه فيه. (منه).

(٥) أخرجه أبو داود (٣٢٥٣)، وأحمد (٣٥٢/٥)، وأبو يعلى في «مسنده الكبير» - كما في «إتحاف الخيرة» (٦٥٩٨، ٦٥٩٩، ٦٦٠٠) - والحارث بن أبي أسامة - كما في «المطالب العالية» (٣٢١٩) - والبخاري (١٥٠٠) - «كشف الأستار» في «مسانيدهم»، والدولابي في «الكنى والأسماء» (٣٧/٢)، وابن حبان (٤٣٩٣) - «الإحسان» والطحاوي في «المشكّل» (١٣٤٢)، والحاكم (٤/٢٩٨)، والبيهقي (٣٠/١٠)، وفي «الشعب» (١١١٦)، والخطيب (٣٥/١٤) من حديث عبد الله بن بريدة عن أبيه، وهم فيه بعض الرواة فقال: «سليمان»! بدل «عبد الله»! وإسناده صحيح. وصححه شيخنا الألباني في «صحيح موارد الظمان» (٥٢٧/١) رقم (١١٠٠).

(٦) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «رسله». (٧) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وليبرحم».

(٨) من مطبوع «تفسير ابن كثير»، وسقطت من الأصل!

(٩) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «ورسله».

بطاعته ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾^(١).

فصل

قال محمد تقي الدين: فائدة: عرض الله الأمانة، وهي التكاليف الشرعية على الأشياء المذكورة بكيفية يعلمها هو سبحانه، فخافت هذه الأشياء أن لا تقوم بعملها خير قيام، مع قوتها وعظم حجمها، وحملها الإنسان الضعيف، والمراد بالإنسان جنسه، كما في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤] وقوله: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي خُسْرٍ﴾ [العصر: ٢] وقد فسر الإنسان في «التفسير» التي عندي بأنه آدم، وفيه إشكال، لأن آدم لا يتصف بكثرة الظلم والجهل. بخلاف الجنس، فإن أكثرهم متصفون بذلك^(٢)، قال تعالى: ﴿وَلَنْ تُطْعَ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

فائدة ثانية: ذكر حذيفة في الحديث الذي رواه عن النبي ﷺ حديثين، أحدهما قد رآه والآخر لم يره، ولكنه ينتظره، الحديث الأول، رفع الأمانة من قلوب الرجال، وقد عاش حذيفة إلى أن رأى ذلك، فقبل رفع الأمانة كان يعامل جميع الناس من المسلمين وأهل الذمة، ولا يخشى غدرًا ولا خيانة، أما بعد رفع الأمانة صار لا يعامل إلا من يعرفه ويثق به.

فائدة ثالثة: وصف النبي ﷺ ارتفاع الأمانة من قلوب الرجال، وشبهه بموضع من جسم الإنسان وقعت عليه جمرة فانتفخ، فإذا رآه الإنسان منتفخاً

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (١١/٢٥٦ - ٢٥٧).

(٢) إلا من اعتنى بنفسه، وحصل نصيباً من (التزكية) التي ترفع (الظلم)، و(العلم) الذي يرفع (الجهل)، ولذا بعث النبي ﷺ مذكياً معلماً، كما جاء في غير ما آية، والتزكية لا تحصل إلا بالتربية، والعمل الصحيح لا يتحصل إلا بالتصفية، ولذا كان شعار السلفي في الإصلاح: (التصفية والتربية)، وهما بمثابة الوسائل لتحقيق (التزكية والعلم)، وقد بسطت هذا المعنى في مقالة نشرتها في مجلة «الاستقامة» البحرينية، العددان السابع عشر والثامن عشر، جمادى الأولى والآخرة ١٤٢٦ (ص ٣٢ - ٣٤) وهي بعنوان (نظرة تأصيلية في التصفية والتربية الإيمانية من شعار السلفي في عملية التغيير).

ناتئاً، يظن أنه يشتمل على شيء، وهو في الحقيقة فارغ. فكذلك الذي يدعي الإسلام إذا سمع الإنسان دعواه يظن أنه ثقة، فإذا امتحنه بالمعاملة، وجده فارغاً من الإيمان الذي ثمرته الصدق في المعاملة. اهـ.

فائدة رابعة: تأملوا قول النبي ﷺ: «أربع إذا كن فيك فلا عليك ما فاتك من الدنيا»^(١)، فقد جمعت هذه الأربع الخلال الخير كله، فمن كانت فيه فهو سعيد في الدنيا والآخرة، ومن نقصه شيء منها نقصت سعادته، ومن لم يكن فيه شيء منها فهو شقي، نسأل الله أن يرزقنا إياها كلها. اهـ.

فائدة خامسة^(٢): المنافقون والمنافقات والمشركون والمشركات أعد الله لهم عذاباً أليماً، إلا أن المنافق شر من المشرك وأكثر ضرراً للمسلمين، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ يَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً﴾ (٧٥) [النساء: ١٤٥].

(١) قطعة من حديث تقدم بتمامه وتخريجه هناك.

(٢) وسادسة: ذكر الله في الآيات مَنْ حمل الأمانة ظاهراً وباطناً، وهم المؤمنون والمؤمنات، ومن حملها ظاهراً دون الباطن وهم المنافقون والمنافقات، ومن ردها ظاهراً وباطناً وهم المشركون والمشركات، والله أعلم.

وسابعة: إن امتزاج (الظلم) مع (الجهل) يتولّد منه (الضلال المبين)، وسبق أن بيّنت أن (الظلم) يرفع به (التزكية)، و(الجهل) يرفع به (العلم)، ولما ذكر الله تعالى منته الكبرى على البشرية بأن بعث في الأميين رسولا منهم، ونعته بقوله: ﴿وَرِضْوَانَهُمْ وَتَعْلَمُهُمْ أَلْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ ثم نعتهم عند فقدان هاتين الخصلتين فيهما - ولازمه تحقق الظلم والجهل فيهما -: ﴿وَلَنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ لَيْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾، فالإنسان ما لم يقبل على العلم والتزكية فهو غير مبرأ من النفاق والضلال، ومصدق ذلك قوله ﷺ الصحيح: «خصلتان لا تجتمعان في منافق: حسن سمت، وفقه في الدين».

سُورَةُ سَبَا

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍَ وَمَا لَهُمْ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ ۚ وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُمْ حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ۚ﴾ [سبا: ٢٢-٢٣]

قال (ك): «بين^(١) تبارك وتعالى أنه [لا إله إلا هو]^(٢) الأحد الفرد الصمد، الذي لا نظير له ولا شريك له، بل هو المستقل بالامر وحده من غير مشارك، ولا منازع ولا معارض، فقال: ﴿قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي: من الآلهة التي عبدت من دونه، ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ كما قال تبارك وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣] وقوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍَ﴾ أي: لا يملكون شيئاً استقلالاً ولا على سبيل الشراكة ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾ أي: وليس لله من هذه الأنداد من ظهير يستظهر به في الأمور، بل الخلق كلهم فقراء إليه، عبيد لديه، قال قتادة في قوله ﷻ: ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾: «من عون يعينه بشيء»^(٣)، ثم قال تعالى: ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُمْ﴾ أي: لعظمته وجلاله وكبريائه لا يجترئ أحد أن يشفع عنده تعالى في شيء، إلا بعد إذن له في الشفاعة كما قال ﷻ: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «بين».

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الإله الواحد».

(٣) أخرجه ابن جرير (٢٧٣/١٩)، وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم، كما في «الدر المنثور» (٢٠٥/١٢).

قال البيضاوي: «حَقَّقْ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ» غاية لمفهوم الكلام من أن ثم توقفاً وانتظاراً للإذن، أي: يترصدون فزعين، حتى إذا كشف الفزع عن قلوب الشافعين، والمشفوع لهم بالإذن، وقيل: الضمير للملائكة، وقد تقدم ذكرهم ضمناً، «قَالُوا» قال بعضهم لبعض: «مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ» في الشفاعة «قَالُوا الْحَقُّ» قالوا: قال القول الحق، وهو الإذن بالشفاعة لمن ارتضى، وهم المؤمنون، وقرئ بالرفع^(١) أي: مقوله الحق، «وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ» ذو العلو والكبرياء، ليس لملك ولا لنبي من الأنبياء أن يتكلم ذلك اليوم إلا بإذنه^(٢).

فصل

قال محمد تقي الدين: في هاتين الآيتين إرشاد عظيم لمن نور الله قلبه ولم يمنعه اتباع الهوى عن قبول الحق، وحجة دامغة لأهل الباطل، فقد نفى الله فيها أربعة أمور:

الأول: إن الآلهة الذين يعبدهم المشركون سواء أكانوا ملائكة أم أنبياء أم صالحين أم تماثيل أم أوثاناً لا يملكون من الخير ما يزن نملة صغيرة، لا في السموات ولا في الأرض استقلالاً.

الأمر الثاني: إنهم لا يملكون مثقال ذرة على وجه الشركة مع الله تعالى.

الأمر الثالث: إن الله تعالى ليس له معين من خلقه.

الأمر الرابع: وهو آخر ما يؤمله المؤمل الشفاعة، فإن الله لا يشفع عنده أحد لأحد إلا إذا أذن للشافع ورضي عقيدة المشفوع له. اهـ.

والشفاعة عند الله تعالى ليست كشفاعة المخلوقين بعضهم عند بعض، فالملك والأمير وإن كبر شأنه لا بد أن يكون عنده من يخافه ويستحيي منه، كالوالدين والزوجة والأولاد وكبار رجال الدولة، فهؤلاء إذا أرادوا أن يشفعوا عنده لا يحتاجون إلى استئذان لما لهم عنده من المنزلة. فهذه هي الشفاعة التي نفاها الله، وينبغي أن نعيد هنا الحديث الذي في «الصحيح»، وهو قول النبي ﷺ: «ليرفعن أقوام منكم إليّ، وأنا على الحوض، ثم ليختلجن دوني، فأقول: إلى أين؟»

(١) هذا قراءة ابن أبي عبلة، انظر: «البحر المحيط» (٢٧٩/٧)، «معاني القرآن» (٣٦٢/٢) للفراء، «مشكل إعراب القرآن» (٢٠٩/٢)، «معاني القرآن» (٢٥٣/٤) للزجاج.

(٢) انظر: «تفسير البيضاوي» (٢٦٠/٢ - ٢٦١) بتصرف.

فيقال: إلى النار، فأقول: أي ربي أصحابي أصحابي - وفي رواية خارجة عن الصحيح: إنهم من أمتي^(١) - فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، إنهم بدلوا وغيروا فأقول: سحقاً سحقاً^(٢). أي: بُعداً بُعداً لهم، بمعنى: أبعدهم الله. اهـ.

﴿الباب الثاني﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُؤْمِنَ بِهِذَا الْقُرْآنَ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضِعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضِعِفُوا أَنْخُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنتُمْ ثَجْرَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضِعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرٌ آلِيلٍ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَلَ فِي آعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُحْزَنُونَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [سبا: ٣١ - ٣٣]

قال (ك): «يخبر تعالى عن تمادي الكفار في طغيانهم وعنادهم وإصرارهم على عدم الإيمان بالقرآن، [وبما]^(٣) أخبر به من أمر المعاد، ولهذا قال [تعالى]: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُؤْمِنَ بِهِذَا الْقُرْآنَ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ قال الله ﷻ متهدداً لهم ومتوعداً ومخبراً عن مواقفهم الدليّة بين يديه في حال تخاصمهم وتحاجهم: ﴿يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضِعِفُوا﴾ منهم^(٤) وهم الأتباع ﴿لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ منهم^(٥) وهم قادتهم وسادتهم ﴿لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ أي: [لولا أنتم تصدونا^(٦) لكننا اتبعنا الرسل وآمنا بما جاؤونا به، فقال لهم

(١) عند مسلم (٢٢٩٤) من حديث عائشة: «فلاقولن: أي رب! مني ومن أمتي».

(٢) أخرجه البخاري (٦٥٧٦)، ومسلم (٢٢٩٧) من حديث ابن مسعود.

(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وما».

(٤) سقطت من الأصل، وهي في «تفسير ابن كثير».

(٥) سقطت من مطبوع «تفسير ابن كثير».

(٦) من مطبوع «تفسير ابن كثير»، وسقطت من الأصل.

(٧) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «تصدوننا»!

القادة والسادة وهم الذين استكبروا: ﴿أَفَحُكُّمَ صَدَدْتُمْ عَنْ أَلْهَدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ﴾ أي: نحن ما فعلنا بكم^(١) أكثر من أنا دعوناكم فاتبعتمونا من غير دليل ولا برهان، وخالفتم الأدلة والبراهين والحجج التي جاءت بها الرسل^(٢) لشهوتكم، واختياركم لذلك، ولهذا قالوا: ﴿بَلْ كُنْتُمْ تُجْرِمِينَ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ أَيْلٍ وَالنَّهَارِ﴾ أي: بل كنتم تمكرون بنا ليلاً ونهاراً [وتغروننا وتمنوننا وتخبروننا]^(٣) أنا على هدى، وأنا على شيء، فإذا جميع ذلك باطل وكذب ومين، قال قتادة وابن زيد: ﴿بَلْ مَكْرُ أَيْلٍ وَالنَّهَارِ﴾ يقول: «بل مكرهم بالليل والنهار»^(٤)، وكذا قال مالك عن زيد بن أسلم: «مكرهم» بـ ﴿أَيْلٍ وَالنَّهَارِ﴾^(٥)، ﴿إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَاداً﴾ أي: نظراء وآلهة معه وتقيموا لنا شهباً وأشياء من المحال تضلوننا بها، ﴿وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ﴾ أي: الجميع من السادة والأتباع كل ندم على ما سلف منه، ﴿وَجَعَلْنَا الْأَعْلَالِ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وهي السلاسل التي تجمع أيديهم مع أعناقهم ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: إنما يجازيكم بأعمالكم كل بحسبه، للقادة عذاب بحسبهم، وللأتباع بحسبهم ﴿قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨]^(٦).

فصل

قال محمد تقي الدين: تقدم في (الباب الأول) من (سورة البقرة) معنى الند، وجمعه الأنداد عند قوله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ وذكرنا هناك أحاديث في هذا المعنى، منها: قول النبي ﷺ لمن قال له: ما شاء الله وشئت: «أجعلتني لله ندّاً؟ قل: ما شاء الله وحده»^(٧) وفي الحديث الآخر: «لا

(١) بعداً في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ذلك».

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الأنبياء».

(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وتغروننا وتمنوننا وتخبروننا».

(٤) أخرجه عبد الرزاق (١٣٢/٢)، وابن أبي حاتم - كما في «الدر المنثور» (٢١٩/١٢) - عن قتادة، وابن جرير (٢٩٢/١٩) وابن أبي حاتم عن ابن زيد.

(٥) انظر: «الإمام مالك مفسراً» (ص ٣٢٩/رقم ٣٩٧).

(٦) انظر: «تفسير ابن كثير» (٢٨٨/١١ - ٢٨٩).

(٧) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٧٨٣)، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (٩٨٨)، وابن ماجه (٢١١٧)، وأحمد (٢١٤/١، ٢٢٤)، وابن أبي شيبة (٣٤٦/١٠)، وابن أبي =

تقولوا: ما شاء الله وشاء محمد، بل قولوا: ما شاء الله ثم شاء محمد^(١)، وهذه إذا كان القائل يعتقد أن المخاطب بذلك له إرادة مع الله، فهو من الشرك الأكبر، وأما إذا قال ذلك غفلة وهو يعتقد أن المشيئة لله وحده، ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، فحينئذ يكون من الشرك الأصغر، فكيف بمن يتخذ أنداداً يهتف بأسمائهم عند القيام والقعود والفرع، ويستغيث بهم في الشدائد، ويخافهم ويرجوهم، ويتوكل عليهم، فالحمد لله على العافية، اللهم أتمم علينا نعمتك، ولا تردنا على أعقابنا. اهـ.

﴿الباب الثالث﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهْؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ (٤١) قَالُوا سُبْحَنَكَ أَنْتَ وَلِسْنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ (٤٢) فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ (٤٣) وَإِذَا نُتِلَى عَلَيْهِمْ ءَايَتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانُوا يَعْبُدُونَ ءَابَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إفْكٌ مُفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (٤٤) وَمَا ءَاتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ (٤٥) وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَّغُوا مَعْسَارَ مَا ءَاتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٤٦) [سبا: ٤٠ - ٤٥]

قال (ك): «يخبر تعالى أنه يقرع المشركين يوم القيامة على رؤوس

= الدنيا في «الصمت» (٤٣٥)، والطحاوي في «المشكل» (٢٣٥)، والطبراني (١٣٠٠٦)، والبيهقي (٢١٧/٣)، وأبو نعيم في «الحلية» (٩٩/٤) من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنه، وحسنه شيخنا الألباني في «الصحيحة» (٢٦٦/١) رقم (١٣٩).

(١) أخرجه أبو داود (٤٩٨٠)، والنسائي في «الكبرى» (١٠٨٢٠، ١٠٨٢١)، وابن ماجه (٢١١٨)، والطيالسي (٤٣٠)، وابن أبي شيبه (١١٧/٩)، و (٣٤٦/١٠)، وأحمد (٢٣٣١٣، ٢٣٤٢٩)، والطحاوي في «المشكل» (٢٣٦)، والبيهقي (٢١٦/٣) من حديث حذيفة، ووقع اضطراب في سنده لا يدل به أصل الحديث، انظره عند النسائي والطحاوي، وفي «الفتح» (٥٤٠/١١) و«النكت الظراف» (٢٩/٣)، وصححه شيخنا الألباني في «الصحيحة» (٢٦٣/١) رقم (١٣٧).

الخلائق، فيسأل الملائكة الذين كان المشركون يزعمون أنهم يعبدون الأنداد التي هي على [صورهم] ^(١) ليقربوهم إلى الله زلفى، فيقول للملائكة: ﴿أَهْتُولَاءِ إِنَّا كُرِّهْنَا أَنْ نَعْبُدَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَمَنْ يَكْفُرُ بِاللَّهِ فَأَتَى بِهِ أَهْلُ الْقُرَىٰ يَكْفُرُونَ﴾ أي: أنتم أمرتم هؤلاء بعبادتكم، كما قال تعالى في سورة الفرقان: ﴿وَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَٰؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ﴾ [الفرقان: ١٧] وكما يقول لعيسى عليه السلام: ﴿وَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي فَلَا تِلْكَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَنَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ [المائدة: ١١٦] وهكذا نقول للملائكة: ﴿سُبْحَنَكَ﴾ أي: تعاليت وتقدست عن أن يكون معك إله ﴿أَنْتَ وَلَيْسَ مِنْ دُونِهِمْ﴾ أي: نحن عبيدك ونبرأ إليك من هؤلاء، ﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ آلِهَةً﴾، يعنون الشياطين؛ لأنهم هم الذين زينوا لهم عبادة الأوثان، وأضلوهم ^(٢) ﴿أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾ كما قال تبارك وتعالى: ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَّا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا سَيِّطَنَا مَرِيدًا﴾ [النساء: ١١٧ - ١١٨] قال الله تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ أي: لا يقع لكم نفع ممن كنتم ترجون نفعه اليوم من الأنداد والأصنام ^(٣) التي ادخرتم عبادتها لشدائدكم وكربكم، اليوم لا يملكون لكم نفعاً ولا ضرراً ﴿وَقَوْلُ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ وهم المشركون ﴿ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ أي: يقال لهم ذلك تقريباً وتوبيخاً.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ثَلَاثَ عَلَيْهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾.

قال (ك): «ويخبر تعالى عن الكفار أنهم يستحقون منه العقوبة والأليم من العذاب؛ لأنهم كانوا إذا تتلى عليهم آياته بينات يسمعونها غضة طرية من لسان [رسول الله] ^(٤) ﴿قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَنْ مَا كَانُوا يَعْبُدُ آبَاءَكُمْ﴾ يعنون: دين آبائهم هو الحق وأن ما جاء به الرسول عندهم باطل ^(٥) ﴿وَقَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفَرَّيٌّ﴾ يعنون القرآن ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ قال الله تعالى: ﴿وَمَا ءَاتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ﴾ [١٤] أي: ما أنزل الله على العرب من كتاب قبل القرآن، وما أرسل

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «صور الملائكة».

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ويضلونهم».

(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «والأوثان».

(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «رسوله».

(٥) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «عليهم وعلى آبائهم لعائن الله».

إليهم نبيًا قبل محمد ﷺ وقد كانوا يودون ذلك، ويقولون: لو جاءنا نذير أو أنزل علينا كتاب لكننا أهدى من غيرنا، فلما منَّ الله عليهم بذلك، كذبوا وجحدوه وعاندوه^(١)، ثم قال تعالى: ﴿وَكَذَبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: من الأمم ﴿وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ﴾ قال ابن عباس وغيره: «أي من القوة في الدنيا»^(٢) وما دفع ذلك عنهم عذاب الله ولا رده، بل دمر الله عليهم كما كذبوا رسله، ولهذا قال: ﴿فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي: فكيف كان عقابي ونكالي وانتصاري لرسلي^(٣).

فصل

قال محمد تقي الدين: نستفيد من هذه الآيات أن عبادة غير الله تعالى كلها سواء، وإن اختلف المعبودون، فمن عبد الملائكة والأنبياء، كمن عبد الشياطين والأوثان، وإن المشركين في كل زمان ومكان إذا جاءهم الحق من الله تعالى بواسطة رسله أو بواسطة أتباعهم أجابوه بقولهم: ﴿مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ﴾ قال تعالى في سورة (ص): ﴿وَأَنطَلَقَ اللَّامُ مِنْهُمْ أَنْ أَمَشُوا وَأَصْبَرُوا عَلَى الْهَيْكَلِ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ۖ﴾ ٦ مَ سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آلِئَلَةِ الْآخِرَةِ إِنَّ هَذَا إِلَّا خَيْلُ ۖ ﴿٧﴾ [ص: ٦ - ٧] وهذا لا يضر دعاة التوحيد^(٤) أهل الاتباع إن أخلصوا لله وصبروا على ما يلاقون، ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨]. اهـ.

- (١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وعاندوه وجحدوه».
- (٢) أخرجه ابن جرير (٣٠٢/١٩)، وابن أبي حاتم (٣١٦٨/١٠) رقم (١٧٩٠٢)، وابن المنذر، كما في «الدر المنثور» (٢٢٨/١٢)، ط. هجر.
- (٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (٢٩٤/١١ - ٢٩٥) بتصرف.
- (٤) فالحقائق لا تغلب بالتخييلات والخرافات، وسنة الله معلومة في أهل الخرافة، فإنه لا وزن لهم، وما هو التاريخ قد أعدمهم، ولم يبق لهم ذكر حسن في الناس، وهكذا البدع والشرك وأهلها، فإن مآلها إلى تباب وضياع، وإن انتفشت وظهرت فسرعان ما تزول، فالحق ثقیل ومريء، والباطل خفيف ووبيء.

سُورَةُ فَاطِرٍ

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُونَ بَشْرِكَكُمْ وَلَا يُنِيتُكَ مِثْلُ خَيْرٍ ﴿١٤﴾﴾ [فاطر: ١٣ - ١٤]

قال (ك): «وهذا أيضاً من قدرته التامة وسلطانه العظيم في تسخيره الليل بظلامه والنهار بضياءه، ويأخذ من طول هذا فيزيد في قصر هذا، فيعتدلان ثم يأخذ من هذا فيطول هذا ويقصر هذا، ثم يتقارضان صيفاً، وشتاءً، ﴿وسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ أي: والنجوم السيارات، والثوابت الثاقبات بأضوائهن أجرام السموات الجميع يسيرون بمقدار معين، وعلى منهاج مقنن محرر تقديرأ من عزيز عليم، ﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: إلى يوم القيامة ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ أي: الذي فعل هذا هو الرب العظيم، الذي لا إله غيره، له [الملك وحده]^(١)، ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ أي: من الأصنام والأنداد^(٢) ﴿مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ قال ابن عباس وغير واحد من السلف^(٣): القطمير هو اللفافة التي تكون على نواة

(١) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الأنداد والأصنام التي هي على صورة من تزعمون من الملائكة المقربين».

(٣) سَمَاهُم ابن كثير، فهم: مجاهد وعكرمة وعطاء وعطية العوفي، والحسن وقتادة، قال: «وغيرهم»، وانظر: «تفسير ابن جرير» (٣٤٩/١٩ - ٣٥٠)، «تفسير ابن وهب» (٢٠/١)، ٩١ - ٩٢ رقم ٤١، (٢٠٩)، «فتح الباري» (٥٤٠/٨)، «الدر المنثور» (٢٦٩/١٢ - ٢٧٠).

التمر، أي: لا يملكون من السموات والأرض شيئاً، ولا بمقدار هذا القطمير، ثم قال تعالى: ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ﴾؛ يعني: الآلهة التي تدعونها من دون الله لا تسمع^(١) دعاءكم^(٢) ﴿وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾ أي: لا يقدرُونَ على [شيء مما]^(٣) تطلبونه منهم، ﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُونَ بَشِرِكِكُمْ﴾ أي: يتبرؤون منكم، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُيِّرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأحقاف: ٥ - ٦] وقال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾﴾ [مریم: ٨١ - ٨٢] وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ أي: ولا يخبرك بعواقب الأمور ومآلها وما تصير إليه مثل خبير بها، قال قتادة: يعني نفسه تبارك وتعالى، فإنه أخبر بالواقع لا محالة^(٤).

فصل

قال محمد تقي الدين: فائدة: ذكر الله سبحانه قبل هاتين الآيتين أدلة متعددة على توحيد الربوبية، بدأها بقوله سبحانه: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا﴾ [فاطر: ١١]، وختمها بأولى هاتين الآيتين، ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ ثم أخبر ﷺ أن جميع المدعويين من الملائكة والأنبياء والصالحين وتمثيلهم وآثارهم، لا يملكون لمن دعاهم شيئاً ولو قطميراً، فإذا كانوا لا يملكون القطمير وهو غلاف رقيق يكون على ظهر نواة التمر أبيض فكيف يملكون نواة؟ فكيف بالثمرة؟ وإذا كانوا لا يملكون شيئاً، فدعائهم في غاية الجهل والضلال والسفاهة، ولو آمن الداعي من عذاب الله، كيف وهو مع خسارته في سعيه ينتظر عذاب الله، ثم أخبر ﷺ أن أولئك المدعويين لا يسمعون دعاء الداعي أبداً؛ لأن الذي يسمع كل نداء هو الله وحده، ولأن أولئك المدعويين غافلون عن دعاء الداعي، فالملائكة غافلون لاشتغالهم بعبادة الله تعالى، والصالحون غافلون عنهم لاشتغالهم بالنعيم، هذا لو كانت لهم القدرة

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «يسمعون».

(٢) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «لأنها جماد لا أرواح فيها».

(٣) بدلها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ما».

(٤) انظر: «تفسير ابن كثير» (٣١٥/١١) بتصرف، وأثر قتادة أخرجه ابن جرير (٣٥٢/١٩)، وعزاه في «الدر المنثور» (٢٤٨/٥) إلى عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

على سماعهم، وقد تقدم أن الذي يسمع كل نداء هو الله وحده، ثم قال تعالى: وهبوا أنهم سمعوا دعاءكم، فإنهم لا يستجيبون لكم، ويوم القيامة ينكشف لهم، أنكم كنتم تعبدونهم وتتخذونهم شركاء مع الله، وحينئذ يكفرون بشرككم، فتعظم حسرتكم وندامتكم حين لا ينفعكم الندم، والذي نبأكم بهذا هو العليم الخبير، الذي لا تخفى عليه خافية.

وهنا نكتة يجب التنبيه عليها وهي أن كل من دعاه الإنسان لجلب خير أو دفع شر، فقد عبده واتخذهُ شريكاً مع الله، نبه الله على ذلك بقوله: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ ولم يقل: بدعائكم، ليبين لعباده أن دعاء غير الله شرك.

الباب الثاني

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَمْ آتَيْنَهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّنْهُ بَلْ إِنَّ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ [فاطر: ٤٠]

قال (ك): يقول تعالى لرسوله ﷺ أن يقول للمشركين: ﴿أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي: من الأنداد والأصنام^(١) ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ﴾ أي: ليس لهم شيء من ذلك ما يملكون من قضمير، وقوله: ﴿أَمْ آتَيْنَهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّنْهُ﴾ أي: أم أنزلنا عليهم كتاباً بما يقولونه من الشرك والكفر ليس الأمر كذلك، ﴿بَلْ إِنَّ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ أي: بل إنما اتبعوا في ذلك أهواءهم وآراءهم وأمانيتهم التي تمنوها لأنفسهم، وهي غرور باطل وزور^(٢).

فصل

قال محمد تقي الدين: في هذه الآية الكريمة احتجاج على المشركين في غاية البيان، لو أنهم يعقلون، وذلك أن أولئك المعبودين الذين اتخذوهم شركاء مع الله لم يخلقوا شيئاً، ولا ذباباً أو نملة أو بعوضة، ولا يملكون من السموات

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الأصنام والأنداد».

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (٣٣٧/١١).

والأرض شيئاً بل هم مخلوقون ومملوكون لله تعالى، فأى سفاهة، أعظم من اتخاذهم شركاء^(١)، وأخبر الله تعالى أن جميع الكتب السماوية التي أنزلها على الأنبياء تدعو إلى توحيد الله، وليس فيها دليل، ولا شبهة للمشركين يستدلون بها على عبادة غير الله، ومن يضلل الله فما له من هاد. اهـ.

(١) إذ الخالق هو المالك، والمالك هو المتصرف بالذي يملكه على أي وجه شاء، ولذا: السعيد مَنْ كان عبداً لله تعالى بالاختيار، كما هو عبداً له بالاضطرار، ولا يستقيم حاله، ويجمع أمره إلا بهذا، ومن أعظم نعم الله علينا أنه سبحانه المتكفل بتشريع ما فيه سعادتنا في الدنيا والآخرة، فمن ظن أن له مصلحة في العاجل قبل الآجل في الخروج عن أمور المولى، والاستجابة إلى داعي الهوى فهو واهم، والمصلحة - حينئذ - ليست بحقيقية، نعم قد تبدو لغير صاحب البصيرة، كالمرابي في تعامله مع البنوك! ولكن سرعان ما تظهر له الحقيقة، فالبank يعطيه القرض الربوي، وحاله كالذي يحمل مظلة ويرفعها بيده فوق رأسه، ولم ينزل المطر بعد، فإذا نزل المطر، سحب البنك منه المظلة، وهكذا فالبت المتبرجة يأتيها الزوج عند رؤية مفاتها، وسرعان ما يظهر خلقه السيئ عند مرضها أو كبرها أو اعتياد الحياة معها، وعليه فقس.

سُورَةُ النِّسَاءِ

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَنْفَوِرُ أَتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٦﴾ أَتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْتَلْكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٢٧﴾ وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ ﴿٢٩﴾ إِنَِّّي إِذَا لَفِيَ ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٣٠﴾ إِنَّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمِعُونِ ﴿٣١﴾ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [يس: ٢٠ - ٢٧]

ذكر (ك) مما نقل عن أهل الكتاب أن اسمه حبيب النجار^(١)، وذكر كثيراً من أخباره، ولم أر في نقل ذلك فائدة، والذي يهمنا من شأنه أنه كان موحداً متبعاً لما جاءت به الرسل، وكان قومه مشركين، اتخذوا آلهة يعبدونها من دون الله، وعصوا المرسلين، فدعاهم إلى توحيد الله واتباع المرسلين، وأقام لهم البرهان على ذلك، وكان بيته في طرف البلد، فجاءهم ماشياً، فقال: ﴿يَنْفَوِرُ أَتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ يحض قومه على اتباع الرسل الذين أتوهم ﴿أَتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْتَلْكُمْ أَجْرًا﴾ أي: على إبلاغ الرسالة، ﴿وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ فيما يدعونكم إليه من عبادة الله وحده لا شريك له، ﴿وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي﴾ أي: وما يمنعني من إخلاص العبادة للذي خلقني وحده لا شريك له، ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي: يوم المعاد فيجازيكم على أعمالكم، وإن خيراً فخير، وإن شراً فشر، ﴿أَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ

(١) انظر ما ورد في ذلك في: «تفسير ابن أبي حاتم» (٣١٩٢/١٠)، «زاد المسير» (١٢/٧)، «الدر المنثور» (٣٣٧/١٢)، ط. هجر، «صلة الجمع وعائد التذييل» (٣٩٤/٢ - ٣٩٥)، وقصته في «تاريخ ابن جرير» (٢١/٢)، «مروج الذهب» (٦٦/١)، «الكامل في التاريخ» (٢١١/١).

ءَالِهَةً ﴿ اسْتَغْنَاهُمْ عَنْكَ وَتَوْبِيخٌ وَتَقْرِيعٌ ﴾، ﴿إِنْ يُرِيدِ الرَّحْمَنُ يَضْرِبَ لَكَ تَغْنِ عَوْفَ شَفَعَتْهُمْ شَيْئًا وَلَا يَقْدِرُونَ﴾ أي: هذه الآلهة التي تعبدونها من دونه لا يملكون من الأمر شيئاً، فإن الله تعالى لو أرادني بسوء ﴿فَلَا كَاشِفُ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ١٧]، وهذه الآلهة ^(١) لا تملك دفع ذلك ولا منعه، ولا ينقذونني مما أنا فيه: ﴿إِنِّي إِذَا لَفَى ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ ﴿١٤﴾ أي: إن اتخذتها آلهة من دون الله، وقوله تعالى: ﴿إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ﴾ ﴿١٥﴾، قال ابن عباس يقول لقومه: ﴿إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ الذي كفرتم به ﴿فَاسْمَعُونِ﴾ أي: فاسمعوا قولي، ويروى أنهم قتلوه فأدخله الله الجنة، فاعتبط بذلك، ﴿قَالَ يَلَيْتَ قَوْيَ يَمَاعِلُومُونَ غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾ ﴿٢٧﴾ ^(٢) ^(٣).

فصل

قال محمد تقي الدين: قال بعض السلف: «المؤمن ينصح دائماً لقومه حياً وميتاً» فهذا الرجل تمنى لقومه أن يعرفوا فضل التوحيد واتباع الرسل، وما أعد الله لصاحبه من الكرامة، فيعمل بذلك فينال من السعادة مثل ما نال. اهـ.

قال محمد تقي الدين: كل مسلم مخلص يجب عليه أن يقتدي بهذا الرجل [الذي] ^(٤) ذكره الله تعالى في كتابه العزيز، وأثنى عليه بهذا الشاء العظيم، خصوصاً في زمان غربة الإسلام. اهـ.

الباب الثاني

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آٰمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ ﴿٦١﴾ ﴿وَالَّذِينَ آٰمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ ﴿٦٢﴾ ﴿وَالَّذِينَ آٰمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ ﴿٦٣﴾

[يس: ٦٠ - ٦١]

قال (ك): «هذا تقرير من الله تعالى للكفرة من بني آدم الذين أطاعوا

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الأصنام».

(٢) أخرجه الحاكم (٤٢٩/٢) بنحوه عن ابن مسعود، وعزاه في «الدر» (٣٣٩/١٢) لعبد بن حميد وابن أبي شيبة وابن المنذر عن كعب أن ابن عباس سأله، ... وذكر نحوه.

(٣) من «تفسير ابن كثير» (٣٥٤/١١ - ٣٥٥) بتصرف يسير.

(٤) سقطت من الأصل.

الشیطان، وهو عدو لهم مبين، وعصوا الرحمن، وهو الذي خلقهم ورزقهم، ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ (١) أي: قد أمرتكم في [دار] (١) الدنيا بعضيان الشيطان، وأمرتكم بعبادتي، وهذا هو الصراط المستقيم، فسلكتهم غير ذلك، واتبعتم الشيطان فيما أمركم به، ولهذا قال ﷺ: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِيلًا كَثِيرًا﴾ يقال: ﴿جِيلًا﴾ بكسر الجيم وتشديد اللام (٢)، ويقال: ﴿جُبَلًا﴾ بضم الجيم والباء وتخفيف اللام (٣)، ومنهم من يسكن الباء (٤)، والمراد بذلك الخلق الكثير، وقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾ [أي: أن] في ذلك هلاككم فتجنبوه (٥) (٦).

فصل

قال محمد تقي الدين: تقدم أن كل من عبد غير الله سواء زعم أنه عبد الملائكة، أم الأنبياء أم الصالحين وأئارهم، فإنما عبد الشيطان الذي أضله عن الصراط المستقيم، وزين له الشرك، فالصراط المستقيم، وهو توحيد الله، واتباع رسوله ﷺ. اهـ.

الباب الثالث

قوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ إلهَةً لَعَلَّهُمْ يُبْصِرُونَ﴾ (٧٤) لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُنْخَضَرُونَ (٧٥) فَلَا يَخْزِيكَ قَوْلُهُمْ إِنَّآ نَعْلَمُ مَا يُسْرُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٦) [يس: ٧٤ - ٧٦]

- (١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الدار».
- (٢) قال عنها النحاس: «أبين القراءات»، وهي قراءة الكافة. انظر: «إعراب القرآن» للنحاس (٢٩٣/٤)، «معاني القرآن» (٢٩٢/٤) للزجاج، «شرح الشاطبية» (٢٧٤)، «التيسير» (١٨٤)، «حجة القراءات» (٦٠١).
- (٣) هذه قراءة ابن كثير وحمزة والكسائي وابن محيصن والحسن والأعمش وزيد ورويس عن يعقوب وخلف، انظر: «الكشف عن وجوه القراءات» (٢١٩/٢)، «النشر» (٣٥٥/٢).
- (٤) هذا قراءة أبي عمرو وابن عامر والهيل بن شرحبيل والأشهب العقيلي وأبي حيو، انظر: «البحر المحيط» (٣٤٤/٧)، «النشر» (٣٥٥/٢)، «فتح الباري» (٣٨٢/٨)، «إرشاد المبتدي» (٥١٧)، «روح المعاني» (٤١/٢٣).
- (٥) هذه العبارة غير موجودة في «تفسير ابن كثير» وقد وجدت نحوها عند الألوسي في «روح المعاني» (٤١/٢٣).
- (٦) انظر: «تفسير ابن كثير» (٣٧١/١١ - ٣٧٢).

قال (ك): «يقول تعالى منكراً على المشركين^(١) اتخاذهم الأنداد آلهة مع الله، يبتغون بذلك أن تنصرهم تلك الآلهة، وترزقهم وتقربهم إلى الله زلفى، قال الله تعالى: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ﴾ أي: لا تقدر الآلهة على نصر عابديها، بل هي أضعف من ذلك، وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَمَّمْ جُنْدٌ مُّحَضَّرُونَ﴾ قال مجاهد: «يعني: عند الحساب»^(٢)، يريد: أن هذه الآلهة^(٣) محشورة مجموعة يوم القيامة محضرة عند حساب عابديها، ليكون ذلك أبلغ في خزيهم^(٤) وأدل عليهم في إقامة الحجة عليهم، وقال قتادة: «﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ﴾؛ يعني: الآلهة ﴿وَهُمْ لَمَّمْ جُنْدٌ مُّحَضَّرُونَ﴾ والمشركون يغضبون للآلهة في الدنيا، وهي لا تسوق إليهم خيراً، ولا تدفع عنهم سوءاً»^(٥) وقوله تعالى: ﴿فَلَا يَحْزَنُكَ قَوْلُهُمْ﴾ أي: تكذيبهم لك، وكفرهم بالله ﴿إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ أي: نحن نعلم جميع ما هم فيه وسيجزئهم وصفهم ويعاملهم^(٦) على ذلك يوم لا يفقدون من أعمالهم جليلاً ولا حقيراً ولا صغيراً ولا كبيراً، بل يعرض عليهم جميع ما كانوا يعملون قديماً وحديثاً»^(٧).

فصل

قال محمد تقي الدين: المشركون في كل زمان ومكان يستنصرون بآلهتهم، ويظنون أنها تنصرهم وتأتيهم بالعز، فما أسخف عقولهم! وما أضلهم! فإن كل من عبد غير الله تعالى، يذله الله في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشْفِقُونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ

(١) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «في».

(٢) أخرجه ابن جرير (٤٨٤/١٩)، والفريابي - كما في «تغليق التعليق» (٢٩١/٤) - وهو في «تفسير مجاهد» (٥٦١).

(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الأصنام».

(٤) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «حزنهم»!

(٥) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، و«تفسير ابن أبي حاتم» (٣٢٠١/١٠) رقم (١٨١١٧)، و«تفسير ابن جرير» (٤٨٥/١٩)، وفي الأصل: «شراً! وعزاه في «الدر المنثور» (٢٦٩/٥) لعبد بن حميد وابن المنذر.

(٦) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ما هم عليه وسنجزئهم وصفهم ونعاملهم».

(٧) انظر: «تفسير ابن كثير» (٣٨٢/١١ - ٣٨٣) بتصرف.

(٨) في الأصل: «ويوم»!

الْخِزْيَ آيَوْمَ وَالْأُسْوَى عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٢٧﴾ [النحل: ٢٧] وقد تقدم الكلام عليها في سورة النحل، وقال تعالى في سورة الأعراف: ﴿أَيُّشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ ﴿١٩٢﴾﴾ [الأعراف: ١٩١-١٩٢]. ولما حصر الفرنسيون مدينة فاس في عهد السلطان عبد الحفيظ، استنصر الجهاد بالإمام إدريس بن عبد الله رَحِمَهُ اللهُ، فقال قائلهم:

أمولاي يا إدريس يا ابن نبينا.....

البيتين، وقد تقدم ذكر ذلك في (سورة آل عمران) في (الباب الثالث)، فعاقب الله جميع المغاربة - لأن أكثرهم مشركون - بالخذلان والهزيمة، وانتصر عليهم الفرنسيون، وحكموا بلادهم ثلاثاً وأربعين سنة، وهذا جزاء من يستنصر بغير الله.

سُورَةُ الصَّافَّاتِ

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿وَالصَّفَّاتِ صَفًّا ۝١﴾ قَالَ زَجَرْتَ زَجْرًا ۝٢﴾ فَالتَّلَايَاتِ ذِكْرًا ۝٣﴾ إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ ۝٤﴾ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشْرِقِ ۝٥﴾

[الصافات: ١ - ٥]

(الصافات) هم الملائكة الجماعات الصافات المصطفة صفوفًا. وروى مسلم وغيره عن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربهم؟»، قلنا: كيف تصف الملائكة عند ربهم؟ قال ﷺ: «يتمون الصفوف المتقدمة، ويتراصون في الصفوف»^(١).

قال محمد تقي الدين: فسر السلف (الصافات) بجموع الملائكة، تصطف عند ربها و(الزاجرات) بالآيات القرآنية التي تزجر الناس عن معصية الله، و(التاليات ذكرًا) بالملائكة تتلو كلام الله على الأنبياء والأنبياء يتلونه على أممهم، أقسم الله سبحانه بهذه الأقسام على أنه إله واحد، وأن كل إله اتخذ من دونه، لعبادته ضلال يفضي إلى الهلاك.

قال (ك): «وقوله ﷻ: ﴿إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ ۝٤﴾»^(٢) ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي: من المخلوقات ﴿وَرَبُّ الْمَشْرِقِ﴾ أي: هو المالك المتصرف في الخلق بتسخيره بما فيه من كواكب ثوابت وسيارات، تبدو من المشرق، وتغرب من المغرب، واكتفى بذكر المشارق عن المغارب لدلالتهما عليهما، وقد صرح بذلك في قوله ﷻ: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَدِرُونَ ۝٤٥﴾ [المعارج: ٤٥] وقال تعالى في الآية الأخرى: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ۝٧﴾ [الرحمن: ١٧]؛ يعني

(١) أخرجه مسلم (٤٣٠)، وأبو داود (٦٦١)، وابن ماجه (٩٩٢)، وغيرهم.

(٢) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «هذا هو المقسم عليه: أنه تعالى لا إله إلا هو».

في الشتاء والصيف للشمس والقمر»^(١).

فصل

قال محمد نقي الدين: يا عجباً للمشركين! يقسم الله بأنه إله واحد، ثم هم يتخذون معه آلهة أخرى، يدعونها لرغبتهم ورهبتهم، ويخافونها ويرجونها ويتوكلون عليها، أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، رضيت بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد رسولاً، اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم، وبارك على محمد، وعلى آل محمد، كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد. اهـ.

الباب الثاني

قوله تعالى: ﴿أَحْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ (٢٢) مِنْ دُونِ اللَّهِ فَأَهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْحَنِيمِ (٢٣) وَقَفُّهُمْ إِيَّاهُمْ مَسْئُولُونَ (٢٤) مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ (٢٥) بَلْ هُمْ الْيَوْمَ مُسْتَسَامُونَ (٢٦) وَأَقْبَلْ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٧) قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ (٢٨) قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٢٩) وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ (٣٠) [الصافات: ٢٢ - ٣٠]

«قوله^(٢) تعالى: ﴿أَحْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ قال النعمان بن بشير رضي الله عنه: «يعني بأزواجهم: أشباههم وأمثالهم»^(٣) «وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ» أي: من الأنداد والأصنام»^(٤)، «فَأَهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْحَنِيمِ» أي: أرشدوهم إلى طريق جهنم،

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٢/٦ - ٧).

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «قال».

(٣) أخرجه عبد الرزاق في «التفسير» (١٤٨/٢)، وأخرجه جمع عنه عن عمر بن الخطاب قوله، كما عند أحمد بن منيع - كما في «المطالب العلية» (١٥/١٤٧) -، وابن جرير (١٩/٥١٩)، والحاكم (٢/٤٣٠) وصححه، وعزاه في «الدر المنثور» (١٣/٣٩٤) للفريابي، وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم، وقال ابن حجر في «المطالب» (١٥/١٤٧) رقم (٣٦٩٣، ط. العاصم) عن إسناد ابن منيع: «صحيح»! والأدق منه قول البوصيري في «الإتحاف» (٢/١٦٦ ب): «رواته ثقات»، والأثر حسن إن شاء الله تعالى.

(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الأصنام والأنداد».

﴿وَقَفَّوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْتَوْفُونَ﴾ (١٤) أي: قفوهم حتى يسألوا عن أعمالهم وأقوالهم التي صدرت عنهم في الدار الدنيا، ثم يقال لهم على سبيل التقرير والتوبيخ: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنصَرُونَ﴾ (١٥) أي: كما زعمتم أنكم جميع منتصر، ﴿بَلْ هُمْ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾ (١٦) أي: منقادون لأمر الله تعالى، لا يخالفونه ولا يحيدون عنه، والله أعلم^(١).
وقوله تعالى: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ (١٧) إلى قوله: ﴿وَصَدَقَ الْمُرْسَلِينَ﴾.

قال (ك): «يذكر تعالى أن الكفار يتلاومون في عرصات القيامة، كما يتخاصمون في دركات النار، ﴿قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ﴾ (١٨) قال ابن زيد: «معناه: تحولون بيننا وبين الخير، ورددتمونا عن الإسلام والإيمان والعمل بالخير، الذي أمرنا به»^(٢) ﴿قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (١٩) تقول القادة من الجن والإنس للاتباع: ما الأمر كما تزعمون، بل كانت قلوبكم منكرة للإيمان قابلة للكفر والعصيان، ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ﴾ (٢٠) أي^(٣): حجة على صحة ما دعوناكم إليه، ﴿بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ﴾ (٢١) أي: بل كان فيكم طغيان ومجاوزة للحق، فلهذا استجبتم لنا، وتركتم الحق الذي جاءكم به الأنبياء، وأقاموا لكم الحجج على صحة ما جاؤوكم به، فخالفتموهم ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَاقُونَ﴾ (٢٢) ﴿فَأَعْوَيْنَتْكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ﴾ (٢٣) يقول الكبراء للمستضعفين: حقت علينا كلمة الله، إنا من الأشقياء الذائقين للعذاب يوم القيامة، ﴿فَأَعْوَيْنَتْكُمْ﴾ (٢٤) أي: دعوناكم إلى الضلالة ﴿إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ﴾ (٢٥) أي: فدعوناكم إلى ما نحن فيه فاستجبتم لنا، قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ (٢٦) أي: الجميع في النار كل بحسبه ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾ (٢٧) ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا﴾ (٢٨) أي: في الدنيا ﴿إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ (٢٩) أي: يستكبرون أن يقولوها كما يقولها المؤمنون، ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّمَا لَنَا زَكَاةٌ إِلَهُاتِنَا لِسَٰعِرٍ تَجَنُّونَ﴾ (٣٠) أي: نحن نترك عبادة آلهتنا وآلهة آبائنا عن قول هذا الشاعر المجنون، يعنون: رسول الله ﷺ، قال الله تعالى تكذيباً لهم ورداً عليهم: ﴿بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ﴾؛ يعني: رسول الله ﷺ، جاء بالحق في جميع شرعة الله تعالى له

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٢/ ١١ - ١٢) بتصرف.

(٢) أخرجه ابن جرير (١٩/ ٥٢٥ - ٥٢٦).

(٣) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «من».

(٤) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الدار».

من الإخبار والطلب ﴿وَصَدَقَ الْمُرْسَلِينَ﴾ أي: صدقهم فيما أخبروا عنه من الصفات الحميدة والمناهج السديدة، وأخبر عن الله تعالى في شرعه وأمره، كما أخبروا، ﴿مَا يَقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ﴾ الآية [فصلت: ٤٣] (١).

فصل

قال محمد تقي الدين: من أعظم المصائب التي حلت بمشركي هذا الزمان، وبأسف لها كل مشفق عليهم: إنهم لا يعرفون معنى لا إله إلا الله، وقد أصلهم رؤساء جهال ينسبون إلى العلم زوراً وبهتاناً، ففسروا لهم لا إله إلا الله تفسيراً ضلالاً، قال بعضهم: معنى لا إله إلا الله: لا مُسْتَعْنٍ عن كل ما سواه ومفتقراً إليه كل ما عداه إلا الله (٢)، فظن هذا الجاهل أن لا إله إلا الله يقصد بها توحيد الربوبية وهو إثبات الغنى لله تعالى، وإثبات الفقر لكل من سواه فقط، ولو فكر في معنى أله ياله إلهة، أي: عبد يعبد عبادة، لعلم أن كلمة (إله) فعال بمعنى مفعول أي: معبود، فقائل لا إله إلا الله، العالم بمعناها، يشهد على نفسه أنه لا يعبد إلا الله، وأنه بريء مما يعبد من دونه، كما قال إبراهيم الخليل لأبيه وقومه: ﴿إِنِّي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾ [الزخرف: ٢٦ - ٢٧] وقال تعالى في سورة الممتحنة: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ﴾ [الممتحنة: ٤] وقال تعالى في سورة مريم حكاية عن إبراهيم: ﴿وَأَعَزَّنَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَادْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ [مريم: ٤٨] وقال تعالى في سورة هود حكاية عنه قال: ﴿إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ [هود: ٥٤ - ٥٥] وتقدمت قصة أبي طالب لما قال له النبي ﷺ: «يا عم قل لا إله إلا الله»، فهم أبو طالب وأبو جهل وعبد الله بن أبي أمية أن معنى لا إله إلا الله، أن يترك ملة عبد المطلب وهي

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٢/١٢ - ١٤) بتصرف.

(٢) ومثله قول التبليغيين (١) في بياناتهم في المجالس العامة والخاصة في معنى (لا إله إلا الله): عدم اليقين على الأشياء، واليقين على الله تعالى فقط، ولا ينكر عليهم أحداً إلى الله المشتكى من غربة الإسلام والسنة!

(١) يسميهم الهلالي (الإلياسيين)، انظر كلامه عنهم في (٣/٢٣٣) وما ذكرناه في المقدمة (ص ٧٢ وما بعد).

الشرك^(١)، فهؤلاء الكفار الثلاثة فهموا معنى لا إله إلا الله، وكثير ممن ينسب إلى الإمامة في العلم والدين يجهل معناها، وقال في هذه الآية حكاية عن الكفار، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ (٨٥) وَيَقُولُونَ إِنَّا لَا نَرَكُمْ إِلَّا تُحَايِرُ بِكُمْ أُنْجُنُوهُمْ (٨٦) فهموا أنهم إن قبلوا لا إله إلا الله تحتم عليهم ترك عبادة آلهتهم، ووجب عليهم الكفر بها، والمشركون في هذا الزمان يقولون: لا إله إلا الله في كل حين، وهم يعبدون آلهتهم، ويستغيثون بها، فلا نسمع إلا يا شيخنا يا سيدي فلان، فسبحان من طبع على قلوبهم وأعمى بصائرهم. اهـ.

﴿الباب الثالث﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ﴾ (٨٣) إِذْ جَاءَ رَبُّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٤) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ (٨٥) أَفَكَاةَ إِلَهَةٍ دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ (٨٦) فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٨٧) فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ (٨٨) فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ (٨٩) فَلَوْلَا عَنْهُ مُدِيرِينَ (٩٠) فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهِنَّ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (٩١) مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ (٩٢) فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ (٩٣) فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُونَ (٩٤) قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ (٩٥) وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ (٩٦) قَالُوا ابْنُوا لَنَا بُيُوتًا فَالْقَوْهُ فِي الْجَحِيمِ (٩٧) فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ (٩٨) ﴿

[الصافات: ٨٣ - ٩٨]

قال محمد تقي الدين: أريد أن أفسر هذه الآيات بلفظي لأن التفاسير التي بيدي لم تتفق مع رغبتني.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ﴾ أي: من أهل دين نوح السائرين على منهاجه في عبادة الله وحده لا شريك له، ﴿لَإِبْرَاهِيمَ﴾ هو الخليل الذي ﴿جَاءَ رَبُّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ من الشرك معاد لأهله متبرئ منهم، حين قال: ﴿لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾ أنكر عليهم عبادة الأصنام وما وراءها من الأنداد، أتقصدون بعبادتكم آلهة اتخذتموها من دون الله كذباً وزوراً؟ فإن الله لا يرضى أن يعبد معه غيره، ﴿فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ماذا تظنون أن يفعل بكم من العذاب، لأنكم ما

(١) مضت القصة مع تخريجها.

قدرتموه حق قدره حين أشركتم به؟ ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي الْتُجُومِ﴾ أي: نظر إلى السماء مفكراً في حيلة يحتال بها على عدم الخروج معهم إلى العيد؛ ليخلو بأصنامهم ويكسرهما في غيبتهم، فرأى أن يقول لهم: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ أي: مريض، ليفهموا أنه لا يستطيع الخروج معهم ﴿فَنَوَلُّوا عَنْهُ مُدْبِرِينَ﴾ أي: تركوه وانطلقوا إلى عيدهم، ﴿فَرَأَى عَلَيْهِمْ صَرًّا بِالْأَيْمِينِ﴾ أي: مال إلى الأصنام يضربها ضرباً بيده اليمنى، حتى كسرهما كلها إلا الصنم الكبير وقد تقدم في (سورة الأنبياء) أنهم لما رجعوا ووجدوا أصنامهم مكسرة، سألوا عن من كسرها، فأخبرهم إبراهيم أن كبير الأصنام هو الذي كسر رفقاه، وقال لهم: ﴿فَتَشَاوَرْتُمْ إِن كَانُوا يَنْطَفُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٣] فقالوا له: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطَفُونَ...﴾ [الأنبياء: ٦٥] إلى آخر ما تقدم، وفي هذه السورة، أخبرنا الله تعالى أن إبراهيم عليه السلام قال للأصنام لما رأى الطعام موضوعاً عندها وضعه عبادة لتجعل لهم فيه البركة ثم يأكلوه بعد ذلك: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ﴾؟ قال ذلك استهزاء بهم، وبمن يعبدونهم، فإن من أعظم الجهل أن يعبد الإنسان جماداً لا يأكل ولا يشرب ولا يتكلم ولا يسمع ولا يبصر، وبعدما كسرهم أقبل عبادهم ﴿يَرْفُقُونَ﴾، يهرعون، فقال لهم إبراهيم عليه السلام: منكرأ ومشتعأ: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَشْحُونَ﴾ الأصنام المنحوتة، فكيف تتخذونها آلهة، أين ذهبت عقولكم؟

قال (ك): «فعند ذلك لما قامت عليهم الحجة عدلوا إلى أخذه باليد والقهر، ﴿قَالُوا إِنَّا لَمُبْتَلُونَ﴾ ﴿فَالْقُوَّةُ فِي الْحَجِيرِ﴾ وكان من أمرهم ما تقدم بيانه في سورة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ونجاه الله من النار وأظهره عليهم، وأعلى حجته، ونصرها، ولهذا قال تعالى: ﴿فَارَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ﴾» (١).

فصل

قال محمد تقي الدين: تقدم في (الباب الثالث) من (سورة الأنبياء) حديث أن إبراهيم، لم يكذب إلا ثلاثاً (٢)، ...، فراجعه هناك. والمشركون في كل زمان ومكان متشابهون؛ فإن مشركي هذا الزمان يبنون بأيديهم قباباً ينسبونها إلى الصالحين، ويعبدونها بالذبح والنذر والتمسح، فيجيء السيل العظيم، فيجرف

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٣٦/١٢).

(٢) مضى الحديث بطوله مع تخريجه في (ص ٦٤ - ٦٥).

القبة ولا تستطيع هي ولا من نسبت إليه أن يحولا بين السيل وبينها، فيعيد المشركون بناءها ويعبدونها، وإذا قيل للمشركين: كيف تعبدون شيئاً بنيتموه بأيديكم؟ فيزعمون أن روح ذلك الصالح ملازمة لتلك القبة، وهي التي تقضي حاجات عابديها، يقال لهم: إن كان الأمر كما زعمتم، فلماذا لم تدفع السيل عن قبتها؟ فلا يجدون جواباً، ومع ذلك يستمرون في شركهم، ولو أن شخصاً من الموحدين جاء يهدمها، لتصدوا لقتاله، ولو كانوا صادقين في زعمهم أن معها قوة تقضي الحاجات، وتفرج الكربات، لتركوا بينها وبين هادمها تنتقم منه، ولكنهم لا يعقلون. اهـ.

﴿الباب الرابع﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (١٢٢) إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ۖ أَلَا تَتَّقُونَ (١٢٤) أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَلْقِينَ (١٢٥) اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (١٢٦) فَكَذَّبُوهُ فَأَنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٢٧) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمَخْلَصِينَ (١٢٨)

[الصافات: ١٢٣ - ١٢٨]

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ﴾ هو أحد الرسل من بني إسرائيل ﴿لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ إلى قومه ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ الله وتخافون عقابه، كيف تعبدون ﴿بَعْلًا﴾ وهو صنم مشهور عندهم، وتركوا عبادة الله الذي هو خالقكم وخالق آبائكم الأولين؟ ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ فيما دعاهم إليه من التوحيد ﴿فَأَنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ للعذاب ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمَخْلَصِينَ﴾ (١٢٨) فإنهم لم يكذبوه بل آمنوا به، ووجدوا الله تعالى. وقوله تعالى: ﴿وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَلْقِينَ﴾ أي: تشركون به فإنهم لم يتركوا عبادة الله، ولكنهم لما عبدوا معه غيره حبط عملهم وبطلت عبادتهم لله، فوصفوا بأنهم تركوا عبادة الله، كما قال تعالى في المشركين من العرب: ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ (٢) فكل من صرف لغير الله مثقال ذرة من عبادته، فهو تارك لعبادة الله تعالى، وفي الحديث القدسي: «يقول الله تعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك معي فيه غيري تركته وشركه» (١). اهـ.

﴿الباب الخامس﴾

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نِجَابًا وَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ۝١٥٨ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ۝١٥٩ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ۝١٦٠ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ۝١٦١ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَتْنَيْنِ ۝١٦٢ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالٍ الْجَحِيمِ ۝١٦٣﴾

[الصفات: ١٥٨ - ١٦٣]

قال (١): ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نِجَابًا﴾ قال مجاهد: «قال المشركون: الملائكة بنات الله تعالى، فقال (١) أبو بكر رضي الله عنه: فمن أمهاتهم؟ قالوا: بنات سروات الجن» (٢)، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ﴾ أي: الذين نسبوا إليهم ذلك ﴿إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ أي: إن الذين قالوا ذلك لمحضرون في العذاب يوم الحساب، لكذبهم في ذلك وافتراءهم، وقولهم الباطل بلا علم، وقوله جلت عظمتة: ﴿سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ أي: تعالى وتقدس وتنزه عن أن يكون له ولد، وعما يصفه به (٣) الظالمون الملحدون علواً كبيراً، وقوله تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ۝١٦٠﴾ استثناء منقطع، وهو من مثبت (٤).

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ۝١٦١ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَتْنَيْنِ ۝١٦٢﴾ أي: إن الذين قالوا ذلك لمحضرون في العذاب يوم الحساب، لكذبهم في ذلك وافتراءهم، وقولهم الباطل بلا علم، وقوله جلت عظمتة: ﴿سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ أي: تعالى وتقدس وتنزه عن أن يكون له ولد، وعما يصفه به (٣) الظالمون الملحدون علواً كبيراً، وقوله تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ۝١٦٠﴾ استثناء منقطع، وهو من مثبت (٤).

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «فسأل».

(٢) أخرجه ابن جرير في «التفسير» (١٩/٦٤٥)، وابن أبي حاتم في «التفسير» (١٠/٣٢٣١).

رقم (٨٣٠٣)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١/١٦٦)، رقم (١٤١)، وهو في «تفسير

مجاهد» (ص ٥٧١)، وعزاه السيوطي في «الدر المنثور» (١٢/٤٨٤): «لآدم بن أبي إلياس

وعبد بن حميد وابن المنذر.

(فائدة): «سروات الجن: أشرافهم.

(٣) من مطبوع «تفسير ابن كثير» وسقط من الأصل.

(٤) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٢/٦٢) بتصرف.

(٥) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ما».

(٦) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «إلا».

(٧) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٢/٦٣).

فصل

قال محمد تقي الدين: قول الحافظ (ك): «استثناء منقطع من مثبت» قد يشكل فهمه على بعض الناس. من المعلوم أن الاستثناء يكون من مثبت ومنفي، مثال المثبت: حضر الطلبة إلا سعيداً، فالاستثناء متصل، والمستثنى من مثبت، فإذا قلنا: حضر الطلبة إلا جملاً، فالمستثنى منه مثبت والاستثناء منقطع، لأن الجمل غير داخل في الطلبة. ومثال الاستثناء من منفي: ما جاء أحد إلا عبد الله. وقوله تعالى: ﴿فَالْيَكْرُ وَمَا يَنْبُتُونَ﴾ (١١١) ... ﴿إِلَى آخِرِهِ، منطبق على سدنة القبور والقباب وعلى الدعاة إلى أخذ الطرائق التي انتشرت في هذه الأزمنة، لأنهم يزيّنون للناس الدخول في طرائقهم، فيضمنون لهم الجنة افتراء على الله، ويضمنون لهم الحماية من شرور الدنيا والآخرة، والدخول في طرائقهم أعظم الشرور التي تصيب الناس في دنياهم وأخراهم، ولكن لا يفتن بوساوسهم إلا من ذرئوا لجهنم، ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَفْئِدَةٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْفَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

سُورَةُ الضُّحَى

الباب الأول

قال تعالى: ﴿صَّ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ۝ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزِّهِمْ وَشِقَاقِيهِ ۝ كَرِهَ أَمْلَكُنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوا وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ۝ وَعَجَبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ ۝ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سِحْرٌ كَذَّابٌ ۝ أَحْجَلُ الْأَلْهَةِ إِلَهُهَا وَجَدْنَا أَنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ ۝ وَأَنْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ آمَسُوا وَأَصْبَرُوا عَلَىٰ إِلَهِهِمْ ۝ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ۝ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْأَلَمَةِ الْأُخْرَىٰ ۝ إِنَّ هَذَا إِلَّا خَلْقٌ ۝ أَنْزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرَ مِنْ بَيْنِنَا ۝ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي ۝ بَلْ لَمَّا يَدُورُوا عَذَابٍ ۝﴾ [ص: ١-٨]

قال (ع): «أما الكلام على الحروف المقطعة فقد تقدم في أول سورة البقرة، بما أغنى عن إعادته ههنا، وقوله تعالى: ﴿وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ أي: والقرآن المشتمل على ما فيه ذكر للعباد، ونفع لهم في المعاش والمعاد، قال الضحاك في قوله تعالى: ﴿ذِي الذِّكْرِ﴾ كقوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ [الأنبياء: ١٠] أي: تذكيركم^(١)، وقوله تبارك وتعالى: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزِّهِمْ وَشِقَاقِيهِ ۝﴾ أي: إن في هذا القرآن للذكر^(٢) لمن يتذكر وعبرة لمن يعتبر، وإنما لم ينتفع به الكافرون لأنهم ﴿فِي عِزِّهِمْ﴾ أي: استكبار عنه وحمية، ﴿وَشِقَاقِيهِ﴾ أي: مخالفة^(٣) له ومعاندة ومفارقة، ثم خوفهم ما أهلك به الأمم المكذبة قبلهم بسبب مخالفتهم للرسول وتكذيبهم الكتب المنزلة من السماء فقال تعالى: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ

(١) أخرجه ابن جرير (٩/٢٠)، وانظر: «تفسير البغوي» (٧/٢٦٩)، و«زاد المسير» (٧/٩٨)، و«تفسير الضحاك» (٢/٧١٥) جمع د. محمد شكري الزاويتي.

(٢) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «الذكرى»!

(٣) في الأصل: «ومخالفة»، بزيادة واو في أوله!

قَبْلِهِمْ مِّنْ قَرْنٍ ﴿١﴾ أَي: من أمة مكذبة ﴿فَنَادَوْا﴾ أَي: حين جاءهم العذاب، استغاثوا وجأروا إلى الله تعالى وليس ذلك بمجد عنهم شيئاً^(١).

وقوله تعالى: ﴿وَعَجِبُوا﴾ إلى قوله: ﴿بَلْ لَّمَّا يَدُورُوا عَذَابٍ﴾.

قال (ك): «يقول تعالى مخبراً عن المشركين في تعجبهم من بعثة رسول الله^(٢) ﷺ بشراً^(٣) كما قال ﷻ: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١﴾﴾ [يونس: ٢] وقال جل وعلا ههنا: ﴿وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ أَي: بشر مثلهم: ﴿وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سِحْرٌ أَبْجَلْ كَذَّابُ الْآلِهَةِ إِلَٰهًا وَجِدًا﴾ أَي: أزعم أن المعبود واحد لا إله إلا هو؟ أنكر المشركون ذلك قبحهم الله تعالى، وتعجبوا من ترك الشرك بالله، فإنهم كانوا قد تلقوا عن آبائهم عبادة الأوثان وأشربته قلوبهم، فلما دعاهم الرسول ﷺ إلى خلع ذلك من قلوبهم، وإفراد الإله^(٤) بالوحدانية، أعظموا ذلك وتعجبوا وقالوا: ﴿أَبْجَلْ الْآلِهَةِ إِلَٰهًا وَجِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾﴾ !!؟ ﴿وَأَنطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ﴾ وهم سادتهم وقادتهم ورؤساؤهم وكبراؤهم قائلين: ﴿أَمْشُوا﴾ أَي: استمروا على دينكم ﴿وَأَصْبِرُوا عَلَىٰ ءَالِهَتِكُمْ﴾ ولا تستجيبوا لما يدعوكم إليه محمد من التوحيد، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُّ﴾ قال ابن جرير: «إن هذا الذي يدعوننا إليه محمد ﷺ من التوحيد لشيء يريد به الشرف عليكم والاستعلاء، وأن يكون له منكم اتباع ولسنا مجيبيه^(٥) إليه^(٦)».

ذكر سبب نزول هذه الآيات

قال السدي: إن ناساً من قريش اجتمعوا فيهم أبو جهل في نفر من مشيخة قريش فقال بعضهم لبعض: انطلقوا بنا إلى أبي طالب فلنكلمه فيه، فلي نصفنا منه، فلي كف عن شتم آلهتنا وندعه وإلهه الذي يعبد، فإننا نخاف أن يموت هذا الشيخ

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٢/٧١ - ٧٢).

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الرسول».

(٣) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل بدل منه: «بشيراً ونذيراً».

(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الله».

(٥) كذا في مطبوع «تفسير ابن جرير وابن كثير»، وفي الأصل: «نجيبه».

(٦) انظر: «تفسير ابن جرير» (٢٠/٢١) بنحوه.

فيكون منا إليه شيء فتعيرنا به العرب، يقولون: تركوه حتى إذا مات عنه تناولوه، فبعثوا رجلاً منهم يقال له: المطلب، فاستأذن لهم على أبي طالب، فقال: هؤلاء مشيخة قومك وسراتهم يستأذنون عليك قال: أدخلهم، فلما دخلوا عليه قالوا: يا أبا طالب أنت كبيرنا وسيدنا فأنصفنا من ابن أخيك، فمره فليكيف عن شتم آلهتنا وندعه وإلهه، قال: فبعث إليه أبو طالب فلما دخل عليه رسول الله ﷺ قال: يا ابن أخي هؤلاء مشيخة قومك وسراتهم وقد سألوك أن تكف عن شتم آلهتنا^(١) ويدعوك وإلهك، قال ﷺ: «يا عم أفلا أدعوهم إلى ما هو خير لهم؟» قال: وإلام تدعوهم؟ قال ﷺ: «ادعوهم أن يتكلموا بكلمة تدين لهم بها العرب ويملكون بها العجم» فقال أبو جهل لعنه الله من بين القوم: ما هي وأبيك لنعطينكها وعشر أمثالها، قال ﷺ: «تقولون: لا إله إلا الله» فنفروا وقالوا: سلنا غيرها^(٢) قال ﷺ: «لو جئتموني بالشمس حتى تضعوها في يدي ما سألتكم غيرها» فقاموا من عنده غضاباً وقالوا: والله لنشتمنك وإلهك الذي أمرك بهذا، «وَأَنطَلَقَ الْكَلْبُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهِمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُّ»^(٣).

وقولهم: «مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آلِئَةِ الْآخِرَةِ»، أي: ما سمعنا بهذا الذي يدعوننا إليه محمد من التوحيد «فِي آلِئَةِ الْآخِرَةِ» أي: في دين قريش، «إِنَّ هَذَا إِلَّا أَعْيُنُنَا» أي: كذب، وقولهم: «أَنزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنَيْنَا» يعني: إنهم يستبعدون تخصيصه بإنزال القرآن عليه من بينهم كلهم، كما قالوا في الآية الأخرى: «لَوْ لَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْفَرِثِيِّينَ عَظِيمٍ» [الزخرف: ٣١]. قال الله تعالى: «أَمَرُ

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «آلهتهم».

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «نفروا وقال: سلنا غير هذا».

(٣) أخرج هذه القصة: أحمد (٢٢٧/١)، والترمذي (٣٢٣٢)، والنسائي في «الكبرى» (١١٤٣٦)، وابن حبان (٣٧٣/٩) رقم (٦٦٥١) - «التعليقات الحسان»، وابن أبي شيبه في «المصنف» (٢١١/١٣ - ٢١٢) رقم (٣٧٥٦١)، وأبو يعلى (٢٥٨٣)، وابن جرير في «التفسير» (٢٠/٢٠)، وفي «التاريخ» (٥٤٤/١)، ط. الكتب العلمية، وابن أبي حاتم في «التفسير» (٣٢٣٥/١٠) رقم (١٨٣٢٦)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص ٢٤٦)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٣٢٢/٦٦) وإسنادها ضعيف، فيه يحيى بن عمار، ويقال: يحيى بن عباد، تفرد به عن الأعمش، فهو في عداد المجاهيل، وفصلت في تخريجه في تعليقي على «أدلة معتقد أبي حنيفة في أبوي الرسول - عليه الصلاة والسلام» - (ص ١٧ - ٢٠) لعلّي القاري، وضعفه شيخنا الألباني.

يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ ﴿الزخرف: ٣٢﴾. ولهذا لما قالوا هذا الذي دل على جهلهم، وقلة عقلهم في استبعادهم إنزال القرآن على الرسول من بينهم، قال تعالى: ﴿بَلْ لَّمَّا يَدُورُوا عَذَابِ﴾ أي: إنما يقولون هذا لأنهم ما ذاقوا إلى حين قولهم ذلك عذاب الله تعالى ونقمته، سيعلمون غيب ما قالوا وما كذبوا به يوم يدعون إلى نار جهنم دعا^(١). اهـ.

فصل

قال محمد تقي الدين: ﴿وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾، أقسم الله تعالى بالقرآن وهو كلامه ووصفه بقوله سبحانه: ﴿ذِي الذِّكْرِ﴾ أي: التذكير لأنه يذكر كل غافل، ويعلم كل جاهل، ويهدي كل ضال إلا من أبى واستكبر وكان من الكافرين وأعرض عن القرآن واستبدل به الشرائع الأرضية فإنه يخسر دنيا وأخرى. قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى﴾ [طه: ١٢٤]، فيجتمع له شقاء الدنيا وشقاء الآخرة.

فائدة ثانية: قولهم: ﴿أَجْعَلِ الْأَلَمَةَ إِلَهًا وَاحِدًا﴾ هو قول المشركين في كل زمان ومكان، ومنهم المشركون في هذا الزمان، فإنهم إذا قيل لهم: لا تستغيثوا إلا بالله، ولا تدعوا لجلب الخير ودفع الشر إلا الله، غضبوا وقالوا: إن الله أولياء، لا يحصل لأحد خير إلا بواسطتهم، وهذا افتراء على الله، فالمؤمنون الصادقون ليس لهم إلا الولي الحميد، الذي يحيى ويميت، وهو حي لا يموت، الذي يطعم ولا يطعم، ويعين ولا يعان، ويجير ولا يجار عليه.

فائدة ثالثة: قولهم: إنا نخاف أن يموت هذا الشيخ، فيكون إليه شيء... إلى آخره. يقصدون بذلك أنهم يخافون أن يموت أبو طالب فيفضي بهم بغضهم للإسلام إلى أن يقتلوا النبي ﷺ أو يحبسوه، أو ينفوه، فتعيّرهم قبائل العرب بأنهم تركوا شيخهم ورئيسهم أبا طالب إلى أن مات واعتدوا على ابن أخيه، ولم يحفظوا حرمة. وقد فعلوا ما كانوا يتخوفون منه حين عزموا على قتل النبي ﷺ، قبيل الهجرة^(٢)، وبذلوا كل جهد في ذلك، فأنقذه الله منهم.

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٧١/١٢ - ٧٦) بتصرف.

(٢) يشير إلى حادثة مبيت علي بن أبي طالب في فراش رسول الله ﷺ، إذ عزم الكفار على =

فائدة رابعة: قولهم «فمره أن يكف عن شتم آلهتنا»: ما هو شتم النبي ﷺ لآلهتهم؟ هو قوله: اتركوا هذه الإلهة، فإنها لا تنفع ولا تضر، واعبدوا الله وحده الذي بيده الخير، فعدّوا هذا شتماً، وهكذا المشركون في هذا الزمان، إذا قلت لهم: إن أولياءكم الذين اتخذتموهم من دون الله، لا ينفعون ولا يضرّون، ولا يملكون لأنفسهم ضرراً ولا نفعاً ولا حياة، ولا موتاً، ولا بعثاً، فكيف يقدرّون أن ينفعوكم، غضبوا وثأروا، وقالوا: هذا يسب أولياءنا، ويتنقصهم وينكر كرامتهم، وتصرفهم في الكون، ويحاربون ذلك الداعي إلى الله بكل ما يقدرّون عليه. وقبل أيام قليلة كان أحد الإخوان الموحدين، واقفاً أمام دكان فقال صاحب الدكان: يا مولاي إدريس، فقال له الموحّد: قل يا الله، فإن المخلوق لا ينفع ولا يضر، فاستمع صاحب الدكان لقول الحق واعترف به.

وكان هناك سادن يعيش على النذور التي تقدم للأوثان، فغضب على الموحّد غضباً شديداً، وقال: كيف تسب مولاي إدريس؟ فقال: أنا ما سببته، ولكن أنكرت الاستغاثة به، وأخذ يصيح لتجتمع الناس، ظانّاً أنهم إذا اجتمعوا سينصرونه، فاجتمعوا ولكنهم لم ينصروه بل نصروا الموحّد على السادن. ومدينة مكناس هذه كانت قبل خمس عشرة سنة، هي مركز الشرك والبدع، ولكن الله الكريم بارك في دعوتي التي بدأتها وحدي، فاستجاب إليها كثير من الناس، فأينما ذهبت في أنحاء المدينة تجد أنصار التوحيد، إخوان من وحد الله، ولا تزال دعوة التوحيد تنتشر وتنتصر يوماً بعد يوم، اللهم زدنا ولا تنقصنا، وأعطنا ولا تحرمنا، وأكرمنا ولا تهنا، وأثرنا ولا تؤثر علينا، فلك الحمد ولك الشكر. اهـ.

فائدة خامسة: قول النبي ﷺ لمشيخة قريش^(١): «أفلا أدعوهم إلى ما هو

= قتله، وهي حادثة مشهورة، أخرجها أحمد في «مسنده» (٣٤٨/١) ٢٧٩/٢ - «الفتح الرباني»، والحاكم في «المستدرک» (٤/٣)، وابن جرير في «التاريخ» (٣٧٢/٢)، وأبو نعيم في «الدلائل» (ص ٦٤)، وعبد الرزاق في «المصنف» (٣٨٩/٥)، والطبراني كما في «المجمع» (٥٢/٦ - ٥٣)، والبزار في «المسند» (٢٩٩/٢) - ٣٠٠/٢ رقم ١٧٤١ - «زوائد»، وعبد بن حميد وابن المنذر وابن مردويه؛ كما في «فتح القدير» (٣٠٤/٢)، والبيهقي في «الدلائل» (٤٧٣/٢) بأسانيد وألفاظ مختلفة، فيها القصة المذكورة. وحسن بعض طرقها ابن حجر في «الفتح» (٢٣٦/٧)، وابن كثير في «السيرة» (٢٣٩/٢). (١) في القصة المتقدمة قريباً، وهناك تخريجها.

خير لهم؟ أَدْعُوهُمْ إِلَى كَلِمَةٍ تَدِينُ لَهُمْ بِهَا الْعَرَبُ، وَيَمْلِكُونَ بِهَا الْعَجَمُ، قَالَ: وَهِيَ: أَنْ تَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»، وَلَمْ يَقْصِدِ النَّبِيُّ ﷺ مَجْرَدَ التَّلْفِظِ بِهَا، انْظُرْ: (الباب الثاني) مِنْ (سُورَةِ الصَّافَّاتِ)، بَلْ أَرَادَ مِنْهُمْ، أَنْ يَقُولُوا بِأَلْسِنَتِهِمْ، وَيَعْتَقِدُوا مَعْنَاهَا بِقُلُوبِهِمْ، وَيَعْمَلُوا بِهَا بِكُلِّ جَوَارِحِهِمْ، وَهَذِهِ الْكَلِمَةُ الْمُبَارَكَةُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ تَحَقَّقْ بِهَا مَا قَالَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَدَانَتْ الْعَرَبُ لِقَرِيشَ، وَمَلَكُوا بِهَا الْعَجَمَ. وَسَرَهَا لَا يَزَالُ فِيهَا كَمَا كَانَ، فَكُلُّ مَنْ أَخَذَهَا بِصَدَقٍ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ مَلِكُ الْعَالَمِ، وَهَؤُلَاءِ الْعَرَبُ الَّذِينَ يَتَخَبَطُونَ فِي مُحَنَتِهِمُ الْحَاضِرَةَ، وَيَبْحَثُونَ عَنْ حُلٍّ لِمَشْكَلَتِهِمْ وَغَسَلَ الْعَارَ عَنْهُمْ، دَوَاؤُهُمْ حَاضِرٌ فِي غَايَةِ السَّهُولَةِ، وَهُوَ فِي أَيْدِيهِمْ، وَلَا يَحْتَاجُونَ أَنْ يَسَافِرُوا إِلَى (مُوسْكُو) وَلَا (بَكِينِ) وَلَا (وَأَشْنَطِنِ) وَلَا (بَارِيسِ) وَلَا (لَنْدُنِ) وَإِنَّمَا يَقُولُونَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ؛ وَيَعْتَقِدُونَ مَعْنَاهُمَا، وَيَعْمَلُونَ بِمُقْتَضَاهُمَا، فَيَمْلِكُونَ الْعَالَمَ مَرَّةً أُخْرَى، وَبِدُونِ هَذَا الْحُلِّ الَّذِي هُوَ بِلِسْمِ الشِّفَاءِ الْوَحِيدِ، سَيَبْقَوْنَ يَتَنَوَّنُونَ مِنْ مَرَضِهِمُ الْعُضَالِ إِلَى الْأَبَدِ. وَمَا أَحْسَنَ مَا قَالَ الشَّاعِرُ، وَهُوَ مَنْطِقٌ عَلَيْهِمْ أَتَمَّ انْطِبَاقُ:

وَمِنَ الْعَجَائِبِ وَالْعَجَائِبُ جَمَّةٌ قُرْبُ الْحَبِيبِ وَمَا إِلَيْهِ سَبِيلُ
كَالْعَيْسِ فِي الْبِيدَاءِ يَقْتُلُهَا الظَّمَا وَالْمَاءُ فَوْقَ ظَهْوَرِهَا مَحْمُولٌ^(١)

(١) انظر تخميساً جيداً له في: «حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر» (١٣٠٨/٣).

سُورَةُ الزُّمَرِ

الباب الأول

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾
 إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ
 الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا
 لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ
 اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾﴾ [الزمر: ١ - ٣]

قال (ك): «يخبر تعالى أن تنزيل هذا الكتاب، وهو: القرآن العظيم، من عنده تبارك وتعالى، فهو الحق الذي لا مرية فيه ولا شك، كما قال ﷻ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُ لَنَزَّلَ رَبِّي الْعَلَمِينَ ﴿١٩٦﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٧﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٨﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿١٩٩﴾﴾ [الشعراء: ١٩٢ - ١٩٥] وقال تبارك وتعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُ لَكُنْتُ عَزِيزًا لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٢٠١﴾﴾ [فصلت: ٤١ - ٤٢] وقال: جل وعلا ههنا: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ﴾ أي: المنيع الجنب، ﴿الْحَكِيمِ﴾ أي: في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴿٢﴾﴾ أي: فاعبد الله وحده لا شريك له وادع الخلق إلى ذلك وأعلمهم أنه لا تصلح العبادة إلا له [وحده]^(١)، وأنه ليس له شريك ولا عديل ولا نديد، ولهذا قال تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ أي: لا يقبل من العمل إلا ما أخلص فيه العامل لله وحده لا شريك له، ثم أخبر ﷻ عن عبادة الأصنام من المشركين، أنهم يقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾، أي: إنما يحملهم على عبادتهم لهم؛ أنهم عمدوا إلى أصنام اتخذوها على صور

(١) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».

الملائكة المقربين في زعمهم، فعبدوا تلك الصور، تنزيلاً لذلك منزلة عبادتهم الملائكة، ليشفعوا لهم عند الله تعالى في نصرهم ورزقهم، وما ينوبهم من أمور^(١) الدنيا، فأما المعاد فكانوا جاحدين له، كافرين به، قال زيد بن أسلم وغيره: ﴿إِلَّا لِيُقْرِبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ أي: ليشفعوا لنا ويقربونا عنده منزلة^(٢)، ولهذا كانوا يقولون في تلبيتهم إذا حجوا في جاهليتهم: «ليك لا شريك لك، إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك»^(٣)، وهذه الشبهة هي التي اعتمدها المشركون في قديم الدهر وحديثه، وجاءتهم الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين بردها، والنهي عنها، والدعوة إلى إفرااد العبادة لله وحده لا شريك له، وأن هذا الشيء^(٤) اخترعه المشركون من عند أنفسهم، لم يأذن الله فيه، ولا رضي به، بل أبغضه ونهى عنه، ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦] ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥] وأخبر أن الملائكة الذين^(٥) في السموات من الملائكة المقربين، وغيرهم كلهم عبيد خاضعون لله لا يشفعون عنده إلا بإذنه لمن ارتضى، وليسوا عنده كالأمراء عند ملوكهم، يشفعون عندهم بغير إذنهم فيما أحبه الملوك وأبوه، ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ تعالى الله عن ذلك [علواً كبيراً]^(٦)، وقوله ﷻ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾^(٧) يوم القيامة ﴿فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أي: سيفصل بين الخلائق يوم معادهم، ويجزي كل عامل بعمله، ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهْمُولَاءُ إِنَّا كُنَّا عِبَادُونَ ﴿٤٥﴾﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ آلَ حِثٍّ أَكْثَرَهُمْ مُؤْمِنُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [سبأ: ٤٥، ٤٦] وقوله ﷻ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَذِبٌ كَفَّارٌ﴾ أي: لا يرشد إلى الهداية من قصده الكذب والافتراء على الله تعالى، وقلبه كافر^(٨) بآياته وحججه^(٩) وبراهينه^(١٠).

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أمر».

(٢) أخرج مقولة زيد: ابن جرير (١٥٨/٢٠)، وانظر: «البحر المحيط» (٤١٥/٧)، و«الدر المنثور» (٦٣٢/١٢ - ٦٣٣، ط. هجر).

(٣) سبق تخريجه. (٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «شيء».

(٥) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «التي». (٦) سقطت من مطبوع «تفسير ابن كثير».

(٧) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أي:».

(٨) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «كفار». (٩) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «يجحد بآياته».

(١٠) انظر: «تفسير ابن كثير» (١١١/١٢ - ١١٢).

فصل

قال محمد تقي الدين: فائدة: لم يكن عند المشركين من العرب شك في أن الله هو الخالق والرازق المحيي المميت، المعطي المانع الخافض الرافع المتصرف في السموات والأرض، وهذا توحيد الربوبية، وإنما كانوا يشركون بالله في توحيد الألوهية؛ باتخاذهم وسائط شفعاء تقربهم إلى الله، وتقضي حاجاتهم عند الله، فأخبرهم الله تعالى أن ذلك العمل الذي يعملونه لأولئك الشفعاء، من ذبح ونذر ودعاء واستغاثة وخوف ورجاء، وهو كذب وكفر شديد، يستوجب ضلالهم وخسرانهم، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾، وإنما ينال ما عند الله من خيري الدنيا والآخرة، بعبادته وحده لا شريك له، والكفر بكل معبود سواه، والتبرؤ من عبادته، والتوفيق بيد الله. اهـ.

﴿الباب الثاني﴾

قوله تعالى: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَانزَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْتَعِمِ ثَمِينَةً أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَآفَى تُصَرِّفُونَ﴾ [الزمر: ٦]

قال (ك): «يخبر تعالى أنه الخالق لما في السموات والأرض وما بين ذلك من الأشياء، وبأنه^(١) مالك الملك، المتصرف فيه، يقبّل ليله ونهاره، ﴿يَكْوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيَكْوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾ أي: سخرهما بجريان متعاقبين لا يقرآن^(٢)، كل منهما يطلب الآخر طلباً حثيثاً، وقوله ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى﴾ أي: إلى مدة معلومة عند الله تعالى، ثم تنقضي يوم^(٣) القيامة ﴿أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْفَعْلُ﴾ أي: مع عزته وعظمته وكبريائه هو غفار لمن عصاه ثم تاب وأنااب إليه وقوله [جلت عظمته]^(٤): ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ أي: خلقكم مع اختلاف

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وأنه».

(٢) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «يفترقان»!

(٣) في بعض نسخ «تفسير ابن كثير»: «يوم» ولعلها أصوب، فتأمل.

(٤) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».

أجناسكم وأصنافكم وألسنتكم، وألوانكم من نفس واحدة هو آدم عليه الصلاة والسلام: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا مِنْهَا رَوْحَهَا﴾ وهي حواء عليها^(١) السلام، وقوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمِينَةَ أَرْوَاحٍ﴾ أي: وخلق لكم من ظهور^(٢) الأنعام ﴿ثَمِينَةَ أَرْوَاحٍ﴾، وهي المذكورة في سورة الأنعام ﴿ثَمِينَةَ أَرْوَاحٍ يَرْبِ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَيَرْبِ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ... وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ﴾، وقوله ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ أي: قدركم في بطون أمهاتكم، ﴿خَلَقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ﴾^(٣) يكون أحدكم أولاً نطفة، ثم يكون علقة، ثم يكون مضغة، ثم يخلق فيكون لحماً وعظماً، وعصباً وعروقاً، وينفخ فيه الروح فيصير خلقاً آخر، ﴿مَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾، وقوله جل وعلا: ﴿ظَلَمْتُمْ ثُلُثًا﴾ يعني: [في]^(٤) ظلمة الرحم وظلمة المشيمة التي هي كالغشاوة والوقاية على الولد وظلمة البطن، كذا قال ابن عباس^(٥) وغيره. وقوله جل وعلا: ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ أي: هذا الذي خلق السموات والأرض وما بينهما، وخلقكم وخلق آباءكم، هو الرب له الملك والتصرف في جميع ذلك: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾^(٦) أي: الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده [لا شريك له]^(٧) ﴿فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ أي: فكيف تعبدون معه غيره، أين يذهب بعقولكم^(٨).

فصل

قال محمد تقي الدين: فائدة: جمعت هذه الآية بين توحيد الربوبية وتوحيد العبادة، وقوله تعالى: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ قد يقول متفلسف معتوه: كيف

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «عليهما».

(٢) من مطبوع «تفسير ابن كثير» وبديلها بياض في الأصل!

(٣) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أي:».

(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «هو».

(٥) أخرجه ابن جرير (١٦٦/٢٠)، وابن أبي حاتم (٣٢٤٨/١٠) بسند ضعيف، وينحوه ثابت عن عكرمة، كما في «تفسير الثوري» (ص ٢٦٢)، وابن جرير (١٦٥/٢٠)، (١٦٦)، ومجاهد في «تفسيره» (٥٧٧)، والسدي الكبير، كما في «تفسيره» (٤١٦) - جمع عطا محمد يوسف) وفتادة، كما عند عبد الرزاق في «تفسيره» (١٧١/٢)، وانظر: «الدر المنثور» (٣٢٢/٥).

(٦) في الأصل: «إلا الله»، والمثبت ما في القرآن الكريم.

(٧) غير موجودة في مطبوع «تفسير ابن كثير».

(٨) انظر: «تفسير ابن كثير» (١١٣/١٢ - ١١٤).

يكون أجناس بني آدم مع اختلاف ألوانهم وملامحهم وصور خلقهم المتباينة؟ فكلهم من رجل واحد، وامرأة واحدة، هذا أمر يستبعده العقل، فنقول له: على رسلك! إنك لم تؤت من العلم إلا قليلاً، أو لم تؤت شيئاً، فأنت مثل الفرخ الذي فقس عنه البيضة، ففتح عينيه فلم ير إلا العُشَّ الذي هو فيه، وهو مصنوع من ليف، فاعتقد أنه لا يوجد في الدنيا إلا هو وأمه والعش، ثم فتح عينيه أكثر فرأى أوراق الشجرة التي فيها العش، فاطلع على شيء آخر لم يكن يعرفه، وهو أوراق الشجرة، ولما صار له جناحان، وطار في السماء ورأى الشمس والقمر والنجوم والبحر والبر والحيوان والإنسان والجبال، وغير ذلك تبين له أنه كان على جهل عظيم عندما فتح عينيه لأول مرة. وليعلم أن الله سبحانه وتعالى أظهر في هذا الزمان آية عظيمة تدل على وحدة الإنسان، وأن أجناسه ترجع إلى أصل واحد، وذلك أن العلماء وجدوا أن دماء البشر تنقسم إلى فصائل فإذا احتاج إنكليزي مثلاً بسبب نزيف دموي وكان معه جماعة من أبناء جنسه وجماعة من الزنوج السود، وجماعة من الصينيين الصفر، وجماعة من سكان أمريكا الأصليين الحمر، وجماعة من أهل الهند السمر، فإن الدم الذي يناسب فصيلة دمه، ويمكن تعويض جسمه لما خسر منه، قد يكون في جسم زنجي أو صيني، أو غيرهما، ولا يوجد في أبناء جنسه الإنكليز، فهذه الفصائل الدموية لا تعرف لوناً ولا جنساً، وهي متفرقة في جميع بني آدم، فتبارك الله أحسن الخالقين.

وَقُلْ لِمَنْ يَدَّعِي بِالْعِلْمِ مَعْرِفَةً عَلِمْتَ شَيْئاً وَغَابَتْ عَنْكَ أَشْيَاءُ^(١)

﴿الباب الثالث﴾

قوله تعالى ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ [الزمر: ٨]

قال (ك): «وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ» أي: عند الحاجة [يتضرع]^(٢) ويستغيث بالله وحده لا شريك له، «ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا

(١) البيت لأبي نواس، وهو في «ديوانه»، وفيه: «في العلم فلسفة»، و«حفظت» بدل «علمت».

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «يضرع».

كَانَ يَدْعُوا إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ: أَي: في حال الرفاهية ينسى ذلك الدعاء والتضرع، كما قال جل جلاله، ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرِّ مَسَّهُ﴾ [يونس: ١٢] وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِّيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ أَي: في حالة العافية يشرك بالله ويجعل أنداداً ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ أَي: قل لمن هذه حالته ^(١) وطريقته ومسلكه، ﴿تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا﴾، وهو ^(٢) تهديد ووعيد أكيد، كقول تعالى: ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ [إبراهيم: ٣٠] ^(٣).

فصل: فائدة

قال محمد تقي الدين: تقدم في مواضع أن شرك المشركين في هذا الزمان، أغلظ بكثير من شرك المشركين في زمان النبي ^(٤) ﷺ، مع أن أولئك لم يكن عندهم كتاب منزل محفوظ، ولا سنة نبي مدونة، وإنما كان عندهم بقية قليلة من دين إبراهيم وإسماعيل، وهؤلاء عندهم كتاب الله مصون في المصاحف محفوظة في الصدور، مبين بالتفسير، وعندهم سنة النبي سيد المرسلين مدونة مبينة، ومع ذلك بلغوا إلى هذا الدرك الأسفل من الشرك، ونبذوا كتاب الله وسنة رسوله وراء ظهورهم، واستعاضوا عنها أساطير المتأخرين، فنحمد الله على العافية.

الباب الرابع

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ۚ﴾ (١١) وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ (١٢) قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٣) قُلِ اللَّهُ أَعْبُدُوا مُخْلِصًا لَهُ دِينِي (١٤) فَأَعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (١٥) لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهَ بِهِ عِبَادَهُ

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «حالته». (٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وهذا».

(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (١١٥/١٢).

(٤) سبق نقلنا ذلك عن المنفلوطي، انظر التعليق على (٦٧).

يَعْبَادِ فَاتَّقُونِ ﴿٢٦﴾ وَالَّذِينَ أَحْتَبُوا الظَّلُومَاتِ أَنْ يَبْذُوهَا وَانَابُوا إِلَى اللَّهِ هُمْ
الْبَشَرِيُّ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿٢٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ
الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿٢٨﴾ [الزمر: ١١ - ١٨]

قال (ك): «وقوله: ﴿إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ﴾ أي: إنما أمرت
بإخلاص العبادة لله وحده لا شريك له، ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ﴾ قال
السدي: يعني من أمته ﷺ».

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ ﴿٢٦﴾ إلى قوله:
﴿يَعْبَادِ فَاتَّقُونِ﴾.

قال (ك): «يقول تعالى: قل يا محمد، وأنت رسول الله: ﴿إِنِّي أَخَافُ إِنْ
عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ وهو يوم القيامة، وهذا شرط، ومعناه التعريض
بغيره بطريق الأولى والأخرى، ﴿قُلْ اللَّهُ أَعْبُدْ مُخْلِصًا لِّهِ دِينِي﴾ ﴿٢٦﴾ فاعبدوا ما شئتم مِن
دُونِهِ ﴿٢٧﴾ وهذا أيضاً تهديد وتبرؤ منهم، ﴿قُلْ إِنَّا لِلْخَسِرِينَ﴾ أي: إنما الخاسرون كل
الخسيران ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ أي: تفارقوا فلا التقاء لهم أبداً
سواء ذهب أهلوه إلى الجنة، وقد ذهبوا^(١) إلى النار، أو أن الجميع أسكنوا
النار، ولكن لا اجتماع لهم ولا سرور، ﴿أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخَسِرَانِ الْبُيِّنُ﴾ أي: هذا
هو ﴿الْخَسِرَانِ الْبُيِّنُ﴾^(٢) الظاهر الواضح، ثم وصف حالهم في النار فقال: ﴿لَهُمْ
مِنْ قُوهِمْ ظُلُلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِمْ ظُلُلٌ﴾ وقوله: جل جلاله: ﴿ذَلِكَ يَخَوْفُ اللَّهُ بِهِ
عِبَادَهُ﴾ أي: إنما يقص خبر هذا الكائن لا محالة ليخوف به عباده، ليزجروا عن
المحارم والمآثم، وقوله تعالى: ﴿يَعْبَادِ فَاتَّقُونِ﴾ أي: اخشوا بأسى وسطوتي
وعذابي ونقمتي».

قال (ك): «﴿وَالَّذِينَ أَحْتَبُوا الظَّلُومَاتِ أَنْ يَبْذُوهَا﴾ فهو لاء هم الذين ﴿لَهُمُ الْبَشَرِيُّ
فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [يونس: ٦٤]، ثم قال ﷻ: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ
الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ أي: يفهمونه ويعملون بما فيه كقوله تبارك وتعالى لموسى
- عليه الصلاة والسلام - حين أتاه التوراة ﴿فَخُذْهَا يَقْوَةٌ وَأَمْرٌ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾
[الأعراف: ١٤٥]. ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ﴾ أي: المتصفون بهذه الصفة هم الذين

(١) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «هم».

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الخسار البين».

هداهم الله في الدنيا والآخرة، ﴿وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ أي: ذوو العقول الصحيحة والفطر السليمة^(١)،^(٢).

فصل: فائدة:

قال محمد تقي الدين: الموحّدون الله تعالى المتبعون لرسل الله في كل زمان ومكان ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [يونس: ٦٤]، وهم أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، وهم الذين هداهم الله، وهم أصحاب العقول الصحيحة، ومن خالف طريقهم، فلا بشرى له ولا هدى ولا عقل، نسأل الله أن يجعلنا من الذين اجتنبوا الطاغوت وأنابوا إلى الله. اهـ.

الباب الخامس

قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ (٢٤) كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْتَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (٢٥) فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٢٦) وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَنْذَكُرُونَ (٢٧) قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٢٨) ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٢٩) [الزمر: ٢٤ - ٢٩]

قال صاحب «جامع البيان»^(٣): ﴿أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ﴾، شدته يوم القيامة، ظرف ليتقي، وخبره محذوف، أي: كمن يأتي آمناً يوم القيامة، والإنسان إذا لقي مخوفاً استقبله بيده، يقي بها وجهه، الذي هو أعز أعضائه، والكافر المغلول لا يتهياً له أن يتقي النار إلا بوجهه.

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «المستقيمة».

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٢/ ١١٨ - ١١٩).

(٣) صاحبه معين الدين الصفدي محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الحسيني (٨٣٢ - ٩٠٥هـ)، طبع في الهند مطبعة فاروقي سنة ١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م، عن دار نشر الكتب الإسلامية، بتحقيق منير أحمد، انظر: «معجم المطبوعات العربية في شبه القارة الهندية الباكستانية» (ص ٤٨ - ٤٩)، ثم نشر عن دار الكتب العلمية، والمزبور فيه (٣/ ٥٠١).

قال (ك): «ويقرع فيقال له ولأمثاله من الظالمين: ﴿ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾، وقوله جلت عظمته: ﴿كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَاَنذَرْتَهُمُ الْعَذَابَ مِن حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (٢٥)؛ يعني: القرون الماضية المكذبة للرسول أهلكتهم الله بذنوبهم، وما كان لهم من العذاب والنكال، وتشقى المؤمنين منهم، فليحذر المخاطبون من ذلك، فإنهم قد كذبوا أشرف الرسل وخاتم الأنبياء ﷺ، والذي أعده الله جل جلاله لهم في الآخرة من العذاب الشديد أعظم مما أصابهم في الدنيا؛ ولهذا قال ﷻ: ﴿وَلَعَلَّآ الْآخِرَةُ أَكْبَرُ لَوْ كَأَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ وقوله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾».

قال (ك): «يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ أي: بينا للناس فيه بضرب الأمثال ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾، فإن المثل يقرب المعنى إلى الأذهان^(١) ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾ أي: هو قرآن بلسان عربي مبين، لا اعوجاج فيه، ولا انحراف، ولا لبس؛ بل هو بيان ووضوح وبرهان، وإنما جعله الله تعالى كذلك^(٢) وأنزله بذلك ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾، أي: يحذرون ما فيه من الوعيد، ويعملون^(٣) بما فيه من الوعد، ثم قال: ﴿صَرَفَ اللَّهُ مَثَلًا لِّرَجُلٍ فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ﴾ أي: يتنازعون في ذلك العبد المشترك بينهم، ﴿وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ﴾، أي: سالماً^(٤) لرجل، [أي: خالصاً]^(٥) لا يملكه أحد غيره، ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ أي: لا يستوي هذا وهذا، كذلك لا يستوي المشرك الذي يعبد آلهة مع الله والمؤمن المخلص الذي لا يعبد إلا الله وحده لا شريك له، فأين هذا من هذا؟ قال ابن عباس وغيره: «هذه الآية ضربت مثلاً للمشرك والمخلص»^(٦). ولما كان هذا المثل ظاهراً بيناً جلياً قال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أي: على إقامة الحجة عليهم، ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: فلماذا يشركون بالله؟»^(٧).

(١) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وقوله».

(٢) من مطبوع «تفسير ابن كثير» وسقطت من الأصل.

(٣) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «ويعلمون».

(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «خالصاً».

(٥) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».

(٦) أخرجه بنحوه ابن جرير (١٩٨/٢٠)، وابن أبي حاتم (٢٢٩٢/٧ - ٢٢٩٣)، وينظر:

«الدر المثور» (١٤٩/٥).

(٧) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٢٦/١٢). ولابن القيم في «المدارج» (١/٢٤٠)، وفي «مفتاح =

فصل

قال محمد تقي الدين: فائدة: قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَتَّبِعِ بَوَّجَهُ سَوْءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ معناه: يلقي سوء العذاب بوجهه لا يستطيع أن يتقيه بيديه، لأن يديه مغلولتان إلى عنقه، وهو في هذه الحال؛ يُوَّخَّ فيقال له ولأمثاله من المشركين: ﴿ذُوقُوا﴾ جزاء ﴿مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ من الشرك بالله، والاعتداء على خلق الله، كيف يستوي من هذه حاله مع من يجيء آمناً قد بشر برضوان الله تعالى وكرامته؟ وقوله تعالى: ﴿فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا...﴾ إلى آخره، كل أمة قامت عليها حجة الله بإرسال رسول ونزول كتاب فنبتت كتاب الله وراء ظهورها، وعصت رسوله، يذيقها الله الخزي في الحياة الدنيا، وما أعد الله لها من العذاب في الآخرة أعظم مما يصيبها في الدنيا.

فائدة ثانية: ما أبلغ هذا المثل الذي ضرب الله للمشركين والموحدين، فالمشركون في هذا الزمان يعبدون كل من يسمى ولياً في اصطلاحهم، وعلامته أن تبنى عليه قبة ويقصده المشركون لقضاء حاجاتهم، ويتزلفون له بالذبح والنذر والتمسح بتابوت قبره، والخضوع له والاستغاثة به، والشكوى إليه، وهؤلاء الأولياء مبثوثون في كل مكان، والمشرك يخافهم ويرجوهم، ويكون قلبه موزعاً بينهم يحاول أن يرضيهم جميعاً ويخاف غضبهم، وذلك عذاب مُعَجَّل. أما الموحّد فإنه لا يعبأ بوجودهم، فهو آمن مطمئن أنهم لا ينفعون ولا يضرّون، ولا يملكون مثقال ذرة، فيكون خوفه ورجاؤه كله لله، قائلاً: ﴿لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ٥١].

﴿الباب السادس﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٦) وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ (٣٧) وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ

يُضَرِّ هَلْ هُنَّ كَانَتْ ضَرِيَّةٌ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُسِكَتٌ
رَحْمَتِي قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ [الزمر: ٣٦ - ٣٨]

قال (١): «يقول تعالى: ﴿الَّذِينَ اللَّهُ يَكْفِي عَذْمَهُ﴾ وقرأ بعضهم^(١):
(عباده)، يعني أنه تعالى يكفي من عبده وتوكل عليه، وقال الترمذي بسنده
وصححه عن فضالة بن عبيد الأنصاري: «أنه سمع رسول الله ﷺ، يقول: «الفلح
من هدي إلى الإسلام، وكان عيشه كفافاً وقنع به»^(٢). ﴿وَتَتَوَكَّلْ بِالَّذِينَ مِنْ
دُونِهِ﴾؛ يعني: المشركين يخوقون الرسول ﷺ ويتوعدونه بالكهتهم^(٣) التي
يدعونها^(٤) من دون الله جهلاً منهم، وضلالاً، ولهذا قال ﷺ: «وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهَ
فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ ﴿٣٩﴾»
أي: منيع الجنب لا يضام من استند إلى جنبه، ولجأ إلى بابه، فإنه العزيز الذي
لا أعز منه، ولا أشد انتقاماً منه ممن كفر به، وأشرك وعاند رسوله ﷺ، وقوله
تعالى: «وَلَنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ»؛ يعني: المشركين،
كانوا يعترفون بأن الله ﷻ هو الخالق للأشياء كلها، ومع هذا يعبدون معه غيره
مما^(٥) لا يملك لهم ضرراً ولا نفعاً، ولهذا قال تعالى: «قُلْ أَقْرَبُكُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ
دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّيهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ

(١) هذه قراءة أبي جعفر ومجاهد وابن وثاب وطلحة وخلف والأعمش وحمزة والكسائي
والسلمي وشيبة. انظر: «البحر المحيط» (٤٢٩/٧)، «حجة القراءات» (٦٢٢)، «السبعة»
(٥٦٢)، «تفسير الكشاف» (٣٣/٣)، «تفسير ابن عطية» (٥٣٩/١٢)، «الدر المصون» (٦/
١٦)، «تفسير الألوسي» (٤/٢٤).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٣٤٩)، وابن حبان (٢٥٤١)، وابن المبارك في الزهد (٥٥٣)،
والحاكم (١٢٢/٤) وصححه، وقال شيخنا الألباني في «الصحيحة» رقم (١٥٠٦) عن
تصحيح الحاكم وموافقة الذهبي له: «وهو كما قال».

وأخرج مسلم (١٠٥٣)، والترمذي (٢٣٤٨)، وأحمد (١٦٨/٢)، والفسوي (٥٢٣/٢)،
والبيهقي (١٩٦/٤)، وأبو نعيم (١٢٩/٦) من حديث عبد الله بن عمرو رفعه: «قد أفلح
من أسلم، ورزق كفافاً [فصبر عليه]، وقنعه الله بما آناه». وورد في الكفاف ومعناه
أحاديث كثيرة، ذكرت طرفاً منها في تعليقي على «السر المكتوم في الفرق بين المالين
المحمود والمذموم» للسخاوي (ص ١١٩ - ١٢١).

(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «بأصنامهم وألهتهم».

(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «يعبدونها».

(٥) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «ممن».

مُتَمِّسِكْتُ رَحْمَتِهِ» أي: لا تستطيع شيئاً من الأمر^(١).

وقال صاحب «جامع البيان»: «وهذا بيان أنها لا تنفع ولا تضر، فلا خوف منها.

﴿قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾:

قال (ك): «أي: الله كافي» ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [يوسف: ٦٧]، كما قال هود عليه الصلاة والسلام حين قال له^(٢) قومه: ﴿إِنْ تَقُولُ إِلَّا أَعْتَرَيْكَ بِعَصِ الْهَيْتِنَا يَسُوهُ قَالَ إِنْ تَشْهَدُوا اللَّهَ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ ﴿٥٤﴾ مِنْ دُونِهِ فَكَيْدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ﴾ ﴿٥٥﴾ إِنْ تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَزَقْنِي وَبَرَئْتُ مِمَّا دَابَّتْ إِلَّا هُوَ أَخَذُ يُنَاصِبُهَا إِنْ رَزَقَنِي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ ﴿٥٦﴾ [هود: ٥٤ - ٥٦] وقال ابن أبي حاتم بسنده^(٣) عن ابن عباس رضي الله عنه رفع الحديث إلى رسول الله ﷺ: قال: «من أحب أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله تعالى، ومن أحب أن يكون أغنى الناس، فليكن بما في يد الله ﷻ أوثق منه بما في يديه، ومن أحب أن يكون أكرم على الله فليتنق الله ﷻ»^(٤).

فصل

قال محمد تقي الدين: فائدة: كل من آمن بأن الله كافٍ عباده وأنه لا شريك له ولا معين له، لا بد أن يكتفي به، ولا يسأل غيره شيئاً مما لا يقدر عليه إلا الله، كإنزال المطر، وهداية القلوب، وإعطاء المرأة العقيم أولاداً، وتوسيع الرزق، وشفاء المرضى، إلى غير ذلك، ومن عادة المشركين في كل زمان ومكان، إذا رأوا موحداً لا يؤمن بآلهتهم التي يسمونها أولياء، أن يخوفوه من انتقام تلك الآلهة فإذا رأوا آلهتهم عاجزة أن تصيبه بضر عمدوا إلى إعانتها فأذوه، ولكن الله ينصره عليهم، ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ اهـ.

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٢/١٣١).

(٢) من مطبوع «تفسير ابن كثير» وسقطت من الأصل!

(٣) هو قطعة من حديث، أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠/٣٢٥٢)، وعبد بن حميد في «المنتخب» (٦٧٥)، وإسناده ضعيف جداً، فيه هشام بن زياد أبو المقدم متروك.

وأخرجه مختصراً (طرفاً منه) دون موطن الشاهد: أبو داود (٦٩٤) وطريقاً آخر برقم (١٤٨٥)، وبعضه عند ابن ماجه (٩٥٩، ١١٨١، ٣٨٦٦)، وأعله أبو داود، وضعفه الخطابي، وانظر: «عون المعبود» (٢/٣٨٧)، و«النكت الظراف» لابن حجر.

(٤) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٢/١٣٢).

﴿الباب السابع﴾

قوله تعالى: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أُولَئِكَ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا لَمْ يَمْلِكْ أَلْسِنَاتُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾ قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَلِيمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [النور: ٤٣ - ٤٦]

قال (ك): «يقول تعالى: ذاماً للمشركين في اتخاذهم شفعاء من دون الله، وهم: الأصنام والأنداد التي اتخذوها من تلقاء أنفسهم بلا دليل ولا برهان حداهم على ذلك، وهي لا تملك شيئاً من الأمر، بل وليس لها عقل تعقل به، ولا سمع تسمع به، ولا بصر تبصر به، بل هي جمادات أسوأ حالاً من الحيوان بكثير» قال: «﴿قُلْ﴾ أي: يا محمد لهؤلاء الزاعمين أن ما اتخذوه شفعاء لهم عند الله تعالى، أخبرهم أن الشفاعة لا تنفع عند الله إلا لمن ارتضاه وأذن له فمرجعها كلها إليه، ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥] ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: هو المتصرف في جميع ذلك ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي: يوم القيامة، فيحكم بينكم بعدله، ويجزي كلاً بعمله، ثم قال تعالى: ذاماً للمشركين أيضاً، ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ﴾ أي: إذا قيل: لا إله إلا الله، ﴿اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾، قال مجاهد: ﴿اشْمَأَزَّتْ﴾ انقبضت^(١)، ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ أي: من الأنداد والأصنام^(٢) قاله مجاهد^(٣) ﴿إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ أي: يفرحون ويسرون، ﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَلِيمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾﴾ يقول تبارك وتعالى بعد ما ذكر عن المشركين ما ذكر من المذمة لهم في حبه

(١) أخرجه ابن جرير (٢٠/٢١٩)، وعبد بن حميد وابن المنذر، كما في «الدر المنثور» (١٢/٦٦٨، ط. هجر) وهو في «تفسير مجاهد» (٥٧٩).

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الأصنام والأنداد».

(٣) وغيره، انظر: «تفسير عبد الرزاق» (٢/١٧٤)، و«تفسير ابن جرير» (٢٠/٢١٨)، و«الدر المنثور» (١٢/٦٧٠، ط. هجر).

الشرك، ونفرتهم عن التوحيد: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَلَيَّ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ أي: ادع أنت الله وحده الذي خلق السموات والأرض وفطرها، أي: جعلها على غير مثال سبق، ﴿عَلَيْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ أي: السر والعلانية، ﴿أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أي: في دنياهم ستفصل بينهم ويوم معادهم ونشورهم وقيامهم من قبورهم، قال مسلم في «صحيحه»: عن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال: سألت عائشة رضي الله عنها: بأي شيء كان رسول الله ﷺ يَفْتَحُ صَلَاتَهُ إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ؟ قالت رضي الله عنها: كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل افتتح صلاته: «اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدنا لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم»^(١).

وقال الإمام أحمد بسنده، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: إن رسول الله ﷺ قال: «من قال: اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة إني أعهد إليك في هذه الدنيا أنني أشهد أن لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك، وأن محمداً عبدك ورسولك، فإنك إن تكلني إلى نفسي تقربني من الشرِّ، وتباعدني من الخير، وإني لا أثق إلا برحمتك فاجعل لي عندك عهداً توفينيهِ يوم القيامة، إنك لا تخلف الميعاد. إلا قال الله ﻻ لملائكته يوم القيامة: إن عبدي قد عهد إلي عهداً فأوفوه إياه، فيدخله الله الجنة»^(٢).

وقال الإمام أحمد بسنده^(٣): إن عبد الله بن عمرو أخرج قرطاساً، وقال: كان رسول الله ﷺ يعلمنا نقول: «اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت رب كل شيء، وإله كل شيء، أشهد أن لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك، وأن محمداً عبدك ورسولك، والملائكة يشهدون، أعوذ بك من الشيطان وشركه»^(٤)، وأعوذ بك أن أقترف على نفسي إثماً، أو أجره إلى مسلم.

(١) أخرجه مسلم (٧٧٠).

(٢) أخرجه أحمد (٤١٢/١) بسند رجاله ثقات، إلا أن عون بن عبد الله لم يسمع من ابن مسعود، وانظر: «مجمع الزوائد» (١٠/١٧٤).

(٣) أخرجه أحمد (١٧١/٢)، وعبد بن حميد في «المنتخب» (٣٣٨)، والترمذي (٣٥٢٩)، والحديث صحيح لغيره بشواهده، ففي الباب عن أبي بكر وأبي هريرة.

(٤) روي على وجهين: أظهرهما وأشهرهما: بكسر الشين مع إسكان الراء من (الإشراك)، =

قال أبو عبد الرحمن^(١) عليه السلام: كان رسول الله ﷺ يعلمه عبد الله بن عمرو رضي الله عنه أن يقول ذلك حين يريد أن ينام^(٢).

فصل

قال محمد تقي الدين: فائدة: قول الحافظ (ك) في الأصنام: «بل وليس لها عقل تعقل به؛ ولا سمع تسمع به، ولا بصر تبصر به، بل هي جمادات أسوأ حالاً من الحيوان بكثير».

إذا سئل عباد الأصنام والأوثان: لماذا تعبدون الأصنام وهي تماثيل صنعتموها بأيديكم؟ وإذا سئل عباد الأوثان: لماذا تعبدون هذه القبور وهذه التواييت والقباب وقد بنيتموها بأيديكم فأنتم صنّاعها فكيف يعبد الصانع صنعته؟ يقولون كلهم: نحن نعلم أنها جماد لا تضر ولا تنفع بذاتها، ولكن من نسبت إليهم وسميت بأسمائهم ينفعون ويضرون، هكذا يقول المتأخرون من المشركين، فيعترفون على أنفسهم بالشرك في الربوبية والعبادة معاً، أما المشركون الأولون فإنهم يقولون: نحن نعرف بأن الأصنام والأوثان لا تضر ولا تنفع، ومن نسبت إليهم لا يضرون ولا ينفعون، سواء أكانوا من الملائكة أم الأنبياء؛ أم من الصالحين، أم من الشياطين، ولكن إذا عبدناها تكون تكريماً وتشريفاً لمن نسبت إليهم، وسميت بأسمائهم، وهم يشفعون لنا عند الله، وقد نفى الله تعالى هذه الشفاعة وأخبر أنه هو وحده يملك الشفاعة ويهبها من شاء من عباده، ولكنه لا يهبها من عبد غير الله، أو رضي بعبادة غير الله.

فائدة ثانية: قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ...﴾ إلى آخره، ينطبق كل الانطباق على المشركين في هذا الزمان، لأنك إذا قلت لأحدهم: لا تستمد من شيخك، فإن الممد هو الله وحده، بالأرزاق الحسية والمعنوية، ولا تستغث بشيخك ولا غيره، بل ادع الله

= أي: ما يدعو إليه. ويوسوس به من الإشراك بالله تعالى. والثاني: شركه، بفتح الشين والراء، أي: حباثله ومصايد، واحدها: شركة، بفتح الشين والراء، وآخرها هاء، قاله النووي في «الأذكار» (٢٢١).

(١) أبو عبد الرحمن هذا ليس بصحابي، وإنما هو الحُبلي تابعي الحديث.

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٢/١٣٤ - ١٣٦).

مخلصاً له الدين، تشمئز نفسه، وأكثرهم يغضب غضباً شديداً، فيؤذي من قال له ذلك بالقول، وربما آذاه بالفعل.

فائدة ثالثة: قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾ إلى آخره، فسرہ النبي ﷺ أحسن تفسير، فنسأل الله تعالى أن يوفقنا إلى حفظ تلك الأدعية المحمدية، والابتهاال إلى الله تعالى بها.

﴿الباب الثامن﴾

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَّهُمْ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٦٣﴾ قُلْ أَفَعَيَّرَ اللَّهُ تَأْمُرُونَ أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ اللَّهُ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [الزمر: ٦٢ - ٦٦]

قال (ع): «يخبر تعالى أنه خالق الأشياء كلها وربها ومليكتها والمتصرف فيها، وكل تحت تدبيره وقهره وكلاءته. وقوله ﷻ: ﴿لَّهُمْ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ قال بعضهم هي: المفاتيح، وقال بعضهم: خزائن السموات والأرض، [والمعنى] (١) على كلا القولين: إن أزمة الأمور بيده تبارك وتعالى. ﴿لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ولهذا قال جل وعلا: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أي: حججه وبراهينه، ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ وقوله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ أَفَعَيَّرَ اللَّهُ تَأْمُرُونَ أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾ ذكروا في سبب نزولها: ما رواه ابن أبي حاتم وغيره عن ابن عباس رضيهما الله أن المشركين من جهلهم (٢) دعوا رسول الله ﷺ إلى عبادة آلهتهم ويعبدوا معه إلهه؛ فنزلت: ﴿أَفَعَيَّرَ اللَّهُ تَأْمُرُونَ أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾ ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (٣). وهذا كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحِطَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وقوله ﷻ:

(١) غير موجود في الأصل! وأثبتته من «تفسير ابن كثير».

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «بجهلهم».

(٣) عزاه السيوطي بنحوه إلى ابن مردويه.

﴿بَلِ اللَّهِ فَاَعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ (١٦) أي: أخلص العبادة لله وحده لا شريك له، أنت ومن اتبعك^(١) وصدقك^(٢). اهـ.

فصل

قال محمد تقي الدين: فائدة: هذه الآيات جمعت بين توحيد الربوبية وتوحيد العبادة، فقوله تعالى: ﴿اللَّهُ خَلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ إلى ﴿الْخَيْرُونَ﴾، دلت على توحيد الربوبية، وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِي...﴾ إلى آخره، دلت على توحيد العبادة، وقد وجه الخطاب للنبي ﷺ مع أنه معصوم من كل ذنب تعظيماً للأمر وتحذيراً للأمة من الشرك بالله الذي هو الذنب الأكبر، وقوله تعالى: ﴿بَلِ اللَّهِ فَاَعْبُدْ﴾ فيه تقديم المعمول الذي يفيد الحصر، فهو كقوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] وقوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَسْبُدُونَ﴾ [فصلت: ٢٧] وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ٢٠] إلى غير ذلك من الآيات. اهـ.

= فيه عننة المبارك بن فضالة، وأحمد بن عبد الجبار ضعيف.

(١) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أنت ومن معك».

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٤٦/١٢ - ١٤٧) بتصرف.

سُورَةُ غَافِرٍ

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادُونَ لِمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ﴾ (١١) قَالُوا رَبَّنَا آمَنَّا أَتَيْنَيْنِ وَأَحْيَيْنَا أَتَيْنَيْنِ فَأَعْرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ ﴿١٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تَوَمَّنُوا فَاْلْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ﴿١٣﴾ هُوَ الَّذِي يُرِيكُم آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ ﴿١٤﴾ فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿١٥﴾ [غافر: ١٠ - ١٤]

قال محمد تقي الدين: لم أجد تفسيراً يطابق ما أريده من السهولة على القراء والمستمعين، فسأفسر هذه الآيات الخمس بنفسني.

يقول تعالى مخبراً عن أحوال الكفار: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادُونَ﴾ يوم القيامة، ويقال لهم: إن بغض الله لكم حين دعيتم إلى الإيمان بالله وحده واتباع رسله أكبر من بغضكم لأنفسكم الآن وأنتم تذوقون العذاب، فيقولون: ﴿رَبَّنَا آمَنَّا أَتَيْنَيْنِ﴾ أي: إمامتين ﴿وَأَحْيَيْنَا أَتَيْنَيْنِ﴾ إحياءتين، فالإمامة الأولى حين كانوا نطقاً قبل أن ينفخ فيهم الروح، والإمامة الثانية عند انقضاء آجالهم، والإحياء الأولى عندما ينفخ الملك الروح في أجسادهم، وهم أجنة في بطون أمهاتهم، والإحياء الثانية عند البعث من القبور، وقد كانوا ينكرون الإحياء الثانية، فاعترفوا بها بعدما دخلوا جهنم، وقالوا: قد اعترفنا اليوم بما أنكرناه من قبل، فهل إلى الخروج من النار سبيل؟ فيكون الجواب: ذلكم العذاب الذي أنتم فيه بسبب أنكم كنتم في الدنيا ﴿إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ﴾ منفرداً بالربوبية والعبادة ونفي عنه الشريك ﴿كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ غيره ﴿تَوَمَّنُوا﴾، ﴿فَاْلْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾ وقد حكم عليكم بالخلود في النار.

قال (ك): «وقوله جل وعلا ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ﴾ أي: يظهر قدرته لخلقه بما يشاهدونه في خلقه العلوي والسفلي من الآيات العظيمة، الدالة على كمال خالقها ومبدعها ومنشئها، ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا﴾ وهو المطر الذي يخرج به من الزرع والثمار ما هو مشاهد بالحس من اختلاف ألوانه وطعومه وروائح وأشكاله وألوانه، وهو: ماء واحد، فبالقدرة العظيمة فاوت بين هذه الأشياء، ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ﴾ أي: يعتبر ويتفكر في هذه الأشياء ويستدل بها على عظمة خالقها ﴿إِلَّا مَنْ يُنِيبُ﴾، أي: من هو يصير منيباً^(١) إلى الله تبارك وتعالى، وقوله ﷻ: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ أي: فأخلصوا الله وحده العبادة والدعاء، وخالفوا المشركين في مسلكهم ومذهبهم، وروى مسلم وغيره عن عبد الله بن الزبير قال: كان رسول الله ﷺ يقول في دبر كل صلاة: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير لا حول ولا قوة إلا بالله، لا إله إلا الله ولا نعبد إلا إياه، له النعمة وله الفضل وله الثناء الحسن، لا إله إلا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون»^(٢). وقال ابن أبي حاتم بسنده^(٣) عن أبي هريرة ؓ عن النبي ﷺ قال: «ادعوا الله تبارك وتعالى وأنتم موقنون بالإجابة، واعلموا أن الله تعالى لا يستجيب دعاء من قلب غافل لاه»^(٤).

فصل

قال محمد تقي الدين: فائدة: ما أحسن ما قال الإمام (ك) في تفسير قوله تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا﴾ فإن المطر الذي ينزل من السماء سبب والأرض الطيبة شرط، والزرع وتنظيف الأرض مما يضر المزروعات شرط أيضاً، وزوال الموانع التي تمنع بلوغ الثمرة إلى الينع والزرع إلى إدراك الحب شرط آخر، ومع ذلك لا يتم شيء من ذلك إلا بإذن الله تعالى الذي هو خالق كل شيء.

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «بصير منيب».

(٢) أخرجه مسلم (٥٩٤)، وأحمد (٤/٤)، وأبو داود (١٥٠٧).

(٣) رواه الترمذي (٣٤٧٩)، وابن حبان في «المجروحين» (٣٦٨/١)، والحاكم (٤٩٣/١)، والخطيب في «تاريخ بغداد» (٣٥٦/٤) (٢٣٧/١٤)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٥/١٢٢)، وحسنه شيخنا الألباني.

(٤) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٧٧/١٢ - ١٧٨) بتصرف.

وفي كُلِّ شَيْءٍ لَّهُ آيَةٌ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ الْوَاحِدُ^(١)
ولو كان النبات والخضر والفواكه كل ذلك ينمو بطبعه لما وجدت هذه
الفروق الكثيرة بين الثمرات والخضر والمقاني من اختلاف في الحجم والشكل
واللون، فسبحان المنعم العظيم، وقد خاب وخسر من كفر به. اهـ.

﴿الباب الثاني﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَنذَرَهُمْ يَوْمَ الْأَرْزَقَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَظِيمٍ مَّا
لِظَّالِمِينَ مِنْ حِمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي
الْصُدُورُ ﴿١٩﴾ وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ
شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾﴾ [غافر: ١٨ - ٢٠]

﴿يَوْمَ الْأَرْزَقَةِ﴾ اسم من أسماء يوم القيامة، وسميت بذلك لاقتربها كما قال
تعالى: ﴿أُوفِيَ الْأَرْزَقَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَافِيَةٌ ﴿٥٨﴾﴾ [النجم: ٥٧، ٥٨] وقوله
تعالى: ﴿إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَظِيمٍ﴾ قال قتادة وغيره: وَقَفَتِ الْقُلُوبُ فِي
الْحَنَاجِرِ مِنَ الْخَوْفِ فَلَا^(٢) تَخْرُجُ وَلَا تَعُودُ إِلَى أَمَاكِنِهَا^(٣)، ومعني ﴿كَظِيمٍ﴾
أي: ساكتين، لا يتكلم أحد إلا بإذنه، ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ
إِلَّا مَنْ أِذْنٌ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٢٨﴾﴾ [النبا: ٢٨] وقوله ﷺ: ﴿مَّا لِلظَّالِمِينَ مِنْ
حِمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ أي: ليس للذين ظلموا أنفسهم بالشرك بالله من قريب منهم
ينفعهم ولا شفيع يشفع فيهم، بل قد تقطعت بهم الأسباب من كل خير، وقوله
تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴿١٩﴾﴾ يخبر ﷺ عن علمه التام
المحيط بجميع الأشياء جليلها وحقيرها، صغيرها وكبيرها، دقيقها ولطيفها،
ليحذر الناس علمه فيهم، فيستحيوا من الله تعالى حق الحياء ويتقوه حق تقواه،
ويراقبوه مراقبة من يعلم أنه يراه، فإنه ﷺ يعلم العين الخائنة وإن أبدت أمانة،
ويعلم ما تنطوي عليه خبايا الصدور من الضمائر والسرائر، قال ابن عباس ﷺ

(١) البيت لأبي العتاهية، وهو في «ديوانه» (ص ٧٠)، ونسب له في «الأغاني» (٣٥/٤)، ط.
دار إحياء التراث العربي.

(٢) في الأصل: «لا»، والمثبت من «تفسير ابن كثير».

(٣) أخرجه عبد الرزاق (٢/١٨٠)، وابن جرير (٣٠١/٢٠) عن معمر عن قتادة، وعزاه في
«الدر المنثور» (٣٤٩/٥) إلى عبد بن حميد، وانظر: «المجالسة» (١٥١٤ - بتحقيقي).

في قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ (٦): «هو الرجل يدخل على أهل البيت بيتهم وفيهم المرأة الحسناء أو تمر به وبهم» (١) المرأة الحسناء، فإذا غفلوا لحظ إليها، فإذا فطنوا غض بصره عنها، فإذا غفلوا لحظ، وإذا فطنوا غض، وقد اطلع الله على (٣) قلبه أنه ود أن (٤) لو اطلع على فرجها» (٥).

قال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ﴾: «قادر على أن يجزي بالحسنة الحسنة وبالسئنة السئنة» (٦)، ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾، وهذا الذي فسر به ابن عباس رضي الله عنه هذه الآية كقوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بَيْنَا عَمَلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحَسَنَى﴾ [النجم: ٣١]. وقوله جل وعلا: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ﴾ أي: من الأصنام والأوثان والأنداد ﴿لَا يَقْضُونَ شَيْئاً﴾، أي: لا يملكون شيئاً ولا يحكمون بشيء، ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾، أي: سميع لأقوال خلقه؛ بصير بهم، فيهدي من يشاء ويضل من يشاء، وهو الحاكم العادل في جميع ذلك. اهـ (٧).

فصل

قال محمد تقي الدين: فائدة: كل من وحد الله تعالى وطهر قلبه من الشرك وصار مسلماً حنيفاً يعتقد جازماً أن الحكم كله لله، والملك كله لله هو الذي يحكم بين عباده، وهو الذي يجزيهم على أعمالهم في الدنيا والآخرة، من عمل خيراً جزاه الله خيراً ومن عمل شراً جزاه الله شراً، ولا يجوز أن يكون الحكم لغيره، فالحلال ما أحله الله سبحانه والحرام ما حرمه، والواجب

- (١) من مطبوع «تفسير ابن كثير» وسقط من الأصل!
- (٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «فإذا». (٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «من».
- (٤) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».
- (٥) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠/٣٢٦٥)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٦/٢٥٥) رقم (١٧٣٩٦)، وهناد في «الزهد» (٢/١٤٢٨)، والطبراني في «الأوسط» (٢/١٢٨٣) وأعله الهيثمي في «المجمع» (٧/١٠٥) بما لا يقدح في صحته، إذ الضعيف متابع، والأثر صحيح إن شاء الله تعالى، وعزاه السيوطي في «الدر المنثور» (١٣/٣١) لسعيد بن منصور وابن المنذر.
- (٦) جزء من الأثر السابق، وهذا لفظ الطبراني.
- (٧) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٢/١٨١ - ١٨٢) بتصرف.

ما أوجبه؛ والمستحب ما أحبه، والمباح ما أباحه؛ ومن جعل الحكم لغيره في الجزاء أو التشريع فقد اتخذها إلهاً من دون الله، هذا حاصل معنى هذه الآيات. اهـ.

﴿الباب الثالث﴾

وقوله تعالى: ﴿وَيَقَوْمَ مَا لِيِ ادْعُوكُمْ إِلَى النَّجْوَىٰ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ۖ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ ۚ مَا لِيَ لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ ۖ وَأَنَا اَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ﴾ (٤١) لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَكُمْ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنْ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ (٤٢) فَسَتَذَكَّرُونَ مَا أَقُولَ لَكُمْ ۖ وَأَفْوِضْ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (٤٣) فَوَقَدَ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَّا مَكْرُوهًا وَحَاقَ بِقَالٍ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ (٤٤) النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ (٤٥) وَإِذْ يَتَحَاجَّوْنَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ (٤٦) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ (٤٧) وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخِزْنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ (٤٨) قَالُوا أَوَلَمْ تَكُنْ تَأْتِيكُم رُّسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاؤُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ (٤٩) إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ (٥٠) يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذَرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (٥١) [غافر: ٤١ - ٥٢]

قال (ك): «يقول لهم المؤمن: ما بالي أدعوكم إلى النجاة وهي: عبادة الله وحده لا شريك له وتصديق رسوله ﷺ، الذي بعثه ﴿وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ ۚ مَا لِيَ لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ﴾ أي: على جهل بلا دليل، ﴿وَأَنَا اَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ﴾ أي: هو في عزته وكبريائه يغفر ذنب من تاب إليه، ﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَكُمْ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ﴾ يقول حقاً، وقال

السدي: «لا يجيب داعيه لا في الدنيا ولا في الآخرة»^(١)، وهذا كقوله تبارك وتعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ إِلَهٌ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَفْلُونَ ۝ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ۝﴾ [الاحقاف: ٥، ٦] وقوله تعالى: ﴿وَأَنْ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ﴾، أي: في الدار الآخرة فيجازي كلاً بعمله، ولهذا قال: ﴿وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ أي: خالدين فيها بإسرافهم وهو شركهم بالله ﷻ، ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولَ لَكُمْ﴾ أي: سوف تعلمون صدق ما أمرتكم به ونهيتكم عنه، ونصحتكم ووضحت لكم، وتذكرونه وتندمون، حيث لا ينفعكم الندم. ﴿وَأَفُوضْ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ﴾ أي: وأتوكل على الله وأستعينه، وأقاطعكم وأباعدكم، ﴿إِنَّ اللَّهَ بِصِيرٍ بِالْعِبَادِ﴾ أي: هو بصير بهم. تعالى وتقدس، فيهدي من يستحق الهداية، ويضل من يستحق الإضلال، وله الحجة البالغة والحكمة الثامة والقدر النافذ، وقوله تبارك وتعالى: ﴿فَوَقَّهَ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا﴾ أي: في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا: فنجاه الله تعالى مع موسى عليه الصلاة والسلام، وأما في الآخرة: فبالجنة، ﴿وَحَاقَ بِقَالِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ﴾ وهو الغرق في اليم، ثم النقلة منه إلى الجحيم، فإن أرواحهم تعرض على النار صباحاً ومساءً إلى قيام الساعة، فإذا كان يوم القيامة، اجتمعت أرواحهم وأجسادهم في النار ولهذا قال: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ أي: أشده ألماً وأعظمه نكالاً، وهذه الآية أصل كبير في استدلال أهل السنة على عذاب البرزخ في القبور، وهي قوله تعالى: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾، وروى البخاري بسنده عن عائشة أن يهودية دخلت عليها فقالت: نعوذ بالله^(٢) من عذاب القبر، فسألت عائشة رسول الله ﷺ عن عذاب القبر، فقال: «نعم عذاب القبر حق»، قالت عائشة: فما رأيت رسول الله ﷺ بعد صلي صلاة إلا تعوذ من عذاب القبر^(٣).

وروى البخاري ومسلم بسنديهما عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي، إن كان من أهل الجنة

(١) انظر: «تفسير السدي الكبير» (ص ٤٢٤) جمع د. محمد عطا يوسف.

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أعاذك الله».

(٣) أخرجه البخاري (١٣٧٢، ٦٣٩٦)، ومسلم (٥٨٦، ١٢٥٥)، وأحمد (٤٤/٦، ١٧٤)، وغيرهم.

فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار، فيقال: هذا مقعدك حتى يبعثك الله ﷻ إليه يوم القيامة»^(١).

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَتَحَاوَنَ فِي النَّارِ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا دُعُوا الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾، قال (ك): «يخبر تعالى عن تحاج أهل النار في النار وتخاصمهم، وفرعون وقومه من جملتهم فيقول: ﴿الضُّعَفَاءُ﴾ وهم الاتباع ﴿الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ وهم القادة والسادة والكبراء ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾، أي: أطعناكم فيما دعوتونا إليه، في الدنيا من الكفر والضلال، ﴿فَهَلْ أَنتُمْ مُعْتَدُونَ﴾ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ أَي: قسطاً تتحملونه عنا، ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا﴾ أَي: لا نتحمل عنكم شيئاً كفى بنا ما عندنا وما حملنا من العذاب والنكال، ﴿إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَّمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾ أَي: يقسم^(٢) بيننا العذاب بقدر ما يستحقه كل منا، كما قال تعالى: ﴿قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨] ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخِزْنَةِ جَهَنَّمَ أَدْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ ۖ﴾ لما علموا أن الله ﷻ لا يستجيب لهم^(٣) ولا يستمع لدعائهم بل قد قال: ﴿أَخْسَرُوا فِيهَا وَلَا تَكْلُمُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٨] سألوا الخزنة وهم كالسجّانين^(٤) لأهل النار أن يدعوا لهم الله تعالى في أن يخفف عن الكافرين ولو يوماً واحداً من العذاب، فقالت لهم الخزنة رادين عليهم: ﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمُ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أَي: أو ما قامت عليكم الحجج في الدنيا على السنة الرسل، ﴿قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا﴾ أَي: أنتم لأنفسكم فنحن لا ندعو لكم ولا نسمع منكم ولا نود خلاصكم، ونحن منكم برآء، ثم نخبركم أنه سواء دعوتكم أو لم تدعوا لا يستجاب لكم ولا يخفف عنكم، ولهذا قالوا^(٥): ﴿وَمَا دُعُوا الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾^(٦).

قال القاسمي: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ۝﴾ أَي: لننصرهم في الدارين، أما في الدنيا: فبإهلاك عدوهم

(١) رواه البخاري (١٣٧٩)، ومسلم (٢٨٦٦)، وأحمد (١١٣/٢)، والترمذي (١٠٧٢)، وما مضى من «تفسير ابن كثير» (١٩٢/١٢ - ١٩٨).

(٢) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «فقسم».

(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «منهم».

(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «كالنوايين».

(٥) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «قال».

(٦) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٩٨/١٢ - ١٩٩).

واستئصاله عاجلاً، أو بإظهارهم بعدوهم وإظهارهم عليه، وجعل الدولة لهم والعاقبة^(١) لأتباعهم، وأما في الآخرة: فبالنعيم الأبدي والعبور السرمدي، و﴿الْأَشْهَادُ﴾ جمع شاهد وهم: من يشهد على تبليغ الرسل وتكذيبهم ظلماً، أو جمع شهيد، كأشراف وشريف.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ (٥١)، قال ابن جرير: «ذلك يوم لا ينفع أهل الشرك اعتذارهم، لأنهم لا يعتذرون، إن اعتذروا إلا بالباطل^(٢)»، وذلك أن الله قد أعذر إليهم في الدنيا، وتابع عليهم الحجج فيها، فلا حجة لهم في الآخرة إلا في^(٣) الاعتصام بالكذب، بأن^(٤) يقولوا: ﴿وَاللَّهُ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾^(٥) ولذا كانت لهم اللعنة، وهي: البُعد من رحمة الله وشرب ما^(٦) في الدار الآخرة من العذاب الأليم^(٧).

فصل

قال محمد تقى الدين: فائدة: من المعلوم أن دين التوحيد هو دين جميع الأنبياء ومن اتبعهم بإحسان، وقد تقدم أن بني إسرائيل مروا على قوم يعكفون على أصنام لهم فقال جهالهم لموسى: ﴿أَجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَبْهَلُونَ إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَّبِعُونَ مَا هُم بِفِيهِ﴾ [الأعراف: ١٣٨، ١٣٩] أي: دين الشرك الذي هم عليه يهلكه الله ويهلك من اتبعه، وتقدم أيضاً في سورة الأعراف: أن أبا واقد الليثي وأصحاباً له كانوا حدثاء عهد بشرك، فقالوا: يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط؟ فقال: «الله أكبر إنها السنن قلتم، والذي نفسي بيده كما قال بنو إسرائيل لموسى: ﴿أَجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾»^(٨)، وههنا مؤمن آل فرعون ينادي في قومه ﴿وَيَقُولُ مَا لِيَ أَذْعُوكُمْ إِلَى آلِهَتِي وَتَدْعُونَنِي إِلَى الْتَارِ﴾ (٩) تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرُ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَذْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «والعاقبة»! (٢) في «تفسير ابن جرير»: «بباطل».

(٣) غير موجودة في «تفسير ابن جرير». (٤) في «تفسير ابن جرير»: «أن».

(٥) انظر: «تفسير ابن جرير» (٣٤٧/٢٠).

(٦) كذا في مطبوع «تفسير القاسمي»، وفي الأصل: «وشربها».

(٧) انظر: «تفسير القاسمي» (٢٤٠/١٤ - ٢٤١).

(٨) سبق تخريجه.

أَفَقَرِ ﴿٤٦﴾ فهذه دعوة جميع الرسل ودعوة كل متبع لهم، فأهل الحق ينادون إخوانهم: يا قومنا! اعبدوا الله وحده ولا تعبدوا الأوثان، لا تذبحوا لها ولا تزدروا لها ولا تقيموا حولها مواسم وأعياداً، أو تتخذوها آلهة من دون الله، إننا لكم من الناصحين، ونبرأ إلى الله مما أنتم عليه.

فائدة ثانية: معنى ﴿لَا جَرَمَ﴾: حقاً؛ يعني: إن الحق هو أن ما تدعونني إليه ﴿لَيْسَ لَكُمْ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ﴾ كما قال تعالى: ﴿لَكُمْ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبْسُطٍ كَفْتِهِ إِلَى الْمَاءِ يُنَلِّغُ فَاهُ وَمَا هُوَ بِنَالِغٍ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ [الرعد: ١٤]، فكل من دعا غير الله لجلب خير أو دفع شر فهو من الكافرين - بنص القرآن - ودعاؤه في ضلال.

فائدة ثالثة: قول الحافظ (ك) في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَفْوُضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ﴾ أي: «أتوكل على الله وأستعينه وأقاطعكم وأباعدكم» فمن وحد الله تعالى في ربوبيته وعبادته وأسمائه وصفاته واتبع رسوله ﷺ لكنه لا يتبرأ من المشركين ولا يقاطعهم ولا يبياعدهم^(١) بل يتولاهم ويرغب في صحبتهم ولا ينكر عليهم شركهم يكون غير عامل بقوله تعالى حكاية عن إمام الموحدين إبراهيم الخليل عليه السلام: ﴿وَأَعَزِّزْ لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَادْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ [مريم: ٤٨]. قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَعْتَرَكُم مَّا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُمْ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ [مريم: ٤٩، ٥٠]. فيجب على كل موحد مخلص دينه الله أن يعتزل المشركين، وحينئذ يهب الله له خيراً كثيراً ويرى ما يسره في أبنائه وأحفاده، فإن يعقوب، ابنُ إسحاق وإسحاق، ابن إبراهيم^(٢)، ويهب الله له شيئاً كثيراً من رحمته ويجعل له لسان صدق عند المؤمنين من أهل زمانه ومن بعدهم^(٣)، وسيأتي إن شاء الله زيادة على هذا في (سورة المجادلة) وفي (سورة الممتحنة).

(١) فكيف بمن يعيش في ديارهم، ويتطعم بطباعهم، ويدور في مجتمعهم كما يدور السن في الدولاب؟ فهذا الذي يخشى عليه من تهديد ووعد الرسول ﷺ الثابت عنه: «من أقام بين ظهرائي المشركين، فقد برئت منه الذمة».

(٢) أي أكرم الله إبراهيم بإسحاق وأكرم إسحاق بيعقوب وأكرم يعقوب بيوسف. (منه).

(٣) تذكر أخي القارئ أن المصنف قد عاش مدة في ديار الكفر، وزار غير ما بلدة منها، مثل: ألمانيا، بريطانيا، إسبانيا، بلجيكا، هولندا، النرويج، سويسرا، فهو يقرر المزبور أنفاً عن بصيرة ومشاهدة وخبرة وتجربة.

فائدة رابعة: كل من دعا إلى توحيد الله تعالى وإخلاص العبادة له لا بد أن يكون يتعرض لمكر أعداء التوحيد، ولكن الله وعده بالوقاية من مكرمهم وبالنصر عليهم، ووعد أعداء التوحيد بسوء العذاب.

﴿الباب الرابع﴾

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوْرَكُمْ فَاحْسَنَ صُورَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿١٤﴾ هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَكَادُغُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٥﴾ قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِي الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾﴾ [غافر: ٦٤ - ٦٦]

قال (ك): «وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا﴾ أي: جعلها لكم مستقرًا بساطاً مهاداً، تعيشون عليها وتتصرفون فيها وتمشون في مناكبها، وأرساها بالجبال لثلاً تميد بكم، ﴿وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ أي: سقفاً للعالم محفوظاً، ﴿وَصَوْرَكُمْ فَاحْسَنَ صُورَكُمْ﴾ أي: فخلقكم في أحسن الأشكال، ومنحكم أكمل الصور في أحسن تقويم، ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ أي: من المأكّل والمشارب في الدنيا، فيذكر^(١) أنه خلق الدار والسكان والأرزاق، فهو الخالق الرازق، وقال تعالى [هاهنا]^(٢) بعد خلق هذه الأشياء ﴿ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: فتعالى وتقدس وتنزه رب العالمين كلهم، ثم قال تعالى: ﴿هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: هو الحي أزلاً وأبداً، لم يزل ولا يزال، وهو الأول والآخر والظاهر والباطن، ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا نظير له ولا عديل له، ﴿فَكَادُغُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ﴾ أي: موحدين له مقربين بأنه لا إله إلا هو ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾﴾، قال ابن جرير بسنده^(٣) عن ابن

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «فذكر».

(٢) من مطبوع «تفسير ابن كثير»، وسقط من الأصل.

(٣) أخرجه ابن جرير في «التفسير» (٣٥٧/٢٠ - ٣٥٨)، والحاكم (٤٣٨/٢)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (١٩٤)، وإسناده صحيح، وعزاه السيوطي في «الدر المنثور» =

عباس قال: «من قال لا إله إلا الله فليقل على إثرها: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٢)، وذلك قوله تعالى: ﴿فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾»، [وقال أبو أسامة وغيره عن إسماعيل بن أبي خالد عن سعيد بن جبير قال: إذا قرأت ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾] (١) فقل: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ وقل على إثرها: الحمد لله رب العالمين، ثم قرأ هذه الآية ﴿فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢).

وقوله: ﴿قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِي الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٣).

قال (ك): «يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين: إن الله ﷻ ينهى أن يعبد أحد سواه من الأصنام والأنداد والأوثان، وقد بيّن تبارك وتعالى أنه لا يستحق العبادة أحد سواه» (٣).

فصل

قال محمد تقي الدين: فائدة: وقوله تعالى: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ هو كقوله تعالى في سورة البقرة لإمام الحنفاء إبراهيم: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمُ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ١٣١] فمعناها: أمرني ربي أن أوحده، وأن أسلم نفسي إليه، فلا أوجه وجهي إلا له، ولا أدعوا بلساني ولا بقلبي غيره. اهـ.

فائدة

قال محمد تقي الدين: هذه الآيات التي ذكرتها هنا اشتملت على توحيد الربوبية من قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فَكْرًا﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿هُوَ الْحَيُّ﴾ ثم جاءت الدلالة على توحيد العبادة في قوله تعالى: ﴿لَا

= (٧٣/١٣) لابن المنذر وابن مردويه.

(١) من مطبوع «تفسير ابن كثير»، وسقط من الأصل.

(٢) أخرجه ابن جرير في «التفسير» (٣٥٨/٢٠)، وعزاه السيوطي في «الدر» (٧٣/١٣) لعبد بن حميد.

(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (٢٠٧/١٢ - ٢٠٨) بتصرف.

إِلَّاهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ... ﴿٧٠﴾ إلى آخره، وبعد ذلك تجيء آيات توحيد الربوبية مرة أخرى في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَرَأْسٍ﴾ الآيات.

﴿الباب الخامس﴾

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَنْ مَّا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧١﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يَضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ ﴿٧٢﴾ ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٣﴾ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٤﴾﴾

[غافر: ٧٣ - ٧٦]

قال (ك): «وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَنْ مَّا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧١﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي: قيل لهم: أين الأصنام التي كنتم تعبدونها من دون الله، هل ينصرونكم اليوم؟ ﴿قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا﴾، أي: ذهبوا فلم ينفعونا ﴿بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا﴾، أي: جحدوا عبادتهم كقوله جلّت عظمته: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [الأنعام: ٢٣] ولهذا قال ﴿كَذَلِكَ يَضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ﴾، وقوله: ﴿ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٣﴾﴾ أي: تقول لهم الملائكة: هذا الذي أنتم فيه جزاء على فرحكم في الدنيا بغير الحق ومرحكم وأشركم وبطركم، ﴿ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٤﴾﴾، أي: فبئس المنزل والمقيل الذي فيه الهوان والعذاب الشديد لمن استكبر عن آيات الله واتباع دلائله وحججه [والله أعلم]»^(١).

فصل

قال محمد تقي الدين: فائدة: قوله: «أين الأصنام...؟» يحتاج إلى بيان، فإن المشركين ما كانوا يعبدون الأصنام وحدها، بل كانوا يعبدون ثلاثة أنواع من الشركاء: النوع الأول: جماد منسوب إلى الملائكة أو الأنبياء والصالحين، ولهذا عبدوه. النوع الثاني: عاقل لا يعقل وهو كل معبود رضي بعبادته أو بعبادة غيره من المخلوقين.

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٢/٢١٠).

الصف الثالث: وهو الملائكة والأنبياء والصالحون يعقلون ولا يرضون أن يعبد مع الله أحد ويتبرؤون من المشركين ويكفرون يوم القيامة بشركهم.

فالصف الأول والثاني مع عابديهم إلى جهنم، كما قال تعالى في سورة الأنبياء: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَرَدُونَ﴾ (٨١)، وقال تعالى في سورة الصافات: ﴿أَخْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ (٢٢) مِنْ دُونِ اللَّهِ فَأَمْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ [الصافات: ٢٢، ٢٣].

أما الصف الثالث: فإنهم متبرئون من كل من عبدهم ويكونون عليهم ضداً ويكفرون بعبادتهم، فحيثُ تصيب المشركين الحسرة والندامة حين لا ينفع الندم، وهؤلاء الأصناف الثلاثة لا ينفعون عابديهم مثقال ذرة، لا في الدنيا ولا في الآخرة. اهـ.

﴿الباب السادس﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَأَثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (٨٢) فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسًا سُنَّتَ اللَّهُ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴿٨٥﴾ [غافر: ٨٢ - ٨٥]

قال (ك): «يخبر تعالى عن الأمم المكذبة بالرسل في قديم الدهر، وماذا حل بهم من العذاب الشديد، مع شدة قواهم، وما [أثاروا]^(١) في الأرض وجمعه من الأموال، فما أغنى عنهم ذلك شيئاً، ولا ردّ عنهم ذرة من بأس الله، وذلك لأنهم لما جاءتهم الرسل بالبينات والحجج القاطعات والبراهين الدامغات^(٢)، لم يلتفتوا إليهم ولا أقبلوا عليهم واستغنوا بما عندهم من العلم في

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أثروه».

(٢) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «الدامغة».

زعمهم عما جاءتهم به الرسل، قال مجاهد: «قالوا: نحن أعلم منه^(١) لن نبعث ولن نعدب»^(٢)، «وَحَافٍ بِهِمْ» أي: أحاط بهم «مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ» أي: يكذبون ويستبعدون وقوعه «فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا» أي: عاينوا وقوع العذاب بهم «قَالُوا ءَأَمَّنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ» أي: وحدوا الله ﷻ وكفروا بالطاغوت. ولكن حيث لا تقال العثرات، ولا تنفع المَعذرة، وهي^(٣) كما قال فرعون حين أدركه الغرق: «ءَأَمَّنْتُ أَنَّمَا لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَأَمَّنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ» [يونس: ٩٠]. قال الله تبارك وتعالى: «ءَأَفَنُ وَقدْ عَصَيْتَ قَبْلَ وَكُنْتَ مِنَ الْفَاسِقِينَ» [يونس: ٩١] أي: فلم يقبل الله منه لأنه قد استجاب لنبيه موسى عليه الصلاة والسلام دعاءه عليه حين قال: «وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ» [يونس: ٨٨]. [وهكذا قال تعالى ههنا]^(٤): «فَلَمَّا يَكُ يَفْعُهُمْ إِيْنَهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهُ أَلَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِي» أي: هذا حكم الله في جميع من تاب عند معاناة العذاب أنه [لا تقبل توبته]^(٥)، ولهذا جاء في الحديث: «إن الله تعالى يقبل توبة العبد ما لم يغرغر»^(٦) أي: فإذا غرغر وبلغت الروح الحنجرة وعاین الملك فلا توبة حينئذٍ، ولهذا قال تعالى: «وَخَيْرَ هَؤُلَاءِ الْكَافِرُونَ»^(٧).

فصل

قال محمد تقي الدين: فائدة: يولد الإنسان جاهلاً عاجزاً فقيراً، ثم يعطيه الله سبحانه العلم والمال والأولاد والجاه.

والعلم قسمان: وكذلك المال والأولاد والجاه؛ فالعلم الذي يوصل صاحبه إلى الإيمان بالله ورسله وطاعة الله وطاعة رسله والعمل الصالح والأخلاق

- (١) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «منهم»!
- (٢) أخرجه ابن جرير (٣٧٢/٢٠)، وعبد بن حميد وابن المنذر، كما في «الدر المنثور» (٥/ ٣٥٧ - ٣٥٨)، وهو في «تفسير مجاهد» (٥٨٤).
- (٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وهذا».
- (٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وهاهنا قال». (٥) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «لا يقبل».
- (٦) أخرجه أحمد (١٣٢/٢)، والترمذي (٣٥٣٧)، وابن ماجه (٤٢٥٣)، وأبو القاسم البغوي في «المجعليات» (٣٥٢٩)، وابن حبان (٦٢٨)، وابن عدي (١٥٩٢/٤)، والحاكم (٤/ ٢٥٧)، والبيهقي في «الشعب» (٧٠٦٤)، والبغوي (٣٠٦)، وأبو نعيم (١٩٠/٥) من حديث ابن عمر، وإسناده حسن.
- (٧) انظر: «تفسير ابن كثير» (٢١٢/١٢ - ٢١٣).

الحسنة، هو علم نافع يوصل إلى السعادة في العاجل والآجل، والعلم الذي يدعو صاحبه إلى الكفر بالله وبما جاءت به الرسل ويدعوه إلى الأعمال السيئة ومساوئ الأخلاق كالكبر والاستعلاء على الناس وسوء المعاملة والإعجاب بالنفس؛ والطغيان والظلم وكفر النعم؛ فهذا العلم شر على صاحبه من سُقم على بدن والجهل خير منه، فكثير من الناس يفتح له في علوم الدنيا المادية فيغتر بها، ويتناول ويعرض عن ميراث الأنبياء، وهو العلم النافع فيكون علمه وبالاً عليه، ويكون زاده إلى النار، فقَبَّحَ الله العلم الذي يحول بين صاحبه وبين الإيمان بالله تعالى وما جاءت به الرسل.

كنت في مدينة بن «بجرمانية» - ويسمّيها العرب في هذا الزمان جهلاً منهم ألمانية - وكنت مدعوّاً للعشاء ومعى شخص آخر عند ممرضة في مستشفى العيون اسمها إلزبت، وزوجها هو الأستاذ أندري، كان أستاذاً بعلم النبات والحيوان في جامعة بن، حتى أحيل على التقاعد وكان عمره في ذلك الوقت يزيد على التسعين، فوقفنا نصلي المغرب والعشاء، فوقف إجلالاً واحتراماً لصلاتنا، بل إجلالاً لله الذي نصلي له مدة الآذان والإقامة وصلاة المغرب والعشاء والوتر ثماني ركعات، وهو ضعيف جداً، فلما فرغنا من صلاتنا قال لي باللغة الجرمانية ما معناه: أصابتنى هيبة وإجلال لصلاتكما. ثم جلسنا وأخبرني أنه يؤمن بالله وبجميع رسل الله ولم يحضر قط درساً في الدين، وإنما عرف الله تعالى بما رأى من عجيب صنعه في الحيوان، وأيقن أن ذلك الصنع المحكم يدل على صانع عليم قدير كامل لا حد لعلمه، ولا لقدرته، وله الحكمة البالغة في كل ما خلقه وسيره وقدره، ونرى المقلّدين الجهال من أبناء الشعوب المتخلفة يزعمون أن العلم يمنع صاحبه من الإيمان بالله ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف: ٥]. انظر كتابي: «الطريق إلى الله»^(١) المطبوع في بيروت منذ بضع سنين، أرجو من الله تعالى أن ييسر طبع أصله وهو الكتاب الكبير المسمى «دواء الشاكين وقامع المشككين»^(٢). اهـ.

(١) وهذا الكتاب جزء من كتابي «دواء الشاكين»، وقد طبع كله في الدار البيضاء وهو موجود يباع. طبعه الشهم النبيل الحاج مصطفى بن هاشم الودغيري. (منه).
قال أبو عبيدة: طبع في بيروت عن دار الفتح، الطبعة الأولى ١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م، في (١٩١) صفحة.

(٢) طبع في المغرب، وأصله حلقات عديدة نشرت في مجلة «دعوة الحق» المغربية، وأودعناها برمتها كتابنا «مقالات الهلالي»، يسر الله نشره بخير وعافية.

سُورَةُ فَصَّلَاتٍ

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ ۚ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾﴾ [فصلت: ٦ - ٨]

قال (ع): «يقول تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المكذبين المشركين: ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدٌ﴾، لا كما تعبدونه من الأصنام والأنداد والأرباب المتفرقين، إنما الله إله واحد ﴿فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ أي: أخلصوا له العبادة على منوال ما أمركم به على السنة الرسل ﴿وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ أي: لسالف الذنوب ﴿وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ أي: دمار لهم وهلاك عليهم ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾»^(١).

قال القاسمي: «أي: لا يزكون أنفسهم بطاعة الله، أو لا ينفقون من أموالهم زكاتها، وهذا ما رجحه (ج) ذهاباً إلى أن ذلك هو الأشهر، لا سيما مع ضمنية الإيتاء، وفيه إشارة إلى أن من أخص صفات الكفار هو^(٢) منع الزكاة، ليحذر المؤمنين من ارتكابه، وعن قتادة: «إن الزكاة قنطرة الإسلام فمن قطعها نجا، ومن تخلف عنها هلك»^(٣). قال (ج)^(٤): «وقد كان أهل الردة، بعد نبي الله،

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٢/٢١٨ - ٢١٩).

(٢) من مطبوع «تفسير القاسمي» وسقط في الأصل.

(٣) أخرجه عبد الرزاق (٢/١٨٤)، وابن جرير (٣٨٠/٢٠) بسند صحيح عنه بلفظ: «لا يقرؤون بها، ولا يؤمنون بها، وكان يقال...» وذكره، وعزاه في «الدر المنثور» (٥/٣٦٠) إلى عبد بن حميد.

(٤) في «تفسيره» (٣٨٠/٢٠) وهذا القول عنده من تنمة قول قتادة السابق.

قالوا: أما الصلاة فنصلي وأما الزكاة فوالله لا تُعْصِبُ أموالنا. قال: فقال أبو بكر: والله؛ لا أفرق بين شيئين^(١) جمع الله بينهما، والله لو منعوني عقلاً مما فرض الله ورسوله لقاتلناهم عليه^(٢). ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ﴾ أي: بإحيائهم بعد مماتهم للمجازاة ﴿هُمْ كَفِرُونَ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾^(٣) أي^(٤): غير منقطع^(٥). اهـ.

فصل

قال محمد تقي الدين: الذي يظهر لي أن المراد بالزكاة هنا الصدقة المطلقة، وهي مشروعة من أول الإسلام، قال تعالى في سورة المعارج وهي مكية: ﴿وَالَّذِينَ فِي﴾^(٥) ﴿أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ﴾^(٦) ﴿لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾^(٧) [المعارج: ٢٤، ٢٥] وقال تعالى في سورة الذاريات: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾^(٨) ﴿ءَاخِذِينَ مَا ءَانَتْهُمْ رِئُوسُهُمْ مِنْهُمْ﴾^(٩) ﴿كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ﴾^(١٠) ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجُونَ﴾^(١١) ﴿وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾^(١٢) ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ﴾^(١٣) ﴿وَالْمَحْرُومِ﴾^(١٤) [الذاريات: ١٥ - ١٩] فقد أثبت الله ﷺ حقاً للفقراء والمساكين في أموال الأغنياء في هاتين السورتين المكيّتين قبل أن يفرض الزكاة، وقال تعالى في سورة الليل وهي مكية: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى﴾^(١٥) ﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى﴾^(١٦) ﴿فَسَنِّيَرُهُ لِلْيُسْرَى﴾^(١٧) ﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى﴾^(١٨) ﴿كَذَّبَ بِالْحُسْنَى﴾^(١٩) ﴿فَسَنِّيَرُهُ لِلْعُسْرَى﴾^(٢٠) [الليل: ٥ - ١٠] وقال تعالى في سورة الضحى: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾^(٢١) ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾^(٢٢) [الضحى: ٩، ١٠] وقال تعالى في سورة الماعون: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾^(٢٣) ﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾^(٢٤) ﴿الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ﴾^(٢٥) ﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾^(٢٦) [الماعون: ٤ - ٧] أي: يمنعون إعارة ما يستعان به من الأواني والأدوات، وقال تعالى في سورة القيامة: ﴿فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾^(٢٧) [القيامة: ٣١، ٣٢] الآيات.

(١) في مطبوع «تفسير القاسمي»: «شيء».

(٢) قوله أبي بكر: بنحوها عند البخاري (١٣٩٩، ١٤٠٠، ٦٩٢٤، ٦٩٢٥)، وانظر: «الموافقات» (٤٩٩/١ - ٥٠٠ و ٥٠٧/٥ - ٤٠٨) وتعليقي عليهما.

(٣) بعدها في مطبوع «تفسير القاسمي»: «عليهم أو غير منقوص».

(٤) انظر: «تفسير القاسمي» (٢٥٦/١٤).

(٥) هكذا في (سورة المعارج)، وفي الأصل: «وفي أموالهم..»!

(٦) كذا في (سورة الذاريات)، وفي الأصل: «... حق معلوم للسائل».

﴿الباب الثاني﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَيُّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [فصلت: ٩]

قال (ك): «هذا إنكار من الله تعالى على المشركين الذين عبدوا معه غيره وهو الخالق لكل شيء المقندر على^(١) كل شيء، فقال: ﴿قُلْ أَيُّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا﴾، أي: نظراء وأمثالاً تعبدونها معه ﴿ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾، أي: الخالق للأشياء، هو رب العالمين كلهم»^(٢).

فصل

قال محمد تقي الدين: كل من صرف من عبادته لمخلوق شيئاً، فقد اتخذه ندّاً، وارتكب الشرك الأكبر الذي لا يغفر إلا بالتوبة والتوحيد.

﴿الباب الثالث﴾

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ لِنَدْفِقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْرَىٰ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَنْقُونَ ﴿١٨﴾﴾ [فصلت: ١٣ - ١٨]

قال (ك): «يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين المكذبين بما جنتهم به من الحق: إن أعرضتم عما جنتكم به من عند الله تعالى، فإني أنذركم حلول

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «المقدر لكل».

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٢/ ٢٢٠).

نقمة الله بكم، كما حلت بالأمم الماضية من المكذبين بالمرسلين، ﴿صَعِقَ مِثْلَ صَعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ أي^(١): ومن شاكلهما ممن فعل كفعلهما ﴿إِذْ جَاءَهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ أَنَا عَادٍ إِذْ أُنْذِرَ قَوْمِي بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَيْتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ [الأحقاف: ٢١] أي: في القرى المجاورة لبلادهم، بعث الله إليهم الرسل يأمرونهم^(٢) بعبادة الله وحده لا شريك له، ومبشرين ومنذرين، ورأوا ما أحل الله بأعدائه من النقم وما ألبس أوليائه من النعم، ومع هذا ما آمنوا ولا صدقوا بل كذبوا وجحدوا، وقالوا: ﴿لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً﴾ أي: لو شاء^(٣) أرسل الله رسلاً لكانوا ملائكة من عنده، ﴿فَإِنَّا يَمَّا أُزِيلَتْ بِهِ﴾ أي: أيها البشر ﴿كُفِرُونَ﴾ أي: لا نتبعكم وأنتم بشر مثلنا، قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: بغوا وعتوا وعصوا ﴿وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ أي: اغتروا^(٤) بشدة تركيبهم وقواهم واعتقدوا أنهم يمتنعون بها من بأس الله، ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ أي: أفلا^(٥) يتفكرون، فيمن يبارزون بالعداوة؟ فإنه العظيم الذي خلق الأشياء وركب فيها قواها الحاملة لها، وإن بطشه شديد، كما قال ﷻ: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْمٍ وَإِنَّا لَنُوسِعُونَ﴾ [الذاريات: ٤٧] فبارزوا الجبار بالعداوة وجحدوا بآياته، وعصوا رسله، فلهذا قال: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ قال بعضهم: وهي الشديدة الهبوب، وقيل: الباردة، وقيل: هي التي لها صوت، والحق أنها متصفة بجميع ذلك.

وقوله تعالى: ﴿فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ﴾ أي: متتابعات ﴿سَعَلَ لَيَالٍ وَنَعْنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ [الحاقة: ٧] كقوله: ﴿فِي يَوْمٍ نَخَسٍ مُتَمَرٍّ﴾ [القمر: ١٩] أي: ابتداؤها^(٦) بهذا العذاب في يوم نحس عليهم واستمر بهم هذا النحس سبع ليالٍ وثمانية أيام [حسوماً]^(٧)، حتى أبادهم عن آخرهم، واتصل بهم خزي الدنيا بعذاب الآخرة. ولهذا قال تعالى: ﴿لِنَذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى﴾ أي:

(١) غير موجود في الأصل، وأثبتته من «تفسير ابن كثير».

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «يأمرهم».

(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير» وسقط من الأصل.

(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «مَتَوَا». (٥) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أفما».

(٦) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ابْتَدِئُوا». (٧) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».

أشد خزيًا لهم ﴿وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ﴾ أي: في الأخرى كما لم ينصروا في الدنيا، ﴿وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ يقيهم العذاب ويدراً عنهم النكال، وقوله ﷻ: ﴿وَأَمَّا نُمُودُ فَبَدِثْنَاهُمْ﴾، قال ابن عباس وغيره: بيئنا لهم^(١). ﴿فَاسْتَحَبُّوا أَلْعَمَىٰ عَلَىٰ الْمُدَىٰ﴾ أي^(٢): بصرناهم وبيئنا لهم ووضعنا لهم الحق على لسان نبيهم صالح عليه الصلاة والسلام فخالفوه وكذبوه وعقروا ناقة الله تعالى التي جعلها آية وعلامة على صدق نبيهم ﴿فَأَعَدَّتْهُمْ صَبْعَةً أَلْعَابِ الْهُونِ﴾ أي: بعث الله عليهم صيحة ورجفة وذلاً وهواناً وعذاباً ونكالاً ﴿يَمَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾، أي: من التكذيب والجحود ﴿وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي: من بين أظهرهم لم يمسسهم سوء ولا نالهم من ذلك ضرر، بل نجاهم الله تعالى مع نبيهم صالح عليه الصلاة والسلام بإيمانهم وتقواهم لله ﷻ^(٣).

فصل

قال محمد تقي الدين: كل من وُحِدَ الله واتبع الرسول الذي أرسل إليه من الأولين والآخرين لا بد أن تكون عاقبته حميدة، ومن أشرك بالله ولم يتبع الرسول الذي أرسل إليه فلا بد أن تكون عاقبته سيئة، ﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الفتح: ٢٣]. اهـ.

الباب الرابع

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفْتَمُوا نَتَزَّلَ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٢٠﴾ نَحْنُ أَوْلَىٰ بِكُمُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا نَشْتَهَىٰ أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ﴿٢١﴾ تَزُولُ مِن عَفْوَيرٍ رَّحِيمٍ ﴿٢٢﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [فصلت: ٣٠ - ٣٣]

(١) أخرجه ابن جرير (٤٠٢/٢٠)، وابن أبي حاتم (٣٢٧٠/١٠)، وابن المنذر، كما في «الدر المنثور» (٣٦٢/٥).

(٢) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وبدلها في الأصل: «و»!

(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (٢٢٥/١٢ - ٢٢٦).

قال (ك): «يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾ أي: أخلصوا العمل لله وعملوا بطاعة الله تعالى على ما شرع الله لهم، وقال ابن أبي حاتم بسنده، عن سعيد بن نمران^(١) قال: قرأت عند أبي بكر الصديق رضي الله عنه هذه الآية ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾ [فقال]: «وهم الذين لم يشركوا بالله شيئاً»^(٢)، وروى مسلم بسنده عن سفيان بن عبد الله الثقفي قال: قلت: يا رسول الله! قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً بعدك. قال: «قل آمنت بالله ثم استقم» قلت: يا رسول الله ما أكثر ما تخاف عليّ؟ فأخذ رسول الله ﷺ بطرف لسان نفسه، ثم قال: «هذا»^(٣). وقوله تعالى: ﴿تَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ﴾، قال زيد بن أسلم: «يبشرونه عند موته وفي قبره وحين يبعث»^(٤). قال (ك): «وهذا القول يجمع الأقوال كلها وهو حسن جداً، وهو الواقع.

قوله تبارك وتعالى: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ أي: تقول الملائكة للمؤمنين عند الاحتضار: نحن كنا أولياءكم، أي: قرناءكم في الحياة الدنيا نسددكم^(٥) ونحفظكم بأمر الله، وكذلك نكون معكم في الآخرة، نؤنس

(١) هكذا في مطبوع «تفسير ابن كثير» و«الدر المنثور» ومصادر التخریج، وتحرف في الأصل إلى «عمران»!

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم - كما في «الدر المنثور» (١٣/١٠٣) -، وابن جرير (٢٠/٤٢٢) - (٤٢٣)، وعبد الرزاق (٢/١٨٧)، وابن وهب (١/١٢٠ رقم ٢٧٦) جميعهم في «التفسير» ومسدد كما - في «المطالب» (٤٠٨٦) -، وابن سعد في «الطبقات» (٦/٨٤)، وابن عساکر في «تاريخ دمشق» (٢١/٣١٣)، وفي «تفسير سفيان» (ص ٢٦٦)، وابن المبارك (٣٢٦)، وعزاه السيوطي في «الدر» (١٣/١٠٣) للفريابي وسعيد بن منصور وابن المنذر.

وإسناده ضعيف، سعيد بن نمران مجهول، وتابعه الأسود بن هلال عند ابن جرير والحاكم (٢/٤٤٠)، وأبي نعيم (١/٣٠)، فصح الأثر. وعزاه في «الدر» إلى إسحاق بن راهويه وعبد بن حميد وابن مردويه.

(٣) أخرجه مسلم (٣٢)، وأحمد (٣/٤١٣)، والترمذي (٢٤١٠) وغيرهم، وأطلت النفس في تخریجه في تعليقي على «المجالسة» (رقم ١٢٨٨، ١٧٢١).

(٤) عزاه في «الدر المنثور» (١٣/١٠٧) إلى ابن أبي شيبه وابن أبي حاتم، وهو ليس في «تفسيره» المطبوع!

(٥) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ونوفقكم».

منكم الوحشة في القبور وعند النفخة في الصور، ونؤمنكم يوم البعث والنشور، ونجاوزكم^(١) الصراط، ونوصلكم إلى جنات النعيم ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهُى النَّفْسُ﴾ أي: في الجنة من جميع ما تختارون مما تشتهي النفوس وتقر به العيون ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ أي: مهما طلبتم وجدتم، وحضر بين أيديكم كما اخترتم ﴿تَزَلَّوْنَ مِنْ عَفْوَهِ رَحِيمٌ﴾ أي: ضيافة وعطاء وإنعاماً من ﴿عَفْوَهِ﴾ لذنوبكم ﴿رَحِيمٌ﴾ بكم رؤوف حيث غفر وستر ورحم ولطف، وقال الإمام أحمد بسنده عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه» قلنا: يا رسول الله، كلنا نكره الموت! قال ﷺ: «ليس ذلك كراهية الموت، ولكن المؤمن إذا حضر جاءه البشير من الله تعالى بما هو صائر إليه، فليس شيء أحب إليه من أن يكون قد لقي الله تعالى فأحب الله لقاءه»، قال: «وإن الفاجر أو الكافر إذا حضر، جاءه بما هو صائر إليه من الشر، أو ما يلقي من الشر فكره لقاءه»^(٢)، وهذا حديث صحيح، وقد ورد في «الصحيح» من غير هذا الوجه.

وقوله سبحانه: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا﴾ الآية.

قال (ك): «يقول ﷺ: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا وَمَنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ﴾ أي: دعا عباد الله إليه ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ أي: وهو في نفسه مهتد بما يقوله، فنفعه لنفسه ولغيره لازم ومتعد، وليس هو من الذين يأمرون بالمعروف ولا يأتونه، وينهون عن المنكر ويأتونه، بل يأتهم بالخير ويترك الشر ويدعو الخلق إلى الخالق تبارك وتعالى، وهذه عامة في كل من دعا إلى خير وهو في نفسه مهتد، ورسول الله ﷺ أولى الناس بذلك كما قال السدي وغيره»^(٣).

وقوله: ﴿وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ أي: من المنقادين إلى توحيد الله وطاعته.

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ونجاوز بكم».

(٢) أخرجه أحمد (١٠٧/٣)، والبزار (٧٨٠ - «زوائد»)، والمروزي في «زوائد على زهد ابن المبارك» (٩٧١)، وإسناده صحيح.

وأصله عند البخاري (٦٥٠٧)، ومسلم (٢٦٨٣) كما قال المصنف.

(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (٢٣٤/١٢ - ٢٤٠) بتصرف.

فصل

قال محمد تقي الدين: فائدة: ﴿الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ هم الذين حققوا معنى لا إله إلا الله، وعبدوا الله وحده ولم يتخذوا رباً سواه، معنى ﴿ثُمَّ أَسْتَقْسَمُوا﴾ أي: حققوا معنى محمد رسول الله، فاتبعوا الرسول ﷺ ولم يحدوا عن سنته مثقال ذرة ولم يتدعوا في دين الله، ولا حكموا بغير شرع الله، وأحبوا في الله وأبغضوا في دين الله، ووالوا في الله وعادوا في الله، تنزل الملائكة عند موتهم، ملائكة الرحمة كأنَّ على وجوههم الشمس فتبشرهم وتتولى قبض أرواحهم من ملك الموت فتصعد بها إلى الله تعالى حتى تسمع أن الله قد رضي عنها، كما جاء في الحديث^(١)، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ﴾ أي: دعا إلى تحقيق معنى لا إله إلا الله محمد رسول الله وعمل صالحاً، أي: عمل بما يدعو إليه ولم يكن من الذين يقولون ما لا يفعلون، فأنت ترى أن تحقيق الشهادتين ذكر في هذه الآيات مرتين، لأنه هو الأساس العظيم والصراط المستقيم، مَنْ ظفر به سعد في الدنيا والآخرة، ومن حرمه شقي في الدنيا والآخرة. اهـ.

﴿الباب الخامس﴾

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَلِيلٌ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ ﴿٣٧﴾ [فصلت: ٣٧]

قال (ك): «يقول تعالى منبهاً خلقه على قدرته العظيمة، وأنه الذي لا نظير له وأنه على ما يشاء قدير^(٢): ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَلِيلٌ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾، أي: أنه خلق الليل بظلامه والنهار بضياءه، وهما متعاقبان لا يفتران^(٣) والشمس ونورها وإشراقها، والقمر وضيائه، وتقدير منازلها في فلكه واختلاف سيره في سمائه ليعرف باختلاف سيره وسير الشمس مقادير^(٤) الليل والنهار والجمع

(١) سيأتي بتمامه مع تخريجه.

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «قادر».

(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «يقران».

(٤) في الأصل: «ومقادير» والصواب حذف الواو.

والشهور والأعوام، ويتبين بذلك حلول الحقوق وأوقات العبادات والمعاملات، ثم لما كانت الشمس والقمر أحسن الأجرام المشاهدة في العالم العلوي والسفلي، نبه تعالى على أنهما مخلوقان عبدان من عبيده، تحت قهره وتسخيره، فقال: ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ أي: ولا تشركوا به، فما تنفعكم عبادتكم له مع عبادتكم لغيره فإنه ﴿لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾^(١).

فصل

قال محمد تقي الدين: فائدة: لقد أجاد الحافظ (ك) في تفسيره هذه الآية، وحاصل معناها: إن الله آيات تدل على عظمته وعلى أنه إله العالمين، لا يعبد غيره ولا يحكم بشرع غيره، فالموفق العاقل يستدل بتلك الآيات التي من أظهرها الليل والنهار والشمس والقمر، ولا يشغله الإعجاب بها عن تعظيم خالقها وتنزيهه وحمده وشكره، والجاهل المغفل هو الذي يشغله الإعجاب بالصنعة وينسى الصانع، ﴿سَوَّاهُ اللَّهُ فَأَسْلَمَتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَفَلْيَكْ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [الحشر: ١٩]. ولو فكر الذين يعبدون الشمس والقمر والأنبياء والصالحين وتمائيلهم وقبورهم - وهي الأصنام والأوثان - لو فكروا في خالقهم وصانعهم وقدره حق قدره، لما عبدوا معه غيره. اهـ.

الباب السادس

قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يُرْدُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِيَ قَالُوا أَعَدْتْنَا مَا مِثْلًا مِنْ شَيْءٍ ۖ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَنُوا مَا لَهُمْ مِنْ نَجِيصٍ ۖ ﴿٤٨﴾﴾ [فصلت: ٤٧، ٤٨]

قال (ك): «وقوله جل وعلا: ﴿إِلَيْهِ يُرْدُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ أي: لا يعلم ذلك أحد سواه، كما قال محمد ﷺ - وهو سيد البشر - لجبريل عليه الصلاة والسلام - وهو من سادة^(٢) الملائكة - حين سأله عن الساعة فقال: «ما المسؤول عنها

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٢/٢٤٤). (٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «سادات».

بأعلم من السائل»^(١)، وكما قال ﷺ: ﴿إِلَّا رَبَّكَ مُنْتَهَى﴾ [النازعات: ٤٤] وقال جلّ جلاله: ﴿لَا يَجْلِبُهَا لُوقُهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: ١٨٧] وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا يَعْلَمُهُ﴾ أي: الجميع يعلمه، لا يعزب عن علمه من^(٢) مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء. وقوله جل وعلا: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَتَيْنَ شُرَكَاءِي﴾ أي: يوم القيامة ينادي الله المشركين على رؤوس الخلائق: ﴿أَتَيْنَ شُرَكَاءِي﴾ الذين عبدتموهم معي ﴿قَالُوا ءَاذَنَّاكَ﴾ أي: أعلمناك ﴿مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ﴾ أي: ليس أحد منا يشهد اليوم أن معك شريكاً ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَاءٌ كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ﴾ أي: ذهبوا فلم ينفعوهم ﴿وَوُظِّنُوا مَا لَهُمْ مِنْ نَجْحٍ﴾ أي: وُظِّنَ المشركون يوم القيامة، وهذا بمعنى اليقين ﴿مَا لَهُمْ مِنْ نَجْحٍ﴾ أي: لا محيد لهم من عذاب الله^(٣).

فصل

قال محمد تقي الدين: فائدة: أجمع أهل السنة والجماعة على أنه لا يعلم الغيب إلا الله، ومن اعتقد أن أحداً من المخلوقين يعلم الغيب فقد كفر بالقرآن العظيم، وكذب القرآن والرسول ﷺ وقد تقدم ذلك في مواضع كثيرة، وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ...﴾ إلى آخر الآية تقدم مثله كذلك. ولو كان المشركون في هذا الزمان يؤمنون بالله ورسوله ويعقلون عن الله ورسوله ما اتخذوا من دون الله أولياء يحبونهم كحب الله، بل أكثر، ويعظمونهم كتعظيم الله بل أكثر، ويهتفون بأسمائهم عند القيام والقعود، وعندما يصيبهم أدنى فزع، فهؤلاء هم الذين يوبخهم الله تعالى بقوله: ﴿أَتَيْنَ شُرَكَاءِي الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ فينظرون يميناً وشمالاً فلا يجدون شيئاً، بل يكون أولياؤهم عليهم ضدّاً، ويكفرون بعبادتهم ويتبرؤون منهم، فحينئذ يقولون: سبحانك ما منا من شهيد، ولكن ذلك لا ينفعهم ولا مناص لهم من عذاب الله، فالحمد لله الذي هدانا لتوحيده واتباع رسوله محمد ﷺ.

(١) أخرجه مسلم في أول «صحيحه» - وهو الحديث الأول - ضمن حديث طويل عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٢) من مطبوع «تفسير ابن كثير» وسقطت من الأصل.

(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (٢٤٨/١٢).

سُورَةُ الشُّورَى

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِظَ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ٦﴾ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِنُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَنُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَبَّ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ٧ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ٨ أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَإِنَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ٩﴾ [الشورى: ٦ - ٩]

قال (ك): «وقال ﷺ: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾؛ يعني: المشركين، ﴿اللَّهُ حَفِظَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: شهيد على أعمالهم يحصيها ويعدها عداً، وسيجزئهم^(١) بها أوفر الجزاء، ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ أي: إنما أنت نذير والله على كل شيء وكيل». وقوله ﷻ: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ الآية قال (ك): «يقول تعالى: وكما أوحينا إلى الأنبياء قبلك ﴿أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ أي: واضحاً جلياً بيناً ﴿لِنُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى﴾ وهي مكة، ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾، أي: من سائر البلاد شرقاً وغرباً، وسميت مكة أم القرى لأنها أشرف من سائر البلاد، لأدلة كثيرة مذكورة في مواضعها، ومن أوجز ذلك وأدله: ما قال الإمام أحمد وغيره بسنده عن عبد الله بن عدي الزهري سمع رسول الله ﷺ يقول وهو واقف في سوق مكة: «والله إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إلى الله ولولا أنني أخرجت منك ما خرجت»^(٢). وقوله ﷻ: ﴿وَنُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ﴾ وهو يوم القيامة

(١) في الأصل: «وسيجزهم».

(٢) أخرجه أحمد (٤/٣٠٥)، وعبد بن حميد (٤٩١)، والدارمي (٢٥١٠)، والترمذي (٣٩٢٥)، والنسائي في «الكبرى» (٤٢٥٢ - ٤٢٥٣)، وابن ماجه (٣٠١٨)، وابن أبي =

يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد، وقوله تعالى: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي: لا شك في وقوعه، وأنه كائن لا محالة، وقوله جل وعلا: ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمُ يَوْمَ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّلَافُي﴾ [التغابن: ٩] أي: يغيب أهل الجنة أهل النار، وقوله ﷻ: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أي: إما على الهداية أو على الضلال^(١)، ولكنه تعالى فاوت بينهم، فهدى من شاء^(٢) إلى الحق؛ وأضل من شاء^(٢) عنه، وله الحكمة والحجة البالغة، ولهذا قال ﷻ: ﴿وَلَكِنْ يَدْخُلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِي وَالْظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾.

وقوله تعالى: ﴿أَوِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَأَلَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

قال (ك): «يقول تعالى منكرًا على المشركين في اتخاذهم آلهة من دون الله، ومخبرًا أنه هو^(٣) الولي الحق الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده، فإنه هو^(٣) القادر على إحياء الموتى ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾»^(٤).

فصل

قال محمد نقي الدين: فائدة: تكرر هذا المعنى في الآيات المكية كقوله تعالى في سورة الغاشية: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ ﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ﴾ [الغاشية: ٢١ - ٢٢] وكقوله تعالى في هذه السورة: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيفًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ الآية. لأن النبي ﷺ لم يؤمر بقتال المشركين في مكة، وإنما أمر بالتبليغ والصبر على الأذى.

= عاصم في «الآحاد والمثاني» (٦٢١)، والفسوي في «المعرفة والتاريخ» (٢٤٤/١)، وابن حبان (٣٧٠٨)، والحاكم (٧/٣، ٢٨٠، ٤٣١)، وابن خزيمة - كما في «إتحاف المهرة» (٢٥٥/٨) -، والطبراني في «الأوسط» (٤٥٧)، وابن عبد البر في «التمهيد» (٢٨٨/٢)، ٢٨٩ و٣٢/٦ - ٣٣، و«الاستذكار» (١٥/٢٦ - ١٦)، والفاكهي في «أخبار مكة» (٢٥١٤)، وإسناده صحيح، وصححه شيخنا الألباني. وانظر: «العلل» (٢٨٠/١، ٢٨٢) لابن أبي حاتم، و«دلائل النبوة» (٥١٨/٢) للبيهقي.

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الضلالة».

(٢) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «يشاء».

(٣) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».

(٤) انظر: «تفسير ابن كثير» (٢٥٦/١٢ - ٢٦٠) بتصرف.

قال محمد تقي الدين: فائدة ثانية: قوله: «فاوت بينهم، فأضل من شاء بعدله وهدى من شاء بفضل» تقدم أن الله لا يضل إلا من سلك سبيل الضلال، ونبذ طريق الهدى، واتبع هواه، أما من طلب الهدى فإن الله يهديه؛ في الحديث القدسي - وهو حديث أبي ذر الطويل -: «يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم...»^(١) الحديث، وقد تقدم هذا المعنى بأبسط من هذا.

قال محمد تقي الدين: فائدة ثالثة: ذكر الله تعالى الأولياء في القرآن في مواضع كثيرة، وذم من اتخذهم ونهى عنهم، والمشركون في هذا الزمان يذكرونهم في كل حين ويعطون لأجلهم ويمنعون لأجلهم، ويحبون لأجلهم ويبغضون لأجلهم، ويسألونهم حاجاتهم استقلالاً، قال شاعرهم:

أولياء الإله إني مريضٌ والدواء لديكم والشفاء
انظروا لي بفضلكم في علاجي وأمنحوني بـجودكم ما أشاء

وهذه غاية الضلال، فلو قال: يا الله ويا أولياء الله امنحوني ما أشاء، لكان مشركاً كافراً، فكيف وقد أفردهم بالدعاء، وهذه الآية الكريمة تغبر في وجوه المشركين وتنكر عليهم أشد الإنكار، لو كانوا يعقلون.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا اخْلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ نرجو أن يوفقنا الله تعالى ونذكرها في (توحيد الاتباع) من كتاب «سبيل الرشاد»، وكذلك قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾^(٢).

الباب الثاني

قوله تعالى: ﴿فَأُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَنَجَّ الْحَيَوَاتِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (٣٦) وَالَّذِينَ يَحْنَبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ (٣٧) وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْصُرُونَ (٣٩) [الشورى: ٣٦-٣٩]

(١) أخرجه مسلم (٢٥٧٧) ولشيخ الإسلام ابن تيمية «جزء مفرد» في (شرح) وهو مطبوع أكثر من مرة.

(٢) لم يذكر - للأسف - المصنف ﴿وَمَا اخْلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ...﴾؛ بينما ذكر ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ...﴾، انظر: ما سيأتي (٧٨/٤).

قال (ك): «يقول تعالى محقراً لشأن الحياة الدنيا وزينتها وما فيها من الزهرة والنعيم الفاني، بقوله تعالى: ﴿فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّعُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ أي: مهما حصلتم وجمعتم فلا تغتروا به، وإنما هو متاع الحياة الدنيا وهي دار دنيئة فانية زائلة لا محالة، ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾، أي: وثواب الله خير من الدنيا وهو باقي سرمدي، فلا تقدموا الفاني على الباقي. ولهذا قال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي: للذين صبروا على ترك الملاذ في الحياة^(١) الدنيا، ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أي: ليعينهم على الصبر في أداء الواجبات، وترك المحرمات^(٢)».

ثم قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَحْنَبُونَ كِبَرُ الْأَيْمِ وَالْفَوَاحِشِ﴾ قال صاحب «اللسان»^(٣): «الفواحش: القبائح، من القول والفعل»، والمراد هنا كبائر الذنوب والإثم. «وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ» أي: سجيّتهم تقتضي الصفح والعفو عن الناس، ليس سجيّتهم الانتقام من الناس، وقد ثبت في «الصحيح» أن رسول الله ﷺ ما انتقم لنفسه قط إلا أن تنتهك حرّمة الله^(٤). وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ﴾ أي: اتبعوا رسله وأطاعوا أمره واجتنبوا زجره، ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ وهي أعظم العبادات. قال ﷺ: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ أي: لا يبرمون أمراً حتى يتشاوروا فيه، ليتساعدوا بآرائهم في مثل الحروب وما جرى مجراها، كما قال تبارك وتعالى: ﴿وَشَاوَرَهُمْ فِي الْأُمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩] الآية. ولهذا كان النبي ﷺ يشاورهم في الحروب ونحوها ليطيب بذلك قلوبهم، وهكذا لما حضرت عمر بن الخطاب رضيه الله عنه الوفاة حين طعن جعل الأمر بعده شورى في ستة نفر، وهم: عثمان وعلي، وطلحة، والزبير، وسعد، وعبد الرحمن بن عوف رضيه الله عنه^(٥) فاجتمع رأي الصحابة كلهم رضيه الله عنه على تقديم عثمان عليهم^(٦). ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُفْقُونَ﴾ وذلك بالإحسان إلى خلق الله الأقرب إليهم منهم فالأقرب، وقوله ﷺ: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ﴾^(٧) أي: فيهم قوة الانتصار ممن ظلمهم واعتدى عليهم، ليسوا بالعاجزين ولا الأذلين^(٧)، بل يقدرّون على الانتقام ممن بغى

(١) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير». (٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (٢٨٥/١٢).

(٣) نقله المصنف رحمه الله من «لسان العرب» (٣٢٥/٦ - ٣٢٦ - فحش) بتصرف.

(٤) أخرجه البخاري (٦١٢٦)، ومسلم (٣٥٦٠) من حديث عائشة.

(٥) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أجمعين».

(٦) انظر: «المجالسة» رقم (٢٤٠) وتعليقي عليه.

(٧) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أذلة».

عليهم، وإن كانوا مع هذا إذا قدروا عفواً، كما قال يوسف عليه الصلاة والسلام لإخوته: ﴿لَا تَتْرِبْ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [يوسف: ٩٢] مع قدرته على مؤاخذتهم ومقابلتهم على صنيعهم إليه، وكما عفا رسول الله ﷺ عن أولئك نفر الثمانين الذين قصدوه عام الحديبية ونزلوا من جبل التنعيم، فلما قدر عليهم من عليهم^(٢)، مع قدرته على الانتقام^(٣)، وكذلك عفوه عن غورث بن الحارث الذي أراد الفتك به حين اخترط سيفه وهو نائم، فاستيقظ ﷺ وهو في يده صلتاً، فأنهز فوضعه من يده، وأخذ رسول الله ﷺ السيف من يده، ودعا أصحابه ثم أعلمهم بما كان من أمره، وأمر هذا الرجل، وعفا عنه^(٤)، وكذلك عفا عن لبيد بن الأعصم الذي سحره ﷺ^(٥)، ومع هذا لم يعرض له ولا عاتبه مع قدرته عليه، وكذلك عفوه عن المرأة اليهودية، وهي زينب أخت مرحب اليهودي الخيري؛ التي سمت الذراع يوم خيبر فأخبره الذراع بذلك فدعاها فاعترفت، فقال: «ما حملك على ذلك؟» قالت: أردت: إن كنت نبياً لم يضرّك، وإن لم تكن نبياً استرحنا منك، فأطلقها^(٦)، ولكن لما مات منه بشر بن البراء قتلها به^(٧) ^(٨) اهـ.

(١) سقطت في الأصل!

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «عفا عنهم».

(٣) ورد ذلك في قصة طويلة، تراها في «صحيح مسلم» (١٨٠٧)، و«مسند أحمد» (٤٨/٤)، (٨٦، ٨٧)، و«المستدرک» (٤٦٠/٢)، وانظر: «مرويات غزوة الحديبية» (ص ١٠٢ - ١٠٤) و١١٥ - ١١٩).

(٤) أخرج قصته: البخاري (٢٩١٣، ٤١٢٥، ٤١٢٧، ٤١٣٠، ٤١٣٥، ٤١٣٩) مختصرة، ومسلم (٨٤٣) من حديث جابر بن عبد الله. وسُمّي بـ (غورث) في «صحيح البخاري» (٤٢٦/٧)، و«مسند أحمد» (٣٦٤/٣ - ٣٦٥)، و«سنن سعيد بن منصور» (٢/٢٣٨، ط. الأعظمي) وقيل غير ذلك. انظر: «إيضاح الإشكال» رقم (١٣٨)، و«الأسماء المبهمة» رقم (١٢٣) للخطيب، و«الغوامض» لابن بشكوال رقم (١٢١)، و«تنبيه المعلم» (٣٣٧ - بتحقيقي).

(٥) أخرج قصته البخاري (٣١٦٩، ٤٢٤٩، ٥٧٧٧) من حديث أبي هريرة.

(٦) أخرجه البخاري (٥٧٧٧) من حديث أبي هريرة.

(٧) أخرجه أبو داود (٤٥١١، ٤٥١٢)، - ومن طريقه البيهقي في «الدلائل» (٤/٢٦٢)، - والدارمي (٦٧)، وابن سعد (١/١١٣ - ١١٤)، وهو حسن.

(٨) انظر: «تفسير ابن كثير» (٢٨٥/١٢).

فصل

قال محمد تقي الدين: فائدة: محل الشاهد هنا في هذه الآيات قوله تعالى: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أي: لا يعتمدون بقلوبهم في جلب الخير ودفع الشر إلا على الله تعالى، مع اتصافهم بالصفات المذكورة، ولو توكّلوا على غير الله تعالى لبطل ما كانوا يعملون.

﴿الباب الثالث﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَتْ لَهُمْ مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ وَمَنْ يُضْلِلِ

اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ﴾ ﴿٤٦﴾ [الشورى: ٤٦]

قال (ك): «﴿وَمَا كَانَتْ لَهُمْ مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي: ينقذونهم مما هم فيه من العذاب والنكال، ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ﴾ أي: ليس له خلاص»^(١). اهـ.

فصل

قال محمد تقي الدين: فائدة: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَآئِهِمُ الظُّلُمَاتُ يُخْرِجُهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ﴿٢٥٧﴾ [البقرة: ٢٥٧] والظالمون ما لهم من أولياء ينقذونهم من عذاب الله، وإن كانوا يزعمون في أساطيرهم وحكاياتهم الباطلة أن هناك أهل النبوة من أوليائهم، وهم: الحرس المكلفون بإنقاذ من استغاث بهم، وهم في ذلك كاذبون، فإنه لا يجيب المضطر إذا دعاه إلا الله كما تقدم^(٢) في (سورة النمل). اهـ.

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٢٩٢/١٢).

(٢) انظر (١٣٣).

سُورَةُ الزَّحْرِ

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبُدُ الرَّحْمَنِ إِنْتًا أَشْهَدُوا خَلَقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَدَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾ (١٩) وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ أَنَيْنَظُّكُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَرِهِمْ مُهُتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَرِهِمْ مُقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ أُولَئِكَ حِجَّتُكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَانظُرْنَا مِنْهُمْ فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴿٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيِّدُنِي ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ [الزحرف: ١٩ - ٢٨]

قال (ك): وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبُدُ الرَّحْمَنِ إِنْتًا﴾ أي: اعتقدوا فيهم ذلك فأنكر عليهم تعالى قولهم ذلك، فقال: ﴿أَشْهَدُوا خَلَقَهُمْ﴾ أي: شاهدهوه وقد خلقهم الله إنثاءً، ﴿سَتُكْتَبُ شَهَدَتُهُمْ﴾ أي: بذلك ﴿وَيُسْأَلُونَ﴾ عن ذلك يوم القيامة، وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد، ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ﴾ أي: لو أراد الله لحال بينهم وبين عبادة هذه الأصنام - التي هي على صورة الملائكة - التي هي بنات الله، فإنه عالم بذلك وهو يقررنا^(١) عليه، فجمعوا بين أنواع كثيرة من الخطأ:

(١) كذا في مطبوع "تفسير ابن كثير"، وفي الأصل: "يقررنا"!

أحدها: جعلهم الله تعالى ولدًا، تعالى وتقدّس وتنزّه عن ذلك علوًّا كبيراً.

الثاني: دعواهم أنه اصطفى البنات على البنين، فجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً.

الثالث: عبادتهم لهم مع ذلك كله بلا دليل ولا برهان ولا إذن من الله ﷻ، بل بمجرد الآراء والأهواء والتقليد للأسلاف والكبراء والآباء، والخبط في الجاهلية الجهلاء.

الرابع: احتجاجهم بتقديرهم على ذلك قدرًا، وقد جهلوا في هذا الاحتجاج جهلاً كبيراً، فإنه تعالى قد أنكر ذلك عليهم أشد الإنكار، فإنه منذ بعث الرسل وأنزل الكتب يأمر بعبادته وحده لا شريك له، وينهى عن عبادة ما سواه، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الصَّلَاطَ فَمِنْهُمْ مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الصَّلَاطَةُ فَنَسُوا فِي الْأَرْضِ فَأَنظَرُوا كَيْفَ كَانَ عَقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [النحل: ٣٦] وقال جل وعلا في هذه الآية بعد أن ذكر حجتهم هذه: ﴿مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ أي: بصحة ما قالوه واحتجوا به ﴿إِنَّهُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ أي: يكذبون ويقولون^(١).

وقوله تبارك وتعالى: ﴿أَمْ ءَاتَيْنَاكُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَسْكِنُونَ ﴿٣٧﴾﴾ الآيات، قال (ك): «يقول تعالى منكرًا على المشركين في عبادتهم غير الله بلا برهان ولا دليل ولا حجة: ﴿أَمْ ءَاتَيْنَاكُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ﴾ أي: من قبل شركهم ﴿فَهُمْ بِهِ مُسْتَسْكِنُونَ﴾ أي: فيما هم فيه، أي: ليس الأمر كذلك، ثم قال تعالى: ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ ءَاثَرِهِمْ مُّهُتَدُونَ ﴿٣٨﴾﴾ أي: ليس لهم مستند فيما هم فيه من الشرك سوى تقليد الآباء والأجداد بأنهم كانوا على أمة، والمراد بها الدين ههنا، وفي قوله تبارك وتعالى: ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ ﴿٣٩﴾﴾ [المؤمنون: ٥٢] وقولهم: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ءَاثَرِهِمْ﴾ أي: وراءهم ﴿مُّهُتَدُونَ﴾، دعوى منهم بلا دليل، ثم بيّن جل وعلا أن مقالة هؤلاء قد سبقهم إليها أشباههم ونظراؤهم من الأمم السالفة^(٢) المكذبة للرسل، تشابهت قلوبهم، فقالوا مثل مقالتهم: ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُّجْنُونٌ ﴿٥١﴾﴾ أَنْوَاصًا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٢/٣٠٦ - ٣٠٧).

(٢) من مطبوع «تفسير ابن كثير» وسقطت من الأصل.

طَاغُونَ ﴿٥٦﴾ [الذاريات: ٥٢ - ٥٣] وهكذا قال ههنا: ﴿مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرُكُهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ﴾ ثم قال ﷻ: ﴿قُلْ﴾ أي: يا محمد لهؤلاء المشركين، ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِآيَاتٍ مِّمَّا وَجَدْتُمْ عَلَىٰ آبَاءِكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ أي: ولو علموا وتيقنوا صحة ما جئتهم به لما انفادوا لذلك بسوء^(١) قصدهم ومكابرتهم للحق وأهله، قال الله تعالى: ﴿فَأَنفَقْنَا مِنْهُمْ﴾ أي: من الأمم المكذبة بأنواع من العذاب، كما فصله تبارك [وتعالى] في قصصهم ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ أي: كيف بادوا وهلكوا وكيف نجي الله المؤمنين^(٢).

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٥٧﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴿٥٨﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِيهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٩﴾﴾ يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله وخليفه إمام الحنفاء، ووالد من بعث بعده من الأنبياء، الذي تنتسب إليه قريش في نسبها ومذهبها، أنه تبرأ من أبيه وقومه في عبادتهم الأوثان، فقال: ﴿إِنِّي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴿٥٨﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِيهِ﴾ أي: هذه الكلمة وهي عبادة الله وحده لا شريك له وخلع ما سواه من الأوثان، وهي «لا إله إلا الله» أي: جعلها دائمة في ذريته، يقتدي به فيها من هداة الله تعالى من ذرية إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي: إليها^(٣).

قال محمد تقي الدين: فائدة: شرح الحافظ (ك) بأن عبادة أولئك المشركين للملائكة كانت بواسطة تماثيل جعلوها لهم وسموها بأسمائهم، كما يفعل عباد القبور حين يشيدون القباب، ويصنعون التواييت على القبور، ويجعلون للتأبوت كسوة كالكبعة، ويعلقون المصابيح والثريات، ويزخرفون الوثن بأنواع الزخرفة، ويحكون للناس حكايات يختلقونها، مضمنها أن ذلك الوثن جاءه ناس قد عميت أبصارهم فرجعوا يبصرون، وجاءه ناس قد استولى شلل على أجسادهم فرجعوا يمشون، وجاءه ناس مجانيين فرجعت إليهم عقولهم، وبهذه الحكايات ينشرون الشرك في الناس، قاتلهم الله.

فائدة ثانية: احتج المشركون بالقدر في قديم الزمان وحديثه، وقد ذكر الله

(١) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «لسوء»!

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (٣٠٧/١٢ - ٣٠٨).

(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (٣٠٩/١٢).

تعالى احتجاجهم وأنكر ذلك عليهم، وسماه تكذيباً في سورة الأنعام: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَاسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾﴾ [الأنعام: ١٤٨] قال (ك): «هذه مناظرة ذكرها الله تعالى، وشبهة تشبث بها المشركون في شركهم وتحريم ما حرموا، فإن الله مطلع على ما هم فيه من الشرك والتحريم لما حرموه، وهو قادر على تغييره، بأن يلهمنا الإيمان أو يحول بيننا وبين الكفر فلم يغيره، فدل على أنه بمشيئته وإرادته ورضاه منا بذلك، ولهذا قالوا: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ﴾ كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ﴾ الآية وكذلك الآية التي في النحل مثل هذه^(١) سواء قال الله تعالى: ﴿كَذَبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي: بهذه الشبهة ضل من كان^(٢) قبل هؤلاء وهي حجة داحضة باطلة، لأنها لو كانت صحيحة لما أذاقهم الله بأسه ودمر عليهم ونصر^(٣) عليهم رسله الكرام، وأذاق المشركين من أليم الانتقام ﴿قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ﴾ أي: بأن الله راض عنكم فيما أنتم فيه ﴿فَتُخْرِجُوهُ﴾ أي: فتظهره هنا لنا^(٤)، وتبينوه وتبرزوه؟ ﴿إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ أي: الوهم والخيال، والمراد بالظن ههنا الاعتقاد الفاسد ﴿وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ أي^(٥): تكذبون على الله فيما ادعيتموه، قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: «﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا﴾ وقال: ﴿كَذَلِكَ كَذَبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾، ثم قال: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا﴾ فإنهم قالوا عبادتنا الآلهة تقربنا إلى الله زلفى فأخبرهم الله أنها لا تقربهم، وقوله^(٦): ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا﴾ يقول تعالى: لو شئت لجمعتهم على الهدى أجمعين^(٧)». وقوله تعالى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَلِيغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْتُكُمْ أَجْمِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ يقول تعالى لنبيه ﷺ: قل لهم يا محمد: ﴿فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَلِيغَةُ﴾ أي: له الحكمة

(١) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «هذا».

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ضل». (٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وأدال».

(٤) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وسقط من الأصل.

(٥) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «فقوله».

(٦) أخرجه ابن جرير في «التفسير» (٦٥٠/٩)، وابن أبي حاتم في «التفسير» (٨٠٥١/٥)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (ص ٢٥٥)، وهو في «صحيفة علي بن أبي طلحة» رقم (٤٣٦).

التامة والحجة البالغة في هداية من هدي وإضلال من ضل^(١) ﴿فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْنَاكُمْ أَجْمِينَ﴾ فكل ذلك بقدرته ومشيئته واختياره، وهو مع ذلك يرضى عن المؤمنين ويبغض الكافرين^(٢).

فصل

قال محمد نقي الدين: قد أجاد الحافظ (ك) ﷺ في الرد على المحتجين بالقدر. ومما يزيد كلامه وضوحاً أن يقال: قال الله تعالى في سورة الدهر: ﴿إِنَّا هَدَيْنَا السَّبِيلَ إِنَّمَا شَاكَرَا وَإِنَّمَا كَفَرُوا﴾ [الإنسان: ٣]. وقال تعالى في سورة الشمس: ﴿فَالْمَمْنَاهَا نُجُورًا وَتَقْوَاهَا ۖ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ رَزَّهَا ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّهَا﴾ [الشمس: ٨ - ١٠] وقال تعالى في سورة البلد: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠] أي: طريق الخير وطريق الشر وسبب الاحتجاج بالقدر الجهل بإرادة الله تعالى، وعدم التمييز بين الإرادة القدرية والإرادة الشرعية^(٣)، فإن الله تعالى قدر كل شيء بمعنى أنه عالم بما سيختاره عباده، وأن بعضهم سيختار طريق الخير، وهو الإيمان بالله وطاعته واتباع رسله، وبعضهم سيختار طريق الشر، وهو: الكفر بالله ومعصيته ورد ما جاءت به رسله، فمن اختار منهم طريق الخير والهدى هداه الله ووفقه، قال تعالى في سورة محمد ﷺ: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُم تَقْوَاهُمْ﴾ [محمد: ١٧] وقال تعالى في سورة التغابن: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ﴾ [التغابن: ١١] وقال النبي ﷺ في حديث أبي ذر الطويل فيما يرويه عن ربه ﷻ أنه قال: «يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم»^(٤). فكل من استهدى الله هداه ييقن، وهو الذي لا يخلف الميعاد، وقال تعالى فيمن اختار طريق الشر في سورة البقرة: ﴿يُضِلُّ بِهِ﴾ [البقرة: ٢٦] أي: بالمثل أو بالقرآن ﴿كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الَّذِينَ الْفَاسِقِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأنعام: ١٧] وقال تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْسَادَهُمْ

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أضل».

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (٦/٢٠٤ - ٢٠٥).

(٣) انظر: ما سيأتي في (٦/١٨) من التفريق بينهما، ففيه تفصيل جيد.

(٤) مضى تخريجه.

وَأَبْصَرْتَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرْتَهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾ [الأنعام: ١١٠] فإذا عرض الحق على الإنسان لأول مرة وكان سليم القلب من اتباع الهوى، فإنه يستعمل فكره فيرى الحق حقاً فيؤمن به ويهتدي فيزيده الله هدى، وإذا عرض عليه الحق فمنعه الهوى من النظر فيه والتفكير بقلب سليم، فكذب به اتباعاً لهواه أضله الله وختم على قلبه فلا يستطيع أحد أن يهديه، وقال تعالى في سورة الصف: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ فلو لم يزيغوا لهداهم الله، وقال تعالى في سورة فصلت: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَنْقُوتُونَ ﴿١٨﴾﴾ [فصلت: ١٧ - ١٨].

والإرادة الثانية: إرادة شرعية، وهي: في معنى الرضى، فلا يريد الله تعالى بهذه الإرادة الشرعية إلا ما شرعه لعباده، قال تعالى في سورة الزمر: ﴿وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧] وقال تعالى في سورة الأعراف إخباراً عن الكفار: ﴿وَلِذَا فَعَلُوا فَحْشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَةِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [الأعراف: ٢٨ - ٢٩] وقال تعالى فيها أيضاً: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأعراف: ٣٠]. اهـ.

قال محمد تقي الدين: فلو لم يتخذوا الشياطين أولياء من دون الله لما حقت عليهم الضلالة، والآيات في هذا المعنى أكثر من أن تحصى، فمن احتج بالقدر على استمراره في الكفر أو في المعاصي، فهو: جاهل بحقيقة إرادة الله تعالى، أو مغالط مكذب، كما تقدم في آيات الأنعام، ولنضرب لذلك مثلاً والله المثل الأعلى: جماعة من الناس قصدوا رجلاً غنياً وقالوا له: نحن نحسن التجارة ونربح فيها، ونخرج من هذا الفقر المؤلم، ولنا عليك حق، فلو أقرضت كل واحد منا شيئاً يتخذه رأس مال لكنت سبباً في إنقاذنا من ألم الفقر دون أن نخسر شيئاً، فإننا نأخذ الربح ونرد لك رأس المال، وهذا الرجل الغني يعلم أن بعضهم صادق فيما ادعاه، وبعضهم كاذب يدعي ما لا يقدر عليه، فأعطى كل واحد منهم مقدراً معلوماً من المال، وضرب لهم أجل خمس سنين مثلاً، وبعد مضي الأجل استرد منهم رأس المال. فأما الذين كانوا صادقين، فإنهم ردوا

للمقرض قرضه، وبقي لهم خير كثير، يكفيهم أن يعيشوا عيشاً زغداً، وأما الكاذبون فلم يجد عندهم شيئاً لا رأس مال ولا ربحاً، وهذا المثل نفسه يصلح ردّاً على الاشتراكية الشيوعية، وللدرد على الشيوعيين مقام آخر، والله أعلم.

وبعد ذلك أقول: لو أن الله تعالى أجبر الناس على الهدى ومنعهم من الكفر والمعاصي بحيث أن من كفر أو همّ بالكفر أو المعاصي يصيب لسانه وجوارحه شلل، فلا يتكلم ولا يتحرك حتى يتوب ويعزم على ترك الكفر، والمعصية لبطل الثواب والعقاب، ولما كانت دار عذاب ولا كرامة، وصار الناس أمة واحدة سواسية، لا فضل لأحد على أحد وأصبحوا كالألات، أو كالشمس والقمر، بدون إرادة ولا اختيار، يحركهم غيرهم فيتحركون، فلا يستحقون ثواباً ولا عقاباً، ولا يوصفون بإحسان ولا إساءة، وهذا ما لم يرده الله تعالى فله الحكمة البالغة. اهـ.

فائدة ثالثة: قول الحافظ (ك): «أي: من قبل شركهم» تفسير لما يعود عليه الضمير، في قوله تعالى من قبله، وعندني فيه نظر، والذي يظهر أن يعود على القرآن وإن لم يتقدم له ذكر، فهو كقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ۝﴾ [القدر: ١] وقد تقدم ذكر القرآن، إلا أنه بعيد، والدليل على ذلك قوله تعالى في سورة الأحقاف: ﴿أَتَتَوَكَّلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ۚ وَاللَّهُ يَتَوَكَّلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ۚ﴾ [الأحقاف: ٤] ثم نظرت في «البيضاوي»^(١) فوجدت كلامه مطابقاً لما رأيته، والكمال لله.

﴿الباب الثاني﴾

قوله تعالى: ﴿فَاسْتَمِيعْ بِالَّذِي أَوْحَىٰ إِلَيْكَ ۚ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۝٤٣﴾
وَأَنَّهُ لَذِكْرُ لَكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُنْصَلُونَ ۝٤٤﴾ وَسَلِّ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ
مِنْ رُسُلِنَا أَجْعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا ۚ يُعْبَدُونَ ۝٤٥﴾ [الزخرف: ٤٣ - ٤٥]

قال (ك): «يقول ﴿٤٣﴾: ﴿فَاسْتَمِيعْ بِالَّذِي أَوْحَىٰ إِلَيْكَ ۚ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾
﴿٤٤﴾ أي: خذ بالقرآن المنزل على قلبك فإنه هو^(٢) الحق، وما يهدي إليه هو

(١) انظر: «تفسير البيضاوي» (٣٧١/٢).

(٢) غير موجودة في مطبوع «تفسير ابن كثير».

الحق المفضي إلى صراط الله المستقيم الموصل إلى جنات النعيم، والخير الدائم المقيم، ثم قال جل جلاله: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ قيل: معناه: لشرف لك ولقومك، قاله ابن عباس وغيره^(١) وأورد البغوي^(٢) والبخاري بسندهما عن معاوية قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن هذا الأمر في قريش لا ينازعهم فيه أحد إلا كبه الله تعالى على وجهه ما أقاموا الدين»^(٣)، معناه أنه شرف لهم من حيث إنه أنزل بلغتهم، فهم أفهم الناس له، فينبغي أن يكونوا أقوم الناس به، وأعملهم بمقتضاه، وهكذا كان خيارهم وصفوتهم من الخُلص من المهاجرين السابقين الأولين ومن شابههم وتابعهم، وقيل: معناه: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ أي: لتذكير لك ولقومك، وتخصيصهم بالذكر لا ينفي من سواهم، كقوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، وكقوله تبارك وتعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤] ﴿وَسَوْفَ تَسْتَخْلُونَ﴾ أي: عن هذا القرآن، وكيف كنتم في العمل به والاستجابة له، وقوله ﷺ: ﴿وَسَلَّ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهَةً يُعْبَدُونَ﴾ أي: جميع الرسل دعوا إلى ما دعوت الناس إليه من عبادة الله وحده لا شريك له، ونهوا عن عبادة الأصنام والأنداد، كقوله جلّت عظمتة: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْبِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الصَّلُوتَ﴾، قال مجاهد في قراءة عبد الله بن مسعود^(٤): (وسل الذين أرسلنا إليهم قبلك رسلنا) وهذا كأنه تفسير لا تلاوة، والله أعلم^(٥).

(١) حكاه ابن كثير عن مجاهد وقتادة والسدي وابن زيد، وقال: «واختاره ابن جرير ولم يحك سواه».

وأخرجه ابن جرير (٦٠٣/٢٠)، وابن أبي حاتم - كما في «الإتقان» (٤٢/٢) - والطبراني (١٣٠٣٠)، والبيهقي في «الشعب» (١٣٩٤) من طريقين عن ابن عباس، وعزاه في «الدر المنثور» إلى ابن مرودي، وانظر: «صحيفة علي بن أبي طلحة» رقم (١١٤٥).

(٢) كذا في «تفسير ابن كثير» وفي الأصل: «الترمذي»!

(٣) أخرجه البخاري (٣٥٠٠)، وأحمد (٩٤/٤)، والبغوي في «التفسير» (١٠٢/٥)، والطبراني في «الكبير» (٣٣٧/١٩ - ٣٣٨).

(٤) هكذا عند ابن جرير (٦٠٤/٢٠) وهي شاذة، وذكره القرطبي في «تفسيره» (٩٥/١٦) على أنها قراءة مفسرة، كما قال ابن كثير، وورد عن ابن مسعود قراءات مختلفة، انظر: «المحرر» (٢٣١/١٣)، «روح المعاني» (٨٦/٢٥).

(٥) انظر: «تفسير ابن كثير» (٣١٤/١٢ - ٣١٥).

فصل

قال محمد تقي الدين: فائدة: الآيتان الأوليان من أدلة توحيد الاتباع، فإن الله أمر محمداً ﷺ أن يتمسك بالقرآن، وأن يتخذهُ سراجاً ومنازلاً يهتدي به هو وأمتُهُ، كما قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿قَالِ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ۖ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧] وقال تعالى في سورة النساء: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأُنزِلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا ۚ﴾ قَامَا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسُخِّدَ لَهُمْ فِي رَحْمَةِ رَبِّهِ وَفُضِّلَ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾ [النساء: ١٧٤ - ١٧٥] وقال تعالى في سورة التغابن: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ وَالنُّورَ الَّذِي أُنْزِلْنَا ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝﴾ [التغابن: ٨] ونرى اليوم العرب وسائر المسلمين يتخططون في الظلمات لإعراضهم عن هذا النور واتخاذهم القرآن مهجوراً، ولن يخرجوا من ظلماتهم إلا بالرجوع إليه، والاستضاءة به، واتخاذهُ إماماً وحكماً، والتمسك بسنة الرسول، التي تبينه وتشرحه، والتفسير الثاني هو الراجح، وهو أن القرآن تذكير للنبي ولقومه ولجميع العالمين، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّ الذِّكْرَ نَفْعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥] من سورة الذاريات وقال تعالى في سورة الأنبياء: ﴿لَقَدْ أُنْزِلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠] وسيأتي تحقيق (توحيد الاتباع) في (القسم الذي بعد هذا) إن شاء الله.

فائدة أخرى: قوله تعالى: ﴿وَسَلِّ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا﴾ الآية، معناه: إن كل رسول أرسله الله جاء بتوحيد الله تعالى وإنكار عبادة غيره، كائناً من كان، وهذا مبين في التوراة والأنجيل أتم تبين، انظر «البراهين الإنجيلية»^(١) لمؤلف هذا الكتاب. اهـ.

الباب الثالث

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ۝﴾ [٦٣] إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ [الزخرف: ٦٣ - ٦٤]

(١) انظر ما تقدم: (ص ٢٧).

قال (ك): ﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ﴾ أي: بالنبوة، ﴿وَلَا يَنبَغِي لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْلِفُونَ فِيهِ﴾ قال ابن جرير: «يعني: من الأمور الدينية لا الدنيوية»^(١). وهذا الذي قاله حسن جيد، ثم رد قول من زعم أن ﴿بَعْضَ﴾ ههنا بمعنى «كل» واستشهد بقول لبيد^(٢) الشاعر حيث قال:

تَرَاكَ أَمَكِنَةً إِذَا لَمْ أَرْضَهَا أَوْ يَعْتَلِقَ بَعْضَ النَفُوسِ جَمَامُهَا

وأولوه على أنه أراد جميع النفوس، قال (ج): «إنما أراد نفسه فقط، وعبر بالبعض عنها»، وهذا الذي قاله محتمل، وقوله ﴿فَإِنَّمَا أَتَى بِهَا﴾ أي: فيما أمركم به ﴿وَأَطِيعُوا﴾^(٣) فيما جئتمكم به، ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾^(٤) أي: أنا وأنتم عبيد له فقراء إليه مشتركون في عبادته وحده لا شريك له: ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ أي: هذا الذي جئتمكم به هو الصراط المستقيم، وهو عبادة الرب [جل وعلا] وحده^(٥). اهـ.

فصل

قال محمد تقي الدين: فائدة، قوله تعالى: ﴿وَلَا يَنبَغِي لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْلِفُونَ فِيهِ﴾ ليس ﴿بَعْضَ﴾ ههنا بمعنى كل لأن عيسى ابن مريم ﷺ لم يجرى بنسخ شريعة موسى كلها كما جاء محمد ﷺ بنسخ جميع الشرائع التي قبله، وإنما جاء بنسخ بعضها كالعمل يوم السبت، إذا كان فيه خير وفي تركه شر، كإنقاذ الغريق، وعلاج المريض، وإعانة المحتاج، ويؤيد هذا قوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿وَمَعْرِفًا لِّمَا يَبْتَغِي يَدُكَ مِنَ التَّوْرَةِ وَلَا أُجِدُّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران: ٥٠].

فائدة ثانية: قول عيسى ﷺ: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ﴾ الآية، انظر أيضاً «البراهين الإنجيلية» فقد جاء فيها أن سائلاً سأل عيسى ﷺ عن الوصية الأولى من الوصايا العشر، التي في التوراة فأجاب قائلاً: «اسمع يا إسرائيل: الرب إلهنا واحد وتحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل فكرك ومن كل قدرتك». اهـ من (الصفحة ١٤).

(١) انظر: «تفسير ابن جرير» (٦٣٧/٢٠).

(٢) انظر: «ديوانه» (٢٢٨، ط. دار القاموس)، والمذكور من (معلقة) له.

(٣) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وهو الصواب، وفي الأصل: «وأطعوني!!»

(٤) انظر: «تفسير ابن كثير» (٣٢٣/١٢ - ٣٢٤).

﴿الباب الرابع﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَالِدِينَ﴾ (٨١) ﴿سُبْحَنَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (٨٢) ﴿فَذَرَهُمْ يَخْضِبُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ (٨٣) ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ (٨٤) ﴿وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (٨٥) ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفْعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (٨٦) ﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ (٨٧) [الزخرف: ٨١ - ٨٧]

في «تفسير الجلالين» ما نصه: «﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ﴾ قرصاً^(١). ﴿فَأَنَا أَوَّلُ الْعَالِدِينَ﴾ للولد لكن ثبت أن لا ولد له تعالى فانتفت عبادته»^(٢).

فصل

قال محمد تقي الدين: ﴿سُبْحَنَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (٨٢) أي: تنزه خالق السموات والأرض ومالكهما والمتصرف فيهما عما يصفه به الجاهلون المشركون، من كونه له ولد، وتنزه وتقديس عن كل نقص، فذرهم، أي: اتركهم يخوضوا في باطلهم ويلعبوا في غيهم حتى يجيئهم اليوم الذي كانوا يوعدونه، وهو يوم القيامة الذي تجزى فيه كل نفس بما كسبت، ويعاقب من نسب لله ولداً أو اتخذ معه شريكاً، ثم قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ﴾ (٨٤) أي: هو معبود أهل السماء وأهل الأرض بحق وهو ﴿الْحَكِيمُ﴾ في أفعاله وفي شرعه وقدره، ﴿الْعَلِيمُ﴾ الذي لا تخفى عليه خافية، ﴿وَتَبَارَكَ﴾ أي: تعالى وتقديس ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾، وكل من سواه مملوك، ﴿وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ أي: ساعة القيامة لا يعلمها إلا هو، ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ يوم القيامة فيجزىكم بأعمالكم، ﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وَوُهِقَهُمْ مَسْوَدٌ﴾ [الزمر: ٦٠] ﴿عَلَيْهَا غَبَرَةٌ﴾ (٤١) ﴿رَمَقَهَا قُورَةٌ﴾ (٤١) [عبس: ٤٠، ٤١]، ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ

(١) بعدها في مطبوع «تفسير الجلالين»: «كما يزعمون».

(٢) انظر: «تفسير الجلالين» (ص ٦٥٥).

يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَعَةَ ﴿ وَلَوْ كَانُوا مَلَائِكَةً أَوْ أَنْبِيَاءَ أَوْ صَالِحِينَ ﴾ ، ﴿ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ ﴾ ، أي: وَحَّدَ اللهُ تعالى ﴿ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ أي: يعتقدون تنزيه الله تعالى عن الشرك وسائر النقائص، فإن الله يهب من شاء منهم الشفاعة في من شاء من المستحقين للعذاب والمعذبين، ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ ﴾ يا محمد، أي: المشركين من أهل مكة وغيرهم ﴿ مَنْ خَلَقَهُمْ ﴾ أنفسهم، ﴿ لَيَقُولَنَّ ﴾ خلقنا الله ولم يشاركه في خلقنا أحد ﴿ فَإِنَّ يُؤْفَكُونَ ﴾ أي: كيف يصرفون عن توحيده في عبادته؟! اهـ.

سُورَةُ الدُّخَانِ

الباب الاول

قوله تعالى: ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنُتُمْ مُوقِنِينَ ﴿٧﴾
لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾﴾

[الدخان: ٧، ٨]

قال (ك): «أي: الذي أنزل هذا»^(١) القرآن هو رب السموات والأرض وخالقهما ومالكهما وما فيهما ﴿إِنَّ كُنُتُمْ مُوقِنِينَ﴾ أي: إن كنتم متحققين، ثم قال تعالى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَذَكَّرُ النَّاسُ إِلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ [الأعراف: ١٥٨ الآية]^(٢).

فصل

قال محمد تقي الدين: فائدة: ذكر الله التوحيد في مواضع من كتابه العزيز، وأنكر على المشركين عبادتهم لغيره، واحتج عليهم بأنه هو وحده الذي يحيي ويميت، وكل ما سواه فإنه سبقه العدم، فأوجده الله تعالى ووهبه الحياة، وهو الذي يميت كل نفس ويذيقها الموت، فكيف يعبد من يحتاج إلى موجد يوجده، وحياته بيد ذلك الموجد يأخذها متى شاء، لا جرم أنه لا يعبد ذلك الفاني الذي يحيي ويميت، إلا من مات قلبه فنسألك اللهم أن تحيي قلوبنا، وأن تزيدنا إيماناً بك وبنبيك محمد ﷺ وبما جاء به، ﴿رَبَّنَا لَا تُرِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ ﴿٨﴾ [آل عمران: ٨].

(١) من مطبوع «تفسير ابن كثير» وسقط من الأصل.

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (٣٣٥/١٢).

﴿الباب الثاني﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٤٢) يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلَى عَنْ مَوْلَى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ (٤١) إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٤٢) [الدخان: ٤٠ - ٤٢]

قال (ك): «﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٤٢) وهو يوم القيامة يفصل الله تعالى فيه بين الخلائق فيعذب الكافرين ويشيب المؤمنين، وقوله ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلَى عَنْ مَوْلَى شَيْئًا﴾ (٤١) أي: يجمعهم كلهم أولهم وآخرهم [يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلَى عَنْ مَوْلَى شَيْئًا] (١) أي: لا ينفع قريب قريباً، كقوله ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ يَنْبَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَنْسَاءُ لُونُ﴾ (١٦) وكقوله جلّت عظمته: ﴿وَلَا يَنْتَلُ حَمِيْدٌ حَمِيْمًا﴾ (١٧) يُنصَرُونَ (٢) أي: لا يسأل أحداً له عن حاله وهو يراه عياناً، وقوله جل وعلا: ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ (٣) أي: لا ينصر القريب قريبه ولا يأتيه نصره من الخارج (٤) ثم قال: ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ﴾ (٤) أي: لا ينفع يومئذ إلا من [رحمه الله] (٥) ﴿لَخَلَقَهُ﴾ (٦): ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ (٧) أي: هو عزيز ذو رحمة واسعة» (٨). اهـ.

فصل

قال محمد تقي الدين: فائدة: كتاب الله وسنة رسوله الصحيحة ناطقان مصرحان بأن القرابة وحدها - ولو كانت للأنبياء والمرسلين - لا تنفع ولا تشفع بل أقارب الأنبياء إذا عصوهم وخالفوا طريقهم هم أشد الناس عذاباً وخزياً، انظر: (الفائدة الخامسة) من (الباب الأول) من (سورة الشعراء).

- (١) من مطبوع «تفسير ابن كثير»، وسقط من الأصل.
- (٢) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «خارج».
- (٣) من مطبوع «تفسير ابن كثير» وسقط من الأصل.
- (٤) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «بخلقه»!
- (٥) انظر: «تفسير ابن كثير» (٣٥٠/١٢).

سُورَةُ الْجَاثِيَةِ

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (٢٢) أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ [الجاثية: ٢٢ - ٢٣]

قال (ك): «﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ أي: بالعدل، ﴿وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾، ثم قال جل وعلا: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ﴾ أي: إنما ياتمر بهواه فمهما رآه حسناً فعله ومهما رآه قبيحاً تركه، وعن مالك فيما روي عنه من التفسير^(١) «لا يهوى شيئاً إلا عبده»^(٢)، وقوله: ﴿وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ يحتمل قولين: أحدهما: وأضله الله لعلمه أنه يستحق ذلك.

والآخر: وأضله الله بعد بلوغ العلم إليه^(٣) وقيام الحجة عليه، والثاني يسلتزم الأول، ولا ينعكس، ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً﴾ أي: فلا يسمع ما ينفعه ولا يعي شيئاً يهتدي به، ولا يرى حجة يستضيء بها، ولهذا قال تعالى: ﴿فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ كقوله تعالى: ﴿مَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَكَأَنَّهُ هَادٍ لَهُمْ وَإِنَّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [آل عمران: ١٨٦]»^(٤).

(١) أورد جله ابن العربي في «القيس»، وجمعه حميد لحمر في كتاب مفرد بعنوان «الإمام مالك مفسراً» فيه جمع جيد على فوت فيه.

(٢) ذكره ابن العربي في «القيس» (١٠٨١/٣) وعلق عليه بقوله: «يريد: لا يرى شيئاً إلا شغله عن الله ﷻ». وانظر: «الإمام مالك مفسراً» (٧٨٩/٣٥٢).

(٣) من مطبوع «تفسير ابن كثير»، وسقط من الأصل.

(٤) انظر: «تفسير ابن كثير» (٣٦٢/١٢).

فصل

قال محمد تقي الدين: فائدة: التحسين والتقييح فيما ينسب إلى الله من الصفات، وما ينفي عنه لا يكون إلا من طريق الشرع، أي: الكتاب والسنة، فما استحسنة الله تعالى ورسوله ﷺ، فهو الحسن، وإن لم تستحسنة عقول بعض الناس، وما استقبحه الله تعالى ورسوله، فهو القبيح وإن استحسنته عقول بعض الناس^(١)،

(١) هذه المسألة لها جوانب اتفاق واقتراح بين العلماء.

أما محل الاتفاق؛ فالعقل يدرك الحسن والقبح فيما هو ملائم للطبع أو مضاد له، فإذا لاءم الغرض الطبع؛ فحسن؛ كاللذة والحلاوة، وإذا نافر؛ فهو قبيح؛ كالآلم والمرارة، وهذا القدر معلوم بالحس والعقل والشرع، مجمع عليه بين الأولين وآخرين، بل هو معلوم عند البهائم.

أما محل الاقتراح والتنازع؛ فهو في الحسن والقبح المتعلق بالشرع، بمعنى كون الفعل سبباً للذم والعقاب أو المدح والثواب، وهل يعلم ذلك بالعقل أو لا يعلم إلا بالشرع، أم يعلم بهما معاً؟ وحاصل أقوال الناس في هذه المسألة على سبيل الإجمال ثلاثة أقوال أساسية، هي:

القول الأول: وهو قول جهم والأشعري ومن تابعه من المنتسبين إلى السنة وأصحاب مالك والشافعي وأحمد؛ كالقاضي أبي يعلى، وأبي الوليد الباجي، وأبي المعالي الجويني وغيرهم، وهو قول عموم الأشاعرة، وحاصل هذا القول: «إن الأفعال لا تتصف بصفات تكون بها حسنة ولا سيئة ألبة، وكون الفعل حسناً أو سيئاً إنما معناه أنه منهي عنه أو غير منهي عنه، وهذه الصفة إضافية لا تثبت إلا بالشرع»، أي: إنهم ينفون الحسن والقبح العقليين ويقولون: إن ذلك لا يعرف إلا بالشرع فقط، مع أنه «من المحال أن يكون الدم والبول والرجيع مساوياً للخبز والماء والفاكهة ونحوها، وإنما الشارع فرق بينهما؛ فأباح هذا وحرم هذا مع استواء الكل في الأمر، وكذلك أخذ المال بالبيع والهبة والوصية والميراث، لا يكون مساوياً لأخذه بالقهر والغلبة والغصب والسرقة والجناية؛ حتى يكون إباحة هذا أو تحريم هذا راجعاً إلى محض الأمر والنهي المفروق بين المتماثلين...».

إلا أن هذا هو مذهب الأشاعرة الذي يصرحون به في كتبهم الاعتقادية والأصولية؛ ففي «المواقف» يقول الأبيحي: «القبيح ما نهي عنه شرعاً والحسن بخلافه، ولا حكم للعقل في حسن الأشياء وقبحها، وليس ذلك عائد إلى أمر حقيقي في الفعل يكشف عنه الشرع، بل الشرع هو المثبت له والمبين، ولو عكس القضية، فحسّن ما قبحه وقبح ما حسّنه؛ لم يكن ممتنعاً وانقلب الأمر».

وفي الإرشاد (٢٢٨) للجويني: «العقل لا يدل على حسن شيء ولا قبحه في حكم التكليف، وإنما يتلقى التحسين والتقييح من موارد الشرع وموجب السمع».

وهذا ما رده المصنف وبه قال الشاطبي في «الموافقات» (٢٨/٣ - بتحقيقي) ونص =

= كلامه: «الأفعال والتروك - من حيث هي أفعال وتروك - متماثلة عقلاً بالنسبة إلى ما يقصد بها؛ إذ لا تحسين للعقل ولا تقييح»، وعلى الرغم من مرور الشاطبي على المسألة مروراً سريعاً على خلاف ما يفعله المتكلمون والأصوليون؛ فإن التأثير الأشعري بادٍ على كلامه، قارن كلامه السابق بقول الجويني في «الإرشاد» (ص ٢٥٩): «فليس الحسن صفة زائدة على الشرع مدركة به، وإنما هو عبارة عن نفس ورود الشرع بالثناء على فاعله، وكذلك القول في القبح، فإذا وصفنا فعلاً من الأفعال بالوجوب أو الحظر؛ فلسنا نعني بما نثبتته تقدير صفة للفعل الواجب يتميز بها عما ليس بواجب، وإنما المراد بالواجب الفعل الذي ورد الشرع بالأمر به إيجاباً، والمراد بالمحذور: الفعل الذي ورد الشرع بالنهي عنه حظراً وتحريماً».

واقراً له قوله في «الموافقات» أيضاً (٥٣٤/٢ - ٥٣٥ - بتحقيقي): «... كون المصلحة مصلحة تقصد بالحكم والمفسدة مفسدة كذلك مما يختص بالشارع، لا مجال للعقل فيه، بناءً على قاعدة نفي التحسين والتقييح، فإذا كان الشارع قد شرع الحكم لمصلحة ما؛ فهو الواضع لها مصلحة، وإلا؛ فكان يمكن عقلاً أن لا تكون كذلك؛ إذ الأشياء كلها بالنسبة إلى وضعها الأول متساوية لا قضاء للعقل فيها بحسن ولا قبح، فإذا؛ كون المصلحة مصلحة هو من قبل الشارع بحيث يصدقه العقل وتطمئن إليه النفس».

وهذا بالضبط هو كلام الجويني وغيره من أئمة الأشاعرة، ولهذا القول لوازم فاسدة قد التزموها وقالوا بها - خلافاً لمصنفنا السلفي الهلالي رحمته الله - منها كما يقول ابن القيم في «مفتاح دار السعادة» (٤٢/٢ - ٥٢): إنه يجوز ظهور المعجزة على يد الكاذب، وأنه ليس بقبيح، وأنه يجوز نسبة الكذب إلى أصدق الصادقين، وأنه لا يقبح منه، وأنه يستوي التثليث والتوحيد قبل ورود الشرع، وأنه لا يقبح الشرك ولا عبادة الأصنام، ولا مسبة المعبود سبحانه، وأنه لا يقبح الزواج بالأم والبنت، وغير ذلك من اللوازم التي انبنت على أن هذه الأشياء لم تقبح بالعقل، وإنما جهة قبحها السمع فقط.

وهذه كلها لوازم فاسدة تدل على فساد الملزوم، بل ويلزم على قولهم هذا أنه يصح أن يأمر الله بالشرك؛ فلا يكون قبيحاً، وبالزنا والسرقة والظلم وسائر المنكرات؛ فلا يكون ذلك قبيحاً، ويجوز عندهم أن ينهى سبحانه عن التوحيد والعفة والصدق والعدل؛ فتكون هذه كلها قبيحة. كما قال الإيجي في «المواقف» (٣٣٣): «ولو عكس القضية، فحسن ما قبحه وقبح ما حسنه؛ لم يكن ممتنعاً وانقلب الأمر».

والقول الثاني: وهو مذهب المعتزلة على اختلاف بينهم في التفصيلات، وكثير من أصحاب أبي حنيفة، وهذا القول يقع في مقابل القول الأول؛ إذ الحسن والقبح عند هؤلاء عقليان، لا يتوقف في معرفتهما وأخذهما عن الدليل السمعي، ويجعلون الحسن والقبح صفات ذاتية للفعل لازمة له، ويجعلون الشرع كاشفاً عن تلك الصفات لا سبباً لشيء من الصفات، ترى تفصيل ذلك في: «مجموع الفتاوى» (٤٣١/٨ و ٦٧٧/١١)، و«درء تعارض العقل والنقل» (٤٩٢/٨)، و«مدارج السالكين» (٢٣٨/١)، و«مفتاح دار =

= السعادة» (٨/٢، ٣٩، ١٠٥)، و«شرح الأصول الخمسة» (٤١، ٤٦)، و«سلم الوصول شرح نهاية السؤل» (٨٣/١)، و«إرشاد الفحول» (٧).

ورتب المعتزلة على هذا الأصل أموراً عديدة، منها: إن القبح في العقل يترتب عليه الذم والعقاب في الشرع، والحسن في العقل يترتب عليه المدح والثواب في الشرع، وأن الله ﷻ يجب عليه أن يفعل ما استحسنة العقل ويحرم عليه أن يفعل ما استقبحه العقل، وأن المصلحة تنشأ من الفعل المأمور به فقط؛ كالصدق، والعفة، والإحسان، والعدل؛ فإن مصالحها ناشئة منها، وغير ذلك من الأمور المترتبة على هذا الأصل الفاسد واللوازم الملازمة له، كما بينه ابن القيم في «مفتاح دار السعادة» (٥٩/٢ - ٦٠ و١٠٥).

والقول الثالث: هو القول الوسط بين هاتين الطائفتين، والطريق القاصد بين الطريقين الجائزين إذ قال أصحابه - كما في «مفتاح دار السعادة» (٥٧/٢) -: «ما منكم أيها الفريقان إلا من معه حق وباطل، ونحن نساعد كل فريق على حقه ونصير إليه، ونبطل ما معه من الباطل ونرده عليه؛ فنجعل حق الطائفتين مذهباً ثالثاً يخرج من بين فرث ودم لبناً خالصاً سائغاً للشاربين».

وحاصل هذا القول أن الحسن والقبح، يدركان بالعقل، ولكن ذلك لا يستلزم حكماً في فعل العبد، بل يكون الفعل صالحاً لاستحقاق الأمر والنهي، والثواب والعقاب من الحكيم الذي لا يأمر بنقيض ما أدرك العقل حسنه، أو ينهى عن نقيض ما أدرك العقل قبحه؛ لأن ما أدرك العقل حسنه أو قبحه راجع ونقيضه مرجوح، بمعنى أن صفة الحسن في الفعل ترجع جانب الأمر به على جانب النهي عن نقيضه القبيح، وصفة القبح في الفعل ترجع جانب النهي عنه على جانب الأمر بنقيضه الحسن، عملاً في ذلك بمقتضى الحكمة التي هي صفة من صفات الله سبحانه؛ فلا حكم إلا من الخطاب الشرعي، ولا أمر ولا نهى إلا من قبل الشارع الحكيم.

وهذا هو قول عامة السلف وأكثر المسلمين؛ كما في «مجموع فتاوى ابن تيمية» (١١/٦٧٧)، وأهل هذا القول يوافقون الأشاعرة في أنه لا حكم بالثواب والعقاب والأمر والنهي في الفعل إلا جهة الوحي، وأن الحجة إنما تقوم على العباد بالرسالة، وأن الله لا يعذبهم قبل بعثة الرسل، ولا يطالبهم إلا بما بلغهم من أمر، ولا يعاقبهم إلا على ارتكاب ما نهاهم عنه.

ويوافقون المعتزلة في أن العقل يحكم بحسن الشيء أو قبحه، وأن الحسن والقبح صفات ثبوتية للأفعال معلومة بالعقل والشرع، وأن الشرع جاء بتقرير ما هو مستقر في الفطر والعقول من تحسين الحسن والأمر به وتقييح القبيح والنهي عنه، وأنه لم يجز بما يخالف العقل والفطرة، ويوافقونهم في إثبات الحكمة لله تعالى، وأنه سبحانه لا يفعل فعلاً خالياً عن الحكمة، بل كل أفعاله مقصودة لعواقبها الحميدة وغاياتها المحبوبة.

ومن الجدير بالذكر أن القول بإدراك العقل للمصالح والمفاسد لا يعني أن إدراكه تام =

مثال ذلك: شفاعة النبي ﷺ في خروج الموحدين من النار^(١)، أخبر بها الرسول ﷺ، واستحسنها، وهي في نفسها حسنة، واستقبحتها عقول المعتزلة فهم مخطئون في ذلك، وملومون عليه، ومثل ذلك إيجابهم على الله أن يعذب

= مطلق، بل إنه يدرك ويعجز، ويصيب ويخطئ... وقد بين ابن القيم هذه النقطة؛ فقال في «مفتاح دار السعادة» (١١٧/٢): «... بل غاية العقل أن يدرك بالإجمال حسن ما أتى الشرع بتفضيله أو قبحه؛ فيدركه العقل جملة، ويأتي الشرع بتفضيله، وهذا كما أن العقل يدرك حسن العدل، وأما كون هذا الفعل المعين عدلاً أو ظلماً؛ فهذا ما يعجز العقل عن إدراكه في كل فعل وعقد، وكذلك يعجز عن إدراك حسن كل فعل وقبحه.

فتأتي الشرائع بتفصيل ذلك وتبينه، وما أدركه العقل الصريح من ذلك تأتي الشرائع بتقريره، وما كان حسناً في وقت قبيحاً في وقت، ولم يهتد العقل لوقت حسنه من وقت قبحه أنت الشرائع بالأمر به في وقت حسنه، وبالنهي عنه في وقت قبحه، وكذلك الفعل يكون مشتملاً على مصلحة ومفسدة، ولا تعلم العقول مفسدته أرجح أم مصلحته؟ فيتوقف العقل في ذلك، فتأتي الشرائع ببيان ذلك، وتأمّر براجح المصلحة، وتنهى عن راجح المفسدة، وكذلك الفعل يكون مصلحة لشخص مفسدة لغيره، والعقل لا يدرك ذلك؛ فتأتي الشرائع ببيانه؛ فتأمّر به من هو مصلحة له، وتنهى عنه من هو مفسدة في حقه، وكذلك الفعل يكون مفسدة في الظاهر، وفي ضمنه مصلحة عظيمة، لا يهتدي إليها العقل؛ فلا تعلم إلا بالشرع؛ كالجهاد والقتل في الله، ويكون في المظاهر مصلحة، وفي ضمنه مفسدة عظيمة لا يهتدي إليها العقل، فتجزي الشرائع ببيان ما في ضمنه من المصلحة والمفسدة الراجحة، هذا مع أن ما يعجز العقل عن إدراكه من حسن الأفعال وقبحها ليس بدون ما تدركه من ذلك؛ فالحاجة إلى الرسل ضرورية، بل هي فوق كل حاجة؛ فليس العالم إلى شيء أحوج منهم إلى المرسلين صلوات الله عليهم أجمعين...».

وقد تعرض الشاطبي مراراً لبيان هذا القصور في إدراك العقل للمصالح والمفاسد، ترى ذلك في «الاعتصام» في مواطن منها: (٢٤٥/١، ٢٨٧، ٣٠٧، ٢٩٥/٢، ٣٥٧، ٣٧٩، ٤٦٢، ٣٢٤/٣، ٣٤٢)، وفي «الموافقات» (٥٣٧/١ و ٧٧/٢ و ٢١٠/٣) كلاهما بتحقيقي، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

وانظر: بسط المسألة في: «مفتاح دار السعادة» (٢/٢ - ١١٨)، و«مدارج السالكين» (١/٩١، ٢٣٠ - ٢٥٧، ٤٠٧/٣، ٤٨٨، ٤٩٢)، و«شفاء العليل» (٤٣٥)، و«مجموع فتاوى ابن تيمية» (٩٠ - ٩١ و ٤٢٨ - ٤٣٢ و ١١٤ - ١١٥ و ١١٠/١١ و ٦٧٥ - ٦٨٧ و ٨/١٥ و ١٦/٢٣٥ - ٣٦٣)، و«درء تعارض العقل والنقل» (٨/٤٩٢ - ٤٩٣)، و«شرح الكوكب المنير» (١/٣٠٠ - ٣٢٢)، و«لوامع الأنوار» (١/٢٨٤ - ٢٩١)، و«روح المعاني» (١٤/٩٤ و ٣٧/١٥ - ٤٢)، و«تيسير التحرير» (١/٢٨٣ - ٣٨٧)، و«إيقاظ الفكرة لمراجعة الفطرة» للصنعاني (ص ٢٠٣ - ٢٤٨)، و«حقيقة البدعة وأحكامها» (٢/١٢٧ - ١٣٣).

(١) الأحاديث الواردة في ذلك متواترة، انظر (١/٣٣٣) وتعليقنا عليه.

المذنبين، واستقبحهم عفو الله عنهم، وهم في ذلك مخطئون، والكريم إذا وعد أنجز وإذا أوعد عفا، فتلك صفة كما قال الشاعر^(١):

وَأَنسِي إِذَا أَوْعَدْتُهُ أَوْ وَعَدْتُهُ لِمَخْلَفٍ إِيْعَادِي وَمُنْجِزٍ مَوْعِدِي
وقاله الشاعر يفتخر بأنه كريم حليم؛ إذا وعد لا يخلف وعده، وأما إذا أوعد بالعقاب فإنه يعفو ويصفح.

قال تعالى في سورة فاطر: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهِمَا مِنْ ذَنْبٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [فاطر: ٤٥]، وإذا عفا عنهم وأخّر عقابهم فهو سبحانه جدير أن يعفو عنهم يوم القيامة أيضاً، كما قال تعالى: ﴿يَغْفِرْ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبْ مَنْ يَشَاءُ﴾ [الفتح: ١٤] وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨] وكذلك الاستحسان في الشريعة قال به بعض الفقهاء، وهو أن يحكم بوجوب شيء أو تحريمه أو كراهيته أو استحبابه أو إباحته بالاستحسان العقلي، قالوا في تعريفه: هو حجة تنفدح في ذهن المجتهد ولا يستطيع التعبير عنها، وجمهور علماء الأصول ينكرون هذا الاستحسان^(٢)، ويحصرون الحجة في الكتاب والسنة والإجماع والقياس على خلاف بينهم فيه. اهـ.

فائدة ثانية: قال محمد تقي الدين: من اتبع هواه في عبادة غير الله أو تحليل ما حرم الله أو تحريم ما أحل الله، أو رد شيئاً مما جاء به رسول الله، كالذين يقولون في هذا الزمان بتطور أصول الدين، والاجتهاد مع وجود النص والإجماع، كرفض الصيام في رمضان، بدعوى أنه لا يوافق العصر الحاضر،

(١) أنشده أبو عمرو بن العلاء راداً على عمرو بن عبيد المعتزلي في مناظرة جرت بينهما، كما تراه في: «مجالس الزجاجي» (ص ٦٢ - ٦٣)، «شرح أصول اعتقاد أهل السنة» (٦/ ١٠٨١)، و«الحجة في بيان المحجة» (٧٢/ ٢ - ٧٣)، «الإبانة» (رقم ١٩٦٦)، «أخبار عمرو بن عبيد» رقم (١٦) للدارقطني، «تاريخ بغداد»، (٩٩/ ٥)، «المنتظم» (٦١/ ٨)، «عيون الأخبار» (١٤٢/ ٢)، ط. المصرية، «البصائر والذخائر» (١٧٧/ ١)، «المنية والأمل» (ص ١٧٢ - ١٧٣)، «مدارج السالكين» (٣٩٦/ ١)، «تهذيب الكمال» (٢٢/ ١٣٠)، «تهذيب التهذيب» (٧١/ ٨)، «الميزان» (٣٧٨/ ٣).

(٢) لشيخ الإسلام «قاعدة في الاستحسان» مطبوعة، فصل في مدى حجيته، وانظر: «الموافقات» (١٩٣/ ٥ - ١٩٩، ٢٢٨، ٢٣٣) وتعليقي عليه، وشرحي على «الورقات» المسمى «التحقيقات والتنقيحات السلفيات» (ص ٥٩٦ - ٦٠٧).

وتحليل الربا بدعوى أنه ضروري في هذا العصر إذا تركته دولة قلَّت أموالها، وضعف اقتصادها، وضاع حقها في المعاملات الدولية، فإنها لا بد أن تعطي وتأخذ، فإذا أخذت فلا مناص من دفع الربا، وإذا أعطت بلا ربا تكون هي الخاسرة، فنقول: إن هناك طريقاً آخر وهي أن تكون مستقلة غنية قوية لا تأخذ الربا ولا تعطي، وحيث لا بد أن تخضع لها الدول الأجنبية وتقبل شرطها، ﴿وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ (٧٢)، ولنضرب مثلاً بالدولة السعودية فإنها لا تتعامل بالربا وهي أغنى الدول، والحاصل: من اتبع هواه في الشرك بالله أو تغيير حكم شرعي أو رد ما جاء به الرسول ﷺ فهو كافر فرداً كان أو جماعة، أما من اتبع هواه في ارتكاب المحرمات، وهو يعترف أنه مذنب ويؤمل التوبة فهذا فاسق لا يخرج من الإسلام، ولا يخلد في النار بسبب التوحيد والإيمان والمحافظة على الصلاة في أوقاتها الذي معه (١). اهـ.

(١) يشير في هذه العبارة إلى أن تارك الصلاة تكاسلاً كافر، وله رسالة مفردة مطبوعة في تقرير هذا!.

سُورَةُ الْحَقِّفَا

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَتُنْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَرَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١﴾ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْفِئِمَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَفِلُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿٣﴾﴾ [الأحقاف: ١ - ٣]

قال (ك): «قال تعالى: ﴿قُلْ﴾ أي: لهؤلاء المشركين العابدين مع الله غيره: ﴿أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ﴾ أي: أرشدوني إلى المكان الذي استقلوا بخلقه من الأرض ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ﴾ أي: ولا شرك لهم في السموات ولا في الأرض، ﴿مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾؛ إن المُلْكَ والتصرف كله لله ﷻ، فكيف تعبدون معه غيره وتشركون به من أرشدكم إلى هذا من دعاكم إليه أهو أمركم به أم هو شيء اقترحتموه من عند أنفسكم؟ ولهذا قال: ﴿أَتُنْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾ أي: هاتوا كتاباً من كتب الله المنزلة على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، يأمركم بعبادة هذه الأصنام»^(١)، ﴿أَوْ أَثَرَةٍ مِنْ عِلْمٍ﴾ أي: علم مأثور عن الأنبياء السابقين يشهد لكم بصحة ما أنتم عليه من الشرك في عبادة الله.

وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْفِئِمَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَفِلُونَ ﴿٥﴾﴾ أي: لا أضل ممن يدعو [أنداداً و]^(٢) أصناماً

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٣/ ٥ - ٦).

(٢) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».

ويطلب منهم^(١) ما لا يستطيعونه^(٢) ﴿إِلَّا يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾^(٣).

﴿وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَفِلُونَ﴾ فلا يسمعون ولا يبصرون ولا يبسطون، لأنهم فقراء عاجزون مربوبون، تحت تصرف الله تعالى وقهره، وتماثيلهم وآثارهم أشد عجزاً.

«وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ كقوله ﷻ: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾ ﴿٨١﴾ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ ﴿٨٢﴾ [مريم: ٨١، ٨٢] أي: سيخونونهم أحوج ما يكونون إليهم^(٤).

فصل

قال محمد تقي الدين: وتقدم تفسير قوله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ إن تدعوهم لا يسمعون دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينشأكم مثل خير ﴿١٤﴾ [فاطر: ١٣، ١٤].

فائدة: قال محمد تقي الدين: الكفار في هذا الزمان أنواع:

النوع الأول: يقولون بأن الله رب كل شيء وخالق كل شيء؛ وبالكتب المنزلة على رسل الله أو بعضها كاليهود والنصارى، إلا أنهم يعبدون غير الله، بدعوى أن الله وهب بعض عباده شيئاً من صفاته، كالتصرف في خلقه بالإيجاد والإعدام والإحياء والإماتة والنصر والهزيمة والخصب والجذب، وإطالة الأعمار وتقصيرها، والإفقار والإغناء، وهذه عقيدة المشركين المتأخرين.

النوع الثاني: المشركون على عهد النبي ﷺ من العرب، وهؤلاء كانوا لا يشركون بالله في الربوبية والملك والتصرف، وأما العبادة فكانوا في وقت الشدائد يوحدون الله تعالى، ولا يدعون معه أحداً، وفي وقت الرخاء يتخذون معه آلهة زاعمين أنهم يشفعون لهم عند الله في قضاء الحاجات وتفريج الكربات، ومشركو هذا الزمان يوافقونهم على ذلك، غير أنهم لا يوحدون الله أصلاً، لا في الشدة ولا في الرخاء، فشركهم أغلظ، وجهلهم أكثر. اهـ.

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «منها». (٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «تستطيعه».

(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (٧/١٣). (٤) انظر: «تفسير ابن كثير» (٧/١٣).

النوع الثالث: يعتقدون أن الله خالق كل شيء ولكنهم لا يؤمنون بالرسالة، ويزعمون أن العقل يغني عن إرسال الأنبياء في معرفة الخالق ومن هؤلاء توماس بين مؤلف كتاب «عصر العقل» (The age of reason).

النوع الرابع: الواقفون (Iguostic) وهؤلاء يقولون: إنهم لا يشبتون لهذا العالم رباً وهو الله تعالى، ولا ينفونه، لأنهم يزعمون أنه لم يقم عندهم دليل على الإثبات ولا على النفي، ومن هؤلاء Ougesol الأمريكي، وله مقالات بالإنكليزية مشهورة.

ويلزم أهل النوع الثالث أن الله سبحانه مع اعترافهم بكمال قدرته وكمال علمه خلق الخلق وأهملهم ووكلمهم إلى عقولهم، التي لا تكاد تتفق على شيء، وهذا يتنافى مع كمال القدرة والحكمة والرحمة، قال تعالى: ﴿يَتَحَسَّبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُنْزَلَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦]، من سورة القيامة، وقال تعالى في آخر سورة المؤمنين: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [١١٥] فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكبير [١١٦] [المؤمنون: ١١٥، ١١٦]. ومتى رأيتم ملكاً قوياً حكيماً رحيماً من المخلوقين يهمل رعيته ولا يعلمهم ما يأتون وما يذرون، فما فائدة ملكه لهم؟ فكيف بملك الملوك خالق السموات والأرض يترك عباده بلا رسل ولا كتب، ولا شرع، ولا يثيب محسناً على إحسانه، ولا يعاقب مسيئاً على إساءته؟ هذا يتنافى مع صفات الكمال. اهـ.

أما أهل القسم الرابع: فهم أضل وأجهل، قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿أَوَلَمْ^(١) يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٨٥] وقال تعالى في سورة يونس: ﴿قُلْ أَنْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١] والقرآن مشحون بمثل هذه الإرشادات وما يعقلها إلا العالمون، اهـ.

والنوع الخامس: يصرحون بأنه لا رب لهذا العالم ولا خالق له ولا متصرف فيه ولا مدبر لشؤونه، فيلزمهم أن السفينة تصنع نفسها وتسير في البحر بلا ربان ولا ملاحين، ويلزمهم أن القطار يصنع نفسه ويصنع السكة التي يسير عليها أو تصنع نفسها، ويحمل الناس والبضائع، وإذا رأى أناساً أو حيواناً صفر

(١) في الأصل: «أفلم»، وهو خطأ.

له وبطأ سيره، وإذا رأى ما يستوجب الوقوف وقف، وإذا وصل إلى محطة وصل بعد أن يختار موقفه، ويتوجه إليه بنفسه، حتى لا يتصادم مع القطر الأخرى، وينتظر النازلين حتى ينزلوا والراكبين حتى يركبوا، وإذا جاء وقت التحرك عرفه، واستأنف سيره، ويلزمهم أن الأطعمة في المعدة تتحول إلى دم من تلقاء نفسها، ثم إلى تعويض ما فقد من اللحم والعظام والأعصاب والغضاريف والأمعاء وما يحتوي عليه البطن والدماغ، كل ذلك بلا خالق ولا مدبر، ويلزمهم أن الشمس خلقت نفسها وهي تسير بإرادتها، وأن الأرض خلقت نفسها والتزمت أن لا تبعد عن الشمس بعداً يهلك ما عليها من حيوان ونبات بالبرد، ولا تقرب من الشمس قريباً يهلك ما عليها بالاحتراق، بل تبقى بينها وبين الشمس مسافة معلومة تمكن ما عليها من حيوان ونبات من الحياة، لا جرم أن هذه الفروض لا يستطيع العقل البشري أن يعتقدوها، لأنها في غاية الاستحالة، انظر: كتابي «دواء الشاكين»^(١). وقد طبع باسم «الطريق إلى الله»^(٢) وقد طبع برمته وهو يباع، طبعه المحسن الكبير الحاج مصطفى الودغيري.

﴿الباب الثاني﴾

﴿وَأَذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَّتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ قَالُوا أَيْحِثَّنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَإِنَّا بِمَا تَعُدُّنَا إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا أَلِمْ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرِيتُمْ قَوْمًا بِجَهْلُوهُمْ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطَرٌ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تَدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسْكَنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [الأحقاف: ٢١ - ٢٥]

قال (ك): «يقول تعالى مسلماً لنبيه ﷺ، في تكذيب من كذبه من قومه: ﴿وَأَذْكُرْ أَخَا عَادٍ﴾ وهو هود عليه الصلاة والسلام، بعثه الله ﷻ إلى عاد الأولى، وكانوا يسكنون الأحقاف، جمع حقف وهو الجبل من الرمل، وعن علي بن أبي

(١) أصله عدة مقالات نشرت في مجلة «دعوة الحق» المغربية، ثم طبع على حدة.

(٢) هو قسم من الكتاب السابق، وقد طبع عن دار الفتح، بيروت.

طالب: الأحقاف وادٍ بحضرموت^(١)، وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَّتِ الْأُنْدُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾، يعني: وقد أرسل الله تعالى إلى من حول بلادهم في القرى مرسلين ومنذرين^(٢). وقال البيضاوي: ﴿مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾: «قبل هود وبعده»^(٣).

قال محمد تقي الدين: ويظهر أن قول البيضاوي هو الصواب، ثم قال (ك): «﴿أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَِّّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أي: الله أعلم بكم: إن كنتم مستحقين لتعجيل العذاب [فسيفعل]^(٤) ذلك بكم، وأما أنا فمن شأني أني أبلغكم ما أرسلت به ﴿وَلَكَيْفَ أَزْكَرُ قَوْمًا تَجَاهَلُونَ﴾ أي: لا تعقلون ولا تفهمون، قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ﴾ أي: لما رأوا العذاب مستقبلهم اعتقدوا أنه عارض ممطر^(٥) ففرحوا واستبشروا به وقد كانوا محللين محتاجين إلى المطر قال الله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: هو العذاب الذي قلتُم ﴿فَأَنَّا يَمَّا تَكِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ ﴿تُدَمِّرُ﴾ أي: تخرب ﴿كُلَّ شَيْءٍ﴾ من بلادهم مما من^(٦) شأنه الخراب ﴿يَأْمُرُ رَبُّهَا﴾، أي: بإذن الله لها في ذلك كقوله ﴿لَا جَعَلَتْهُ كَالْمِمْسِكِ﴾ [الذريات: ٤٢] أي: كالشيء البالي، ولهذا قال ﴿فَأَصْبَحُوا لَا يَرَوْنَ إِلَّا مُسَكِّهًا﴾ أي: قد بادوا كلهم عن آخرهم ولم يبق^(٧) لهم باقية ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي: هذا حكمنا فيمن كذب رسلنا وخالف أمرنا^(٨). اهـ.

فصل

قال محمد تقي الدين: فائدة: عاد الأولى ليس لها اسم سوى عاد، وعاد الثانية لها اسم آخر وهو ثمود.

والأحقاف اسمها في هذا الزمان حضرموت، واسمها أيضاً جنوب اليمن،

(١) أخرجه مع تمة له: أبو بكر النجاد في «جزئه المشهور»، قاله السيوطي في «شرح الصدور» (ص ٢٣٢). وهذا يروى عن علي من وجوه، انظر لزماً: تعليقي على «تعبير الرؤيا» (ص ٨٦) لابن قتيبة، فقد ذكرت مصادره.

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٣/٢٢ - ٢٣). (٣) انظر: «تفسير البيضاوي» (٢/٣٩٦).

(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «يفعل».

(٥) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «مطر»!

(٦) من مطبوع «تفسير ابن كثير» وسقط من الأصل!

(٧) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «تبق». (٨) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٣/٢٤).

ومقر الحكم فيها عدن، نسأل الله أن يطهرها من الشيوعية^(١).
 وقول الحافظ (ك): ﴿مَنْ بَيْنَ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾: «معناه: من حوله من البلاد» ظهر لي لأول وهلة أن المراد بقوله تعالى: ﴿مَنْ بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ ما قبله من الزمان، والمراد بقوله تعالى: ﴿وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ ما بعده من الزمان، ثم راجعت كل «التفاسير» التي عندي - وهي خمسة - فوجدتها موافقة لما ذكرته، ومخالفة لتفسير (ك) والكمال لله.

وقول (ك): ﴿تَذَكَّرُ﴾ أي: تخرب كل شيء من بلادهم مما شأنه الخراب، يريد أن كل شيء عام أريد به الخصوص^(٢)، أي: كل شيء من بلاد عاد لا من بلاد غيرهم. قوله: «مما شأنه الخراب» كبنى آدم والأشجار، أما الجبال فلم تخربها لأنها لم ترسل إليها؛ هذا كقوله تعالى في ملكة سبأ: ﴿وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٢٣] أي: يكون عند الملوك.

الباب الثالث

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوَّلَكُمْ مِنَ الْقُرَىٰ وَصَرَفْنَا آيَاتِ لَعَلَّكُمْ يَرْجِعُونَ﴾ ﴿٧٧﴾ ﴿فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا ءِلَهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْقَرُونَ﴾ ﴿٧٨﴾ [الأحقاف: ٢٧ - ٢٨].

قال (ك): ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوَّلَكُمْ مِنَ الْقُرَىٰ﴾ يعني: أهل مكة، قد أهلك الله الأمم المكذبة بالرسول مما حولها، كعاد وكانوا بالأحقاف بحضرموت عند اليمن، وثمود وكانت منازلهم بينهم وبين الشام، وكذلك سبأ، وهم أهل اليمن، ومدين، وكانت في طريقهم وممرهم إلى غزة، وكذلك بحيرة قوم لوط، كانوا يمرون بها أيضاً، وقوله ﴿وَصَرَفْنَا آيَاتِ﴾ أي: بيئناها وأوضحناها ﴿فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا ءِلَهَةً﴾ فهلا نصرهم عند احتياجهم إليهم؟ ﴿بَلْ ضَلُّوا﴾

(١) الحمد لله قد فعل، وسقطت الشيوعية، وهذه سنة الله تعالى في الباطل مهما تنوع وتغير، فإن الباطل زهوق، ولا أصل له ولا جذور، بخلاف الحق، فإن جذوره ممتدة في التاريخ، ومهما حورب وأوذى أصحابه فهو بمثابة الشجرة؛ إن قطعت، فسرعان ما تنبت أقوى مما كانت، لقوة جذورها وأصولها، فتأمل ولا تكن من الجاهلين!

(٢) انظر: تهويل الأصوليين في ذلك: «مجموع فتاوى ابن تيمية» (٦/ ٤٤١ - ٤٤٢) و«شرحى على الورقات» المسمى «التحقيقات والتفتيحات السلفيات» (ص ١٩٦ - ٢٠٠).

عَنْهُمْ أَي: بل ذهبوا عنهم أحوج ما كانوا إليهم ﴿وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ﴾ أَي: كذبهم، ﴿وَمَا كَانُوا يَقْتُرُونَ﴾ أَي: وافترأؤهم في اتخاذهم إياهم آلهة، وقد خابوا وخسروا في عبادتهم واعتمادهم عليها، والله أعلم^(١). اهـ.

فصل

قال محمد تقي الدين: فائدة: عبّاد الأوثان في هذا الزمان كلما رأوا قبة عظموها وتعلقت قلوبهم بصاحبها المنسوبة إليه، فيشدون إليه الرحال ويتقربون لها، فإذا قيل لهم: لماذا ذهبتم إلى صاحب القبة، ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدًا؟﴾ يقولون: نحن نعلم أن الذي يعطي هو الله، وصاحب القبة لا يملك شيئاً ولكننا قصدناه لنقرأ عليه شيئاً من القرآن، ندعو له بالرحمة، فقلنا لهم: أما الدعاء فإن الله يسمعه وأنتم في بيوتكم، ولماذا خصصتموه بالدعاء من دون سائر الأموات، ومنهم والدوكم؟ فذهابكم إلى قبره وتخصيصكم له بالدعاء يدل على أنكم قصدتموه، وخضعتم له لتتملقوا وتقدموا له رشوة ليتوسط لكم في قضاء حاجاتكم عند الله، أو ليقضيها بنفسه، وهذا هو الشرك بالله الذي لا يغفره الله، وأما قراءة القرآن، فلو كانت تنفع غير قارئه لكان والدوكم أولى بها، على أنها لا تنفع إلا قارئها إذا قرأها لوجه الله، وعمل بها وتقبلها الله منه، وبرهان ذلك أن قراءة النبي ﷺ متقبّلة قطعاً، وكل حرف منها يساوي قراءة العالم بأسره، ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾، وكان يعتني كثيراً بزيارة القبور والدعاء لأصحاب القبور، ويعلم أصحابه الدعاء الذي يدعون به إذا زاروا القبور^(٢) كما يعلمهم السورة من القرآن ولم يقرأ شيئاً من القرآن على ميت ولا أمر أصحابه بذلك، أنتم أعلم أم رسول الله ﷺ؟ وفي «الصحيحين» عن ابن عباس أن النبي ﷺ، مر بقبرين يعذبان؛ أي: يعذب صاحباهما، فقال: «إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير، أما أحدهما فكان لا يستتر من بوله، وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة»، ثم أمر بجريدة خضراء فأتى بها فشققها نصفين، فغرز أحدهما على أحد القبرين، وغرز الثاني على القبر الثاني^(٣)، فقال: «لعله أن يخفف عنهما ما لم

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٢٨/١٣). (٢) انظره: في «صحيح مسلم» رقم (٩٧٤).

(٣) هذا الغرز من التبرك بأثر النبي ﷺ ودعائه بالتخفيف عنهما، وكأنه جعله مدة بقاء النداء فيهما حداً لما وقعت به المسألة من تخفيف العذاب عنهما، وليس ذلك من أجل أن في =

يبسا»^(١) ولم يقرأ عليهما حرفاً من القرآن، ولا أمر أصحابه بالقراءة عليهما، وهذا دليل قاطع على أن قراءة القرآن وإهداء ثوابها للأموات لم يشرعها الله ولا رسوله، بل هي بدعة وضلالة^(٢)، ولا يجني صاحبها منها إلا الويال، وقول النبي ﷺ: «وما يعذبان في كبير»، ليس معناه أن ذنك الذنبيين ليسا من الكبائر^(٣)، بل معنى (كبير) هنا ثقیل، كما قال تعالى في الصلاة: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْفَاسِقِينَ﴾ [البقرة: ٤٥] أي: ثقيلة وشاقة، فكذا الاستتار من البول والنميمة، لا يشق على المسلم أن يتركهما، فإذا كان معه أدنى شيء من الإيمان فإن إيمانه يمنعه من ارتكابهما، والله أعلم.

= الجريد الرطب معنى ليس في اليابس. قاله الخطابي في «المعالم» (٢٧/١)، وزاد: «والعامة في كثير من البلدان تغرس الخوص في قبور موتاهم، وأراهم ذهبوا إلى هذا، وليس لما تعاطوه من ذلك وجه». وأيد كلامه العلامة المحدث أحمد شاعر وفرع عليه بدعة وضع الزهور على القبور، وقال عنها وعن غرس الأشجار على القبور في تعليقه على «جامع الترمذي» (١٠٣/١): «وكل هذه بدع ومنكرات لا أصل لها في الدين، ولا سند لها من الكتاب والسنة، ويجب على أهل العلم أن ينكروها، وأن يبطلوا هذه العادات ما استطاعوا».

(١) أخرجه البخاري (٢١٦، ٢١٨، ١٣٦١، ١٣٧٨، ٦٠٥٢، ٦٠٥٥)، ومسلم (٢٩٢) من حديث ابن عباس.

(٢) انظر: «قاموس البدع» (بتجميعي) لشيخنا الألباني، فقد تكلم على هذه المسألة بتفصيل، والله المستعان، لا رب سواه.

(٣) انظر: «الكبائر» (ص ٢٧٢، ٣٥٦، ٤٧٠ بتحقيقي) للذهبي.

سورة القتال

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ

وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾ [محمد: ١٩]

قال (ك)، «وقوله ﷻ: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ هذا إخبار بأنه ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ ولا يتأتى كونه أمراً بعلم ذلك ولهذا عطف عليه بقوله ﷻ: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ وفي «الصحيح» أن رسول الله ﷺ كان يقول: «اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي وإسرافي في أمري وما أنت أعلم به مني، اللهم اغفر لي هزلي وجدي وخطئي وعمدي وكل ذلك عندي»^(١). وفي «الصحيح» أنه كان يقول في آخر الصلاة: «اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت، وما أسرفت وما أنت أعلم به مني، أنت إلهي لا إله إلا أنت»^(٢). وفي «الصحيح» أنه قال: «يا أيها الناس توبوا إلى ربكم، فإني أستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة»^(٣).

وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾ أي: يعلم تصرفكم في نهاركم ومستقركم في ليلكم، كقوله تبارك وتعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ﴾ [الأنعام: ٦٠]^(٤). اهـ.

فصل

قال محمد تقي الدين: فائدة: يجب على كل مسلم أن يعلم معنى

(١) أخرجه البخاري (٦٣٩٨)، ومسلم (٢٧١٩) من حديث أبي موسى الأشعري.

(٢) أخرجه مسلم (٧٧١) من حديث علي بن أبي طالب.

(٣) أخرجه البخاري (٦٣٠٧) من حديث أبي هريرة.

(٤) انظر: «تفسير ابن كثير» (٧٢/١٣ - ٧٣) بتصرف.

لا إله إلا الله، ويعتقده بقلبه، ويقولها بلسانه، ويعمل بمقتضاها، وإلا فليس من أهلها ولو قالها في كل يوم ألف مرة، فإن أهل الردة الذين قاتلهم أبو بكر الصديق ومعه جميع الصحابة، وسبى ذريتهم، وغنم أموالهم^(١)، كانوا يقولون: لا إله إلا الله محمد رسول الله، ويصلون ويقرؤون القرآن ويحجون ويصومون، فلم تنفعهم، لأنهم لم يعملوا بمقتضاها، لما امتنعوا من دفع الزكاة إلى أبي بكر الصديق. ومعناها أن يشهد قائلها على نفسه قولاً واعتقاداً وعملاً أنه لا يعبد إلا الله ويتبرأ من عبادة غيره، ويحب في ذلك ويبغض فيه، ويوالي ويبغض عليه، فمن فعل ذلك فهو من أهل لا إله إلا الله. اهـ.

(١) ورد ذلك عند مسلم (٣٠)، وقال شراحه - منهم: القاضي عياض في «إكمال المعلم» (١/ ٢٤٣ - ٢٤٤) والعبارة له - وأقره النووي في «المنهاج» (١/ ٢٨٠ - ٢٨١) -: «واختلف العلماء في قتل تارك غير الشهادتين، فأكثرهم على أن ذلك حد لا كفر، وهو الصحيح، وقيل: كفر، والقول بهذا في تارك الصلاة أكثر، وعليه تأولوا سبي أبي بكر لثناء مانعي الزكاة وأموالهم لا اعتقاده كفرهم، ولقوله: ﴿وَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ الآية، وحكم فيهم حكم الناقض للعهد، فلما توفي وولى عمر رد عليهم ذريتهم وحكم فيهم حكم المرتدين. وكان أهل الردة ثلاثة أصناف: صنف كفر بعد إسلامه ولم يلتزم شيئاً وعاد لجاهليته أو اتبع مسيلمة أو العنسي وصدق بهما وصنف أقر بالإسلام إلا الزكاة فجحدها وأقر بالإيمان والصلاة، وتأول بعضهم أن ذلك كان خاصاً بالنبي ﷺ لقوله: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً...﴾ الآية، وصنف اعترف بوجوبها ولكن امتنع من دفعها إلى أبي بكر وقال: إنما كان قبضها للنبي ﷺ خاصة لا لغيره ممن يقوم مقامه بعده، وفرقوا صدقاتهم بأيديهم، فرأى أبو بكر والصحابة ﷺ قتال جميعهم، الصنفين الأولين لكفرهم والثالث لامتناعه بزكاته، شمل جميعهم اسم الردة؛ إذ كانوا الأكثر، حتى لم يكن صلي الله إلا في المدينة ومكة وجوآثا.

وفيمن كفر منهم اختلف في سبي ذراريه لا في مانعي الزكاة، قاله الخطابي. ثم لم ينقرض العصر حتى أجمعوا على أنه لا يسبى المرتد، وإنما اختلف العلماء في سبي أولاد المرتدين. وإلى مذهب أبي بكر فيهم وتأويله ذهب أصبغ بن الفرج من أصحابنا. ويرأي عمر قال جمهور العلماء، ولا يصح أن يكون خلاف بين الصحابة في قتال الصنف الأول إذ هم كفار بغير خلاف، وإنما وقع النزاع - أولاً - في هذين الصنفين الآخرين إذ هم متأولون، ولعذرهم بجهلهم بحقيقة أركان الشريعة لقرب عهد كثير منهم بالإسلام، وقصر مدتهم فيه، وأما الآن فقد وقع الإجماع أنه من جحد فريضة من الفرائض فهو كافر. انتهى.

سُورَةُ الْفَتْحِ

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ الْحَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [الفتح: ٢٦]

قال (ك): «وقوله ﷻ: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ الْحَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةَ﴾ وذلك حين أبوا أن يكتبوا ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، وأبوا أن يكتبوا: (هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله) ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾ [وهي قول^(١): ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ ﴿وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾ كان المسلمون أحق بها وكانوا أهلها ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ أي: هو عليم بمن يستحق الخير ممن يستحق الشر^(٢)». اهـ.

فصل

قال محمد تقي الدين: فائدة: قوله: «وذلك حين أبوا أن يكتبوا «بسم الله الرحمن الرحيم» وأبوا أن يكتبوا: هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله»، بيان ذلك أن النبي ﷺ، توجه إلى مكة ومعه ألف وأربعمائة من أصحابه قاصدين العمرة بعدما رأى الرسول في المنام أنه دخل مكة ومعه أصحابه آمنين، لم يلقوا حرباً، فلما وصل إلى الحديبية، هي موضع قريب من مكة غضب أهل مكة وخرجوا إليه بالسلاح، فأخبرهم النبي ﷺ، أنه لم يجرى لقتالهم، وإنما جاء معتمراً، فمنعوه من دخول مكة، وبعد مفاوضات طويلة، اتفق معهم على الصلح،

(١) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «قال»!

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٣/١١٢ - ١١٤) بتصرف.

وهذا الصلح هو الفتح المبين^(١) الذي ذكره الله تعالى قوله: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ [الفتح: ١] فلما أرادوا أن يكتبوا معاهدة الصلح، قال النبي ﷺ لكتابه: «اكتب بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ»: هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو، فقال سهيل: لا نعرف بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ولا نعترف أنك رسول الله، ولو اعترفنا لك بذلك ما صددناك عن بيته، اكتب باسمك اللهم، واكتب اسمك واسم أبيك، هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو، فحلم عليه النبي ﷺ، وكتب كما يريد سهيل بن عمرو^(٢)، لأن الإسلام يربح بالسلم ما لا يربح بالحرب، لأنه دين العقل والفتوة، إذا لم يبدل ولم يغير، فكل مَنْ فُكِّرَ فيه بعقله قبله، ودخل فيه إلا من منعه اتباع الهوى واستكبر وكان من الكافرين.

(١) انظر وجه ذلك بتحليل جيد في تعليقي على (٧٨/٣ - ٨٠)، وانظر (٤٣٠/١ - ٤٣١).
 (٢) أخرجه مسلم (١٧٨٤)، وأحمد (٨٦/٤، ٣٢٣)، والطبراني في «الكبير» (١٣/٢٠)، وعبد الرزاق في «المصنف» (٣٣٢/٥)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٤٢/١٣) رقم (٣٧٨٥٢)، والبيهقي (٢٢٦/٩) وغيرهم من حديث أنس.

سُورَةُ قَاتِلِ

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾﴾ [ق: ٢٤-٢٦]

هذا خطاب من الله تعالى للملكين، السائق وهو الذي يسوق المشرك إلى العرض، والشاهد وهو الذي يشهد عليه بما كان يقتصره في الدنيا.

قال (ع)، ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾﴾ أي: كثير الكفر والتكذيب بالحق، [عنيد، معاند للحق]^(١) معارض له بالباطل مع علمه بذلك ﴿مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ﴾ أي: لا يؤدي ما عليه من الحقوق، ولا بر فيه ولا صلة ولا صدقة، ﴿مُعْتَدٍ﴾ أي: فيما ينفقه ويصرفه يتجاوز فيه الحد، وقال قتادة: مُعْتَدٍ في منطقه وسيره وأمره^(٢)، ﴿مُرِيبٍ﴾ أي: شاك في أمره، مرِيب لمن نظر في أمره ﴿الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ أي: أشرك بالله فعبد معه غيره، ﴿فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ﴾.

وقال الإمام أحمد بسنده عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ أنه قال: «يخرج عنق من النار يتكلم يقول: وُكِّلْتُ اليوم بثلاثة، بكل جبار عنيد، ومن جعل مع الله إلهاً آخر، ومن قتل نفساً بغير نفس، فتنطوي عليهم، فتقذفهم في غمرات جهنم»^(٣).

(١) من مطبوع «تفسير ابن كثير» وسقط من الأصل.

(٢) أخرجه عبد بن حميد وابن المنذر، كما في «الدر المنثور» (١٣/٦٣٧ - ط. هجر).

(٣) أخرجه أحمد (٣/٤٠)، وعبد بن حميد (٨٩٦)، وابن أبي شيبه (١٣/١٦٠)، وأبو يعلى (١١٣٨، ١١٤٦)، والطبراني في «الأوسط» (٣٢٠، ٣٩٩٣)، والبزار (٣٥٠٠، ٣٥٠١ - «زوائد»)، وأبو الشيخ في «جزء من حديثه»، (رقم ٨٣ - انتخاب ابن مردويه)، والبيهقي في «البعث والنشور» (٥٧٧)، والخطيب في «تالي التلخيص» (رقم ٢٨٠ - بتحقيقي)، وجوّده الذهبي في «الكبائر» (رقم ٢٨٨ - بتحقيقي)، وقال عنه شيخنا الألباني في التعليق =

فصل

قال محمد تقي الدين: فائدة: قوله تعالى: ﴿فَأَلْفَيَا فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ﴾ تأكيد لما تقدم، وكل من عبد غير الله من أهل العالم العلوي والعالم السفلي وإن زعم أنه يتبرك به، فقد اتخذ مع الله إلهاً آخر، انظر (الباب الثامن) من (سورة الأعراف).

= على «الترغيب والترهيب» (٢/ ٩٣٠ - بعناتي): «حسن لغيره».

وأخرجه الترمذي (٢٥٧٤)، وأحمد (٣٣٦/٢)، والبيهقي في «البعث» (رقم ٥٢٤)، وفي «الشعب» (٦٣١٧) من حديث أبي هريرة بنحوه وهو صحيح، وفي الباب عن جمع، وانظر: «مجمع الزوائد» (٣٩٢/١٠)، و«التخويف من النار» (رقم ٨١٧ - ٨٢٣) لابن رجب، و«الكبائر» للذهبي (ص ٣٥٠ - ٣٥٢) وتعليقي عليهما.

سُورَةُ الذَّارِيَاتِ

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ (٤٧) ﴿وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمُهْدُونَ﴾ (٤٨) ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (٤٩) ﴿فَقَرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ (٥٠) ﴿وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ (٥١) [الذاريات: ٤٧ - ٥١]

قال (ك)، «يقول تعالى منبهاً على خلق العالم العلوي والسفلي: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا﴾ أي: جعلناها سقفاً محفوظاً^(١) رفيعاً ﴿بِأَيْدٍ﴾ أي: بقوة، قاله ابن عباس^(٢) وغيره، ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ أي: قد^(٣) وسعنا أرجاءها ورفعناها بغير عمد، حتى استقلت كما هي، ﴿وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا﴾ أي: جعلناها فراشاً للمخلوقات، ﴿فَنِعْمَ الْمُهْدُونَ﴾ أي: وجعلناها مهاداً لأهلها، ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ أي: جميع المخلوقات أزواج، سماء وأرض، وشمس وقمر، وليل ونهار^(٤)، وبر وبحر، وضياء وظلام، وإيمان وكفر، وموت وحياة، وشقاء وسعادة، وجنة ونار، حتى الحيوانات والنبات، ولهذا قال تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي: لتعلموا أن الخالق واحد لا شريك له، ﴿فَقَرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾ أي: الجزؤا إليه واعتمدوا في أموركم عليه،

(١) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».

(٢) أخرجه ابن جرير (٥٤٥/٢١) وابن أبي حاتم (٣٣١٣/١٠) والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٢٥٢)، وعزاه في «الدر المنثور» (٦٨٦/١٣) إلى ابن المنذر أيضاً، وهو في «صحيفة علي بن أبي طلحة» (رقم ١٢٠٠)، وبمثله قال مجاهد في «تفسيره» (ص ٦٢١)، وأسنده عن البيهقي في «الأسماء والصفات» (٢٥٣)، وآدم بن أبي إياس، كما في «الدر المنثور».

(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وقد».

(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وليل ونهار وشمس وقمر».

﴿إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ ﴿وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ أي: ولا تشركوا به شيئاً ﴿إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾^(١). اهـ.

فصل

قال محمد تقي الدين: من لم يفر إلى الله فقد فر من الله، ومن فر من الله يدركه لا محالة، فإنه لا يفوته هاربه، ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْفِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤] وقال تعالى: ﴿وَمَا أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [العنكبوت: ٢٢] اللهم اجعلنا ممن فر إليك يا رب العالمين، فأويته ونصرته وأسعدته في دنياه وأخراه.

الباب الثاني

قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطِيعُونِ (٥٧) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (٥٨)

[الذاريات: ٥٦ - ٥٨]

قال (ك): «يقول جل جلاله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (٥٦) أي: إنما خلقتهم لأمرهم بعبادتي لا لاحتياجي إليهم، روى (ع، د، ت، ن)، عن ابن مسعود قال: أقرأني رسول الله ﷺ (إني أنا الرزاق ذو القوة المتين)^(٢) ومعنى الآية أنه تبارك وتعالى خلق العباد ليعبدوه وحده لا شريك له، فمن أطاعه جازاه أتم الجزاء، ومن عصاه عذبه أشد العذاب، وأخبر أنه غير محتاج إليهم، بل هم الفقراء إليه في جميع أحوالهم فهو خالقهم ورازقهم^(٣).

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٣/٢٢١ - ٢٢٢).

(٢) أخرجه أحمد (١/٣٩٤)، وأبو داود (٣٩٩٣)، والترمذي (٢٩٤١)، والنسائي في «الكبرى» (٧٧٠٧، ١١٥٢٧) - وهو في «التفسير» (٥٢٧) - والطيالسي (٣١٧)، والدوري في «قراءات النبي ﷺ» (١٠٨)، والشاشي في «مسنده» (٤٦٤، ٤٦٦، ٤٦٨)، وابن حبان (٦٣٢٩)، والحاكم (٢/٢٣٤، ٢٤٩)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (ص ٤٣، ٦٦، ١٢٩)، وإسناده صحيح، وصححه شيخنا الألباني وهذه قراءة شاذة، والقراءة المتواترة ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨].

(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٣/٢٢٢ - ٢٢٣) بتصرف.

فصل

قال محمد تقي الدين: جعل الله سعادة البشر وسائر المخلوقين من العقلاء في عبادته وحده لا شريك له، وجعل شقاء من شقي منهم في الشرك به والكفر به وبرسله، وارتكاب معصيته، وجعلهم فريقين فريقاً في الجنة وفريقاً في السعير، نسأل الله أن يجعلنا ممن وحده واتبع رسوله، والعبادة لا تقبل إلا بالتوحيد، وقد تقدم بيان ذلك، وسيأتي إن شاء الله. اهـ.

سُورَةُ الطُّورِ

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ الْخَالِقُونَ﴾ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ [الطور: ٣٥ - ٣٦]

قال (ك)، «هذا المقام في إثبات الربوبية وتوحيد الإلهية»^(١)، فقال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ الْخَالِقُونَ﴾ (٣٥) أي: أوجدوا من غير موجد، أم هم أوجدوا أنفسهم؟ أي: لا هذا ولا هذا، بل الله هو الذي خلقهم وأنشأهم بعد أن لم يكونوا شيئاً مذكوراً، قال البخاري بسنده^(٢) عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه قال: «سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب فلما بلغ هذه الآية: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ الْخَالِقُونَ﴾ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَيْكِ أَمْ هُمْ الْمُصْطَبِرُونَ ﴿٣٧﴾ كاد قلبي أن يطير».

ثم قال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ﴾ (٣٦) أي: أم هم خلقوا السموات والأرض؟ وهذا إنكار عليهم في شركهم بالله، وهم يعلمون أنه الخالق وحده لا شريك له، ولكن عدم إيقانهم هو الذي يحملهم على ذلك»^(٣). اهـ.

فصل

قال محمد تقي الدين: إن الذين يقولون: إن العالم مخلوق من غير خالق، وموجود بغير موجد، وصنعة متقنة بلا صانع، فئة قليلة من البشر، وهم أضل من

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الالهية».

(٢) أخرجه البخاري (٤٨٥٤)، ومسلم (٤٦٣).

(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (٢٣٨/١٣ - ٢٣٩).

البقر، ولا يحاولون إقناع الناس بالحجة والبرهان العقلي، بل يشهرون السيف في وجوه العوام، ويقهرونهم بالنار والحديد، ويحرمون عليهم التفكير بعقولهم، حتى يجعلوهم بياغاوات، يمدحون ما لا يعلمون، ويذمون ما لا يعلمون، وكل عاقل لا يريد أن يخادع نفسه، ولا أن يخادع الناس لا يستطيع أن يتصور فضلاً عن أن يصدق أن هذا العالم موجود بلا صانع، وأن صانعه الطبيعة الصماء البكماء العمياء؛ التي ليس لها علم ولا إرادة ولا اختيار. ولما رجعت إلى المغرب بقصد الاستقرار فيه بعد الثورة الأولى في العراق، وما ارتكبه الشيوعيون هناك من الغشم وإراقة الدماء بدون تمييز، دعيت إدارة مجلة «دعوة الحق» إلى نشر مقالات فيها لإنقاذ الشباب، وبعض الكهول مما وقعوا فيه من الخط في العقائد فعمدت إلى كتاب «الإنسان لا يقوم بنفسه» MAN does not - stand alone تأليف رئيس المجمع العلمي في الولاية المتحدة سابقاً، الأستاذ الدكتور كريسي موريسن، وترجمته بالعربية، وشرحته وعلقت عليه، ونشرته في أربع وعشرين مقالة في «دعوة الحق»^(١) وسأذكر هنا منه دليلاً واحداً بدأ به المصنف مقدمة كتابه، وأحيل القارئ على مطالعة هذا الكتاب، أصله الإنكليزي، أو ترجمتي له، وقد طبع في بيروت باسم «الطريق إلى الله»^(٢) ودونك المثال:

قال المؤلف: المذكور في أول الكتاب، افترض أنك أخذت عشرة أفلس، وكتبت على كل واحد رقماً مبتدأً من واحد إلى عشرة، ثم وضعت الأفلس العشرة في كيس، ثم هزرت الكيس هزراً عنيفاً حتى اختلطت الأفلس بعضها ببعض، ثم أردت أن تخرج تلك الأفلس على أن تصادف يدك عند إدخالها الكيس في المرة الأولى؛ الفلس المرقوم بواحد، وفي المرة الثانية الفلس المرقوم برقم اثنين، وفي الثالثة الفلس المرقوم برقم ثلاثة. . وهكذا إلى آخرها على الترتيب، فكم يكون حظك من النجاح في المرة الأولى أن تصادف الفلس المرقوم برقم واحد؟ يكون

- (١) السنة الثالثة، الأعداد (٣ - ١٠) سنة ١٣٧٩هـ - ١٩٦٠م، والسنة الرابعة، الأعداد (١ - ٤ و ٦ - ٩) سنة ١٣٨٠هـ / ١٩٦٠ - ١٩٦١م، والسنة الخامسة، الأعداد (٢، ٤ - ٨، ١٠) سنة ١٣٨١ - ١٣٨٢هـ / ١٩٦١م - ١٩٦٢م، والسنة السادسة، الأعداد (٢، ٣) ١٣٨٢هـ - ١٩٦٢م، وهي جميعاً في كتابي «مقالات الهلالي»، وطبعت هذه المقالات في كتاب مستقل بعنوان «دواء الشاكين» في المغرب، الدار البيضاء.
- (٢) «الطريق إلى الله» هو جزء منه، وقد طبع برمته في الدار البيضاء ونسخه موجودة تباع. (منه).

عشرة في المائة، وفي المرة الثانية الفلس المرقم برقم اثنين. على التوالي يكون واحداً في المائة، فإن أردت أن تدخل يدك في الكيس ثلاث مرات متوالية، وتصادف المرة الأولى الفلس المرقوم برقم واحد، وفي المرة الثانية الفلس المرقوم برقم اثنين وفي المرة الثالثة الفلس المرقوم برقم ثلاثة، فإن حظك من النجاح يكون واحداً في ألف، وإن أردت أن تصادف الأول والثاني والثالث والرابع على التوالي، فإن حظك من النجاح يكون واحداً من عشرة آلاف، وقس على ذلك إلى العاشر، فإن حظك من النجاح أن تصادف يدك الفلس المرقوم برقم واحد، إلى الفلس المرقوم برقم عشرة، على التوالي يبلغ رقماً لا يتصوره العقل، وهو واحد من عشر ملايين.

والغرض من ضرب هذا المثل السهل الإدراك أن نبين مقدار استحالة قول من يزعم أن هذا العالم تم خلقه وتدبيره بالمصادفة، فإن هناك شروطاً لازمة لوجود الحياة على أرضنا هذه، وهذه الشروط لا يمكن أبداً من الواجهة الحسائية أن توجد كلها بالنسب المطلوبة بالمصادفة المجردة على أي أرض، في أي زمان، لذلك يتحتم أن يكون وراء الطبيعة كائن عالم مدبر، إذا علمت ذلك، وهو حق، تعلم يقيناً أن خلق هذا العالم مقصود ومقرر قبل وجوده تقديراً دقيقاً.

الباب الثاني

قوله تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يَلَمْ إِلَهُ عَزَّ إِلَهُ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الطور: ٤٣] قال (ك)، ﴿أَمْ لَمْ يَلَمْ إِلَهُ عَزَّ إِلَهُ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ وهذا إنكار شديد على المشركين في عبادتهم الأوثان والأصنام^(١) مع الله، ثم نزه نفسه الكريمة عما يقولون ويفترون ويشركون فقال: ﴿سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾^(٢).

فصل

قال محمد تقي الدين: تقدم في مواضع أخرى أن معنى إله معبود، ولذلك كان مفتاح الإسلام «لا إله إلا الله» فقائلها بالصدق يشهد على نفسه ويعاهد ربه

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الأصنام والأنداد».

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (٢٣٩/١٣).

أنه لا يعبد إلا الله، ولكن أكثر من يقولها في هذا الزمان لا يعرفون معناها ولا يفكرون فيه، ولا يبحثون عنه، فتكون أقوالهم وعقائدهم وأفعالهم مضادة لـ (لا إله إلا الله) ويكونون أعداءها وهم لا يشعرون، فالمغربي حين يقول: «يا فكاك الوحائل، يا مناع الرحايل، يا غياث أصحابه في الضيقات، يا مولاي عبد القادر الجيلاني» معناه: يا من ينقذ من استغاث به في الشدائد، ويغيث من التجأ إليه عند الضيق، يا مولاي يا عبد القادر الجيلاني، فهذا يهدم لا إله إلا الله ويقضي عليها قضاء تاماً، لأن تلك الصفات التي جعلها أولئك الجاهل لعباد الله هي خاصة بالله تعالى، فمن جعلها لغيره فقد كفر به. انظر (الباب الثالث) من (سورة النمل).

سُورَةُ النَجْمِ

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّكْتَ وَالْعُزَّىٰ ۖ ﴿١٩﴾ وَمَنْوَةَ الثَّالِثَةَ الْآخَرَىٰ ۖ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ الذَّكْرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ ۖ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ۖ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمِيَتْهُمَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَّا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ۖ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَىٰ ۖ ﴿٢٣﴾ أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّىٰ ۖ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَىٰ ۖ ﴿٢٥﴾﴾ [النجم: ١٩ - ٢٥]

قال (ك): «يقول تعالى مقررًا للمشركين في عبادتهم الأصنام والأوثان، واتخاذهم لها البيوت مضاهاةً للكعبة التي بناها خليل الرحمن ﷺ: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّكْتَ﴾ وكانت (اللات) صخرة بيضاء منقوشة، وعليها بيت بالطائف له أستار وسدنة، وحوله فناء معظم عند أهل الطائف، وهم: ثقيف ومن تابعها، يفتخرون بها على من عداهم من أحياء العرب؛ بعد قريش، وقال البخاري بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿اللَّكْتَ وَالْعُزَّىٰ﴾ (كان اللات رجلاً يلت السوق للحاج)^(١) قال (ج): وكذا العزى من العزيز، وكانت شجرة عليها بناء وأستار بنخلة، وهي بين مكة^(٢) والطائف، كانت قريش يعظمونها، كما قال أبو سفيان يوم أحد: «لنا العزى ولا عزى لكم» فقال رسول الله ﷺ: «قولوا الله مولانا ولا مولى لكم»^(٣). وروى (غ) بسنده عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من حلف فقال في حلفه: واللات والعزى، فليقل: لا إله إلا الله. ومن قال لصاحبه:

(١) سبق تخريجه.

(٢) بعدها في الأصل: «والمدينة» ولا معنى لها، وهي غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».

(٣) أخرجه البخاري (٤٠٤٣) من حديث البراء.

تعال أقامرك فليتصدق»^(١) فهذا^(٢) محمول على من سبق لسانه في ذلك، كما كانت ألسنتهم قد اعتادته من^(٣) زمن الجاهلية، وروى (ن) بسنده عن مصعب بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه قال: حلفت باللات والعزى فقال أصحابي: بش ما قلت، قلت هجراً! فأتيت رسول الله ﷺ فذكرت ذلك له فقال: «قل لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، وانفث عن شمالك ثلاثاً، وتعوذ بالله من الشيطان الرجيم، ثم لا تعد»^(٤). وأما (مناة) فكانت بالمشلل عند قُديد بين مكة والمدينة، وكانت خزاعة والأوس والخزرج في جاهليتها يعظمونها، ويهلون منها للحج إلى الكعبة، روى البخاري عن عائشة نحوه^(٥)، وقد كانت بجزيرة العرب وغيرها طواغيت أخر تعظمها العرب كتعظيم الكعبة غير هذه الثلاثة التي نص عليها في كتابه العزيز، وإنما أفرد هذه بالذكر لأنها أشهر من غيرها، قال ابن إسحاق في «السيرة»: وقد كانت العرب اتخذت مع الكعبة طواغيت، وهي بيوت^(٦) تعظمها كتعظيم الكعبة، لها سدنة وحجاب، ويهدي^(٧) لها كما يهدي للكعبة، وتطوف بها كطوافها بها، وتنحر عندها، وهي تعرف فضل الكعبة عليها، لأنها كانت قد عرفت أنها بيت إبراهيم عليه السلام، ومسجده؛ فكانت لقريش ولبنو كنانة العزى بنخلة، وكان سدنتها وحجابها بني شيبان من سليم، حلفاء بني هاشم. (قلت): «بعث إليها رسول الله ﷺ خالد بن الوليد فهدمها، وجعل يقول:

يا عَزَى كُفِّرَانِكَ لَا سُبْحَانَكَ إِنِّي رَأَيْتُ اللَّهَ قَدْ أَهَانَكَ»^(٨)

(١) أخرجه البخاري (٤٨٦٠). (٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وهذا».

(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «في».

(٤) أخرجه النسائي في (كتاب، الأيمان والنذور، باب الحلف باللات والعزى) (٨/٧)، وفي «الكبرى» في (كتاب: عمل اليوم والليلة، باب ما يقول من حلف باللات والعزى) رقم (١٠٨٢٦)، وابن أبي شيبة في «المسند» (ق ٦٢/أ) - وهو ساقط من مطبوعه -، والدورقي في «مسند سعد بن أبي وقاص» (٥٨)، والحديث صحيح.

(٥) أخرجه البخاري (٤٨٦١).

(٦) من مطبوع «تفسير ابن كثير» وسقطت من الأصل.

(٧) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وتهدي».

(٨) ذكر هذه القصة ابن عبد البر في «الاستيعاب» (ص ١٩٨)، وابن حجر في «الإصابة»

(٢٥٣/٢) وعزاها لابن أبي الدنيا، وابن الأثير في «أسد الغابة» (٩٩/٢)، وأخرج

الطبراني في «الكبير» (١٠٦/٤)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (١٣/٤٠٣ - ٤٠٤) عن =

ثم قال تعالى: ﴿الْكُفْرَ وَالْآثِقَ﴾ (١٦) أي: أنجعلون له ولداً وتجعلون ولده أنثى وتختارون لأنفسكم الذكور؟ فلو اقتسمتم أنتم ومخلوق مثلكم هذه القسمة لكانت قسمة ضيزى، أي: جوراً باطلاً، فكيف تقاسمون ربكم هذه القسمة التي لو كانت بين مخلوقين كانت جوراً وسفهاً، ثم قال تعالى منكرأ عليهم فيما ابتدعوه وأحدثوه من الكذب والافتراء والكفر من عبادة الأصنام وتسميتها آلهة ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمِيَتْهُمَا﴾ أي: من تلقاء أنفسكم، ﴿مَا أُنْزِلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ أي: من حجة، ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ﴾ أي: ليس لهم مستند إلا حسن ظنهم بآبائهم الذين سلكوا هذا المسلك الباطل قبلهم، وإلا حظ نفوسهم في رياستهم وتعظيم آبائهم الأقدمين، ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَى﴾ أي: ولقد أرسل الله إليهم الرسل بالحق المنير والحجة القاطعة، ومع هذا ما اتبعوا ما جاؤوهم به ولا انقادوا له، ثم قال تعالى: ﴿أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَفَى﴾ (١٧) أي: ليس كل من تمنى خيراً حصل له، ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ [النساء: ١٢٣]، ما كل من زعم أنه مهتد يكون كما قال، ولا كل من ود شيئاً يحصل له، وقوله: ﴿فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى﴾ (١٨) أي: إنما الأمر كله لله، ملك الدنيا والآخرة، والمتصرف في الدنيا والآخرة، فهو الذي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن^(١). اهـ.

فصل

قال محمد تقي الدين: فائدة: الحلف بغير الله من الشرك، قال النبي ﷺ: «من حلف بغير الله فقد أشرك»^(٢)، رواه (أ) (ب) عن ابن عمر وإسناده حسن. وقال النبي ﷺ: «إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم، من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت»^(٣). ومتى فشا ظلام الشرك في قوم وغاب عنهم نور التوحيد كثر فيهم الحلف بغير الله، فإذا تاب الواحد منهم من الشرك تبقى فيه عادة الحلف بغير الله، ويجري على لسانه دون أن يقصده^(٤)، فمن وقع له مثل ذلك فكفارته أن يقول:

= خالد بن الوليد أنه مرّ على اللات فقال: فذكره... دون ذكر بعث النبي ﷺ له.

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٣/٢٦٦ - ٢٧٠) بتصرف.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) قال ابن حجر في «فتح الباري» (٨/٦١٢): «قال الخطابي: اليمين إنما تكون بالمعبود المعظم، فإذا حلف باللات ونحوها فقد ضاهى الكفار، فأمر أن يتدارك بكلمة التوحيد.» =

لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، ويجتهد أن لا يعود إلى ذلك، فإن كان صادقاً لا تمر عليه إلا مدة قليلة حتى تزول عنه تلك العادة، ويتعود الحلف بالله وحده، كما وقع لأصحاب رسول الله ﷺ^(١)، وكذلك الذي اعتاد أن يهتف باسم شيخ عند قيامه وقعوده، وعند ما يصيبه فزع إذا تاب من الشرك، يعود نفسه ترك ذلك، وإذا جرى لسانه بذلك بدون قصد يقول: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وكذلك الذي اعتاد أن يقول: لولا الله وفلان لوقع كذا وكذا، إذا تاب من الشرك يعود نفسه أن يقول: لولا الله ثم فلان. اهـ.

وقول النبي ﷺ: «من قال لصاحبه: تعال أقامرك»^(٢) دون أن يقصد القمار يتصدق بما يسر الله له فتكون تلك الصدقة كفارة لذلك القول وزجراً عن العود لمثله». وقولهم: قلت هجراً، الهجر: الكلام القبيح.

قال محمد تقي الدين: فائدة ثانية: من سوء حظنا في هذا الزمان أننا نرى أوثاناً لها بيوت وأفنية يذبح لها ويطاف بها، وتُقبَّل ويتمسح بها بقصد التبرك أكثر مما كان عند العرب، ونحن عاجزون عن هدمها، لأن عبادها لا يزال عددهم كثيراً، ولكننا نستطيع القضاء عليها إذا وفقنا الله تعالى بدعوة الناس إلى هجرها والكفر بها، فيطول عليها الزمان فتهدم من تلقاء نفسها، ويستريح الناس من شرها^(٣).

= وقال ابن العربي: من حلف بها جاداً فهو كافر، ومن قالها جاهلاً أو ذاهلاً، يقول: لا إله إلا الله، يكفر الله عنه ويرد قلبه عن السهو إلى الذكر، ولسانه إلى الحق، وينفي عنه ما جرى من اللغو. اهـ.

(١) سبق بيان ذلك عن بعضهم قريباً.

(٢) أخرجه البخاري (٦١٠٧)، ومسلم (١٦٤٧) من حديث أبي هريرة.

(٣) نشطت هذه الأيام - والله الحمد والمنة - الدعوة إلى التوحيد، وظهرت أنوار السنة، وذلك بفضل الله تعالى أولاً، ثم بنشاط علمائنا الأعلام، وتلاميذهم الكرام، وانتشار كتبهم المفيدة النافعة المانعة، وترجمتها إلى أكثر من لغة، وقيام كثير من السراة الأماجد، والأثرياء الأفاضل بطبعها وتوزيعها على عوام المسلمين، فجزى الله الجميع خير الجزاء، وبارك في طاعتهم وأموالهم.

سُورَةُ الْجَاثِلَةِ

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١﴾﴾ [المجادلة: ٢٢]

قال (ك): «يقول تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ أي: لا يوادون المحادين ولو كانوا من الأقربين، كما قال تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذُ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّبِعُوا مِنْهُمْ نَهْيًا يُعَذِّبُكُمُ اللَّهُ نَفْسًا﴾ الآية، وقد قال سعيد بن عبد العزيز وغيره: أنزلت هذه الآية ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ...﴾ إلى آخرها في أبي عبيدة عامر بن عبد الله بن الجراح حين قتل أباه يوم بدر^(١)، ولهذا قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين جعل الأمر شورى بعده في أولئك الستة: «لو كان

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» (١/١٥٤ - ١٥٥)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (١/١٠١) و«معركة الصحابة» (٢/٢١، ٢٢) (رقم ٥٧٦) - ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (ق٢٦٦) -، والحاكم (٣/٢٦٤ - ٢٦٥)، وعنه البيهقي (٩/٢٧) وقال البيهقي عقبه: «هذا منقطع». وقال الحافظ ابن حجر في «الإصابة» (٢/٢٤٤): «أخرجه الطبراني بسند جيد عن عبد الله بن شاذب»، وقال في «الفتح» (٧/٩٣): «مرسل»، وقال في «التلخيص» (٤/١١٣): «هذا معضل».

وزاد السيوطي في «لباب النقول» (ص ٢٠٨) وفي «الدر المنثور» (٨/٨٦) نسبته لابن أبي حاتم.

أبو عبيدة حيّاً، لاستخلفته^(١). وقيل في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ﴾: نزلت في أبي عبيدة حين قتل أباه يوم بدر ﴿أَوْ أَبْنَاءَهُمْ﴾ في الصديق هم يومئذٍ بقتل ابنه عبد الرحمن^(٢) ﴿أَوْ إِخْوَانَهُمْ﴾ في مصعب بن عمير قتل أخاه عبيد بن عمير^(٣)، ﴿أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ في عمر قتل قريباً له يومئذٍ أيضاً، وفي حمزة وعلي، وعبيد بن الحارث، قتلوا عتبة وشيبة والوليد بن عتبة يومئذٍ^(٤)، والله أعلم، قلت: ومن هذا القبيل حين استشار رسول الله ﷺ المسلمين في أسارى بدر فأشار الصديق بأن يفادوا فيكون ما يؤخذ منهم قوة للمسلمين، وهم بنو العم والعشيرة، ولعل الله تعالى أن يهديهم، وقال عمر: لا أرى ما رأى، يا رسول، هل تمكيني من فلان قريب لعمر فأقتله، وتمكن عليّاً من عقيل، وتمكن فلاناً من فلان، ليعلم الله^(٥) أنه ليس في قلوبنا هواة^(٦) بكمالها^(٧). للمشركين...^(٨) القصة بكمالها. وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ أي: من اتصف بأنه لا يواد من حاد الله ورسوله ولو كان أباه أو أخاه، فهذا ممن كتب الله في قلبه الإيمان، أي: كتب له السعادة وقررها في قلبه وزين الإيمان في بصيرته قال السدي: ﴿كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ﴾، أي^(٩): جعل في قلوبهم الإيمان^(١٠)، وقال ابن عباس: ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾، أي: قواهم. وقوله تعالى: ﴿وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾^(١١)، وفي قوله

(١) أخرجه أحمد (١٨/١) وفي «فضائل الصحابة» (١٢٨٥ - ١٢٨٧)، وابن سعد (٤١٣/٣) وابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (٤١٨/٣)، وابن جرير في «تاريخه» (٣٣/٥)، والحاكم (٢٦٨/٣)، وهو حسن.

(٢) انظر ما قدمناه من خبر إرادة قتل أبي بكر ولده في (ص ١٥٢) وهناك تخريجه.

(٣) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «يومئذ».

(٤) وقيل غير ذلك، انظر: «لباب النقول» (ص ٢٠٨)، «الدر المنثور» (٨٦/٦)، «الكشف والبيان» (٢٦٥/٩).

(٥) من مطبوع «تفسير ابن كثير» وسقط من الأصل.

(٦) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «موادة»!

(٧) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».

(٨) سبق تخريجها.

(٩) من مطبوع «تفسير ابن كثير» وسقط من الأصل.

(١٠) انظر: «تفسير السدي الكبير» (٤٥١).

(١١) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «كل هذا تقدم تفسيره غير مرة».

تعالى: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ سر بديع، وهو: أنه لما سخطوا على القرائب والعشائر في الله تعالى عوضهم الله بالرضا عنهم وأرضاهم عنه بما أعطاهم من النعيم المقيم، والفوز العظيم، والفضل العميم، وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أي: هؤلاء حزب الله أي: عباد الله وأهل كرامته، وقوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ تنويه بفلاحهم وسعادتهم ونصرتهم^(١) في الدنيا والآخرة؛ في مقابلة ما ذكر^(٢) عن أولئك بأنهم حزب الشيطان، ثم قال: ﴿أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [المجادلة: ١٩] وعن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: «اللهم لا تجعل لفاجر ولا لفاسق عندي يداً ولا نعمة فلاني وجدت فيما أوحيته: ﴿لَا يَحْدُ قَوْمًا يُمُوتُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾»^(٣)؛ قال سفيان: إنها أنزلت في من يخالط السلطان»^(٤).

فصل

قال محمد تقي الدين: فائدة: إن تحقيق التوحيد الذي دلت عليه لا إله إلا الله عزيز الوجود كالكبريت الأحمر، وله شروط:

أولها: أن يوحد العبد ربه في ربوبيته وألوهيته، وهي: العبادة، فلا يجعل من عبادته لغير الله مثقال ذرة أو أقل من ذلك.

ثانيهما: أن يكفر بعبادة غير الله ولو كانت للأنبياء والملائكة.

الثالث: أن يتبرأ من المشركين بصريح العبارة، فإن لم يقدر فبقلمه مع اجتهاده في الهجرة إلى بلد يمكنه فيه التصريح بذلك.

الرابع: أن يعادي المشركين في الدين.

الخامس: أن يحب الموحدين ويواليهم، ويتعاون معهم في إعلاء كلمة

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ونصرهم».

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أخبر»، وبعدها فيه: «إلي».

(٣) أخرجه ابن مردويه والديلمي (٢٠١١) بإسناد ضعيف. قاله الشوكاني في «الفوائد المجموعة» (ص ٢١١) رقم (١٨).

وفي إسناده انقطاع ظاهر وهو مرسل، قال الحافظ العراقي في «تخريج الإحياء» (١/ ٤٥٦) رقم (١٧٤١): «وأسانيده كلها ضعيفة»، وعزاه ابن كثير لأبي أحمد العسكري، وانظر: «الأسرار المرفوعة» (٩١)، و«إتحاف السادة المتقين» (١٤٨/٦).

(٤) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٣/ ٤٦٨ - ٤٧٠) بتصرف.

الحق، وهذه الشروط الخمسة لا تقبل منه إلا إذا ضم إليها شهادة أن محمداً رسول الله ولها شروط:

أولها: أن يقول بلسانه: لا إله إلا الله محمد رسول الله.

ثانيها: أن يعرف معنى الشهادتين.

ثالثها: أن يعرف الضروري مما جاء به الرسول ﷺ، وهو كل ما فرض الله عليه في الإسلام.

خامسها^(١): أن لا يرد شيئاً مما جاء به النبي ﷺ.

سادسها: أن يرد كل نزاع مع غيره إلى كتاب الله وسنة رسوله.

سابعها: أن يرضى بحكم الكتاب والسنة، ولو كان فيه قتله وقتل أعز الناس عنده.

ثامنها: أن لا يجد في ذلك حرجاً أو كراهية في نفسه، والله الموفق.

(١) كذا في الأصل: دون «رابعها»!

سُورَةُ الْحَشْرِ

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ٢٢﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيَّمُنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ٢٣ هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ٢٤﴾ [الحشر: ٢٢ - ٢٤]

قال (ك): «يقول^(١) تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ٢٢﴾ أخبر تعالى أنه الذي لا إله إلا هو فلا رب غيره ولا إله للوجود سواه، وكل ما يعبد من دونه فباطل، وأنه عالم الغيب والشهادة، أي: يعلم جميع الكائنات المشاهدات لنا والغائبات عنا، فلا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، من جليل وحقيق، وصغير وكبير، حتى الذر في الظلمات.

وقوله تعالى: ﴿هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ ذو الرحمة الواسعة الشاملة لجميع المخلوقات، فهو رحمان الدنيا والآخرة ورحيمهما، ثم قال تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ﴾ أي: المالك لجميع الأشياء المتصرف فيها بلا ممانعة ولا مدافعة، وقوله تعالى: ﴿الْقُدُّوسُ﴾، معناه: الطاهر^(٢).

وقوله تعالى: ﴿الْمُؤْمِنُ﴾ أي: الذي آمن مَنْ شاء مِنْ عبادِهِ مِنَ الْخَوْفِ، كما قال تعالى: ﴿الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ٢٤﴾ [قريش: ٤] وقوله

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «قال».

(٢) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «السَّلَامُ»: أي من جميع العيوب والنقائص؛ بكمالهِ في ذاته وصفاته وأفعاله، وما مضى من «تفسير ابن كثير» (٥٠٢/١٣).

تعالى: ﴿الْمُهَيِّئِينَ﴾ أي: الشاهد على خلقه بأعمالهم، بمعنى: هو رقيب عليهم، كقوله: ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ وقوله تعالى: ﴿الْعَزِيزُ﴾: أي: الذي قد عز كل شيء فقهره وغلب الأشياء، فلا ينال جنباه لعزته؛ وعظمته، وجبروته، وكبريائه، ولهذا قال تعالى: ﴿الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ﴾ أي: الذي لا يليق الجبروت^(١) إلا له، ولا التكبر^(٢) إلا لعظمته، كما تقدم، وفي «الصحيح»: «العظمة إزاري، والكبرياء ردائي، فمن نازعني واحداً منهما عذبت»^(٣). ﴿سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ وقوله تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ﴾ الخلق: التقدير، والبراء^(٤) هو: الفري وهو التنفيذ، وإبراز ما قدره وقرره إلى الوجود، وليس كل من قدر شيئاً ورتبه يقدر على تنفيذه وإيجاده سوى الله ﷻ.

قال الشاعر يمدح آخر^(٥):

ولأنت تَفْرِي ما خَلَقْتَ وَبَعْدَ ضُ الْقَوْمِ يَخْلُقُ ثم لا يَفْرِي^(٦)

أي: أنت تنفذ ما خلقت، أي: قدرت بخلاف غيرك فإنه لا يستطيع [أن ينفذ]^(٧) ما يريد. وقوله تعالى: ﴿الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ﴾ أي: إذا أراد شيئاً قال له: كن فيكون، على الصفة التي يريد والصورة التي يختار، كقوله تعالى: ﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ ولهذا قال: ﴿الْمُصَوِّرُ﴾ أي: الذي ينفذ ما يريد إيجاده على الصفة التي يريدها، وقوله تعالى: ﴿لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾، في «الصحيحين» عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ: «إن لله تعالى تسعة وتسعين اسماً، مائة إلا واحداً من أحصاها دخل الجنة، وهو وتر يحب الوتر»^(٨)، وذكر الترمذي^(٩) الأسماء التسعة والتسعين.

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الجبرية».

(٢) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «التكبير»!

(٣) أخرجه البخاري (٣٥٨٣، ٣٥٨٥) من حديثي ابن عمر وجابر.

(٤) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «والبراء»!

(٥) القاتل زهير، وهو بيت من قصيدة يمدح بها هرم بن سنان في «ديوانه» (٦٠ - ٦٤).

(٦) المراد بالخلق في الشعر التقدير لا الاختراع والابتداع كما في الآية.

(٧) غير موجود في مطبوع ابن كثير.

(٨) سبق تخريجه، ولأبي نعيم جزء مفرد في طرقة، مطبوع بتحقيقي أكثر من مرة، والله الحمد والمنة، وما مضى من «تفسير ابن كثير» (١٣/٥٠٣ - ٥٠٤) بتصرف.

(٩) سبق تخريجه مطولاً.

فصل

قال محمد تقي الدين: وقد نظمها العلامة أحمد بن عبد العزيز الهلالي^(١) في قصيدة يقول في أولها:

إذا نابني حَظْبٌ وَصَاقَ به صَدْرِي تلافاه لطفُ الله من حيث لا أدري
ولا سَيْمًا إنْ جئته مُتوسِّلاً بأسمائه الحُسنى المعظمة القدرِ
فيا الله يا رحمانُ إنِّي لذو فقيرٍ وأنتَ رحيمٌ مالكُ الخلقِ والأمرِ
بقدسك قدوس سلام ومؤمن مهيمن قدسني لدى السرِّ والجهرِ
عزيزٌ وجبَّارٌ ويا متكبِّرُ ويا خالقَ الخلقِ اكفني أزمةَ الدهرِ
ويا بارئ ما لي سِواكَ مصوِّرُ وغفَّارُ يا قهارُ لذي كسرِ

وهي مشهورة موجودة في المغرب، وقد ذكرتها بتمامها في آخر (القسم الثالث) من هذا الكتاب^(٢)، وكذلك (القصيدة الضمياطية)^(٣) تشتمل على أسماء الله الحسنى والتوسل بها إلى الله تعالى، ولكل صفة خاصة بها، فالقصيدة الهلالية أقل دعاء وأفصح لفظاً وكل بيت منها يشتمل على أربعة أسماء أو أكثر^(٤)، وأما (الضمياطية) فالفاظها ركيكة ونظمها غير جيد، إلا أن كل بيت منها لا يزيد على اسمين^(٥) والباقي كله دعاء، أولها بعد المقدمة:

مِنْ الله أَرْجُو أَمِنْ قَلْبٍ تَوَجَّلَا فبالأمن يا رحمان لا تبق موجلا
وَكُنْ يا رَحِيمٌ راحِماً صَغَفَ قَوَّتِي ويا مالِكُ كُنْ لي مَلاذاً وَمَوْئِلاً

ومن العجيب عند المغاربة - وما أكثر عجائبهم - أنهم يعتقدون أن من قرأها وأكثر قراءتها يصاب بالجنون؛ لأن لكل بيت منها خاصية، وخداماً من الجن يقضون حاجة من دعا به، ولكن قلَّ مَنْ يتغلب عليهم فيستجيبون له ويخدمونه، وأكثر من يحاول التغلب عليهم يهزم ويصاب بالجنون، حتى إن سكان الجزائر إذا رأوا شخصاً من حفاظ القرآن لم تعجبهم حاله يقولون: (هذا مُضْمِيط)، يعنون أنه فقد عقله بكثرة قراءة الضمياطية، والمغاربة ليسوا كاذبين فيما زعموا، فإن من قرأها للسحر

(١) ستأتي ترجمته في (٦/ ٢٨٠). (٢) انظرها في (٦/ ٢٨١) مع تعليقنا هناك.

(٣) انظر (٦/ ٢٨٠) وتعليقنا هناك.

(٤) قال المصنف في (ديباجة)، «قصيدة أسماء الله الحسنى» (ص ٣) عن قصيدة الهلالي: «لم يلتزم فيها عدداً خاصاً في كل بيت، فيشتمل البيت الواحد على ثلاثة أسماء أو أربعة».

(٥) قال المصنف: «الترزم فيها أن يجعل كل بيت مشتملاً على اسمين» المرجع السابق.

واستخدام الجن يصاب بالجنون والوسوسة وتجيئه خيالات تفتته وتفسد عقله .

أما من قرأها لله وتوسل إليه سبحانه بالأسماء الحسنى التي تضمنتها فإنه يرى خيراً كثيراً، والتوسل الصحيح المطابق لأدعية الكتاب والسنة الصحيحة إنما يكون بأسماء الله وصفاته، كما تقدم وكقول النبي ﷺ، «أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن يحل عليّ غضبك» إلى آخره، وهو دعاء مشهور دعا به النبي ﷺ، عند رجوعه من الطائف، وأوله: «اللهم إليك أشكو ضعف قوتي»^(١).

وبالأعمال الصالحة كما في حديث أصحاب الغار الذين توسل كل واحد منهم إلى الله تعالى بأفضل أعماله، وهو في «البخاري»^(٢).

وأما التوسل بالأشخاص والإقسام بهم على الله تعالى فهو بدعة، انظر كتاب «التوسل والوسيلة»^(٣) للشيخ الإسلام أحمد ابن تيمية، وأما حديث الأعمى^(٤) الذي يتشبث به المخالف فلا حجة فيه؛ لأن النبي ﷺ دعا له وشفع له عند الله، يضاف إلى ذلك أن الحديث ضعيف، انظر كتاب «صيانة الإنسان عن وسوسة دحلان»^(٥) للشيخ بشير السهسواني الهندي رَحِمَهُ اللهُ.

وقوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لَمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ كقوله تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤] وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ فلا يرام جنباه ﴿الْحَكِيمُ﴾ في شرعه وقدره.

(١) انظر: تخريجه في (٤٣٢/١).

(٢) أخرجه البخاري (٢٢٧٢)، ومسلم (٢٧٤٣) من حديث ابن عمر، وذكر طرق ومخارجه بما لا مزيد عليه - إن شاء الله - في تعليقي على «فنون العجائب» (رقم ٣٥ - ٤٨) للنقاش.

(٣) انظر منه: (ص ٢٢٩ وما بعد - ط. الشيخ ربيع).

(٤) أخرجه أحمد (١٣٨/٤)، والترمذي (٣٥٧٨)، والنسائي في «الكبرى» (١٠٤٩٥) - وهو في «عمل اليوم والليلة» (٦٥٩) -، وابن ماجه (١٣٨٥)، وعبد بن حميد (٣٧٩)، وابن خزيمة (١٢١٩)، والحاكم (٣١٣/١، ٥١٩)، وصححه شيخنا الألباني وتكلمت على طرقه بإسهاب وتطويل في تعليقي على «الحنائيات» (٩٣) وفرغت منه، وهو قيد النشر، يسر الله ذلك بمته وكرمه.

(٥) انظر منه (ص ١٧٧) وما بعد - ط. الشيخ إسماعيل الأنصاري.

سُورَةُ الْمُتَحَنِّنِ

الباب الاول

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسْرِوْنَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١﴾ إِنْ يَتَفَقَّهْتُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَسْطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتُهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾ لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣﴾ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُوكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَا اسْتَفْعِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْرُكَ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَآغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٥﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ

وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٦﴾ [المتحنة: ١-٦]

قال (ك): «سبب نزول هذه السورة الكريمة، قصة حاطب بن أبي بلتعة، وذلك أن حاطباً هذا كان رجلاً من المهاجرين، وكان من أهل بدر أيضاً، وكان له بمكة مال وأولاد^(١)، ولم يكن من قريش أنفسهم، بل كان حليفاً لعثمان، فلما عزم رسول الله ﷺ على فتح مكة لما نقض أهلها العهد، فأمر

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أولاد ومال».

النبي ﷺ المسلمين بالتجهيز لغزوهم^(١)، وقال: «اللهم عمّ عليهم خبرنا»^(٢).

فعمد حاطب هذا فكتب كتاباً وبعثه مع امرأة من قريش إلى أهل مكة يعلمهم بما عزم عليه رسول الله ﷺ [من غزوهم]^(٣) ليتخذ بذلك عندهم يداً، فأطلع الله تعالى على ذلك رسوله^(٤) ﷺ استجابة لدعائه، فبعث في أثر المرأة فأخذ الكتاب منها.

وهذا بين في هذا الحديث المتفق على صحته، رواه الجماعة إلا ابن ماجه بسندهم عن علي قال: «بعثني رسول الله ﷺ، أنا والزبير والمقداد فقال: «انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ، فإن بها ظعينة معها كتاب فخذوه منها»، فانطلقنا تعادى بنا خيلنا حتى أتينا الروضة فإذا نحن بالظعينة، قلنا: أخرجي الكتاب، قالت: ما معي كتاب، قلنا: لتخرجن الكتاب أو لتلقين الثياب. قال: فأخرجت الكتاب من عقاصها، فأخذنا الكتاب فأتينا به رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «يا حاطب! ما هذا؟» قال: لا تعجل عليّ إني كنت امرأاً ملصقاً في قريش، ولم أكن من أنفسهم، وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون أهلهم بمكة فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أتخذ فيهم يداً يحمون بها قرابتي، وما فعلت ذلك كفراً ولا ارتداداً عن ديني ولا رضاً بالكفر بعد الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «إنه صدقكم»، فقال عمر: دعني أضرب عنق هذا المنافق فقال رسول الله ﷺ له: «قد شهد بدراً، وما يدريك لعل الله اطلع إلى أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»^(٥). فقوله^(٦) تعالى: ﴿يَأْتِيَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ﴾؛ يعني:

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «لعدوهم».

(٢) أخرجه الطبراني في «الصغير» (٧٣/٢ - ٧٥)، و«الكبير» (٢٣/٢٣) رقم (١٠٥٢) من حديث ميمونة، وفيه يحيى بن سليمان بن نضلة، وهو ضعيف، قاله الهيثمي في «المجمع» (٦/١٦٤).

(٣) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».

(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «رسوله على ذلك».

(٥) أخرجه البخاري (٣٠٠٧، ٤٢٧٤، ٤٨٩٠)، ومسلم (٢٤٩٤)، وأبو داود (٢٦٥٠)، والترمذي (٣٣٠٥)، والنسائي في «الكبرى» (١١٥٨٥)، وأحمد (٨٠/١)، والحميدي (٤٩)، وأبو يعلى (٣٩٤، ٣٩٨)، وابن حبان (٦٤٩٩)، والبيهقي (١٤٦/٩) وفي «الدلائل» (١٧/٥) من حديث علي بن أبي طالب عليه السلام.

(٦) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «فقال»!

المشركين والكفار الذين هم محاربون لله ولرسوله وللمؤمنين^(١) الذين شرع الله عداوتهم، ومصارمتهم، ونهى أن يتخذوا أولياء وأصدقاء وأخلاء، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥١] وهذا تهديد شديد ووعد أكيد، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُؤًا وَلَعِبًا مِّنَ الدِّينِ أُولَٰئِكَ كَتَبَ مِن قَبْلُكُمُ الْكُفَارَ أَوْلِيَاءَ وَأَقْبُوا اللَّهَ إِنْ كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٥٧] وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أُرِيدُونَ أَن يُجْعَلُوا إِلَٰهَ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١٤٤] وقال تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَن تَتَّبِعُوا مَنَّهُمْ تَقْنَةً وَيَعْبُرْكُمْ اللَّهُ تَنَسُّمًا﴾ [آل عمران: ٢٨] ولهذا قبل رسول الله ﷺ عذر حاطب لما^(٢) ذكر أنه إنما فعل ذلك مصانعة لقريش لأجل ما كان له عندهم من الأموال والأولاد.

وقال الإمام أحمد بسنده^(٣) عن حذيفة قال: ضرب لنا رسول الله ﷺ مثلاً قال: «إن قوماً كانوا أهل ضعف ومسكنة، قاتلهم أهل تجبر وعداء، فأظهر الله أهل الضعف عليهم، فعمدوا^(٤) إلى عدوهم فاستعملوهم وسلطوهم، فأسخطوا الله عليهم إلى يوم يلقونه».

وقوله تعالى: ﴿يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ﴾ هذا مع ما قبله من التهيج على عداوتهم وعدم موالاتهم، لأنهم أخرجوا الرسول وأصحابه من بين أظهرهم كراهة لما هم عليه من التوحيد وإخلاص العبادة لله وحده [لا شريك له]^(٥)، ولهذا قال تعالى: ﴿أَن تَوَدُّوا بِأَلَّهِ رَبِّكُمْ﴾ أي: لم يكن لكم عندهم [من] ذنب، إلا إيمانكم بالله رب العالمين، كقوله تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِأَلَّهِ الْعَزِيزِ

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «والمؤمنين».

(٢) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «مما»!

(٣) أخرجه أحمد (٤٠٧/٥)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٩/١٥) وفي «مسنده» - كما في «إتحاف الخيرة» (٥٧٨) للבוصري - وإسناده ضعيف، فيه قيس بن أبي مسلم مجهول، والأجلح هو ابن عبد الله الكندي ضعيف.

وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢٣٥/٥): «رواه أحمد وفيه الأجلح الكندي وهو ثقة وقد ضعف، وبقي رجاله ثقات».

(٤) بعدها في الأصل: «لهم»!

(٥) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».

الْحَمِيد ﴿٨﴾ [البروج: ٨] وكقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ أَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ [الحج: ٤٠].

وقوله ^(١) تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهْدًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْصَقٍ﴾ أي: إن كنتم كذلك فلا تتخذوهم أولياء إن كنتم خرجتم مجاهدين في سبيلي باغين لمرضاتي عنكم، فلا توالوا أعدائي وأعداءكم، وقد أخرجوكم من دياركم وأموالكم حقاً عليكم، وسخطاً لدينكم.

وقوله تعالى: ﴿يُشِيرُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ﴾ أي: تفعلون ذلك وأنا العالم بالسرائر والضمائر والظواهر، ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ إِنْ يَفْقَهُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَالسِّنَنُ بِالسُّوءِ﴾ أي: لو قدروا عليكم لما اتقوا فيكم من أذى ينالونكم ^(٢) بالمقال والفعال، ﴿وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ أي: ويحرصون ^(٣) أن لا تنالوا خيراً فهم عداوتهم لكم كامنة ظاهرة، فكيف توالون مثل هؤلاء؟ وهذا ^(٤) تهيج على عداوتهم أيضاً.

وقوله تعالى: ﴿لَنْ تَنْفَعَكُمْ﴾ ^(٥) عند الله إذا أراد الله بكم سوءاً، ونفعهم لا يصل إليكم إذا أرضيتموهم بما يسخط الله، ومن وافق أهله على الكفر ليرضيهم فقد خاب وخسر عمله وضل ^(٦)، ولا ينفعه عند الله قرابته من أحد، ولو كان قريباً من نبي من الأنبياء، قال الإمام أحمد بسنده عن أنس أن رجلاً قال: يا رسول الله أين أبي؟ قال: «في النار» فلما قفى دعاه فقال: «إن أبي وأباك في النار» ^(٧).

وقوله تعالى: ﴿فَقَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ...﴾ إلى آخره، قال (ك): «يقول تعالى لعباده المؤمنين الذين أمرهم بمصارمة الكفار» ^(٨)

(١) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «وكقوله»!

(٢) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «ينالوكم»!

(٣) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «على».

(٤) من مطبوع «تفسير ابن كثير» وسقطت من الأصل!.

(٥) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَقُولُ يَنْتَكُمُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ» أي: قراباتكم لا تنفعكم.

(٦) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وضل عمله».

(٧) أخرجه أحمد (٢٦٨/٣)، ومسلم (٢٠٣)، وأبو داود (٤٧١٨)، وما مضى من «تفسير ابن كثير» (١٣/٥٠٦ - ٥٠٧، ٥١١ - ٥١٣) بتصرف.

(٨) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الكافرين».

وعداوتهم ومجانبتهم والتبرؤ منهم: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ أي: وأتباعه الذين آمنوا معه ﴿إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُوكُمْ﴾: تبرأنا منكم ﴿وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كُفْرًا بِكُرْ﴾ أي: بدينكم وطريقتكم^(١)، ﴿وَبَدَا يَنبَأُ وَيَنبَأُكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ أَبَدًا﴾؛ يعني: وقد شرعت العداوة والبغضاء من الآن بيننا وبينكم ما دمتم على كفركم، فنحن أبداً نتبرأ منكم ونبغضكم ﴿حَتَّى تَتُومِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ﴾ أي: إلى أن توحداوا الله فتعبده وحده لا شريك له، وتخلعوا ما تعبدون معه من الأوثان والأنداد^(٢).

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ أي: لكم في إبراهيم وقومه أسوة حسنة تتأسون بها إلا في استغفار إبراهيم لأبيه، فإنه إنما كان ﴿عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ وذلك أن بعض المؤمنين كانوا يدعون لأبائهم الذين ماتوا على الشرك ويستغفرون لهم، ويقولون: إن إبراهيم كان يستغفر لأبيه فأنزل الله^(٣) ﴿مَا كَانَتْ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ ﴿وَمَا كَانَتْ أَسْتَغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ ﴿إِنِ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٣، ١١٤].

وقال تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُوكُمْ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي: ليس لكم في ذلك أسوة، أي: في الاستغفار للمشركين^(٤).

- (١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «طريقتكم».
- (٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الأنداد والأوثان».
- (٣) أخرجه الطيالسي (١٣١)، وأحمد (٩٩/١، ١٣٠، ١٣١)، وأبو يعلى (٣٣٥، ٦١٩)، والبخاري (٨٩٣، ٨٩٤)، وإسحاق بن راهويه وابن أبي شيبة - كما في «تخريج أحاديث الكشاف» (١٠٦/٢) - في «مسانيدهم»، والترمذي (٣١٠١)، والنسائي (٩١/٤)، وفي «الكبرى» (٢١٦٣)، وابن أبي حاتم (١٨٩٣/٦)، وابن جرير (٣٢/١١) كلاهما في «التفسير»، والطحاوي في «المشكل» (٢٤٨٠، ٢٤٨١، ٢٤٨٢)، والحاكم (٣٣٥/٢)، والبيهقي في «الشعب» (٩٣٧٧، ٩٣٧٨) من حديث علي بإسناد حسن، وحسنه شيخنا الألباني في «أحكام الجنائز» (ص ٩٦).
- (٤) من مطبوع «تفسير ابن كثير» وسقط من الأصل.

ثم قال تعالى مخبراً عن قول إبراهيم والذين معه حين فارقوا قومهم وتبرؤوا منهم، فلدجؤوا إلى الله وتضرعوا إليه، فقالوا: ﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ أي: توكلنا عليك في جميع الأمور، وسلمنا أمورنا إليك، وفوضناها إليك، ﴿وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ أي: المعاد في الدار الآخرة ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾^(١) معناه: لا تعذبنا بأيديهم ولا بعذاب من عندك، فيقولوا: لو كان هؤلاء على حق ما أصابهم هذا.

وقوله تعالى: ﴿وَأَعِزَّنَا بِمَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ﴾ أي: واستر ذنوبنا عن غيرك، واعف عنها فيما بيننا وبينك، ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ﴾ أي: الذي لا يضام من لاذ بجانبك، ﴿الْحَكِيمُ﴾ في أقوالك وأفعالك، وشرعك وقدرك، ثم قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ﴾ وهذا تأكيد لما تقدم، ومستثنى منه ما تقدم أيضاً، لأن هذه الأسوة المثبتة ههنا هي الأولى بعينها.

وقوله تعالى: ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ تهيج إلى ذلك لكل مؤمن بالله والمعاد، وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ﴾ أي: عما أمر الله به ﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ كقوله تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾^(٢) والغني هو الذي قد كمل في غناه، وهو الله، هذه صفته لا تنبغي إلا له، ليس له كفاء وليس كمثل شيء، سبحانه^(٣) الله الواحد القهار، والحميد الم محمود في جميع أقواله وأفعاله، لا إله غيره ولا رب سواه^(٤).

فصل

قال محمد تقي الدين: فائدة: قصة حاطب بن أبي بلتعة تدل على بُعد نظر النبي ﷺ وسعة حلمه وكرمه، فإنه غفر لهذا الرجل هذه الخطيئة مع شدة خطرها، لأنها سيئة واحدة تقابلها حسنات كثيرة، وأعظمها كونه من أهل بدر، قال الشاعر وأجاد:

وَإِذَا الْحَبِيبُ أَتَى بِذَنْبٍ وَاحِدٍ جَاءَتْ مُحَاسِنُهُ بِالْفِ شَفِيعٍ^(٥)

(١) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «قال مجاهد».

(٢) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس».

(٣) كذا في مطبوع ابن كثير. وفي الأصل: «سبحانه».

(٤) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٣/٥١٣ - ٥١٥).

(٥) البيت في «نفح الطيب» (٧/١٥٢ - ط. دار الفكر) من غير نسبة.

على أن الله سبحانه كفى نبيه والمؤمنين شر هذه الخطيئة، فإنه أطلع نبيه عليها فأرسل الفرسان الثلاثة، وجاؤا بالكتاب، فبقي أهل مكة في غفلة حتى أخذوا على غرة، والنبي ﷺ أحلم الناس وأحزمهم، والجمع بين الحلم والحزم هو الكمال.

قال محمد تقي الدين: فائدة ثانية: من والى العدو فهو عدو، قال الشاعر^(١):

تُحِبُّ عَدُوِي ثُمَّ تَزْعَمُ أَنِّي صَدِيقُكَ إِنَّ الْحَبَّ عَنْكَ لَعَارِضٌ

ولا يتم توحيد أحد ولا يكون مخلصاً دينه لله حتى يحب في الله ويبغض في الله، ويوالي الله ويعادي الله، ولا يداهن أحداً من المشركين، بل يعلن لهم عداوته لدينهم وتبرؤه منه، وقد وضع الله ذلك بقوله: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ أَيُّ اقْتِدَاءٍ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ فمن أقر أهل الشرك على شركهم فهو مشرك، وإن كان يعتقد بطلان الشرك وصحة التوحيد.

ألا ترى أن الله سبحانه سمى علماء اليهود مؤمنين بالطاغوت، لما استحسنوا ما عليه المشركون حين ذهبوا إلى مكة ليحرضوا أهلها على قتال النبي ﷺ، فسألهم أهل مكة: أينما أهدى سبيلاً نحن أم محمد؟ فقال علماء اليهود: أنتم أهدى سبيلاً، فأنزل الله تعالى فيهم من سورة النساء: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا ۖ ﴿٥١﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ نَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ۖ ﴿٥٢﴾﴾ [النساء: ٥١، ٥٢]^(٢) ولم يكن اليهود يؤمنون بطاغوت أهل مكة، ولكن لما أقروهم على ذلك سماهم الله مؤمنين به، هذا في الموالة في الدين.

وأما المعاملة في أمور الدنيا كالبيع والشراء ونحوه فجائزة، ومعاملة المعاهدين بالعدل والبر جائزة، لقوله تعالى في هذه السورة: ﴿لَا يَتَّخِذُ اللَّهُ عَنِ

(١) البيت في «المختار من شعر بشار» (٢٣)، ونسب لصالح بن عبد القدوس في «حماسة البحتري» (١٧٦ - ١٧٧)، وللعنابي في «عيون الأخبار» (٦/٣)، و«العقد الفريد» (٢/٣٠٧)، ولعبد الله بن مخارق في «الحماسة البصرية» (٤٣/٢) وهو بغير عزو في «الصدقة والصديق» (٤٦).

(٢) سبق تخريجه.

الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوا فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوا مِنْ دِينِكُمْ أَنَّ تَبَرُّهُمْ وَتَقَسُّطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَتَلُوا فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِينِكُمْ وَظَلَمُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَقُولَهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩﴾ وقال تعالى في المائدة: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥١].

﴿الباب الثاني﴾

قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعَنَّكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَتَرَفَّنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِمُهْتَنٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْنَهُنَّ وَأَسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٢﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَسْأُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَبِيسُ الْكَفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ ﴿١٣﴾﴾ [المتحنة: ١٢، ١٣]

قال (ع): «قال البخاري^(١) بسنده عن عائشة: إن رسول الله ﷺ كان يمتحن من هاجر إليه من المؤمنات بهذه الآية ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعَنَّكَ﴾ إلى قوله: ﴿غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، قالت عائشة: فمن أقر بهذا الشرط من المؤمنات قال لها رسول الله ﷺ: «قد بايعتك» كلاماً ولا [مصافحة]^(٢) والله ما مست يده يد امرأة في المبايعة قط، ما يبايعهن إلا بقوله: «قد بايعتك على ذلك». وروى (ت) و(ج) و(ن)^(٣) عن أميمة بنت رقيقة^(٤) قالت: أتيت النبي ﷺ في نساء لنبايعه، فأخذ علينا ما في القرآن أن لا نشرك بالله شيئاً... الآية، وقال: «فيما استطعن وأطقن»، قلنا: الله ورسوله أرحم بنا من أنفسنا، قلنا: يا رسول الله ألا تصافحنا؟ قال: «إني لا أصافح النساء، إنما قلتي لامرأة واحدة

(١) أخرجه البخاري (٤٨٩١). (٢) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».

(٣) أخرجه أحمد (٣٥٧/٦)، والحميدي (٣٤١)، والطيالسي (١٦٢١)، والترمذي (١٥٩٧)، وفي «العلل الكبير» (٦٨٢/٢)، والنسائي (١٤٩/٧) كتاب البيعة، باب بيعة النساء، وابن ماجه (٢٨٧٤)، والنسائي في «الكبرى» في كتاب السير، باب: بيعة النساء (٧٨١٣)، (٨٧٢٥)، وابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (٣٣٤٠، ٣٣٤١)، والطبراني في «الكبير» (٢٤/٢ رقم ٤٧٢ - ٤٧٦)، والدارقطني (١٤٧/٤)، الحاكم (٧١/٤)، وهو صحيح.

(٤) في الأصل: «رقية»! وهو خطأ، صوابه «رقية».

كقولي لمائة امرأة»^(١).

قال محمد تقي الدين: وقد ثبت في الحديث أن النبي ﷺ أخذ العهد على النساء زيادة على ما في القرآن «أن لا يخن ولا يغششن أزواجهن ولا يتبرجن تبرج الجاهلية الأولى»^(٢)، وفسر النبي ﷺ غش المرأة زوجها أن تأخذ من مال زوجها وتحابي به غيرها.

وعن هند بنت عتبة امرأة أبي سفيان أنها قالت: يا رسول الله إن أبا سفيان رجل شحيح لا يعطيني من النفقة ما يكفيني ويكفي بني، فهل علي جُنَاحٌ إن أخذت من ماله بغير علمه؟ فقال رسول الله ﷺ: «خذي من ماله بالمعروف ما يكفيك ويكفي بنيك»^(٣) (م).

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ﴾ وهذا يشمل قتله بعد وجوده كما كان أهل الجاهلية يقتلون أولادهم خشية الإملاق، ويعم قتله وهو جنين، كما يفعله بعض الجاهلات من النساء تمنع نفسها بدواء أو غيره، لثلاث تحبل إما لغرض فاسد أو ما أشبهه.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتِينَ بِنْتَيْنِ يَفْتَرِيَنَّ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلَيْهِنَّ﴾ أي: لا يلحقن بأزواجهن غير أولادهم، ويشهد لهذا الحديث الذي رواه أبو داود عن أبي هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول حين نزلت آية الملائنة: «أيما امرأة أدخلت على قوم من ليس منهم فليست من الله في شيء، ولن يدخلها الله جنته، وأيما رجل جحد ولده وهو ينظر إليه احتجب الله منه، وفضحه علي رؤوس الأولين والآخرين»^(٤).

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٣/٥٢٥ - ٥٢٦).

(٢) أخرجه أحمد (٦/٣٧٩ - ٣٨٠)، وابن إسحاق في «المغازي» - كما في «الإصابة» - وابن سعد (٩/٨)، وابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (٣٤٠٤)، وأبو يعلى (٧٠٧٠)، والطبراني (٢٤/٧٥١، ٧٥٢)، وابن الأثير في «أسد الغابة» (٧/١٤٩ - ١٥٠) من حديث سلمى بنت قيس، وإسناده ضعيف، فيه سليط بن أيوب، انفرد ابن حبان بتوثيقه، وللحديث شواهد عديدة. وقال الهيثمي في «المجمع» (٦/٤١): «رجاله ثقات»!

(٣) أخرجه البخاري (٢٢٦٣)، ومسلم (١٧١٤).

(٤) أخرجه أبو داود (٢٢٦٣) والنسائي (١٠٧/٢) والدارمي (١٥٣/٢) وابن حبان (١٣٣٥) والحاكم (٢٠٢/٢ - ٢٠٣) والبيهقي (٧/٤٠٣)، وفيه عبد الله بن يونس، مجهول، ما روى عن سوى يزيد بن الهاد، انظر «الفتح» (١٢/٥٤)، و«الإرواء» (٢٣٦٤)، و«السلسلة» =

وقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ ۝﴾. قال (ك): «ينهى تبارك وتعالى عن موالاة الكافرين في آخر هذه السورة كما نهى عنها في أولها، فقال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾؛ يعني: اليهود والنصارى وسائر الكفار؛ ممن غضب الله عليه ولعنه واستحق من الله الطرد والإبعاد، فكيف توالونهم وتتخذونهم أصدقاء وأخلاء؟ وقد يئسوا من الآخرة، أي: من ثواب الآخرة ونعيمها في حكم الله ﷻ».

وقوله تعالى: ﴿كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾ أي: كما يئس الكفار الأحياء من قرباتهم^(١) الذين في القبور، أن يجتمعوا بهم بعد ذلك، لأنهم لا يعتقدون بعثاً ولا نشوراً، فقد انقطع رجائهم فيما يعتقدونه^(٢). اهـ.

فصل

قال محمد تقي الدين: فائدة: جعل الحافظ (ك) قتل الولد بعد الولادة كقتله وهو جنين في بطن أمه، وبقي لنا أن نعرف ما حكم قتله وهو نطفة، والجواب - والله أعلم - إن إفساد النطفة إن كان للمحافظة على صحة الوالدة أو حفظ حياتها أو على صحة الأولاد كأن تكون مغايلة تلد في كل سنة ولداً وليس لها من يعينها على تربيتهم فيجوز لها أن تشرب دواء منع الحمل^(٣) حتى ترضع ولدها ستين، وبعد ذلك يحرم عليها أن تشربه.

أما من يفعل ذلك لضيق المعيشة فهو فاسق آثم، لا يؤمن بأن الله لا يخلق مخلوقاً إلا وقد أعد له رزقه، وقد ألّفت في ذلك جزءاً سمّيته: «الكواكب الدرية في حكم تحديد الذرية والسلامة من الأمراض المعدية»^(٤) وأبطلت كل حجة

= «الضعيفة» (١٤٢٧)، و«ضعيف سنن أبي داود» (١٠/٢٤٧ - ٢٤٨، رقم ٣٨٩) وفيه: «والشطر الثاني منه صحيح، له شاهد قوي من حديث ابن عمر في «الصحيحة» (٣٤٨٠)».

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «قرباتهم».

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٣/٥٣٦ - ٥٣٧).

(٣) رجعت عن هذا وأنا أعتقد أنه لا يجوز لها شرب الدواء لهذا الغرض. (منه).

قال أبو عبيدة: إعمالاً لقاعدة (المتوقع كالواقع) لا يجوز قتل الجنين وهو نطفة، إلا إن هدد بقاءه حياة الأم، فحينئذ الضرورة لها أحكام!

(٤) نشره بعنوان «رأي في تحديد النسل والعدوى» على ثلاث حلقات في مجلة «دعوة الحق» =

يحتج بها المخالفون، وحسبهم دليلاً على بطلان مذهبهم ما رواه مسلم والخمسة عن جذامة بنت أخت عكاشة قالت: حضرت رسول الله ﷺ في ناس وهو يقول: «لقد هممت أن أنهى عن الغيلة، فنظرتُ في الروم وفارس فإذا هم يغيلون أولادهم ولا يضر أولادهم ذلك شيئاً» ثم سأله عن العزل؟ فقال رسول الله ﷺ: «ذلك الواد الخفي، وهو المؤودة الصغرى»^(١). اهـ.

قال محمد تقي الدين: والواد الجلي هو دفن البنت وهي حية، وكانت العرب تفعل ذلك خشية أن تكبر وتزني، فيلحقهم عارها. وتأمل تقديم عدم الشرك بالله على السرقة والزنا وقتل النفس والبهتان تزدد يقيناً أن التوحيد هو كل شيء، وبدونه لا يقبل شيء، وإن الشرك هو الذنب الأكبر الذي لا يغفر.

فائدة ثانية: تأمل نهى الله تعالى عن موالة الكفار في الآيات الأولى من هذه السورة، ثم ختمه السورة بذلك، تعلم أن من لم يتبرأ من الشرك وأهله لا يكون موحداً.

= المغربية، السنة السادسة، الأعداد (٦، ٧) والسنة السابعة (العدد الثاني) سنة ١٣٨٢هـ / ١٩٦٣ - ١٩٦٤م. ونشر أيضاً في مجلة «الجامعة السلفية» الهندية على خمس حلقات، المجلد العاشر (الأعداد ٧، ٨، ٩، ١٠، ١١، ١٢) سنة ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م، وهو فيها بعنوان (حكم الإسلام في العزل والعدوى). وهذا أدق وأحسن.

(١) أخرجه مسلم (١٤٤٢)، والترمذي (٢٠٧٧)، وأبو داود (٣٨٨٢)، والنسائي (٣٣٢٦).

سُورَةُ الصَّفِّ

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (٧) يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾ [الصَّف: ٧ - ٩]

قال (ع): «يقول تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ﴾ أي: لا أحد أظلم ممن يفترى الكذب على الله ويجعل له أنداداً وشركاء وهو يدعى إلى التوحيد والإخلاص، ولهذا قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾».

ثم قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾، أي: يحاولون أن يردوا الحق بالباطل، ومثلهم في ذلك كمثّل من يريد أن يطفى شعاع الشمس فيه، وكما أن هذا مستحيل كذلك^(١) ذلك مستحيل، ولهذا قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ (٩). اهـ. وقد تقدم الكلام على هاتين الآيتين في سورة براءة بما فيه كفاية، والله الحمد والمنة^(٢).

فصل

قال محمد تقي الدين: فائدة: الذين يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم في هذا الزمان أصناف:

(١) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «كذاك»!

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٣/٥٤٨ - ٥٤٩).

أولهم: المرتدون الذين كفروا بالله تقليداً لدعاية كاذبة خاطئة، وهذه الدعاية شائعة في البلدان التي كان أهلها متمسكين بالإسلام في الأزمنة الغابرة في آسية وإفريقية، وحاصلها: إن الإسلام إن كان صالحاً في الزمن الماضي لترقية الشعوب، وأخذ نصيبها من القوة المادية، وتحصيل المعيشة السعيدة والسيادة الكاملة، فإنه في هذا الزمان لا يتفق مع الأخذ بأسباب الحضارة والرقي، فكل أمة تمسكت به تبقى متأخرة تسير إلى الوراء، ولا تكاد تدرك شيئاً من الحضارة العصرية، فإذا قيل لهم: وما دليلكم على هذا؟ يزعمون أن الأوروبيين تركوا دينهم وتقدموا، فلا يمكن أن نتقدم إلا إذا سلكتنا سبيلهم.

فنقول لهم: أولاً نحن لا نسلّم أبداً أن الأوروبيين تركوا دينهم، فإنهم لا يزالون متمسكين به، ولا نكلفكم أن تذهبوا إلى بلادهم لتعلموا أنكم كاذبون، بل نرشدكم إلى أدلة في بلادكم، فعدوا الإرساليات والكنائس التي في بلادكم للطوائف المختلفة من النصارى تجدوها كثيرة، فيها رجال ونساء قد تغربوا عن أوطانهم وتحملوا الشدائد والأخطار في سبيل نشر دينهم، وقد سمعتم عدد من قتل منهم في كونكو، ولا حاجة بكم إلى أن تبحثوا عن جهودهم في البلاد الأخرى، فحسبكم ما يصنعون في بلادكم، وما أسسوه من الوسائل الطبية والتعليمية، ولكنكم تكذبون وتغالطون وتقلدون، ثم انظروا إلى الحرب القائمة في إيرلندا بين الكاثوليكين والبروتستانتين منذ سنين ولا سبب لها إلا الاختلاف في الدين.

على أن دينهم وإن كان لا يصلح للحضارة، فإن ديننا ليس كدينهم، والعالم كله يشهد بعظمة الحضارة التي أسسها المسلمون في العصور التي كان الإسلام فيها قوياً عزيزاً، وحسبكم أن الإسلام في أواخر زمانه تصارع مع الصليب في الحروب الصليبية مدة مائة وتسعين سنة، فانهزم الصليبيون أمامه مع كثرة عددهم وعددهم.

وسيقول المقلدون لأعداء الإسلام: هذا بكاء على الأطلال، أرونا ما صنع الإسلام في هذا الزمان، أقول لهم كما قلت من قبل: أوجدوا لي إسلاماً، أعطكم كل ما تريدون من قوة وعظمة وتقدم في جميع الميادين، فهل تريدون من المسلمين أن يقوموا من قبورهم ليدافعوا عنكم وبينوا لكم حضارة جديدة؟ وقد جريتم الكفر التقليدي مئات السنين، فجربوا الإسلام سنة واحدة إن كنتم صادقين.

وثانيهم: المدَّعون للإسلام بألسنتهم مع عدم تطبيقه لا عقيدة ولا عبادة ولا حكماً، فهؤلاء يدعون الإسلام بأقوال مجردة.

والدَّعاوى ما لم يقيموا عليها بيِّنات أبناؤها أدعياء
وثالثهم: الأعداء الخارجيون، وهم المتعصبون من النصارى في أوربة وأمريكا، والمتعصبون من الوثنيين في الهند وغيرها من الأمم الوثنية، ونحن نسمع المذابح التي تجري على المسلمين في أنحاء الهند وفي فليبين وفي أريتريا.
رابعهم: علماء السوء، الذين باعوا دينهم بدين غيرهم، وكتَموا الحقَّ وغشوا شعوبهم جرياً وراء الحطام، فضيَّعوا الدين ولم يدركوا الدنيا، وهذه الأصناف تبذل جهودها لإطفاء ما بقي من نور الإسلام، وليس الإسلام بملوم، لأنه قد أسعد من تمسك به وخلف كنوزاً عظيمة من الآثار والعلم والمعرفة التي لا يجحدها إلا من يجحد الشمس المشرقة في يوم الصحو ومضى حميداً.
 تلك آثارنا تدلُّ علينا فانظُّروا بعَدْنَا إلى الآثارِ

سُورَةُ النَّعَّاسِ

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ﴿١٣﴾

[التغابن: ١٣]

قال (ع): «يخبر تعالى^(١) أنه الأحد الصمد الذي لا إله غيره، وقال^(٢) تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ﴿١٣﴾ فالأول خبر عن التوحيد ومعناه معنى الطلب، أي: وحدوا الإلهية له وأخلصوها له^(٣) وتوكلوا عليه كما قال تعالى: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ ﴿٩﴾ [المزمل: ٩]^(٤)».

فصل

قال محمد تقي الدين: فائدة: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ تدل على التوحيد بأنواعه، ومن أعظم ثمرة التوحيد: التوكل على الله في جلب الخير ودفع الشر، ومن توكل على مخلوق وكله الله إليه، فتأمل قول النبي ﷺ: «من تعلق شيئاً وكل إليه»^(٥)، أتفهم هذا المعنى؟ فإن من تعلق تميمة أو حلقة من صفر يريد بذلك الشفاء من مرض واقع والتحصن به دفعاً لوقوعه، فقد أشرك.

قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله في كتاب «التوحيد» ما نصه: ((باب ما جاء في الرقى والتمائم): في «الصحیح» عن أبي بشير الأنصاري [رضي الله عنه] أنه كان مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره، فأرسل رسولاً أن لا يَبْقَيْنَ في رقبة بغير قلادة من وَرَرٍ أو قلادة إلا قَطِعتَ^(٦). وعن ابن مسعود [رضي الله عنه] قال: سمعت

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «قال تعالى مخبراً».

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «فقال». (٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الديه».

(٤) انظر: «تفسير ابن كثير» (٢١/١٤). (٥) سبق تخريجه.

(٦) أخرجه البخاري (٣٠٠٥)، ومسلم (٢١١٥).

رسول الله ﷺ يقول: «إن الرقى والتمايم والتولة شرك»^(١)، رواه (أ) و(د) وعن

(١) أخرجه أبو داود في كتاب الطب، باب في تعليق التمايم (٦/٤) رقم (٣٨٨٣)، وابن ماجه في كتاب الطب، باب تعليق التمايم (١٦٦٦/٢ - ١٦٦٧) رقم (٣٥٣٠)، وأحمد (٣٨١/١)، وأبو يعلى (٥٢٠٨) في «مسنديهما»، وابن حبان رقم (١٤١٢)، والطبراني في «المعجم الكبير» رقم (١٠٥٠٣)، والبغوي في «شرح السنة» (١٥٦/١٢ - ١٥٧) رقم (٣٢٤٠)، والحاكم في «المستدرک» (٤١٧/٤ - ٤١٨)، وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي.

قال أبو عبيدة: ليس كذلك، ففيه أحمد بن أبي شعيب لم يخرج له مسلم، ويحيى بن الجزار لم يخرج له البخاري. وانظر لزماً: «السلسلة الصحيحة» (٢٩٧٢)، وقارنه بما فيها رقم (٣٣١) أيضاً.

وأخرجه أبو عبيد في «غريب الحديث» (٥٠/٤)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٨٨٦٢) و(٨٨٦٣) موقوفاً على ابن مسعود وله حكم الرفع، كما هو مقرر في علم المصطلح. والحدیث بمجموع طرقه حسن - إن شاء الله تعالى -.

والمراد ب(الرقى): ما كان بأسماء الأصنام والشياطين، لا ما كان بأسماء الله وصفاته، ويؤيده:

ما أخرجه أحمد (٣٨٠/١)، والطيالسي (٣٩٦)، وأبو يعلى (٥٠٧٤، ٥١٥١) في «مسانيدهم»، وأبو داود (٤٢٢٢)، والنسائي في «الكبرى» (٩٣٦٣)، و«المجتبى» (٧/١٤١)، والبيهقي (٢٣٢/٧ - ٣٥٠/٩) في «سننهم»، وابن حبان في «صحيحه» (٥٦٨٢) عن ابن مسعود، قال: كان رسول الله ﷺ يكره عشر خلال، وذكر من بينها: «والرقى إلا بالمعوذات».

قال القاسمي في «قاموس الصناعات الشامية» (ص ٢٣١ وما بعدها) عند (الراقي): «والمحترفون بهذه الحرفة في غاية من الكثرة، وبعضهم أكثر رواجاً من بعض، يأتي إليهم النساء - وهو أكثر زبائنهم - هم البسطاء من الرجال، ويشكون إليهم مرضاً عَسَرَ بُرْؤُهُ، أو وسواساً، أو أحلاماً مخيفة، أو سرقة دراهم، أو حلي، أو دابة، أو نكاية عدو، أو ضرة، ويطلبون منهم حجباً، فعند ذلك يقرأ الراقي على المرقى، وينفث عليه، ويعده بتميمه يعلقها أو ورقة كذلك، ولكن بعد أن يشترط عليه من الدراهم مقداراً، ومن البخورات، ومن أدوات الحجاب ما شاء هواه، وقلة دينه وتقواه، وأكله أموال الناس بالباطل الذي ما أنزل الله به من سلطان.

كثُر في هذه الحرفة الدجالون والمتكهنون والجهلة كثرة عجيبة، نساء ورجالاً، ولم يزل الاعتقاد فيهم قوياً، رغمًا عن أخذ الكون بالتنبه وترقي الأفكار، ولكن لا عجب، فهل يخلو الكون من الحمقى والأغرار والمغفلين؟ هيهات! فما دام هؤلاء في هذا الوجود كانت معيشة أولئك عليهم، ماذا يعدّ المرء من مخازي كثير من الأشقياء المحترفين بهذه الحرفة الأبالسة، وكم كانوا سبباً في هتك أعراض وفراق أزواج، وكم ارتكبوا الفواحش في مخدرات يأتيهم ويلقيهم إليهم القياد تخلصاً مما ألَمَّ بهن، ويعتقدون الشفاء أو =

= النجاح في الأمل عندهم! قال:

«وقد حكى الثقات عن دجال سكن ظاهر البلدة، أنه كان يكتب للمرأة على بطنها ويقول لها: لا يؤثر إلا هنا، وكان كلما كتب يلحس، كأنه غلط، ليستأنف الكتابة، قبحه الله!

وقال آخر - مرة - لامرأة: هذه التميمة لا تكتب إلا بماءين ماء رجل وماء امرأة، حتى اضطرها بخداعه إلى أن سلّمته نفسها، وأوهمها أنه يأخذ ماءها وماءه عليه لعنة الله، فمني إلى وجهه في قرب من محله، فذهب إليه وجلده ما لا يعدّ، وطرده من محله.

دع عنك تكشفهن أمامهم، والعشرة اللعينة، والتكسر، والتخنث مما هو منكر بإجماع الملل والنحل، نعم، يوجد منهم من ظاهره الكمال، ولكن من حام حول الحمى...

وحدثني أحد صالحهم (!!) أنه بالرغم عنه يأتي ليرقي، وأنه ما كلمته امرأة إلا وأمدى؛ فتأمل، وهذا صالحهم؛ فكيف بغيره؟!

ولهم عجائب في اقتراح الخيوط، والحرير، والأوعية، والحبر، والإتيان بعصفور أو صرصور، ووضعه حيّاً في «قَرْيَزة» على حجمه، ولحمها وسدها عليه، وكذلك الكتابة على أسفل القدم أو بالدم وغير ذلك...

وأقل أحوال هذه الحرفة الدنيئة أن يدخلها الكذب والخداع رغماً عن كل احتياط وتورّع، أليس يقول للمرقى: ائتني بوعاء لأكتب عليه، وهاته في الوقت الفلاني، وإياك أن تتأخر... تدليساً وتلبساً؟ ولو أن هؤلاء الراقين درسوا علم النجوم ومطالعها؛ لكان يقال: هؤلاء يريدون أن ينهجوا منهج الفلاسفة المنجمين، فينتقل الكلام معهم إلى بحث التنجيم واعتماد المطالع، فحينئذ يقال: رجعوا إلى علم، ومشوا مع قواعد الفن، وأما هؤلاء فلا علم ولا عمل، ولا دين ولا تقوى.

يقول بعضهم مستدلاً بجواز الرقية بأنه ﷺ أقرّ أبا سعيد الخدري على رقية من لدغ بعقرب وأقره وجماعته على أخذ الشياه في مقابلتها.

فأولاً: يقال له: ذهب كثير من العلماء إلى أن ذلك خصوصية لأبي سعيد وجماعته؛ لحالة اضطرار إليها، والعصر عصر النبوة، وهي قضية عين لم يسمع بنظرها في عهد ﷺ من غير أبي سعيد، وكان الشفاء بالرقية بها معجزة له ﷺ، وكرامة لأصحابه.

وثانياً: لو تنزلنا وقلنا: إنها ليست بخصوصية^(١)، فإذا كان الراقي يقتصر على الفاتحة لا يتعدّاها ويأخذ أجره في مقابلتها فلا بأس، وإن كان يزيد عليها من عندياته ليطيل ذيل القضية بالبهلة والخزعبلات فأنى يحل أكل أموال الناس بالباطل والخداع والتلبس؟

أرأيت كيف أصبح بعضهم يشترط في الرقية ما يشترطه المحامون وكلاء الدعاوى؟ فقد يذهب بعض المغفلين إلى بعض المشتهرين ويرجوه أن يذهب لرقية مريضه، فيقول: لا أذهب إلا بأربع ليرات أو أكثر سلفاً، ثم إذا شفي فلي مثلها، فيذهل، ويخلط في =

(١) هذا هو الأصل، وهو الصواب، وقضايا الأعيان - على الراجح - لها عموم.

عبد الله بن عكيم^(١) مرفوعاً: «من تعلق شيئاً وكل إليه»^(٢)، رواه (١) و(ت)^(٣).
 عن سعيد بن جبير قال: «من قطع تميمة من إنسان كان كعدل رقبة»^(٤).
 رواه وكيع، وله عن إبراهيم قال: كانوا يكرهون التمايم كلها من القرآن وغير القرآن»^(٥).

وعن عمران بن حصين أن النبي ﷺ رأى رجلاً في يده حلقة من صفر

= الشروط والاقتراحات، ووضع الأوراق وتبخيرها بها، وإذا لم يجد أهل المريض نجاحاً وسألوه، يقول لهم: أخطأتم شرطي، أما قلت لكم: ايتوني بالصحن في وقت كذا، واسقوه وقت كذا، ولا تفعلوا إلا كذا؟ أكاذيب، وأضاليل، وتمويهات، واختلاس أموال الغير بالباطل، فإننا لله، ولا قوة إلا بالله.

ولو أراد المتفرغ أن يكتب في شأنهم، وأحوالهم، وخداعهم، وتلاعيبهم مع النساء، وحكايتهم معهن، وما نقل من المنكرات عنهم؛ لاحتاج إلى مجلدات، وفيما ذكرنا كفاية، نسأله - تعالى - أن يعافينا وذرياتنا من بلاته، ويجنبنا وإياهم ما لا يرضاه؛ فإنه لا يرضى عن القوم الفاسقين».

* فوائد فقيهة:

الأولى: جاء في «الصحيح» عن النبي ﷺ في صفة الذين يدخلون الجنة بغير حساب: «إنهم لا يسترقون ولا يكتون...».

أخرجه البخاري في «صحيحه» رقم (٣٤١٠، ٥٧٥٢، ٦٤٧٢، ٦٥٤١)، ومسلم في «صحيحه» رقم (٢٢٠)، وعنده: «لا يرقون»، وهي شاذة.

فمدحهم على أنهم لا يطلبون الرقية.

الثانية: قال الخطابي: «جاء المنع فيما كان بغير لسان العرب، فإنه ربما كان كفراً أو قولاً يدخله الشرك».

الثالثة: وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «كل اسم مجهول فليس لأحد أن يرقى به، فضلاً عن أن يدعو به ولو عرف معناه؛ لأنه يكره الدعاء بغير العربية، وإنما يرخص لمن لا يحسن العربية، فأما جعل الألفاظ الأعجمية شعاراً فليس من دين الإسلام».

وقال السيوطي: «قد أجمع العلماء على جواز الرقى عند اجتماع ثلاثة شروط: أن يكون بكلام الله أو بأسمائه وصفاته، وباللسان العربي وما يعرف معناه، وأن يعتقد أن الرقية لا تؤثر بذاتها، بل بتقدير الله - تعالى -».

الرابعة: ما يعلق على الصبيان في أعناقهم - من خرزات وعظام - لدفع العين، نهي عنه أشد النهي، بل عُدَّ من الشرك، كما في حديث أبي بشير الأنصاري السابق.

(١) في الأصل: «حكيم»! وهو خطأ، صوابه المثبت.

(٢) سبق تخريجه. (٣) انظر: «كتاب التوحيد» (ص ٢١).

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» رقم (٣٥٢٤).

(٥) انظر: «كتاب التوحيد» (ص ٢٢).

فقال: «ما هذه؟». قال: من الواهنة، فقال: «انزعها فإنها لا تزيدك إلا وهناً، فإنك لو مت وهي عليك ما أفلحت أبداً»^(١). رواه (أ). و(الواهنة)؛ قال أبو السعادات^(٢): «الواهنة عرق يأخذ في المنكب وفي اليد كلها فيترقى منها، وقيل: هو مرض يأخذ في العَضُد^(٣)، وهي تأخذ الرجال دون النساء، وإنما^(٤) نهى عنها، لأنه إنما اتخذها على أنها تعصمه من الألم». وفيه اعتبار للمقاصد^(٥).

(١) أخرجه أحمد (٤/٤٤٥)، وابن ماجه (٣٥٣١)، وابن حبان (٦٠٨٥، ٦٠٨٨)، والطبراني في «الكبير» (١٨/ رقم ٣٤٨، ٣٩١)، والحاكم (٤/٢١٦)، والبيهقي (٩/٣٥٠ - ٣٥١)، وإسناده ضعيف، الحسن البصري لم يسمع من عمران، والراوي عن الحسن في جل طرده مبارك بن فضالة مدلس وقد عنعن، ولم يصرح بالتحديث. ورواه جمع عن الحسن عن عمران موقوفاً عليه، أخرجه عبد الرزاق (٢٠٣٤٤)، وابن أبي شيبه (٨/١٤)، والطبراني (١٨/ رقم ٣٥٥، ٤١٤)، وانظر: «الضعيفة» (١٠٢٩)، وانظر: «كتاب التوحيد» (ص ١٩).

(٢) انظر: «النهاية» (٥/٢٣٤).

(٣) بعدها في مطبوع «النهاية»: «وربما عُلق عليها جنس من الحَرَز، يقال لها: (خرز الواهنة)، وهي...».

(٤) من مطبوع «النهاية» و«فتح المجيد» وسقطت من الأصل.

(٥) انظر: «فتح المجيد» (١/٢٣١ - ٢٣٢).

سُورَةُ الطَّلَاقِ

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق: ٢]

قال (ك): «ومن يتق الله فيما أمره به وترك ما نهاه عنه يجعل له من أمره مخرجاً، ويرزقه من حيث لا يحتسب، أي: من جهة لا تخطر بباله، وروى الإمام أحمد بسنده عن أبي ذر قال: جعل رسول الله ﷺ يتلو عليّ الآية: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ حتى فرغ من الآية ثم قال: «يا أبا ذر لو أن الناس كلهم أخذوا بها كفتهم»، قال: فجعل يتلوها ويردها عليّ حتى نعتت، ثم قال: «يا أبا ذر كيف تصنع إذا أخرجت من مكة؟» قال: قلت: إلى السعة والدعة إلى الشام والأرض المقدسة، قال: «وكيف تصنع إذا أخرجت من الشام؟» قلت: إذاً والذي بعثك بالحق أضع سيفي على عاتقي، قال: «أو خير من ذلك؟» قلت: أو خير من ذلك، قال: «تسمع وتطيع وإن كان عبداً حبشياً»^(١).

وفي المسند^(٢) عن عبد الله بن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «من أكثر من الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجاً، ومن كل ضيق مخرجاً، ورزقه من حيث لا يحتسب».

(١) أخرجه أحمد (١٧٨/٥ - ١٧٩)، والدارمي (٢٧٢٥)، والنسائي في «الكبرى» (١١٦٠٣)، وابن ماجه (٤٢٢٠)، والطبراني في «الأوسط» (٢٤٩٥)، والحاكم (٤٩٢/٢) - وبعضهم اختصره - وإسناده منقطع. قال الهيثمي في «المجمع» (٢٢٦/٥): «رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح إلا أن أبا السليل: ضريب بن نفيّر لم يدرك أبا ذر».

(٢) أخرجه أحمد (٢٤٨/١)، وأبو داود (١٥١٨)، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (٤٥٦)، والطبراني في «الكبير» (١٧٧٤) وفي «الدعاء» (١٧٧٤)، وابن السني في «عمل اليوم والليلة» (٣٦٤)، والحاكم (٢٦٢/٤)، والبيهقي (٣٥١/٣)، وإسناده ضعيف، فيه الحكم بن مصعب مجهول. وضعفه شيخنا الألباني، وما مضى من «تفسير ابن كثير» (٣٢/١٣).

فصل

قال محمد تقي الدين: التقوى: امتثال ما أمر الله به واجتناب ما نهى عنه، وأعظم ما أمر الله به توحيده، وأعظم ما نهى الله عنه الشرك به، فلو امتثل الإنسان جميع الأوامر إلا التوحيد، واجتنب جميع النواهي إلا الشرك، لكان من الخاسرين، وقد تقدمت الأدلة على ذلك.

سُورَةُ الْقَلَمِ

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿أَمْ لَمْ شُرَكَّاؤُا يَشْرِكْهُمْ إِن كَانُوا صَادِقِينَ﴾ (٤١) يَوْمَ يُكْشَفُ
عَنْ سَائِي وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ (٤٢) خَشِيعَةً أَبْصَرُهُمْ تَرَهْقُمُ ذُلَّهُ
وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَلِيمُونَ (٤٣) [القلم: ٤١ - ٤٣]

قال (ع): ﴿أَمْ لَمْ شُرَكَّاؤُا﴾ أي: من الأصنام والأنداد، ﴿فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ
إِن كَانُوا صَادِقِينَ﴾. ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَائِي وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ﴾.

«لما ذكر تعالى أن للمتقين عند ربهم» (١) جنات النعيم، بيّن متى ذلك كائن
وواقع، فقال (٢) تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَائِي وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ (٤١)
يعني: يوم القيامة، وما يكون فيه من الأهوال والزلازل والبلاء (٣) والامتحان
والأمور العظام، وقد روى البخاري ومسلم بسندهما عن أبي سعيد الخدري قال:
سمعت النبي ﷺ يقول: «يكشف ربنا عن ساقه فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة، ويبقى
من كان يسجد في الدنيا رياء وسمعة، فيذهب ليسجد فيعود ظهره طبقاً واحداً» (٤).

وقوله تعالى: ﴿خَشِيعَةً أَبْصَرُهُمْ تَرَهْقُمُ ذُلَّهُ﴾ (٤٢) أي: في الدار الآخرة بإجرامهم
وتكبرهم في الدنيا، فعوقبوا بنقيض ما كانوا عليه لما دعوا إلى السجود في الدنيا
فامتنعوا منه مع صحتهم وسلامتهم، كذلك عوقبوا بعدم قدرتهم عليه في الآخرة،
إذا تجلّى الرب ﷻ فيسجد (٥) له المؤمنون، ولا يستطيع أحد من الكفار (٦)

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «عنده».

(٢) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «وقال».

(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «والبلابل».

(٤) أخرجه البخاري (٤٩١٩)، ومسلم (١٨٣).

(٥) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «فسجد».

(٦) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الكافرين».

والمناققين أن يسجد، بل يعود ظهر أحدهم طبقاً واحداً، كلما أراد أحدهم أن يسجد خراً على قفاه^(١) عكس السجود، كما كانوا في الدنيا بخلاف ما عليه المؤمنون^(٢).

فصل

قال محمد تقي الدين: يلبس إبليس على المشركين في الدنيا ويلعب بهم، فيزعمون أن شركاءهم وأولياءهم يقضون حاجاتهم حين يستغيثون بهم، ولكن الله تعالى يفضحهم يوم القيامة؛ ويظهر كذبهم، فيقول لهم: ﴿أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾، فلا يجدون شيئاً، ويجللهم الخزي والعار، ويتبرأ منهم إبليس، فيندمون، ولات ساعة مندم. وحديث: «يكشف الله عن ساقه»^(٣). تلقاه الصحابة والتابعون بالقبول والتسليم مع تنزيه الله عن مشابهة المخلوقين ورده الجهمية المعطلون، فيخشى عليهم أن يدعوا إلى السجود فلا يستطيعون.

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «لقفاه».

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (٩٨/١٣ - ١٠٠).

(٣) هو في «الصحيحين» كما تقدم.

سُورَةُ نُوحٍ

الباب الاول

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿١﴾ قَالَ يَقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٢﴾ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا ۖ يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخَذِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ ۚ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٤﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَايَ إِلَّا فِرَارًا ﴿٥﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْوَعًا ۚ فِي مَا ذُنِبُوا وَاسْتَفْسَحُوا يَدَهُمْ وَاسْتَكَبَرُوا كِبَارًا ﴿٦﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جَهَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٨﴾ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿٩﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿١٠﴾ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيَنْبِنَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴿١١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٢﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٣﴾ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٤﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا ﴿١٥﴾ وَاللَّهُ أُنَبِّتُكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٧﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٨﴾ لَتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿١٩﴾ قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَأَتَّبِعُوا مَا لَمْ يَرِدهُ مَا لَهُمْ وَلِلَّذِينَ إِلَّا خُسَارًا ﴿٢٠﴾ وَمَكْرُؤًا مَكَرًا كِبَارًا ﴿٢١﴾ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٢﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴿٢٣﴾ مِمَّا خَطَبْتَهُمْ أُغْرِقُوا فَأَذَلُّوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا ﴿٢٤﴾ ﴿نوح: ١ - ٢٥﴾

قال (ك): «يقول تعالى مخبراً عن نوح عليه السلام أنه أرسله إلى قومه آمراً له أن

ينذرهم بأس الله قبل حلوله بهم، فإن تابوا وأنبأوا رفع عنهم، ولهذا قال تعالى: ﴿أَن تَأْذَرَ قَوْمَكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْنِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ قَالَ يَقُولُ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ (١) أي: بين النذارة ظاهر الأمر واضح، ﴿أَن أَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَتَّقُوهُ﴾ أي: اتركوا محارمه واجتنبوا مآثمه، وأطيعوني فيما آمركم به وأنهاكم عنه، ﴿يَغْفِرَ لَكُمْ مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ (٢) أي: إذا فعلتم ما آمركم به وصدقتم ما أرسلت به إليكم غفر الله لكم ذنوبكم.

قال (ك): ﴿مِّن﴾ ههنا بمعنى: عن، تقديره يصفح لكم عن ذنوبكم، ﴿وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: يمد في أعماركم، ويدراً عنكم العذاب الذي إن لم تجتنبوا ما (٣) نهاكم عنه أوقعه بكم، وقد يستدل بهذه الآية من يقول: إن الطاعة والبر وصلة الرحم يزداد بها في العمر حقيقة كما ورد به الحديث: «صلة الرحم تزيد في العمر» (٤).

(١) غير موجودة في الأصل! (٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أمرتكم».

(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «تنزجروا عما».

(٤) أخرجه بهذا اللفظ الخطيب في «تاريخ بغداد» (٣٨٦/١) والديلمي في «مسند الفردوس» وابن عساكر في «تاريخ دمشق» - كما في «كنز العمال» (٣/٣٥٧) - من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

وأخرجه أحمد في «المسند» (١٥٩/٦)، والبيهقي في «الشعب» - كما في «تخريج أحاديث الكشاف» (ص ١٣٩) - من حديث عائشة رضي الله عنها ضمن حديث طويل، وأخرجه مختصراً دون الشاهد: عبد بن حميد (١٥٢٣)، وأبو يعلى (٤٥٣٠)، وابن عدي (٤/١٦٠٥)، والقضاعي (٤٤٤، ٤٤٦)، والبخاري (٣٤٩١)، وأبو نعيم (١٥٩/٩).

وقال المنذري في «الترغيب والترهيب» (٢٢٤/٣) وتبعه الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨/١٥٣): «رواه أحمد ورواته ثقات إلا أن عبد الرحمن بن القاسم لم يسمع من عائشة!! قلت: في مطبوع «المسند» بين عبد الرحمن وعائشة القاسم وسماعه من عائشة ثابت صحيح».

وأصل الحديث في «البخاري» (٥٩٨٦)، و«مسلم» (٢٥٥٧) من حديث أنس أن رسول الله ﷺ قال: «من أحب أن يسط له في رزقه ويُنسأ له في أثره فليصل رحمه». وللحديث طرق أخرى عند الأصبهاني في «الترغيب» عن أبي سعيد، كما قال الجافظ في «الكافي الشاف» (ص ١٣٩).

وللشوكاني رسالة بين فيها صحة هذا الاستدلال وهي «تنبيه الأفاضل على ما ورد في زيادة العمر ونقصانه من الدلائل»، وكذا فعل الشيخ مرعي الكرمي أيضاً في «إرشاد ذوي العرفان لما للعمر من الزيادة والنقصان» وكلاهما مطبوع بتحقيقي، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: بادروا بالطاعة قبل حلول النعمة، فإنه إذا أمر تعالى يكون^(١) ذلك لا يرد ولا يمانع، فإنه العظيم الذي قد قهر كل شيء، العزيز الذي دانت لعزته جميع المخلوقات^(٢).

وقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي﴾ إلى قوله تعالى ﴿لَتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ ﴿٢٥﴾:

قال (ك): «يخبر تعالى عن عبده ورسوله نوح^(٣) ﷺ أنه اشتكى إلى ربه ﷻ ما لاقى^(٤) من قومه وما صبر عليهم في تلك المدة الطويلة التي هي ألف سنة إلا خمسين عاماً وما بيّن لقومه ووضح لهم ودعاهم إلى الرشيد والسييل^(٥) الأقوم، فقال: ﴿رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ أي: لم أترك دعاءهم في ليل ونهار^(٦) امتثالاً لأمرك وابتغاءً لطاعتك.

﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَايَ إِلَّا فِرَارًا﴾ ﴿٢٦﴾ أي: كلما دعوتهم ليتقربوا^(٧) من الحق فروا منه، وحادوا عنه، ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْوَعًا﴾ أي: سدا أذانهم لئلا يسمعوها ما أدعوههم إليه كما أخبر تعالى عن كفار قريش: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٢٧﴾ [فصلت: ٢٦].

﴿وَأَسْتَغْفِرُوا لِإِسْرَارِهِمْ﴾ أي: غطوا رؤوسهم لئلا يسمعوها ما يقول ﴿وَأَصْرُوا﴾ أي: استمروا على ما هم فيه من الشرك والكفر العظيم الفظيع، ﴿وَأَسْتَغْفِرُوا لَأَسْرَارِهِمْ﴾ أي: واستنكفوا^(٨) عن اتباع الحق والانقياد له.

﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا﴾ ﴿٢٨﴾ أي: جهرت بين الناس ﴿ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ﴾ أي: كلاماً ظاهراً بصوت عالٍ ﴿وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ أي: فيما بيني وبينهم، فنوع عليهم الدعوة لتكون أنجع^(٩) فيهم ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّكُمْ كَانَتْ عَفَاكَ﴾ ﴿٢٩﴾ أي:

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «بكون».

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٣/١٣٨ - ١٣٩) بتصرف.

(٣) في الأصل: «عن نوح»! (٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «القي».

(٥) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «إلى السيل».

(٦) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ولا نهار».

(٧) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ليقتربوا».

(٨) في الأصل: «استنكفوا». وبإثبات الواو في أوله في «تفسير ابن كثير».

(٩) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير» وفي الأصل: «أنجح»!

ارجعوا إليه وارجعوا عما أنتم فيه وتوبوا إليه من قريب، فإنه من تاب إليه تاب عليه ولو كانت ذنوبه مهما كانت^(١) في الكفر والشرك، ولهذا قال: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ۖ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ۖ﴾ أي: متواصلة الأمطار، وروي عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أنه صعد المنبر ليستسقي؛ فلم يزد على الاستغفار وقراءة الآيات في الاستغفار، ومنها هذه الآية ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ۖ﴾ ثم قال: «القد^(٢) طلبت الغيث بمجاديع^(٣) السماء الذي يستنزل بها المطر^(٤)». وقوله تعالى: ﴿وَيُمَدِّدُكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيَنْبِئُ وَيَجْعَلُ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلُ لَكُمْ أَنْهَارًا ۖ﴾ أي: إذا تبتم إلى الله واستغفرتموه وأطعتموه كثر الرزق عليكم وأسقاكم من بركات السماء، وأنبت لكم من بركات الأرض، وأنبت لكم الزرع، وأدرّ لكم الضرع، وأمدمكم بأموال وبنين، أي: أعطاكم الأموال والأولاد، وجعل لكم جنات فيها أنواع الثمار خللها بالأنهار الجارية بينها. هذا مقام الدعوة بالترغيب.

ثم عدل بهم إلى دعوتهم بالترهيب فقال: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ۖ﴾ أي: لا تعظمون الله حقَّ عظمته، أي: لا تخافون من بأسه ونقمته: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ۖ﴾ معناه من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة، وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ۖ﴾ أي: واحدة فوق واحدة وهذا يتلقى من جهة السمع فقط^(٥)، وإنما المقصود أن الله ﷻ: ﴿خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا وَجَعَلَ الْقَمَرَ

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «كان».

(٢) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «فقد».

(٣) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير» و«مصادر التخريج»، وفي الأصل: «بمخارج»!

(٤) (المجاديع): واحدها (مجدح)، وهو النجم من النجوم، كانت العرب تزعم أنها تمطر به، أراد عمر إبطال الأنواء والتكذيب بها، بأنه جعل الاستغفار هو الذي يستسقى به لا المجاديع والأنواء.

(٥) أخرجه ابن أبي شيبة (٩٧/١٠) رقم (٢٩٩٧٧)، وعبد الرزاق (٨٧/٣)، والطبراني في «الدعاء» (١٢٥٢/٢) وابن أبي الدنيا في «المطر والرعد» رقم (٨٤)، والبيهقي (١١٧/٢) و(٣٥٩/٣)، وابن حزم في «المحلى» (٩٤/٥) بسند رجاله ثقات، إلا أنه منقطع، الشعبي لم يدرك عمر.

ولم يعزه ابن كثير في «مسند الفاروق» (٢٢٢/١) إلا لابن أبي الدنيا. وقال شيخنا الألباني في «الإرواء» (١٤١/٣): «ضعيف».

(٥) غير موجود في الأصل، والمثبت من «تفسير ابن كثير».

فِيهِ نُّورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ أَي: فاوت بينهما في الاستنارة، فجعل كلاً منهما نموذجاً^(١) على حدة، ليعرف الليل والنهار بمطلع الشمس ومغيبها، وقدر للقمر^(٢) منازل وبروجاً^(٣).

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾﴾ هذا اسم مصدر والإتيان به ههنا أحسن ﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ﴾ أي: إذا متم ﴿وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ أي: يوم القيامة يعيدكم كما بدأكم أول مرة، ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٨﴾﴾ أي: بسطها ومهدا وقررها وثبتها بالجبال الراسيات الشم الشامخات ﴿لَتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿١٩﴾﴾ أي: خلقها لكم لتستقروا عليها وتسلكوا فيها أين شئتم من نواحيها وأرجائها وأقطارها.

وكل هذا مما ينبههم به نوح عليه السلام على قدرة الله وعظمته في خلق السموات والأرض، ونعمه عليهم فيما جعل لهم من المنافع السماوية والأرضية، فهو الخالق الرازق^(٤)، فهو الذي يجب أن يعبد ويوحّد ولا يشرك به أحد، لأنه لا نظير له ولا عدیل له ولا ند ولا كفاء، ولا صاحبة ولا ولد، ولا وزير ولا مشير، بل هو العلي الكبير^(٥).

وقوله تعالى: ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنِّهُمْ عَصَوْنِي﴾، إلى قوله: ﴿وَلَا زِدِ الْقَلِيلِينَ إِلَّا ضَلَالًا﴾ قال (ك): «يقول تعالى مخبراً عن نوح عليه السلام أنه أنهى إليه، وهو العليم الذي لا يعزب عنه شيء، أنه مع البيان المتقدم ذكره والدعوة المتنوعة المشتملة على الترغيب تارة والترهيب أخرى أنهم عصوه وخالفوه وكذبوه^(٦)، واتبعوا أبناء الدنيا ممن غفل عن أمر الله، ومثّع بمال وأولاد، وهي في نفس الأمر استدراج

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أنموذجاً».

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «القمر».

(٣) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وفاوت نوره، فتارة يزداد حتى يتناهى، ثم يشرع في النقص حتى يستسر، ليدل على مضي الشهور والأعوام، كما قال: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ اللَّيْلِ وَالْجَسَابِ﴾ [يونس: ٥]... الآية».

(٤) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «جعل السماء بناء والأرض مهاداً وأوسع على خلقه من رزقه».

(٥) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٣/١٣٩ - ١٤١) بتصرف.

(٦) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وكذبوه وخالفوه».

وإنظار لا إكرام، ولهذا قال: ﴿وَاتَّبِعُوا مَن لَّزَّ بَزَدَهُ مَالَهُ وَوَلَدَهُ إِلَّا خَسَارًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمَكْرُؤًا مَّكْرًا كَبِيرًا﴾ (٣٢) أي: عظيمًا باتباعهم في تسويلهم لهم أنهم على الحق، والحق^(١) كما يقولون لهم يوم القيامة: ﴿بَلْ مَكْرٌ آتِيلٍ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا﴾ [سبا: ٣٣]. ولهذا قال ههنا: ﴿وَمَكْرُؤًا مَّكْرًا كَبِيرًا﴾ (٣٣) وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا (٣٤) وهذه أسماء أصنامهم التي كانوا يعبدونها من دون الله.

قال البخاري بسنده عن ابن عباس: «صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب تعبد: أما ود فكانت لكلب بدومة الجندل، وأما سواع: فكانت لهذيل، وأما يغوث: فكانت لمراد، ثم لبني غطيف بالجرف عند سبأ، وأما يعوق: فكانت لهمدان، وأما نسر: فكانت لحمير لآل ذي كلاع، وهي أسماء رجال صالحين من قوم نوح عليه السلام، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصاباً وسموها بأسمائهم، ففعلوا، فلم تعبد حتى إذ هلك أولئك وتنسخ^(٢) العلم عبت»^(٣).

وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا﴾ يعني: الأصنام التي اتخذوها أضلوا بها خلقاً كثيراً، فإنه استمرت عبادتها في القرون إلى زمننا هذا في العرب والعجم وسائر صنوف بني آدم، وقد قال الخليل عليه السلام في دعائه: ﴿وَأَجْنِبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلُّوا كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ﴾ [إبراهيم: ٣٥ - ٣٦].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا﴾ دعاء منه على قومه لتمردهم وكفرهم وعنادهم، كما دعا موسى على فرعون وملئه في قوله: ﴿رَبَّنَا أَتُومِسْ عَلَيَّ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَيَّ قُلُوبَهُمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٨٨] وقد استجاب الله لكل من النبيين في قومه، وأغرق أمته بتكذيبهم لما جاءهم به^(٤).

وقوله تعالى: ﴿مِمَّا خَطَبْتَهُمْ أُعْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا﴾ (٣٥):

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «والهدى».

(٢) كذا في «صحيح البخاري» و«تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «نسخ».

(٣) أخرجه البخاري (٤٩٢٠).

(٤) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٤٢/١٣ - ١٤٤) بتصرف.

قال (ك): «يقول تعالى: ﴿مِمَّا خَطِيئَتِهِمْ﴾ وقرئ^(١) ﴿خَطِيئَتِهِمْ﴾ ﴿أَغْرِقُوا﴾ أي: من كثرة ذنوبهم وعتوهم وإصرارهم على كفرهم ومخالفتهم رسولهم ﴿أَغْرِقُوا﴾ فأدخلوا نارا﴾ أي: نقلوا من تيار البحار إلى حرارة النار، ﴿فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا﴾ أي: لم يكن لهم معين ولا مغيث، ولا مجير ينقذهم من عذاب الله^(٢).

فصل

قال محمد تقي الدين: فائدة: قوله: (وقد يستدل بها على زيادة العمر، كما جاء في الحديث: «صلة الرحم تزيد في العمر»^(٣)). الذي عليه المحققون وبه نطق كتاب الله أن العمر الذي قدره الله تعالى لكل إنسان لا يزيد ولا ينقص، قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْجِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [النحل: ٦١]، وقال تعالى: ﴿وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجْلُهَا﴾ [المنافقون: ١١] وفي الحديث الصحيح: «إن الله تعالى يأمر الملك أن يكتب رزق الإنسان وأجله وعمله وشقي أو سعيد»^(٤)، وفق ما علمه الله تعالى في الأزل.

والبدء مستحيل على الله تعالى، وكل ما جاء بخلاف هذا وجب تأويله ورده إلى هذا الأصل، فمعنى الزيادة في العمر أن الله يبارك في عمر الإنسان الذي يعمل الصالحات حتى يعمل في المدة القصيرة ما لا يعمله غيره في المدة الطويلة^(٥)،

(١) هذه قراءة أبي عمرو واليزيدي، ونسبت للحسن والأعرج وقتادة، وفي هذه الكلمة قراءات متعددة، انظر: «البحر المحيط» (٣٤٣/٨)، «التذكرة في القراءات الثمان» (٥٩٩/٢)، «النشر» (٤٣٣/١، ٤٨٠)، «مختصر ابن خالويه» (١٦٢)، «تفسير الرازي» (١٤٥/٣٠)، «روح المعاني» (٩٨/٢٩)، «الدر المصون» (٣٨٦/٦).

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٤٥/١٣). (٣) سبق تخريجه.

(٤) أخرجه البخاري (٣٢٠٨)، ومسلم (٢٦٤٣) من حديث ابن مسعود.

(٥) يساعد عليه لفظ حديث أبي الدرداء: «إنه ليس زيادة في عمره، قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ...﴾، ولكن الرجل تكون له الذرية الطيبة يدعون له من بعده». أخرجه الطبراني (٥١/١)، وابن حبان في «المجروحين» (٣٢٧/١ - ٣٢٨)، والعقيلي (١٣٤/٢)، والشجري في «الأمالي» (١٢٨/٢)، ومداره على سليمان بن عطاء بن قيس القرشي، ضعيف.

وذهب عدد من المحققين إلى أن الزيادة حقيقية، وانتصر له الحليمي في «المنهاج في شعب الإيمان» (٢٥٣/٣)، وشيخ الإسلام في «مجموع الفتاوى» (٤٩٠/١٤ - ٤٩١)، =

ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

قال محمد تقي الدين: فائدة ثانية: ﴿وَيُذَكِّرُ بِأَمْوَالِ وَيَنِينَ﴾ كل أمة عم فيها العدل والرحمة فنصرت المظلوم وأكرمت اليتيم وأطعمت المسكين وآمنت الضعيف، وسَّع الله رزقها ونصرها على أعدائها، كما قال النبي ﷺ: «وإنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم»^(١)، وهذه قاعدة لا تختلف، وسنة لا تبدل في كل زمان ومكان، فانظروا إلى أمم زمننا تروا كل أمة يعم فيها العدل والمساواة في الحقوق والواجبات تروها مرزوقة منصورة عزيزة الجانب - سواء أكانت في الشرق أم في الغرب - مع اختلاف عقائدها، فإن الله تعالى إنما يعذب الأمم في الحياة الدنيا وفي الآخرة على قدر ما بلغها من العلم، وأقيم عليها من الحجج، أما السعادة الكبرى التي تكون في العاجل والآجل فهي خاصة بمن آمن بالله ورسله واتبع من أناب.

فائدة ثالثة: الغلو في قبور الصالحين ومجالسهم وآثارهم يصيرها أوثاناً تعبد من دون الله، وهذا الغلو هو أصل عبادة الأوثان والأضنام؛ روى مالك في «الموطأ» عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار أن رسول الله ﷺ قال: «اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»^(٢).

قال محمد تقي الدين: يجب علينا أن ننظر في العلاقة التي بين أول الحديث وآخره ما هي؟! فإن مقتضى ظاهر اللفظ أن يقال: اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد، اشتد غضب الله على قوم عبدوا قبور أنبيائهم واتخذوها أوثاناً، فلما قال النبي ﷺ بدلاً من ذلك: «اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم

= وابن حجر في «الفتح» (٤١٦/١٠).

ومن لطائف كلام ابن تيمية (٤٩٠/١٤) أنه زيف الرأي الذي اختاره المصنف بقوله: «فيقال لهؤلاء: تلك البركة وهي الزيادة في العمل والنفع، هي أيضاً مقدرة مكتوبة، وتتناول لجميع الأشياء». وبمثله قال الشيخ مرعي الكرمي في إرشاد ذوي العرفان لما للعمر من الزيادة والنقصان» (ص ٥٨ - ٥٩ - بتحقيقي)، ورد الشوكاني - بقوة - حمل الزيادة على البركة، وذلك في رسالته «تنبيه الأفاضل على ما ورد في زيادة العمر ونقصانه من الدلائل»، وهي مطبوعة بتحقيقي، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

(١) أخرجه البخاري (٢٨٩٦) من حديث سعد بن أبي وقاص.

(٢) سبق تخريجه.

مساجد»، علمنا أن اتخاذ قبور الأنبياء مساجد، أي: تحري الصلاة عندها والدعاء وبناء المساجد حولها أو إلى جانبها يفضي إلى اتخاذها أوثاناً، كما فعل قوم نوح، والآن ينبغي أن ننظر هل استجاب الله دعاء رسوله وحفظ قبره من عبادة المشركين له واتخاذهم وثناً أو لا؟ والجواب: إن الله استجاب دعاءه وصانه بثلاثة جدران:

الأول: جدار بيت عائشة.

والثاني: الجَوْجُ المثلث الذي بناه التابعون حتى لا يستطيع الجهال أن يستقبلوا قبر النبي ﷺ في صلاتهم، بعدما أدخل الوليد بن عبد الملك الحجرة النبوية في المسجد ظلماً منه وعدواناً واتباعاً لهواه.

والجدار الثالث: هو البناء المربع الذي بناه بعض الملوك بعد ذلك، وإلى ذلك أشار ابن القيم في «نونيته»^(١) بقوله:

«وَلَقَدْ نَهَانَا أَنْ نُصَيِّرَ قَبْرَهُ وَثْنًا^(٢) حَذَارَ الشُّرْكِ بِالْدِّيَانِ^(٣)
وَدَعَا بَأْنَ لَا يُجْعَلَ الْقَبْرُ الَّذِي قَدْ ضَمَّهُ وَثْنًا مِّنَ الْأَوْثَانِ
فَأَجَابَ رَبُّ الْعَالَمِينَ دُعَاءَهُ وَأَحَاطَهُ بِثَلَاثَةِ الْجُدْرَانِ
حَتَّى غَدَتْ^(٤) أَرْجَاؤُهُ بِدَعَائِهِ فِي عِرَّةٍ وَحِمَايَةٍ وَصِيَانِ

قال النبي ﷺ - من حديث أبي هريرة -: «لا تتخذوا قبوري عيداً، ولا بيوتكم قبوراً، وصلوا علي فإن صلاتكم تبلغني حيثما كنتم»^(٥) (د).

وقال سعيد بن منصور في «سننه» عن الحسن بن الحسن بن علي قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تتخذوا قبوري عيداً، ولا تتخذوا بيوتكم مقابر، وصلوا عليّ فإن

(١) انظر: «الكافية الشافية» (ص ٢٩٢). (٢) في مطبوع النونية: «عيداً».

(٣) في مطبوع النونية: «بالرحمن». (٤) في مطبوع النونية: «اغثت».

(٥) أخرجه أبو داود (٢٠٤٢) - ومن طريقه البيهقي في «حياة الأنبياء» (١٥) -، وأحمد (٢/ ٣٦٧)، وابن فيل في «جزئه» - كما في «جلاء الأفهام» (ص ١٠٧ - بتحقيقي) - وحسن إسناده ابن تيمية في «الافتضاء» (٣٢١ - ط الإفتاء) بقوله: «وهذا إسناده حسن، فإن رواته كلهم ثقات مشاهير». وصححه النووي في «المجموع» (٨/ ٢٧٥) وفي «الأذكار» (٩٣). وحسنه ابن حجر - كما في «الفتوحات الربانية» (٣/ ١١٣) - وشيخنا الألباني في «تحذير الساجد» (ص ١٤٢). قال أبو عبيدة: الحديث صحيح - إن شاء الله تعالى - بشواهده، وقد خرّجت قسماً منها في تعليقي على «جلاء الأفهام» (ص ١٠٧، ١٦٤ - ١٦٥)، والحمد لله على آلائه ونعمائه.

صلاتكم تبلغني حيث ما كنتم»^(١). ما أنتم ومن بالأندلس إلا سواء»^(٢). انظروا: «شرح النونية»^(٣) و«فتح المجيد»^(٤).

(١) أخرجه ابن أبي شيبه (٣/ ٣٦٥ - ٣٦٦) رقم (٧٦١٦)، والبخاري في «التاريخ الكبير» (١٨٦/٢)، وإسماعيل القاضي في «فضل الصلاة على النبي ﷺ» (رقم ٢٠، ط. المكتب الإسلامي)، وأبو يعلى (٦٧٦١)، والطبراني في «الكبير» (٢٧٢٩)، وفي «الأوسط» (٣٦٧)، وابن أبي عاصم في «الصلاة على النبي ﷺ» (٢٦، ٢٧)، والدولابي في «الذرية الطاهرة» رقم (١١٩) من طريقين عن الحسن بن علي في أحدهما مجهول، وفي الآخر ضعيف، وهو مُعلّ بعلّة خفية ذكرها ابن القيم في «جلاء الأفهام» (ص ١٦٣ - ١٦٤ - بتحقيقي)، إلا أن الحديث صحيح بشواهده، وحسنه السخاوي في «القول البدیع» (ص ٣١٤، ط. الريان).

(٢) الذي يظهر - والله أعلم - أن هذا من كلام الحسن أو ممن دونه وليس من كلام رسول الله ﷺ. ثم وجدت المصنف يقول في فتاواه المسماة: «العيون الزلالية من الفتاوى الهلالية» (٢/ ٥١٥): «قال راوي هذا الحديث، وهو الحسن بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب وفاطمة ؓ: ما أنتم ومن بالأندلس إلا سواء، يعني: الذين يدخلون مسجد النبي ﷺ، ويشاهدون حجرته إذا صلّوا وسلّموا على النبي ﷺ».

(٣) انظر: «توضيح المقاصد وتصحيح القواعد في شرح قصيدة الإمام ابن القيم» لأحمد بن عيسى (٢/ ٣٥٢ - ٣٦٧).

(٤) انظر: «فتح المجيد» (١/ ٤٢٨ - ٤٣٦، ط. الصمعي).

سُورَةُ الْجِنِّ

الباب الأول

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۝ (١) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ۝ (٢) وَأَنَّهُ تَعَلَّى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ۝ (٣) وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ۝ (٤) وَأَنَا ظَنَنَّا أَن لَّنْ نَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۝ (٥) وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝ (٦)﴾ [الجن: ١-٦]

قال (ك): «يقول تعالى أمراً رسوله ﷺ أن يخبر قومه: إن الجن استمعوا القرآن فآمنوا به وصدّقوه وانقادوا له، فقال تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۝ (١) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ﴾ أي: يهدي^(١) إلى السداد والنجاح، ﴿فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ وهذا المقام شبيهه بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ﴾ [الأحقاف: ٢٩].

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ تَعَلَّى جَدُّ رَبِّنَا﴾ أي: عظمته^(٢) وأمره وقدرته ﴿مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ أي: تعالى عن اتخاذ صاحبة والأولاد، أي: قالت الجن: تنزه الرب جل جلاله حين أسلموا وآمنوا بالقرآن عن اتخاذ صاحبة والولد.

ثم قالوا: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ۝ (٤)﴾ سفيهننا يعنون إبليس، ﴿شَطَطًا﴾، أي: جوراً، [ولهذا قالوا]^(٣): ﴿وَأَنَا ظَنَنَّا أَن لَّنْ نَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۝ (٥)﴾ ما حسبنا أن الإنس والجن يتمالؤون على الكذب على الله تعالى في

(١) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: ﴿جَدُّ رَبِّنَا﴾ قال قتادة: تعالى جلاله وعظمته...

(٣) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل بدل ما بين المعقوفين: «وقوله تعالى».

(٤) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أي:».

نسبة الصاحبة والولد إليه، فلما سمعنا هذا القرآن وآمنا به علمنا أنهم كانوا يكذبون على الله في ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ كَانِ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُودُونَ رِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَرَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ أي: كنا نرى أن لنا فضلاً على الإنس، لأنهم كانوا يعودون بنا، أي^(١): إذا نزلوا وادياً أو مكاناً موحشاً من البراري وغيرها، كما كانت^(٢) عادة العرب في جاهليتها يعودون بعظيم ذلك المكان من الجان أن يصيبهم شيء يسوؤهم، كما كان أحدهم يدخل بلاد أعدائه في جوار رجل كبير وذمامه^(٣) وخفارته.

فلما رأت الجن أن الإنس يعودون بهم من خوفهم منهم ﴿فَرَادُوهُمْ رَهَقًا﴾، أي: خوفاً وإرهاباً وذعراً، حتى بقوا أشد منهم مخافة وأكثر تعوداً بهم، وقال السدي: كان الرجل يخرج بأهله فيأتي الأرض فينزلها فيقول: أعوذ بسيد هذا الوادي من الجن أن أضرب أنا فيه، أو مالي أو ولدي، أو ماشيتي قال^(١): فإذا عادَ بهم من دون الله رَهَقَتْهم الجن الأذى عند ذلك^(٤).

فصل

قال محمد تقي الدين: فائدة: المراد بالجور الذي قاله إبليس أن الله ظلمه حين أمره بالسجود لآدم، مع أن إبليس مخلوق من نار وآدم مخلوق من طين، والنار بزعمه أفضل من الطين.

قال محمد تقي الدين: العوذ: طلب الحماية، ولم يؤل الجهال في كل زمان ومكان يخافون الجن ويتملقون لهم دفعاً لشركهم، وفي هذا الزمان يعتقد الجهال من المنتمين إلى الإسلام في الشرق والغرب أن الشخص إذا بنى بيتاً جديداً يجب عليه أن يذبح ذبيحة للجن الذين يسكنون في ذلك المكان، ليكفوا عن أذاه، ويأخذ شيئاً من تلك الذبيحة ويطبخه في ماء بلا ملح ويرش ذلك الماء في جوانب البيت.

ولما بنيت بيتاً في بغداد وانتهى رئيس البنايين من بنائه، قال لي: ينبغي أن تسيل عليه الدم قبل أن تسكنه، قلت: ولماذا؟ قال لي: ليكف سكان هذه الأرض

(١) غير موجود في الأصل. (٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «كان».

(٣) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «وذمته».

(٤) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٣/١٤٧ - ١٤٨)، و«تفسير السدي الكبير» (٤٦٣).

عن أذاك، فقلت: وهل يسكن هذا البيت غيري مع أهل بيتي؟ فقال لي: نحن نعتقد أن الجن يسكنون تحت الأرض. فقلت: لا تظن أنني أبخل عليك وعلى البنائين والعملية بذيحة وطعام، ولكني أريد أن أثبت لك أنه لا سلطان للجن على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون، إنما سلطانهم على الذين يتولونهم بالذبح والخوف والتعوذ بهم من دون الله، ولذلك سأسكن هذا البيت، وأتحدى الجن أن يجهدوا جهدهم في إلحاق الضرر بي وبأهل بيتي إن استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، وبعد أن أسكن شهراً كاملاً ويظهر له ولأمثاله أن الجن لا يستطيعون أن يؤذوا من يوحد الله حينئذ أذبح ذبيحة وأدعوه مع أصحابه للغداء.

وكذلك فعلت، فلما مضى الشهر الأول، وتبين له فساد اعتقاده دعوته للغداء. وكذلك وقع لي في مكناس حين أردت أن أشتري هذا البيت الذي أسكن فيه الآن، قالت لي المرأة التي كانت هناك: إن سكان هذا البيت طيبون، لا يضررون أحداً، فقلت لها: وهل يسكن فيه غيركم؟ فقالت: أقصد الذين تحت الأرض، فضربت الأرض بقدمي، فقلت لها: إن سمحتم لهم بالسكنى معكم فأنا لا أسمح لهم أن يدخلوا بيتي لا فوق الأرض ولا تحت الأرض، فهل يدفعون معي شيئاً من الثمن أو يستأجرون جزءاً من البيت؟! فضحكت المرأة وتعجبت من كلامي.

وكان في بلد مغربي لا أسميه سترأ على من سأحكي عنه، فقيه قاضٍ من كبار القضاة كانت ابنته مريضة، فدعا لها ساحراً ليخرج منها الجن ويكتب لها تعويذاً (حجاباً) ليكف عنها أذى الجن فكان يخلو بها في غرفة واحدة ليلاً ونهاراً، وهذا العمل لا يرضى به إلا ديوث جاهل^(١)، وكان هذا الفقيه السفیه إذا أراد أن يدخل الحمام يستأجره ساعتين ليلاً ويستخدم شاباً أعمى يناوله الماء ويغسل جسمه ولا يرى عورته.

ومن شدة خوفه من الجن كان يتملق لهم عند دخول الحمام، ويقول: يا سادتي نسألكم الضيافة لوجه الله، ونسألكم أن لا تؤذونا جزاكم الله خيراً، وحاشاكم أن تؤذوا من يستجير بكم، فكان الأعمى يسمع ذلك ويفهمه فإذا جلس الشيخ وشعر بحرارة الحمام واستراح ينصب له الأسطال سطلاً فوق سطل حتى

(١) انظر ما قدمناه قريباً من حال الراقيين، وتجاوزاتهم الشرعية.

تصير كالبرج، ثم يأخذ السطل الأسفل فتسقط الأسطال وتحدث دويّاً عظيماً فيصرخ الشيخ.

﴿الباب الثاني﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَنَا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَن أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ۝ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ۝ وَالْوَلِيُّ أَسْتَقَمُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَّاءً غَدَقًا ۝ لَنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ۝ وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ۝ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ۝ قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا ۝ قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ۝ قُلْ إِنِّي لَن يُخِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَن أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا ۝﴾ [البقره: ١٤ - ٢٢]

قال (ك): «﴿وَأَنَا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ﴾ أي: منا المسلم ومنا القاسط، وهو الجائر عن الحق والناكب»^(١) عنه، بخلاف المقسط، فإنه العادل ﴿فَمَن أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا﴾ أي: طلبوا لأنفسهم النجاة، ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ۝﴾ أي: وقوداً تسعر بهم.

وقوله تعالى: ﴿وَالْوَلِيُّ أَسْتَقَمُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَّاءً غَدَقًا ۝ لَنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾^(٢) اختلف المفسرون في معنى هذا على قولين؛ (أرجحهما): وأن لو استقام القاسطون على طريقة الإسلام وعدلوا إليها واستمروا عليها ﴿لَأَسْقَيْنَهُمْ مَّاءً غَدَقًا﴾ أي: كثيراً، والمراد بذلك سعة الرزق كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ مِن رَّبِّهِمْ لَأَكْمَلُوا مِن تَوْفِيقِهِمْ وَفِي تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ [المائدة: ٦٦] وكقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ مَأْمُونُوا وَأَتَقُوا لَفَنَحْنَا عَلَيْهِمْ بِبَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦] وعلى هذا يكون معنى قوله: ﴿لَنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ أي: لنختبرهم، كما قال مالك عن زيد بن أسلم: ﴿لَنَفْتِنَهُمْ﴾ لنبتليهم، لنعلم^(٢) من يستمر على هذه^(٢) الهداية ممن يتردد إلى الغواية^(٣).

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الناكب»، دون واو في أوله.

(٢) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير». (٣) انظر: «الإمام مالك مفسراً»: (٣٩٨).

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ أي: عذاباً شديداً شاقاً^(١) موجعاً مؤلماً^(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ﴾: قال (ك): «يقول تعالى أمراً عباده أن يوحدوه في محال عبادته ولا يدعى معه أحد، ولا يشرك به، وقوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ (٦) قال قتادة^(٣): تلبدت الإنس والجن على هذا الأمر ليطفئوه فأبى الله إلا أن ينصره ويمضيه ويظهره على من ناوأه^(٤).

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا﴾ (٢٥) أي: قال لهم الرسول لما آذوه وخالفوه وكذبوه وتظاهروا عليه ليبطلوا ما جاء به من الحق واجتمعوا على عداوته ﴿إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي﴾ أي: إنما أعبد ربي وحده لا شريك له وأستجير به وأتوكل عليه ﴿وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ (٢٦) أي: ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾، وعبد من عباد الله ليس لي^(٥) من الأمر شيء في هدايتكم ولا غوايتكم، بل المرجع في ذلك كله إلى الله ﷻ، ثم أخبر عن نفسه أيضاً أنه لا يجيره من الله أحد، أي: لو عصيته فإنه لا يقدر أحد على إنقاذه من عذابه، ﴿وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾، [أي: ملجأ] اهـ^(٦).

«فصل»

قال محمد تقي الدين: في هذا الكلام خمسة أمور:

الأول: إن كل أمة وحدت الله وأتبعته رسوله بالاعتقاد والقول والعمل يوسع الله رزقها ويجعل يدها هي العليا، فإذا ارتدت وأشركت بالله وخالفت

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «شاقاً شديداً».

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٥٢/١٣ - ١٥٣).

(٣) من مطبوع «تفسير ابن كثير» وسقط من الأصل.

(٤) أخرجه عبد الرزاق (٣٢٣/٢) وابن جرير (٣٤٤/٢٣ - ٣٤٥)، وعبد بن حميد وابن المنذر، كما في «الدر المنثور» (٢٧٥/٦).

(٥) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «إلي».

(٦) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «قال مجاهد وقتادة والسدي: لا ملجأ».

(٧) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٥٥/١٣ - ١٥٦).

رسوله يضيق الله عليها الرزق ويعذبها عذاباً أليماً في الدنيا والآخرة، لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾.

الثاني: إن المسجد الحرام الذي كان موجوداً في زمان نزول هذه الآية كان مجتمعاً لعبادة الأوثان، وإنما بني ليعبد الله فيه وحده لا شريك له، وبذلك يكون عامراً، وهكذا كل مسجد بني أو يبنى إلى يوم القيامة عمارته التوحيد واتباع السنة، وإن كان من قصب، وخرابه الشرك والبدعة وإن كان من ذهب، فقد جاء في الحديث النهي عن زخرفة المساجد، وجاء فيه أن المسلمين المنحرفين سيزخرفونها كما زخرفت اليهود والنصارى وفي ذلك خرابها^(١).

الثالث: إن أول داع إلى الإسلام تلبد عليه أعداء الإسلام وتآكبوا عليه، وهكذا كل داع يدعو إلى أتباعه في زمان غربة الإسلام.

الرابع: إن النبي ﷺ أمره الله تعالى أن لا يدعو إلا الله ولا يشرك به أحداً، وهو أمر لكل من اتبعه إلى قيام الساعة.

الخامس: إن الله تعالى أمره أن يعلن أنه - وإن كان أفضل خلق الله - لا يملك للناس ضرراً ولا نفعاً. اهـ.

(١) الأحاديث التي تنهى عن زخرفة المساجد كثيرة. منها: ما علقه البخاري: كتاب الصلاة، باب بنيان المسجد (قبل رقم ٤٤٦)، ووصله أبو داود (٤٤٨)، وابن أبي شيبة (٣٥٩/١) وغيرهما عن ابن عباس قال: «لَتَزَخَرَفْنَهَا كَمَا زَخَرَفَتِهَا الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى» وإسناده صحيح. وانظر: «فتح الباري» (٥٣٩/١)، «المجموع» (١٨٣/٢)، «الفروع» (٦٣/٤)، «إعلام الساجد» (٣٣٥ - ٣٣٧) للزركشي، «أحكام المساجد» للخضير (٣٣٢/١)، «المسجد في الإسلام» لأخيना خير الدين وانلي ﷺ (ص ١٥ - ١٩)، وللسيد عبد المقصود عبد الرحيم «تحذير الراكع والساجد من بدعة زخرفة المساجد»، وهو مطبوع.

سُورَةُ الْمَرْزَمِ

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ۝٩﴾ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ۝١٠ وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولَى النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ۝١١﴾ [المزمل ٩ - ١١]

قال (ك): ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ۝٩﴾ أي: هو المالك المتصرف في المشارق والمغارب الذي^(١) لا إله إلا هو، وكما^(٢) أفردته بالعبادة فأفرد به بالتوكل ﴿فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾، كما قال في الآية الأخرى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣] وكقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة: ٥] وآيات^(٣) كثيرة في هذا المعنى فيها الأمر بإفراد العبادة، والطاعة لله، وتخصيصه بالتوكل عليه.

﴿وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ۝١٠﴾ وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولَى النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ۝١١﴾ يقول أمراً رسوله ﷺ بالصبر على ما يقوله من كذبه من سفهاء قومه أن يهجرهم هجراً جميلاً، وهو الذي لا عتاب معه.

ثم قال له متهدداً^(٣) لكفار قومه ومتوعداً^(٤) وهو العظيم الذي لا يقوم لغضبه شيء: ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولَى النَّعْمَةِ﴾ أي: دعني والمكذبين المترفين أصحاب الأموال، فإنهم على الطاعة أقدر^(٥) من غيرهم، وهم يطالبون من الحقوق بما

(١) من مطبوع «تفسير ابن كثير» وسقط من الأصل.

(٢) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير» وفي الأصل دون واو في أوله.

(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «متوعداً».

(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ومتهدداً».

(٥) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أقدر على الطاعة».

ليس عند غيرهم، ﴿وَمَهَلُهُمْ لَيْلًا﴾ أي: رويداً كما قال تعالى: ﴿تَمِثُّهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [لقمان: ٢٤] (١).

فصل

قال محمد تقي الدين: فائدة: الآية الأولى من هذه الآيات الثلاث جامعة مانعة، جمعت بين توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية:

فقوله تعالى: ﴿رَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ يدل على توحيد الربوبية، فرب المشرق والمغرب هو رب الشمس التي تطلع من المشرق وتغرب في المغرب بالنسبة إلى جميع أهل الأرض، حتى الأراضي القطبية التي يستمر فيها النهار ثلاثة أشهر عجمية والليل مثل ذلك، لها مشرق (٢) ومغرب، هذا في الإجمال، وفي التفصيل لها مشارق ومغارب، كما قال: ﴿فَلَا أُقِيمُ رَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ [المعارج: ٤٠] في سورة المعارج، فإن الشمس تطلع في كل يوم من مكان ولكنها لا تخرج عن المشرق وتغرب كل يوم في مكان، ولكنها لا تخرج عن المغرب، فباعتبار التزامها لجهة واحدة في طلوعها وغروبها نقول: لها مشرق ومغرب.

ولما كانت الشمس هي أعظم الكواكب في عالمنا هذا القريب المنظور، وهي سبب حياة الحيوان والنبات، نبه الله سبحانه أهل العقول والبصائر أن يستدلوا بمشارقتها ومغاربها على أنه رب كل شيء ومالك كل شيء، وإليه يرجع الأمر كله، ولذلك يجب على جميع العقلاء أن يعبدوه وحده ويتوكلوا عليه وحده.

فائدة ثانية: النعمة - بفتح النون -: سعة العيش ورغده، والتمتع بزهرة الحياة الدنيا، والنعمة - بكسر النون - أعم من ذلك، فكل واحد من الناس قد أنعم الله عليه بنعم - بكسر النون - منها نعمة الإيجاد، ونعمة الإمداد، فهاتان النعمتان لا يخلو منهما أحد من الناس.

وأما النعمة - بالفتح - فهي خاصة بأهل الجاه والمال، وهؤلاء الرؤساء المتبوعون عليهم من الواجبات ما ليس على غيرهم، فإن استقاموا استقام أتباعهم، وإن انحرفوا انحرف أتباعهم.

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٣/١٦٨ - ١٦٩).

(٢) في الأصل: «شرق»!

أول ما دعوت في صعيد مصر إلى توحيد الله تعالى واتباع سنة رسوله ﷺ، ونبذ البدع والمحدثات، ألقى ستة دروس في آخر الدرس السادس منها استجاب لي شيخ البلد، وهو الشيخ يوسف عبد العال رحمه الله رحمة واسعة وبارك في ابنه الشيخ محمد، أعني بلد اليرمون في مديرية أسيوط، فتبعه أهل البلد كلهم ولا يزالون كذلك إلى يومنا هذا^(١)، وقد مضى عليهم أربع وخمسون سنة، لم تستطع فتنة الاشتراكية أن تنال من عقيدتهم مثقال ذرة، فلما زرتهم قبل ثلاث سنين، وجدت شيخ البلد منهم كما كان الأمر قبل أربع وخمسين سنة، ووجدت وكيل الحزب منهم، وإذا رسخت عقيدة التوحيد في القلوب لا يستطيع أحد أن يزلزلها.

(١) انظر تفصيل دعوة الشيخ الهلالي لهم في كتابه: «الدعوة إلى الله في أقطار مختلفة» (ص ١٨، ٢٢).

سورة المدثر

الباب الأول

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ: ﴿يَتَأْتِيَ الْمَدْيَنُ ① قُرْ فَأَنْذِرْ ② وَرَبِّكَ فَكَذِّ ③
وَيَتَأْتِكَ فَطَهِّرْ ④ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ⑤ وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ ⑥ وَلِرَبِّكَ
فَأَصْبِرْ ⑦﴾ [المدثر: ١ - ٧]

المدثر، معناه المتلفف بالثياب.

قال (ك): «روى (و) بسندهما عن جابر بن عبد الله أنه سمع رسول الله ﷺ يحدث عن فترة الوحي فقال في حديثه: «فبينما أنا أمشي إذ سمعت صوتاً من السماء، فرفعت بصري قبل السماء فإذا الملك الذي جاءني بحراء قاعد على كرسي بين السماء والأرض، فخشيت منه حتى هويت إلى الأرض، فبحثت إلى أهلي فقلت: زملوني زملوني فدثروني، فأنزل الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الْمَدْيَنُ ① قُرْ فَأَنْذِرْ ②﴾ إلى: ﴿فَاهْجُرْ ⑤﴾»^(١).

وقوله تعالى: ﴿قُرْ فَأَنْذِرْ ②﴾ أي: شمر عن ساق العزم وأنذر الناس، وبهذا حصل الإرسال كما حصل بأول النبوة، ﴿وَرَبِّكَ فَكَذِّ ③﴾ [أي: عظم، وقوله: ﴿وَيَتَأْتِكَ فَطَهِّرْ ④﴾ عن ابن عباس أنه أتاه رجل فسأله عن هذه الآية ﴿وَيَتَأْتِكَ فَطَهِّرْ ④﴾ قال: لا تلبسها على معصية ولا على عذرة، ثم قال: أما سمعت قول غيلان بن سلمة^(٣) الثقفي:

(١) أخرجه البخاري (٤٩٢٢)، ومسلم (١٦١).

(٢) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير» وهو الذي يقتضيه السياق. ووقع في الأصل بدلاً منه: ﴿وَلِرَبِّكَ فَأَصْبِرْ ⑦﴾!

(٣) في الأصل: «مسلمة»! وهو خطأ، صوابه: المثبت - كما في «تفسير ابن كثير» - ومصادر التخریج.

فإني بحمد الله لا ثوبَ فاجر لبستُ ولا من غَدرة أَتَقَنَّعُ^(١)
وقال الشاعر^(٢):

إذا المرءُ لم يَدْنَسْ من اللُّؤْمِ عَرَضُهُ فَكُلَّ رَدَاءٍ يَرْتَدِيهِ جَمِيلُ
والمراد: طَهَّرَ نفسك وقلبك ﴿وَالرَّجَزَ فَأَهْجُرْ﴾^(٣) عن ابن عباس^(٤):
«الرجز»: الأصنام»^(٥).

قال محمد تقي الدين: ويؤيده قوله تعالى في سورة الحج: ﴿فَاجْتَنِبُوا
الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ حُفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾ [الحج: ٣٠ -
٣١] وقد كان النبي ﷺ طاهر النفس والعرض والخلق، هاجراً للأصنام، فالأمر
هنا للزيادة والاستمرار، كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ﴾ [الأحزاب: ١] أي: زد
في تقوى الله واستمر عليها، وكما تقول للضيف: كل، وهو يأكل، هكذا قال
علماء النحو وهو صحيح.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَمَنَّ تَمَنُّ تَسْتَكْثِرُ﴾^(٦) عن ابن عباس معناه: لا تعط العطية
تلتمس أكثر منها^(٥)، وقال الحسن: لا تمنن بعملك على ربك تستكثره^(٦).
واختاره (ج)^(٧).

(١) عزاه لغيلان: ابن جرير (٤٠٥/٢٣)، وابن العربي في «أحكام القرآن» (١٨٧٥)،
والقرطبي في «تفسيره» (٦٣/١٩).
وأسند تمثل ابن عباس مع الأثر: ابن جرير (٤٠٥/٢٣)، وابن المنذر في «الأوسط» (١/١)
(١٣٥)، والبيهقي في «الخلافات» (١٣٠/١) - بتحقيقي، وابن عبد البر في «التمهيد»
(٢٣٦/٢٢) وابن حجر في «الإصابة» (١٩٢/٣)، وعزاه في «الدر المنثور» (٢٨١/٦)
لسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن أبي حاتم وابن مردويه وابن الأنباري في «الوقف
والابتداء».

(٢) وهو السموأل بن عدياء ضمن قصيدة أوردها أبو علي القالي في «الأمالي» (٢٦٩/١).
(٣) خرجته مفصلاً في تعليقي على كل من «المجالسة» (١٥٢٩، ٢٨٧٢، ٣٠٤٣)،
و«الخلافات» (١٣٠/١، ١٣١ - ١٣٢)، فانظره غير مأمور.
(٤) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٧٧/١٤ - ١٧٨) بتصرف.
(٥) أخرجه ابن جرير (٤١٢/٢٣)، والطبراني (١٢٦٧٢)، والبيهقي (٥١/٧) بسندٍ ضعيف.
انظر: «مجمع الزوائد» (١٣١/٧).

(٦) أخرجه ابن أبي شيبه (١٥٢/٧)، وابن جرير (٤١٥/٢٣) وعزاه في «الدر» (٦٨/١٥)
لعبد بن حميد.

(٧) انظر: «تفسير ابن جرير» (٤١٦/٢٣).

وقوله تعالى: ﴿وَلِرَبِّكَ قَانِصِرٌ ۝٧﴾ أي: اجعل صبرك على أذاهم لوجه ربك ﷻ^(١).

فصل

قال محمد نقي الدين: فائدة: بعدما أنزل على النبي ﷺ أول سورة العلق في غار حراء حيث كان يتعبد^(٢) صار نبياً ولم يكن رسولاً، إذ لم يأمره الله تعالى بالتبليغ ولا بالإنذار ولا بالصدع بما يؤمر وفتر الوحي، أي: توقف، وبعد فترة الوحي نزل أول سورة المدثر، كما في حديث جابر: «ثم حمي الوحي وتتابع»^(٣). اهـ.

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٧٨/١٤) بتصرف.

(٢) ذكرت ذلك عائشة كما في «صحيح البخاري» (٣)، ومسلم (١٦١).

(٣) أخرجه البخاري (٤)، ومسلم (١٦١).

سورة الدهر

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿يُؤْفُونَ بِالْذِّكْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ۝٧ وَيُطْعَمُونَ أَلْطَعَامَ عَلَىٰ حَيْثُ وَبِسَاتٍ ۝٨ إِنَّمَا نَطْعِمُكُمْ لِرِجَائِكُمُ اللَّهُ لَا يُزِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ۝٩﴾ [الإنسان: ٧ - ٩]

قال (ك): «وقوله تعالى: ﴿يُؤْفُونَ بِالْذِّكْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ۝٧﴾ أي: يتعبدون الله فيما أوجبه عليهم من فعل^(١) الطاعات الواجبة بأصل الشرع، وما أوجبه على أنفسهم بطريق النذر.

روى البخاري عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: «من نذر أن يطيع الله فليطعه، ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه»^(٢). ويتركون المحرمات التي نهاهم عنها خيفة من سوء الحساب يوم المعاد، وهو اليوم الذي شره مستطير، أي: منتشر عام على الناس إلا من رحم الله، قال الأعشى^(٣):

فَبَانتْ وقد أثرت^(٤) في الفؤاد صدعاً على نأيها مُسْتَطِيرًا
يعني: ممتداً فاشياً.

وقوله تعالى: ﴿وَيُطْعَمُونَ أَلْطَعَامَ عَلَىٰ حَيْثُ وَبِسَاتٍ ۝٨﴾ الضمير عائد على الطعام أي: يطعمون الطعام، في حال محبتهم وشهوتهم له، كقوله تعالى: ﴿وَأَتَىٰ أَلْمَالُ عَلَىٰ حَيْثُ ۝٩﴾ وكقوله تعالى: ﴿لَن نَّأْلُوا إِلَّآ حَقَّ نَفَقًا مِمَّا نَحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢].

(١) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».

(٢) أخرجه البخاري (٦٦٩٦)، ومالك في «الموطأ» (٣٧٩/١).

(٣) في «ديوانه» (ص ١٥٨، ط. دار الكتاب العربي).

(٤) كذا في الأصل، في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أسارت»، وفي «الديوان»: «وبانت وقد أورت».

وروى البيهقي بسنده عن نافع قال: «مرض ابن عمر فاشتبهى عباً أول ما جاء العنب، فأرسلت صفيه - يعني: امرأته - فاشتريت عنقوداً بدرهم، فاتبع الرسول سائل، فلما دخل به سأل السائل، فقال ابن عمر: أعطوه إياه، فأعطوه إياه فأرسلت بدرهم آخر، فاشتريت عنقوداً فاتبع الرسول السائل فلما دخل سأل السائل فقال ابن عمر: أعطوه إياه، فأعطوه إياه، فأرسلت صفيه إلى السائل فقالت: والله إن عدت لا تصيب منه خيراً أبداً، ثم أرسلت بدرهم آخر فاشتريت به»^(١).

وفي «الصحيح»: «أفضل الصدقة أن تصدق وأنت صحيح صحيح، تأمل الغنى وتخشى الفقر»^(٢). في حال محبتك للمال وحرصك عليه وحاجتك إليه ولهذا قال [تعالى]: ﴿وَيُطْعَمُونَ الْطَّعَامَ عَلَىٰ حَيْثُ مَسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾.

أما: المسكين واليتيم فقد تقدم بيانهما وصفتهما، وأما الأسير، فهو الكافر الذي يأسره المسلمون في الحرب ويشهد لذلك أن رسول الله ﷺ أمر أصحابه يوم بدر أن يكرموا الأسارى^(٣) فكانوا يقدّمونهم على أنفسهم عند الغداء، أي: يطعمون الطعام لهؤلاء وهم يشتهونه ويحبونه قائلين بلسان الحال: ﴿إِنَّمَا تُطْعَمُونَ لَوَجْهِ اللَّهِ﴾ أي: رجاء ثواب الله ورضاه: ﴿لَا يُبَدِّلُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا﴾ أي: لا نطلب منكم مجازاة تكافئوننا بها، ولا أن تشكرونا عند الناس»^(٤).

فصل

قال محمد تقي الدين: فائدة: النذر هو التزام شيء من عبادة الله لم يكن لازماً من قبل، إذا حصل المشروط كأن يقول الناذر: لله عليّ أن أذبح لله شاة وأطعم الفقراء إن شفي مريض أو رجع غائبي بسلامة أو نجحت في الامتحان أو

(١) أخرجه أحمد في «الزهد» (١٩١)، والطبراني في «مكارم الأخلاق» (١٧٧، ١٧٨)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢٩٧/١)، وجزم به السخاوي في «الجواهر المجموعة» رقم (٧٧٤)، (٧٧٥).

(٢) أخرجه البخاري (١٤١٩)، ومسلم (١٠٣٢) من حديث أبي هريرة.

(٣) ورد ذلك في أخبار، منها: ما أخرجه الطبراني في «الصغير» (١٤٦/١)، و«الكبير» (٢٢/٢٢) رقم (٩٧١) من حديث أبي عزيز بن عمير أخي مصعب، وإسناده حسن، وانظر: «مجمع الزوائد» (٨٩/٦).

(٤) انظر: «تفسير ابن كثير» (٢٠٩/١٤ - ٢١٠) بتصرف.

وضعت الحبلى حملها بسلامة إلى غير ذلك من الأغراض، أو ينذر صوماً أو حجاً أو عمرة أو صدقة، فإن ذلك عبادة الله يجب الوفاء به.

فإن نذر شيئاً مما يعبد الله تعالى به كالذبح والصدقة لغير الله تعالى من الملائكة والأنبياء والصالحين وغير الصالحين فلا يجوز الوفاء به، ويجب على الناذر أن يتوب إلى الله ويعود إلى الإسلام، ولهذا ذكرت هذه الآية.

فائدة ثانية: ثناء الله تعالى وترغيب رسوله ﷺ في إكرام الأسير الكافر الذي كان بالأمس يقاتل المسلمين يسفك دماءهم، ولا يزال حريصاً على قتلهم إلا أنه عاجز مغلوب على أمره، من أعظم الأدلة على فضل الإسلام على جميع الشرائع والقوانين الوضعية، فإننا لم نر قانوناً لدولة يحث على إكرام الأسير، بل بالعكس رأينا الحلفاء لما انتصروا في الحرب العالمية الأخيرة يهينون الأسرى ويحاكمونهم محاكمة كاذبة خاطئة ظالمة وحشية، كمحاكمة الهر للفأر، فيزعمون أنهم ارتكبوا جرائم في الحرب، ولا يرون فظاعة هذه الجريمة التي يرتكبونها بقتل الأسرى الذين لا يملكون أي وسيلة يدافعون بها عن أنفسهم، فهم كما قال «الإنجيل»: «يرى أحدكم القذاة في عين أخيه ولا يرى الجذع المعترض في عين نفسه».

فهذه القوانين التي تستندون إليها بقتل أساراكم من وضعها؟ فهل اتفقتم على وضعها مع أعدائكم قبل أن تقدموا على الحرب؟ رأيتم لو انتصر عليكم أعداؤكم أكنتم ترضون بمثل هذه المحاكمة؟ أنتم واضعو القانون، وأنتم الخصوم، وأنتم الحكام، كما قال الشاعر^(١):

فيك الخصام وأنت الخصم والحكم

وقال البوصيري^(٢):

ولا تطغ منهما خضماً ولا حكماً فأنْتَ تعرف كيدَ الخُصمِ والحَكَمِ

فهؤلاء الحلفاء المتعسفون فداء لصلاح الدين الأيوبي الذي لما سمع أن عدوه (رشارد) الملقب بقلب الأسد قد جرح بعث إليه طبيبه الخاص فعالجه حتى برأ، و(رشارد) هذا هو ملك بريطانيا، وقائد جيشها في الحروب الصليبية،

(١) هو المتنبي، والمذكور عجز بيت ضمن قصيدة في «ديوانه» (٣٢٣ - ٣٢٥) وصدده: يا أعدل الناس! إلا في معاملتي.

(٢) في «برده»: (ص ١٧ - مع «حاشية الباجوري»).

فكانت هذه المعاملة التي تجاوزت الحد في الكرم والحكمة والمروءة والشهامة سبباً لكراهية الملك الإنجليزي الاستمرار في محاربة ولي نعمته، فلله در صلاح الدين الأيوبي، تجاوز إكرام الأسرى إلى إكرام المحاربين عند عجزهم وحاجتهم، وهذه الحكاية قرأتها في «مختصر تاريخ أوروبا»، وهو مقرر لتلاميذ المدارس الثانوية الإنجليزية، والكتاب طبع بالإنجليزية.

أولئك آبائي فحِثْنِي بِمِثْلِهِمْ إِذَا جَمَعْتُنَا يَا جَرِيرُ الْمَجَامِعِ^(١)

سُورَةُ الْبَيِّنَاتِ

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ٦ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ٧ جَزَاءُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ عَدْنٍ يَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ٨﴾ [البينة: ٥ - ٨]

قال (ك): «وقوله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ كقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ ٥﴾ [الأنبياء: ٢٥] ولهذا قال: ﴿حُنَفَاءَ﴾ أي: متحنفين عن الشرك إلى التوحيد، كقوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦] وقد تقدم تقرير الحنيف في سورة الأنعام بما أغنى عن إعادته ههنا.

﴿وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ وهي أشرف عبادات البدن، ﴿وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ﴾، وهي الإحسان إلى الفقراء والمحاييج، ﴿وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ أي: أن الملة القائمة العادلة، أو الأمة المستقيمة المعتدلة، وقد استدل كثير من الأئمة كالزهري والشافعي بهذه الآية الكريمة على أن الأعمال داخلة في الإيمان، ولهذا قال: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ٥﴾^(١).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ...﴾ الخ.

قال (ك): «يخبر تعالى عن^(١) مآل الفجار من كفار أهل الكتاب والمشركين المخالفين لكتب الله المنزلة، وأنبياء الله المرسله أنهم يوم القيامة ﴿فِي نَارٍ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي: ماكثين فيها^(٢) لا يحولون عنها^(٣) ولا يزولون، ﴿أُولَئِكَ هُم شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ أي: من شر الخليقة، التي برأها الله وذراها، ثم أخبر تعالى عن حال الأبرار الذين^(٤) آمنوا بقلوبهم وعملوا الصالحات بأبدانهم بأنهم خير البرية، وقد استدل بهذه الآية أبو هريرة وطائفة من العلماء على تفضيل المؤمنين من البرية على الملائكة^(٥) لقوله: ﴿أُولَئِكَ هُم خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾.

[ثم^(٦) قال تعالى: ﴿جَزَاءُهمْ عِنْدَ رَبِّهمْ﴾ أي: يوم القيامة ﴿جَنَّتْ عَدْنِي تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ أي: بلا انفصال ولا انقضاء ولا فراغ ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهمْ﴾ ومقام رضاه عنهم أعلى مما أوتوه^(٧) من النعيم المقيم ﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾ فيما منحهم من الفضل العميم^(٨).

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خِشِيَ رَبَّهُ﴾ أي: هذا الجزاء حاصل لمن اتقى الله^(٩) حق تقواه، وعبداه كأنه يراه، وعلم أنه إن لم يره فهو يراه، وقال الإمام أحمد

(١) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «في».

(٢) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».

(٣) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «فيها»!

(٤) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «والذين».

(٥) قال ابن تيمية في «مجموع الفتاوى» (٤/٣٦٩ - ٣٧٠) بعد كلام: «وأقل ما في هذه الآثار أن السلف كانوا يتناقلون بينهم أن صالحى البشر أفضل من الملائكة، من غير نكير منهم لذلك، ولم يخالف أحد منهم في ذلك، إنما ظهر الخلاف بعد تشتت الأهواء، وتفرق الآراء، فقد كان ذلك المستقر عندهم». وقال (٤/٣٧١): «وقد كان السلف يحدثون الأحاديث المتضمنة فضل صالحى البشر على الملائكة، وتروى على رؤوس الناس، ولو كان هذا منكراً؛ لأنكروا، فدل على اعتقادهم ذلك». وانظر في المسألة: «بدائع الفوائد» (٣/١٦٣)، و«شرح العقيدة الطحاوية» (٢٧٨ - ٢٧٩)، و«طبقات الحنابلة» (٤/٢٠٧)، و«مباحث المفاضلة في العقيدة» (ص ٣٥٤ - ٣٦٠).

(٦) من مطبوع «تفسير ابن كثير» وسقطت من الأصل.

(٧) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «أوتوا».

(٨) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «العظيم».

(٩) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «خشي الله واتقاه».

بسنده^(١) عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم بخير البرية؟» قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «رجل آخذ بعنان فرسه في سبيل الله كلما كانت هيعة استوى عليه، ألا أخبركم بخير البرية؟» قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «رجل في ثلثة من غنم يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة، ألا أخبركم بشر البرية؟» قالوا: بلى، قال: «الذي يسأل بالله ولا يعطي به»^(٢).

فصل

قال محمد تقي الدين: فائدة: قوله: «وقد استدل كثير من الأئمة... إلخ. اعلم أن أهل السنة كلهم متفقون على: أن الإيمان قول باللسان واعتقاد بالقلب وعمل بالجوارح، تزيد الأعمال بزيادته وتنقص بنقصانه، إلا أبا حنيفة ومن تبعه فإنهم يقولون: إن الإيمان نطق باللسان واعتقاد بالقلب، والعمل لازم له، لكنه غير داخل فيه^(٣)، والماتريديّة منهم يقولون: إن الإيمان هو الاعتقاد وحده، ولا يزيد ولا ينقص^(٤)، وعامتهم يقولون أن إيمانهم كإيمان أبي بكر الصديق بل كإيمان الأنبياء والملائكة، وقد رجع أبو حنيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن القول بعدم دخول العمل في الإيمان، انظر قصته مع حماد بن زيد في «شرح الطحاوية»^(٥) لكن مقلّديه في

(١) أخرجه أحمد (٣٩٦/٢) وقال الهيثمي في «المجمع» (٢٨٢/٥): «رواه أحمد؛ وأبو معشر - نجيح - ضعيف».

قلت: وفيه أيضاً أبو وهب مولى أبي هريرة مجهول، وللحديث أصل صحيح بنحوه عند البخاري (١٩)، ٣٣٠٠، ٣٦٠٠، ٦٤٩٥، ٧٠٨٨ من حديث أبي سعيد، وهو عن أبي هريرة دون ذكر (خير البرية) و(شر البرية)، عند مسلم (١٨٨٩) وغيره، وخرجته بتفصيل في تعليقي على «العزلة والانفراد» رقم (١٦، ١٧، ١٨، ١٨٠، ١٩٥) لابن أبي الدنيا.

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (٤٢٥/١٣).

(٣) انظر: «الفقه الأكبر» المنسوب لأبي حنيفة (٣٠٤) و«الوصية» (ص ٢، ٦ مع «شرحها»)، و«رسالة أبي حنيفة إلى عثمان البتي» (ص ٣٥).

(٤) انظر مذهبهم في: «شرح المقاصد» (٢١١/٥)، «شرح المواقف» (٣٩٧/٨)، «التمهيد» للنسفي (١٠٢)، «بحر الكلام» (٤١)، «المسامرة بشرح المسامرة»: (ص ٣١٧)، «شرح العقيدة الطحاوية» للميداني (ص ٩٩).

(٥) قال ابن أبي العز الحنفي في «شرح العقيدة الطحاوية» (ص ٣٩٥) بعد ذكره لمعارضات الحنفية في دخول العمل في مسمى الإيمان:

«والظاهر أن هذه المعارضات لم تثبت عن أبي حنيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وإنما هي من الأصحاب، فإن غالبها ساقط لا يرتضيه أبو حنيفة! وقد حكى الطحاوي حكاية أبي حنيفة مع حماد بن =

الفروع المتعصين لمذهبه أبوا أن يرجعوا^(١). اهـ.

فائدة ثانية: فهم من حديث أبي هريرة أن أفضل الناس من جاهد في سبيل الله، والهيعة: الفرع الذي يحصل بغزو العدو بلاد الإسلام، فإن لم يكن هناك سبيل إلى الجهاد وقعت الفتنة بين المسلمين وصار بأسهم بينهم يقتل بعضهم بعضاً، فأفضل المسلمين هو الذي يهرب من الفتنة، ولو لم يجد إلا أن يسكن وحده ومعه غنيمة يعيش بلبنها ويفر بدينه من الفتنة، وأصل هذا الحديث في «الصحيحين»، ولفظه: «يوشك أن يكون خير مال المسلم غنيمة يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر يفر بدينه من الفتنة»^(٢). اهـ.

= زيد، وأن حماد بن زيد لما روي له حديث: «أي الإسلام أفضل؟» إلى آخره، قال له: ألا تراه يقول: أي الإسلام أفضل؟ قال: الإيمان، ثم جعل الهجرة والجهاد من الإيمان؟ فسكت أبو حنيفة، فقال بعض أصحابه: ألا تحببه يا أبا حنيفة؟ قال: بم أجيبه؟ وهو يحدثني بهذا عن رسول الله ﷺ.

(١) انظر لهم - على سبيل المثال -: «شرح العقائد التسفية» (ص ١١٩ - ١٢٣)، «التوحيد» (٣٧٣ - ٣٧٧) للماتريدي.

(٢) مضى تخريجه.

❖ الباب الأول ❖

وَأَمْنَهُمْ مِّنْ خَوْفٍ ﴿٤﴾ [قریش: ۳ - ۴]

قال (ع): «أي: فليوحِّدوه بالعبادة كما جعل لهم حرمًا آمنًا وبيتًا محرماً كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبِّي هَذِهِ الْبَلَدَ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٩١].

وقوله تعالى: ﴿الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّنْ جُوعٍ﴾ أي: هو رب البيت وهو الذي أطعمهم من جوع، ﴿وَأَمَّنَهُمْ مِّنْ خَوْفٍ﴾ أي: تفضل عليهم بالأمن والرخص؛ فليفردوه بالعبادة وحده لا شريك له، ولا يعبدوا من دونه صنماً ولا ندّاً ولا وثناً، ولهذا من استجاب لهذا الأمر جمع الله له بين أمن الدنيا وأمن الآخرة، ومن عصاه سلبها منه، كما قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ فَلَيْلُونَ ﴿١١٣﴾﴾ [النحل: ١١٢ - ١١٣] (١).

فصل

قال محمد تقى الدين: فائدة: معنى ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾ ،
 فليفردوه بالعبادة ولا يعبدوا معه أحداً لا ملكاً ولا نبياً ولا صالحاً ولا تمثالاً ولا
 قبة تنسب لأحد منهم، لأن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً له خالياً من
 الشرك، وسيزداد ذلك وضوحاً فى سورة (الكافرون) إن شاء الله.

(۱) انظر: «تفسير ابن كثير» (۱۴/ ۴۶۵ - ۴۶۶).

سُورَةُ الْكَافُرُونَ

الباب الأول

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿قُلْ يَتَّيْبُ الْكَافِرُونَ﴾ ١ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ
 ٢ وَلَا أَنْتَ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ٣ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ ٤ وَلَا
 أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ٦ [الكافرون: ١ - ٦]
 ما جاء في فضلها:

١ - في «صحيح مسلم» عن جابر: «إن رسول الله ﷺ قرأ بهذه السورة
 و﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ١ في ركعتي الطواف»^(١).

٢ - وفي «صحيح مسلم» من حديث أبي هريرة: «إن رسول الله ﷺ قرأ
 بهما في ركعتي الفجر»^(٢).

٣ - قال (أ) بسنده عن عبد الله بن عمر قال: «رقت النبي ﷺ أربعاً
 وعشرين أو خمساً وعشرين مرة يقرأ في الركعتين قبل الفجر والركعتين بعد
 المغرب ب﴿قُلْ يَتَّيْبُ الْكَافِرُونَ﴾ ١، و﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ١»^(٣). وقد تقدم
 في الحديث: «إنها تعدل ربع القرآن»^(٤).

٤ - وقال الإمام أحمد بسنده عن الحارث بن جبلة قال: «قلت: يا
 رسول الله علّمني شيئاً أقوله عند منامي، قال: إذا أخذت مضجعك من الليل
 فاقرا: ﴿قُلْ يَتَّيْبُ الْكَافِرُونَ﴾ ١، فإنها براءة من الشرك»^(٥).

(١) أخرجه مسلم (١٢١٨). (٢) أخرجه مسلم (٧٢٦).

(٣) أخرجه أحمد (٩٩/٢) وإسناده صحيح غاية.

(٤) مضى تخريجه، والحديث صحيح.

(٥) أخرجه أحمد في «مسنده» - وهو ساقط من الطبعة الميمنية، وموجود في «أطراف المسند»
 لابن حجر (٢/٢٢٠ - ٢٢١) - ثم وجدته في طبعة مؤسسة الرسالة (٣٩/٤٤٠)، رقم =

قال (ك): «هذه السورة سورة البراءة من العمل الذي يعمله المشركون، وهي أمرة بالإخلاص فيه، فقلوه: ﴿قُلْ يَتَّخِذُ الْكَافِرُونَ ﴿١﴾﴾ شمل^(١) كل كافر على وجه الأرض، ولكن المواجهين^(٢) بهذا الخطاب هم كفار قريش، وقيل: إنهم من جهلهم دعوا رسول الله ﷺ إلى عبادة أوثانهم سنة ويعبدون معبوده سنة، فأنزل الله هذه السورة^(٣) وأمر رسوله ﷺ فيها أن يتبرأ من دينهم بالكلية، فقال: ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾﴾؛ يعني: من الأنداد والأصنام^(٤) ﴿وَلَا أَنْتَ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٣﴾﴾ وهو الله وحده لا شريك له، ف﴿مَا﴾ ههنا بمعنى «من».

ثم^(٥) قال: ﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ ﴿٤﴾﴾ وَلَا أَنْتَ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٥﴾ أي: ولا أعبد عبادتكم، أي: لا أسلكها ولا أقتدي بها، وإنما أعبد الله على الوجه الذي يحبه ويرضاه، ولهذا قال: ﴿وَلَا أَنْتَ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٥﴾﴾ أي: لا تقتدون

= (٥/٢٤٠٠٩) قال: ثنا حجاج: ثنا شريك عن أبي إسحاق عن فروة بن نوفل عن الحارث بن جبلة به.

وذكر أحمد على إثره أن الأسود رواه عن شريك هكذا، قال: «قال جبلة: ولم يشك»، وقال: «وقال علي - يعني: ابن المديني - جبلة بن الحارث الكلبي».

ورواه جمع من الثقات عن أبي إسحاق به، وجعلوا صحابه (فروة بن نوفل الأشجعي) وهو الصواب، هكذا أخرجه أحمد (٤٥٦/٥)، والبخاري في «التاريخ الكبير» (٨/١٠٨)، وأبو داود (٥٠٥٥)، والترمذي (٣٤٠٣)، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (٨٠١، ٨٠٢)، وابن أبي شيبة (٧٤/٩ و ٢٤٠/١٠)، والدارامي (٣٤٢٧)، وأبو القاسم البغوي في «الجمعيات» (٢٦٥٤)، وابن قانع (١٥٦/٣)، وابن حبان (٧٩٠، ٥٥٢٦)، والطبراني في «الدعاء» (٢٧٧، ٢٧٨)، والحاكم (٥٦٥/١ و ٥٣٨/٢)، والبيهقي في «الشعب» (٢٥١٩ - ٢٥٢١) وفي «الدعوات الكبير» (٣٥٨)، والحديث حسن. وانظر: «تغليق التعليق» (٤٠٨/٤) لابن حجر، وعزاه للبخاري في «مسنده».

(١) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «يشمل».

(٢) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «المواجهون»!

(٣) ورد ذلك موصولاً عن ابن عباس عند ابن جرير (٢١٤/٣٠) بسند ضعيف، ونسبه في «الدر» (٨/٦٥٤) لابن أبي حاتم والطبراني، وعزاه بنحوه (٨/٦٥٥) لعبد بن حميد وابن المنذر وابن مردويه، وفي الباب عن وهب رفعه، عند عبد الرزاق (٤٠٣/٢)، وابن المنذر، - كما في «الدر» -، وعن سعيد بن ميناء مولى البحتري عند ابن جرير (٣٠/٢١٤)، وعزاه في «الدر» (٨/٦٥٥) لابن أبي حاتم وابن الأنباري في «المصاحف» وإسناد ابن جرير لا بأس به، ولعله يتقوى بمجموع طرقه، والله أعلم.

(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الأصنام والأنداد».

(٥) من مطبوع «تفسير ابن كثير»، وسقط من الأصل.

بأوامر الله وشرعه في عبادته، بل قد اخترعتم شيئاً من تلقاء أنفسكم، كما قال: ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَى﴾ [النجم: ٢٣].

فتبرأ منهم في جميع ما هم فيه، فإن العابد لا بد له من معبود يعبد، وعبادة يسلكها إليه، فالرسول ﷺ وأتباعه يعبدون الله بما شرعه، ولهذا كانت (١) كلمة الإسلام: «لا إله إلا الله محمد رسول الله» أي: لا معبود إلا الله، ولا طريق إليه إلا بما (٢) جاء به الرسول ﷺ، والمشركون يعبدون غير الله عبادة لم يأذن الله بها (٣)، ولهذا قال لهم الرسول ﷺ: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ (٤)، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ كَذِبَكَ فُكْلٌ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِّعُونَ مِمَّا عَمَلْتُمْ وَأَنَا بَرِّءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (٥) [يونس: ٤١] وقال: ﴿لَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلَكُمْ﴾ [الشورى: ١٥] (٦).

فصل

قال محمد نقي الدين: فائدة: التكرار الواقع في هذه السورة بليغ، والغرض منه التوكيد، كقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ (١) ﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ (٢) [الشرح: ٥ - ٦] وكقوله: ﴿لَتَرْوُنَّ الْجَبِيَّةَ﴾ (٣) ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾ (٤) [التكاثر: ٦ - ٧] وكقول النبي ﷺ حين استأذنه عكرمة بن أبي جهل في إنكاح علي بن أبي طالب أخته: «لا آذن ثم لا آذن» (٥).

وهذه طريقة معروفة في اللغة العربية وفي سائر اللغات السامية، وهذه السورة يجب على كل مسلم أن يعتقد ما دلت عليه ويعمل به، فيتبرأ من جميع المشركين، ولا يتحقق توحيد إلا بذلك، وقد تقدم هذا المعنى في مواضع من هذا الكتاب، نسأل الله تعالى أن يجعلنا من أهله. اهـ.

وكان الفراغ منه يوم الجمعة سابع عشر صفر سنة ١٣٩٥ بدار السلفي الصالح الحاج محمد الفلالي بمدينة فاس، أسأل الله تعالى بأسمائه الحسنى وبمحبتنا وأتباعنا لحبيبه وخليفه محمد ﷺ أن يعيننا، ويجعل أعمالنا خالصة لوجهه الكريم، ويختم لنا بالحسنى. اهـ.

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «كان».

(٢) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «ما»!

(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «بها الله».

(٤) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٣/٤٨٤، ٤٨٦ - ٤٨٩).

(٥) أخرجه البخاري (٣١١٠)، ومسلم (٢٤٤٩) من حديث المسور بن مخرمة.



خاتمة رزقنا الله حسنها

في تحذير النبي ﷺ أمته الغلو في قبور الأنبياء والصالحين

قال الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب في كتاب «التوحيد» ما نصه: «في «الصحيح» عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: ٢٣] قال: هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصاباً، وسموها بأسمائهم، ففعلوا ولم تعبد حتى إذا هلك أولئك ونسي العلم عبدت^(١).

وقال ابن القيم^(٢): «قال غير واحد من السلف: لما ماتوا عكفوا على قبورهم، ثم صوروا تماثيلهم، ثم طال عليهم الأمد فعبدوهم». وعن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، إنما أنا عبد، فقولوا: عبد الله ورسوله»^(٣). أخرجاه.

قال رسول الله ﷺ: «إياكم والغلو، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو»^(٤). ولمسلم^(٥) عن ابن مسعود: إن رسول الله ﷺ قال: «هلك المتطعون»^(٦).

(١) سبق تخريجه.

(٢) انظر: «إغاثة اللهفان» (٢٠٣/١).

(٣) أخرجه البخاري (٣٤٤٥)، ومسلم (١٦٩١).

(٤) أخرجه أحمد (٢١٥/١)، والنسائي (٢٦٨/٥)، وابن ماجه (٣٠٢٩)، وابن سعد (٢/ ١٨٠ - ١٨١)، وأبو يعلى (٢٤٢٧)، وابن خزيمة (٢٨٦٧)، وابن حبان (٣٨٧١)، والطبراني (١٢٧٤٧، ١٢٧٤٨)، والحاكم (٤٦٦/١) وغيرهم، وهو صحيح، وتكلمت على تخريجه بالتفصيل في تحقيقي الثاني لجزء السخاوي «الجواب الذي انضبط».

(٥) في «صحيحه» برقم (٢٦٧٠).

(٦) انظر: «كتاب التوحيد» (ص ٤٩ - ٥١).

باب ما جاء في التغليظ فيمن عبد الله عند قبر رجل صالح فكيف إذا عبده؟

في «الصحيح» عن عائشة أن أم سلمة ذكرت لرسول الله ﷺ كنيسة رأتها بأرض الحبشة، وما فيها من الصور، فقال: «أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح، أو العبد الصالح، بنوا على قبره مسجداً وصوروا فيه تلك الصور، أولئك شرار الخلق عند الله»^(١)، فهؤلاء جمعوا بين الفتنين^(٢): فتنة القبور، وفتنة التماثيل.

ولهما عنها: لما نزل برسول الله ﷺ طفق يطرح خميصة له على وجهه، فإذا اغتم بها كشفها، فقال وهو كذلك: «لعنة الله على اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» يحذر ما صنعوا، ولولا ذلك أبرز قبره، غير أنه خشي أن يتخذ مسجداً^(٣). أخرجاه.

ولمسلم عن جندب بن عبد الله قال: سمعت النبي ﷺ قبل أن يموت وهو يقول: «إني أبرأ إلى الله أن يكون لي منكم خليل، فإن الله اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً، ولو كنت متخذاً من أمتي خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً، ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد، فإني أنهاكم عن ذلك»^(٤).

فقد نهى عنه في آخر حياته، ثم إنه لعن وهو في السياق من فعله، والصلاة عندها من ذلك وإن لم يُبين مسجد وهو معنى قولها: «خشي أن يتخذ مسجداً»، فإن الصحابة لم يكونوا ليبنوا حول قبره مسجداً، وكل موضع قصد^(٥) الصلاة فيه فقد اتخذ مسجداً، بل كل موضع يُصلّى فيه يسمى مسجداً، كما قال ﷺ: «جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً»^(٦).

ولأحمد بسند جيد عن ابن مسعود مرفوعاً: «إن من شرار الناس من

(١) أخرجه البخاري (٤٢٧)، ومسلم (٥٢٨).

(٢) من مطبوع «تفسير ابن كثير» وسقط من الأصل.

(٣) أخرجه البخاري (٤٣٥)، ومسلم (٥٣١).

(٤) أخرجه مسلم (٢٣٢).

(٥) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «قصدت».

(٦) سبق تخريجه.

تدركهم الساعة وهم أحياء، والذين يتخذون القبور مساجد^(١)، ورواه أبو حاتم في «صحيحه»^(٢).

باب ما جاء أن الغلو في قبور الصالحين

يصيرها أوثاناً تعبد من دون الله

«روى مالك في «الموطأ»، أن رسول الله ﷺ قال: «اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»^(٣).
وعن ابن عباس [رضي الله عنه] قال: «لعن رسول الله ﷺ زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج»^(٤)^(٥).

باب ما جاء في حماية المصطفى ﷺ جناب التوحيد

وسده كل طريق يوصل إلى الشرك

«وقول الله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾» [التوبة: ١٢٨ - ١٢٩].
عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تجعلوا بيوتكم قبوراً، ولا تجعلوا قبري عيداً، وصلوا علي فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم»^(٦)، رواه أبو داود^(٧) بإسناد حسن ورواه ثقات.

وعن علي بن الحسين [رضي الله عنه] أنه رأى رجلاً يجيء إلى فرجة كانت عند قبر النبي ﷺ فيدخل فيها فيدعو، فنهاه، وقال: ألا أحدثكم حديثاً سمعته عن أبي عن جدي عن رسول الله ﷺ؟ قال: «لا تتخذوا قبري عيداً، ولا بيوتكم قبوراً،

(١) أخرجه أحمد (٤٠٥/١)، وابن أبي شيبة (٣/٣٤٥)، وأبو يعلى (٥٣١٦)، وابن خزيمة (٧٨٩)، وابن حبان (٦٨٤٧)، والشاشي (٥٢٨)، والطبراني (١٠٤١٣) وإسناده حسن وعلق الجملة الأولى منه بصيغة الجزم البخاري (٧٠٦٧).

(٢) انظر: «كتاب التوحيد» (ص ٥٣ - ٥٦). (٣) سبق تخريجه.

(٤) سبق تخريجه.

(٥) انظر: «كتاب التوحيد» (ص ٥٧ - ٥٨) بتصرف.

(٦) سبق تخريجه.

(٧) في «سننه» (٢٠٤٢).

وصلوا عليَّ فإنَّ تسليمكم يبلغني ابن كتم»^(١)، رواه في «المختارة»^(٢).

باب ما جاء أن بعض هذه الأمة يعبد الأوثان

«وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَيْءٍ مِّنْ ذَٰلِكُمْ مَثْوًى عِنْدَ اللَّهِ مِنْ لَعْنَةِ اللَّهِ وَغَضَبِ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْفِرْدَ وَالْفَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾»^(٣) [المائدة: ٦٠]، وقوله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِي عَظِمُوا عَلَىٰ آمُرِهِمْ لَسْتَ خَدِّكَ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا﴾ [الكهف: ٢١].

عن أبي سعيد أن رسول الله ﷺ قال: «لتبتعن سنن من كان قبلكم، حذو القذة بالقذة، حتى لو دخلوا جُحَرَ ضُبَّ لدخلتموه». قالوا: يا رسول الله اليهود والنصارى؟ قال: «فمن؟»^(٤)، أخرجاه.

ولمسلم عن ثوبان أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقتها ومغاربها، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوى لي منها، وأعطيت الكنزين الأحمر والأبيض، وإني سألت ربي لأمتي أن لا يهلكها بسنة بعامة، وأن لا يسلط عليهم عدوًّا من سوى أنفسهم، فيستبيح بيضتهم، وإن ربي قال: يا محمد إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد وإني أعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم بسنة بعامة، وأن لا أسلط عليهم عدوًّا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم، ولو اجتمع عليهم من بأقطارها، حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً، ويسبي بعضهم بعضاً»^(٥)، رواه البرقاني في «صحيحه»^(٥) وزاد:

«وإنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين، وإذا وقع عليهم السيف لم يرفع

(١) سبق تخريجه. (٢) انظر: «كتاب التوحيد» (ص ٦٠ - ٦١).

(٣) أخرجه البخاري (٣٤٥٦)، ومسلم (٢٦٦٩).

(٤) أخرجه مسلم (١٩٢٠، ٢٨٨٩).

(٥) وأخرجه هكذا: أبو داود (٤٢٥٢)، والترمذي (٢١٧٦، ٢٢٠٢، ٢٢١٩، ٢٢٢٩)، وابن ماجه (٣٩٥٢)، وأحمد (٢٧٨/٥)، وأبو عروانة (٧٥٠٩)، والطيالسي (٩٩١)، وابن أبي شيبه (٤٥٨/١١)، وابن أبي عاصم في «السنة» (٢٨٧)، وفي «الأحاد والمثاني» (٤٥٦)، (٤٥٧)، والقضاعي (٩١٤، ١١٦٦)، وابن حبان (٧٢٣٨)، وأبو نعيم في «الدلائل» (٤٦٤)، وأبو عمرو الداني في «الفتن» (٤، ٥٥، ٣٦٠، ٣٦١)، والبيهقي في «الدلائل» (٥٢٦/٦ - ٥٢٧)، والبغوي (٤٠١٥) ومنهم من اختصره، وإسناده صحيح. وصححه شيخنا الألباني.

إلى يوم القيامة، ولا تقوم الساعة حتى يلحق حي من أمتي بالمشركين، وحتى تعبد فثام من أمتي الأوثان، وإنه سيكون في أمتي كذابون ثلاثون كلهم يزعم أنه نبي، وأنا خاتم النبيين لا نبي بعدي، ولا تزال طائفة من أمتي على الحق منصوره لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله تبارك وتعالى». ^(١)

تفسير ما تقدم نقله من كتاب «التوحيد»

سأنقل هنا شرح ما تقدم نقله من كتاب «التوحيد» أنقل ذلك من «فتح المجيد» للعلامة الشيخ عبد الرحمن بن حسن:

«قوله عليه الصلاة والسلام: «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم»: الإطراء: مجاوزة الحد في المدح والكذب فيه، قاله أبو السعادات ^(٢)، وقال غيره: أي: لا تمدحوني بالباطل، ولا تجاوزوا الحد في مدحي.

قوله: «إنما أنا عبد فقولوا: عبد الله ورسوله»، أي: لا تمدحوني فتغلوا في مدحي كما غلت النصارى في عيسى عليه السلام فادّعوا فيه الألوهية وإنما أنا عبد الله ورسوله ^(٣)، فصفوني بذلك كما وصفني ربي، فقولوا: عبد الله ورسوله، فأبى المشركون إلا مخالفة أمره وارتكاب نهيه، وعظموه ^(٤) بما نهاهم عنه وحذرهم منه، وناقضوه أعظم مناقضة وضاهوا ^(٥) النصارى في غلوهم وشركهم ووقعوا في المحذور، وجرى منهم من الغلو والشرك شعراً ونثراً ما يطول عده، وصنفوا فيه مصنفات ^(٦).

وقد ذكر شيخ الإسلام رحمته الله عن بعض أهل زمانه أنه جوّز الاستغاثة بالرسول ﷺ في كل ما يستغاث فيه بالله، وصنف في ذلك مصنفات رده شيخ الإسلام ورده موجود بحمد الله ويقول: إنه يعلم مفاتيح الغيب التي لا يعلمها إلا الله، وذكر عنهم أشياء من هذا النمط نعوذ بالله من عمى البصيرة، وقد اشتهر في نظم البوصيري ^(٧) قوله:

- (١) انظر: «كتاب التوحيد» (ص ٦٤ - ٦٨). (٢) في كتابه «النهاية» (٣/ ١٢٣).
- (٣) غير موجود في مطبوع «فتح المجيد». (٤) في مطبوع فتح المجيد: «فعظموه».
- (٥) في الأصل: «ضاهوا» من غير واو في أوله.
- (٦) في مطبوع «فتح المجيد»: «المصنفات».
- (٧) انظر: «البردة» (٧٤ - مع «حاشية الباجوري»).

يا أكرمَ الخلقِ ما لي من الودِّ به سواك عند [حُدُوثِ] ^(١) الحَادِثِ الْعَمَمِ وما بعده من الأبيات التي مضمونها إخلاص الدعاء واللياذ والرجاء والاعتماد في أضييق الحالات وأعظم الاضطراب لغير الله، فناقضوا الرسول ﷺ بارتكاب ^(٢) ما نهى عنه أعظم مناقضة، وشاقوا الله ورسوله أعظم مشاقة، وذلك أن الشيطان أظهر لهم هذا الشرك العظيم في قالب محبة النبي ﷺ وتعظيمه ^(٣)، وأظهر لهم التوحيد والإخلاص الذي بعثه الله به في قالب تنقيصه ^(٤).

وهؤلاء المشركون هم ^(٥) المتنقِّصون الناقصون، أفرطوا في تعظيمه بما نهاهم عنه أشدَّ النهي، وفرطوا في متابعتهم فلم يعبؤوا بأقواله وأفعاله ولا رضوا بحكمه ولا سلموا له، وإنما يحصل تعظيم الرسول ﷺ بتعظيم أمره ونهيه والاهتداء بهديه واتباع سنته والدعوة إلى دينه الذي دعا إليه ونصرته وموالاته من عمل به ومعاداة من خالفه، فعكس أولئك المشركون ما أراد ^(٦) الله ورسوله علماً وعملاً، وارتكبوا ما نهى الله ورسوله عنه ^(٧)، فالله المستعان ^(٨).

الثاني: قوله: وقال رسول الله ﷺ: «إياكم والغلو، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو»: «هذا الحديث ذكره المصنف بدون ذكر راويه ^(٩)، وقد رواه الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه من حديث ابن عباس، وهذا لفظ رواية ^(٩) أحمد عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ غداة جَمْع: «هَلُمَّ الْقُطَّ لِي». فلقطت له حصيات هن ^(١٠) حصى الخذف، فلما وضعهنَّ في يده، قال: «نعم بأمثال هؤلاء [فارموا] ^(١١)، وإياكم والغلو في الدين، فإنما هلك من كان قبلكم بالغلو في الدين» ^(١٢).

(١) في مطبوع «فتح المجيد»: «حلول».

(٢) في مطبوع «فتح المجيد»: «في ارتكاب».

(٣) من مطبوع «فتح المجيد» وسقطت من الأصل.

(٤) في مطبوع «الفتح»: «تنقيصه». (٥) من مطبوع «الفتح» وسقط من الأصل.

(٦) كذا في مطبوع «الفتح»، وفي الأصل: «أراد»!

(٧) في مطبوع «الفتح»: «عنه ورسوله». (٨) انظر: «فتح المجيد» (١/ ٣٨٠ - ٣٨٢).

(٩) كذا في مطبوع «الفتح»، وفي الأصل: «رواية»!

(١٠) غير موجود في مطبوع «الفتح».

(١١) كذا في مطبوع «الفتح»، وفي الأصل: «من».

(١٢) سبق تخريجه.

قال شيخ الإسلام: هذا عام في جميع أنواع الغلو في الاعتقادات والأعمال، وسبب هذا اللفظ العام رمي الجمار، وهو داخل فيه، مثل الرمي بالحجارة الكبرى^(١) - بناءً - على أنه أبلغ من الصغرى^(٢)، ثم علله بما يقتضي مجانية هدي من كان قبلنا إبعاداً عن الوقوع فيما هلكوا به، فإن^(٣) المشارك لهم في بعض هديهم يخاف عليه من الهلاك^(٤). «(٥)».

الثالث: قوله: «ولمسلم عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: «هلك المتنطعون» قالها ثلاثاً. قال الخطابي^(٦): المتنطع: المتعمق في الشيء، المتكلف البحث عنه على مذاهب أهل الكلام الداخلين فيما لا^(٧) تبلغه عقولهم». ومن التنطع: الامتناع من^(٨) المباح مطلقاً، كالذي يمتنع من أكل اللحم والخبز، ومن لبس الكتان والقطن، ولا يلبس إلا الصوف ويمتنع من نكاح النساء، ويظن أن هذا من الزهد المستحب، قال الشيخ تقي الدين: «فهذا جاهل ضال»^(٩). اهـ.

قوله: «قالها ثلاثاً» أي: قال هذه الكلمة ثلاث مرات، مبالغة في التعليم والإبلاغ، فقد بلغ البلاغ المبين صلوات الله وسلامه عليه، وعلى آله وصحبه أجمعين^(١٠).

قوله: (باب ما جاء في التغليظ فيمن عبد الله عند قبر رجل صالح، فكيف إذا عبده؟) أي: الرجل الصالح، فإن عبادته من الشرك الأكبر، وعبادة الله عنده وسيلة إلى عبادته، ووسائل الشرك محرمة؛ لأنها تؤدي إلى الشرك الأكبر، هو أعظم الذنوب.

الرابع: قوله: «في «الصحيح»: إن أم سلمة»، هي: هند بنت أبي أمية^(١١)

(١) في مطبوع «الفتح»: «الكبار». (٢) في مطبوع «الفتح»: «الصغار».

(٣) في مطبوع «الفتح»: «وأن».

(٤) انظر: «اقتضاء الصراط المستقيم» (١/٢٨٩ - ٢٩٠).

(٥) انظر: «فتح المجيد» (١/٢٨٢ - ٢٨٣).

(٦) انظر: «معالم السنن» (٧/١٣، ط. المختصر).

(٧) بعدها في مطبوع «الفتح»: «يعنيهم الخائفين فيما لا تبلغه عقولهم».

(٨) كذا في مطبوع «الفتح»، وفي الأصل: «عن»!

(٩) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٠/٥١١).

(١٠) انظر: «فتح المجيد» (١/٣٨٣ - ٣٨٤) بتصرف.

(١١) بعدها في مطبوع «الفتح»: «ابن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم القرشية».

المخزومية، تزوجها رسول الله ^(١) بعد أبي سلمة سنة أربع، وقيل: ثلاث، وكانت قد هاجرت مع أبي سلمة إلى الحبشة ماتت سنة اثنتين وستين ^(٢).

قوله: «ذكرت لرسول الله ^(٣)...» وفي «الصحيحين»: «أن أم حبيبة وأم سلمة ذكرتا ذلك لرسول الله ^(٤)، (والكنيسة) بفتح الكاف وكسر النون، معبد النصرى، قوله: «أولئك» بكسر الكاف خطاباً للمرأة، قوله: «إذا مات فيهم الرجل [أو العبد] ^(٥) الصالح» هذا - والله أعلم - شك من بعض رواة الحديث، هل قال النبي ^(٦) هذا أو هذا؟ ففيه التحري في الرواية ^(٧).

قوله: «صوروا فيه تلك الصورة» الإشارة إلى ما ذكرت أم سلمة وأم حبيبة من التصاوير التي في الكنيسة. قوله: «أولئك شرار الخلق عند الله» وهذا ^(٨) يقتضي تحريم بناء المساجد على القبور، وقد لعن ^(٩) من فعل ذلك كما سيأتي.

قوله: «فهؤلاء جمعوا بين فتنين، فتنة القبور، وفتنة التماثيل»، هذا من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية ^(١٠) ذكره المصنف ^(١١) تنبيهاً على ما وقع من شدة الفتنة بالقبور والتماثيل، فإن الفتنة بالقبور كالفتنة بالأصنام أو أشد، قال شيخ الإسلام ^(١٢): «وهذه العلة التي لأجلها نهى الشارع ^(١٣) عن اتخاذ المساجد على القبور هي التي أوقعت كثيراً من الأمم: إما في الشرك الأكبر، أو فيما دونه من الشرك، فإن النفوس قد أشركت بتماثيل الصالحين، وتماثيل يزعمون أنها طلاسم الكواكب ونحو ذلك.

فإن الشرك بقبر الرجل الذي يعتقد صلاحه أقرب إلى النفوس من الشرك بخشبة أو حجر، ولهذا نجد ^(١٤) أهل الشرك يتضرعون عندها ^(١٥) ويخضعون ويعبدون بقلوبهم عبادة لا يفعلونها في بيوت الله ولا وقت السحر، ومنهم من يسجد لها، وأكثرهم يرجون من بركة الصلاة عندها والدعاء ما لا يرجونه ^(١٦) في المساجد، فلأجل هذه المفسدة حسم النبي ^(١٧) مادتها، حتى نهى عن الصلاة في

(١) في مطبوع «الفتح»: «النبي».

(٢) انظر: ما سيأتي في (٦/٢٤٣) فهناك عرف المصنف بها ^(١٨) وسائر أزواجه ^(١٩).

(٣) من مطبوع «الفتح» وسقط من الأصل.

(٤) في مطبوع «الفتح»: «وجواز الرواية بالمعنى».

(٥) في الأصل: «هذا» من غير واو في أوله. (٦) في مطبوع «الفتح»: «تجد».

(٧) بعدها في مطبوع «الفتح»: «ويخشعون». (٨) في مطبوع «الفتح»: «يرجون».

المقبرة مطلقاً^(١) وإن لم يقصد المصلي بركة البقعة بصلاته كما يقصد بصلاته بركة المساجد.

كما نهى عن الصلاة وقت طلوع الشمس وغروبها^(٢)، لأنها أوقات يقصد فيها المشركون^(٣) الصلاة للشمس، فنهى أمته عن الصلاة حينئذٍ وإن لم يقصدوا ما قصده المشركون سداً للذريعة، وأما إذا قصد الرجال الصلاة عند القبور متبركاً بالصلاة في تلك البقعة، فهذا عين المحادة لله ولرسوله والمخالفة لدينه، وابتداع^(٤) دين لم يأذن به الله.

فإن المسلمين قد أجمعوا على ما علموه بالاضطرار من دين الرسول ﷺ أن الصلاة عند القبور منهي عنها، وأنه ﷺ لعن من اتخذها مساجد^(٥)، فمن أعظم المحدثات وأسباب الشرك الصلاة عندها واتخاذها مساجد وبناء المساجد عليها وقد تواترت النصوص عن النبي ﷺ بالنهي عن ذلك والتغليظ فيه^(٦) وقد صرح عامة الطوائف بالنهي عن بناء المساجد عليها، متابعة منهم للسنة الصحيحة الصريحة، وصرح أصحاب أحمد وغيرهم من أصحاب مالك والشافعي بتحريم ذلك، وطائفة أطلقت الكراهة، والذي ينبغي أن تحمل عليه كراهة التحريم، إحساناً للظن بالعلماء، وأن لا يظن بهم أن يجوزوا فعل ما تواتر عن رسول الله ﷺ لعن فاعله والنهي عنه^(٧)»^(٨). اهـ.

(١) ورد النهي في أحاديث عديدة شهيرة، سيورد المصنف قريباً قسماً منها، وقد ذكرت بعضها في كتابي «القول المبين في أخطاء المصلين» (ص ٧٢ - ٧٧)، وجمعها وتكلم عليها بما يدesh إمام الوقت شيخنا الألباني - رحمه الله تعالى - في كتابه «تحذير الساجد»، وهو مطبوع متداول.

(٢) هذا النهي ثابت في أحاديث كثيرة، بعضها في «صحيح البخاري» (٥٨١ - ٥٨٤)، و«صحيح مسلم» (٨٢٥ - ٨٣١).

(٣) في مطبوع «الفتح»: «المشركون فيها».

(٤) كذا في مطبوع «الفتح»، وفي الأصل: «واتباع»!

(٥) كما في الأحاديث المتقدمة قريباً.

(٦) انظر: تواتر الأحاديث الواردة في ذلك (١/١٢٥).

(٧) انظر: «اقتضاء الصراط المستقيم» (٢/٦٧٤).

(٨) انظر: «فتح المجيد» (١/٣٨٥ - ٣٨٨). (فائدة مهمة): في معنى ما تقدم من صور

الحظر: أداء الصلاة والجنابة موضوعة وهي في قبلة المصلين، قال الشيخ القاري في

«مرقاة المفاتيح» (٢/٣٧٢): «وهو مما ابتلي به أهل مكة، حيث يضعون الجنابة عند =

الخامس: «قوله: (ولهما) أي: البخاري ومسلم وهو يغني عن قوله في آخره: «أخرجاه».

قوله: «لما نُزل» بضم النون وكسر الزاي، أي: نزل به ملك الموت والملائكة الكرام ﷺ.

قوله: «طفق» بكسر الفاء وفتحها، والكسر أفصح، وبه جاء القرآن، ومعناه: جعل، قوله (خميسة) بالمعجمة والصاد المهملة: كساء له أعلام، قوله: «فإذا أغتم بها كشفها» أي: عن وجهه.

قوله: «لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»^(١)، يبين أن من فعل مثل ذلك حل عليه من اللعنة ما حل على اليهود والنصارى، قوله: «يحذر ما صنعوا» الظاهر أن هذا من كلام عائشة رضي الله عنها؛ لأنها فهمت من قول النبي ﷺ ذلك تحذير أمته من هذا الصنيع الذي كانت تفعله اليهود النصارى في قبور أنبيائهم، فإنه من الغلو في الأنبياء ومن أعظم الوسائل إلى الشرك.

ومن غربة الإسلام أن هذا الذي لعن رسول الله ﷺ فاعليه تحذيراً لأمرته أن يفعلوه معه ﷺ ومع الصالحين من أمرته قد فعله الخلق الكثير من متأخري هذه الأمة، واعتقدوه قربةً من القربات، وهو من أعظم السيئات والمنكرات، وما شعروا أن ذلك محادة لله ورسوله.

قال القرطبي^(٢) في معنى هذا الحديث: «وكل ذلك لقطع الذريعة المؤدية إلى عبادة من فيها، كما كان السبب في عبادة الأصنام». اهـ. إذ لا فرق بين عبادة القبر ومن فيه وعبادة الصنم. وتأمل قول الله تعالى عن نبيه يوسف بن يعقوب حيث قال: ﴿وَأَتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَتْ لَنَا أَنْ نَشْرِكَ بِاللّٰهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [يوسف: ٣٦] نكرة في سياق النفي تعم كل شرك.

قوله: «ولولا ذلك» أي: ما كان يحذر من اتخاذ قبر النبي ﷺ مسجداً

= الكعبة، ثم يستقبلون إليها». قلت: وهذا بلاء عام، انظر: «تحذير الساجد» (ص ٣٥)، وكتابي «القول المبين» (٧٦ - ٧٧).

(١) مضى تخريجه.

(٢) هو أبو العباس أحمد بن عمر بن إبراهيم (ت ٦٥٦هـ). شيخ صاحب «التفسير»، وهو المراد عند إطلاقه في «فتح الباري» وغيره من كتب الشروح الحديثية، خلافاً لكتب التفسير، ونحو المذكور في كتابه «المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم» (٢/ ١٢٨).

لأبرز قبره وجعل مع قبور الصحابة الذين كانت قبورهم في البقيع، قوله: «غير أنه خشي أن يتخذ مسجداً» روي بفتح الخاء وضمها، فعلى الفتح يكون هو الذي خشي ذلك ﷺ، وأمرهم أن يدفنوه في المكان الذي قبض فيه، وعلى رواية الضم يحتمل أن يكون الصحابة هم الذين خافوا أن يقع ذلك من بعض الأمة، [فلم يبرزوا قبره خشية أن يقع ذلك من بعض الأمة]^(١)، غلوّاً وتعظيماً بما أبدى وأعاد من النهي والتحذير منه ولعن فاعله.

قال القرطبي: «ولهذا بالغ المسلمون في سد الذريعة في قبر النبي ﷺ فأعلوا^(٢) حيطان تربته وسدوا المداخل^(٣) إليها، وجعلوها محدقة بقبره ﷺ، ثم خافوا أن يتخذ موضع قبره قبلة [إذا كان]^(٤) مستقبل المصلين، فتصور^(٥) الصلاة إليه بصورة العبادة، فبنوا جدارين من ركني القبر الشماليين وحرفوهما حتى التقيا على زاوية مثلثة من ناحية الشمال؛ حتى لا يتمكن أحد من استقبال قبره». انتهى^(٦).

(١) غير موجود في مطبوع «فتح المجيد».

(٢) كذا في مطبوع «الفتح» و«المفهم»، وفي الأصل: «فاغلقوا»!

(٣) كذا في «المفهم»، وفي الأصل و«الفتح»: «المدخل».

(٤) من مطبوع «الفتح» و«المفهم»، وسقط من الأصل.

(٥) كذا في مطبوع «فتح المجيد» و«المفهم»، وفي الأصل: «فتصور».

(٦) انظر: «المفهم» (١٢٨/٢)، «فتح المجيد» (٣٨٩/١ - ٣٩١). (فائدة) هذا الوصف يتوافق

مع وضع القبر الشريف قديماً، ثم في القرنين السابع والثامن الهجريين طراً عليه تعديل، وكذلك في العصر المملوكي، ثم العثماني، بحيث أصبح القبر ضمن حجرة مربعة تعلوه (القبة الخضراء). وظفرت في «عمدة الأخبار في مدينة المختار» (ص ١٢٤) و«تحقيق النصر» بتلخيص معالم دار الهجرة» (ص ٨١) أن هذه القبة بُنيت في أيام الملك المنصور قلاوون الصالح، والذي بناها الكمال أحمد بن البرهان عبد القوي الربيعي. وقال بعضهم: أساء الأدب بعلو النجارين ودق الحطب!

وذكر ابن تيمية في «الاعتناء» هذه القبة، وعبارته بعد كلام: «ثم بعد ذلك بسنين متعددة، بنيت القبة على السقف، وأنكرها من أنكرها».

قلت: وأنكرها من المتأخرين جمع، منهم: الشيخ حسين بن مهدي النعمي في كتابه «معارج الألباب» (١٥٨ - ١٥٩)، والصنعاني في «تطهير الاعتقاد» (ص ٨٤ - تعليق شيخنا العلامة عبد المحسن العباد)، وهذا نص كلام الصنعاني:

فإن قلت: هذا قبر رسول الله ﷺ قد عُمرت عليه قبة عظيمة أنفقت فيها الأموال.

قلت: هذا جهلٌ عظيمٌ بحقيقة الحال، فإنَّ هذه القبة ليس بناؤها منه ﷺ ولا من =

السادس: قوله: «عن جندب بن عبد الله». أي: ابن سفيان البجلي، وينسب إلى جده، صحابي مشهور مات بعد الستين.

قوله: «إني أبرأ إلى الله أن يكون لي منكم خليل»^(١) أي: أمتنع عما لا يجوز لي أن أفعله، والخلة فوق المحبة، والخليل: هو المحبوب غاية الحب مشتق من (الخَلَّة) بفتح الخاء، وهي تخلل المودة في القلب، كما قال الشاعر:

قد تَخَلَّلْتُ مسلكَ الرُّوحِ مني وبذا سُمِّيَ الخَلِيلُ خَلِيلًا^(٢)

هذا هو الصحيح في معناه، كما ذكره شيخ الإسلام وابن القيم وابن كثير^(٣).

قوله: «فإن الله اتخذني خليلًا» فيه بيان أن الخلة فوق المحبة، قال ابن القيم^(٤) رحمه الله: «وأما ما يظنه بعض الغالطين من أن المحبة أكمل من الخلة وأن إبراهيم خليل الله ومحمدًا حبيب الله، فمن جهله، فإن المحبة عامة، والخلة خاصة، وهي نهاية المحبة، وقد أخبر النبي ﷺ أن الله قد اتخذته خليلًا، ونفى أن يكون له خليل غير ربه، مع إخباره بحبه لعائشة ولأبيها ولعمر بن الخطاب [ومعاذ بن جبل]^(٥) وغيرهم. وأيضاً فإن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين،

= أصحابه، ولا من تابعيهم، ولا تابعي التابعين، ولا من علماء أمته وأئمة ملته، بل هذه القبة المعمولة على قبره ﷺ من أبنية بعض ملوك مصر المتأخرين، وهو قلاوون الصالحى المعروف بالملك المنصور، في سنة ثمان وسبعين وستمائة، ذكره في «تحقيق النصرة بتلخيص معالم دار الهجرة»، فهذه أمورٌ دولية لا دلييلة، يتبع فيها الآخر الأول.

وهذا آخر ما أردناه مما أردناه لَمَّا عَمَّتِ البلوى، وأتبعَتِ الأهواء، وأعرض العلماء عن النكير، الذي يجب عليهم، ومالوا إلى ما مالت العامة إليه، وصار المنكرُ معروفًا والمعروف منكرًا، ولم نجد من الأعيان ناهياً عن ذلك ولا زاجراً».

(١) مضى تخريجه.

(٢) البيت من غير نسبة في «محاضرات الأدباء» (٣/١٣ - مكتبة الحياة)، و«روضة المحبين» (ص ٨٢، ط. دار ابن كثير).

(٣) بعدها في مطبوع «الفتح»: «وغيرهم».

(٤) انظر: «الجواب الكافي» (ص ٢٠٠).

(٥) أما إخباره بحب عائشة وأبيها وعمر: فقد أخرج البخاري (٣٦٦٢)، ومسلم (٢٣٨٤) من حديث عمرو بن العاص قال: «قلت: أيُّ الناس أحب إليك؟ قال ﷺ: «عائشة». فقلت: من الرجال؟ فقال: «أبوها». قلت: ثم من؟ قال: «ثم عمر بن الخطاب، فعَدَّ رجالاً».

وأما إخباره بحب معاذ: فهو مشهور في حديث الأذكار التي بعد الصلاة، وأوله: =

ويحب الصابرين^(١) وخلته خاصة بالخليلين.

قوله: «ولو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً» فيه بيان أن الصديق أفضل الصحابة، وفيه الرد على الرافضة وعلى الجهمية، وهما شر أهل البدع، وأخرجهم بعض السلف من الثلاث وسبعين فرقة^(٢)، وبسبب الرافضة حدث الشرك وعبادة القبور، وهم أول من بنى عليها المساجد، قاله المصنف رحمه الله، وهو كما قال بلا ريب.

وفيه إشارة إلى خلافة أبي بكر؛ لأن من كانت محبته لشخص أشد كان أولى به من غيره، وقد استخلفه على^(٣) الصلاة بالناس^(٤)، وغضب عليه السلام لما قيل: يصلي بهم عمر، وذلك في مرضه الذي توفي فيه عليه السلام^(٥). واسم أبي بكر عبد الله بن عثمان^(٦) الصديق الأكبر، خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأفضل الصحابة بإجماع من يعتد بقوله من أهل العلم، مات في جمادى الأولى سنة ثلاث عشرة وله ثلاث وستون سنة.

قوله: «ألا» حرف استفتاح «وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد» الحديث. قال [الخطابي^(٧)]: وإنكار النبي صلى الله عليه وسلم صنيعهم هذا مُخرَج^(٨) على وجهين:

= «يا معاذ إني أحبك».

أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٦٩٠)، وأبو داود (١٥٢٢)، والنسائي (٥٣/٣) وفي «عمل اليوم والليلة» (١٠٩)، وأحمد (٢٤٤/٥، ٢٤٥، ٢٤٧)، وعبد بن حميد (١٢٠ - «المنتخب»)، والشاشي (١٣٤٣) في «مسانيدهم»، وابن خزيمة (٧٥١)، وابن حبان (٢٠٢٠، ٢٠٢١)، والطبراني في «الدعاء» (٦٥٤)، وفي «المعجم الكبير» (٢٠/رقم ١١٠)، والحاكم (٢٧٣/١ و ٢٧٣/٣ - ٢٧٤)، وأبو نعيم (٢٤١/١ و ١٣٠/٥) وغيرهم. وإسناده صحيح.

وما بين المعقوفتين غير موجود في مطبوع «الفتح».

(١) كذا في مطبوع «الفتح»، وفي الأصل: «الطاهرين».

(٢) يريد: إن الثلاث والسبعين من أهل البدع والضلال، وليس بكفار، وإن توعّدوا بالنار، والرافضة والجهمية خارجتان من هذه إلى الكفر.

(٣) كذا في مطبوع «الفتح»، وفي الأصل: «في».

(٤) ثبت ذلك عند البخاري (٦٨٧)، ومسلم (٤١٨).

(٥) انظر: «صحيح مسلم» (٤١٨) (٩٥).

(٦) بعدها في مطبوع «الفتح»: «ابن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة».

(٧) في مطبوع «الفتح»: «الخلخالي!!» (٨) في مطبوع «الفتح»: «يخرج».

أحدهما: إنهم يسجدون لقبور الأنبياء تعظيماً^(١).

الثاني: إنهم يجوزون الصلاة في مداخل الأنبياء والتوجه إليها حالة الصلاة، نظراً منهم بذلك إلى عبادة الله والمبالغة في تعظيم الأنبياء. والأول هو الشرك الجلي، والثاني الخفي، فلذلك استحقوا اللعن.

قوله: «فقد نهى عنه في آخر حياته» أي: كما في حديث جندب، وهذا من كلام شيخ الإسلام، وكذا ما بعده.

قوله: «ثم إنه لعن، وهو في السياق من فعله» كما في حديث عائشة. قلت: فكيف يسوغ بعد^(٢) هذا التغليظ من سيد المرسلين أن تُعظم القبور ويبنى عليها ويصلى عندها وإليها؟ هذا أعظم مشاقة ومحادة لله تعالى ولرسوله ﷺ لو كانوا يعقلون.

وقوله: «والصلاة عندها من ذلك وإن لم يبين مسجد» أي: من اتخاذها مساجد، الملعون فاعله، وهذا يقتضي تحريم الصلاة عند القبور وإليها.

السابع: وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه مرفوعاً: «الأرض كلها مسجد إلا المقبرة والحمام»^(٣). رواه أحمد وأهل «السنن» وصححه ابن حبان والحاكم، قال ابن القيم^(٤) رحمته الله: «وبالجملة؛ فمن له معرفة بالشرك وأسبابه وذرائعه وفهم عن رسول الله ﷺ مقاصده، جزم جزمًا لا يحتمل النقص أن هذه المبالغة واللعن والنهي بصيغته^(٥): صيغة (لا تفعلوا) وصيغة «إنني أنهاكم عن ذلك». ليس لأجل

(١) بعدها في مطبوع «الفتح»: «لهم». (٢) في مطبوع «الفتح»: «مع».

(٣) أخرجه أحمد (٨٣/٣)، وأبو داود (٤٩٢)، وابن ماجه (٧٤٥)، والدارمي (٣٢٣/١)، وأبو يعلى (١٣٥٠)، وابن خزيمة (٧٩١)، وابن حبان (١٦٩٩)، ٢٣١٦، (٢٣٢١)، والحاكم (٢٥١/١)، والبيهقي (٤٣٥/٢) عن أبي سعيد مرفوعاً، وروي عن عمرو بن يحيى عن أبيه مرسلًا، كما عند ابن أبي شيبة (٣٧٩/٢)، وعبد الرزاق (١٥٨٢)، وابن ماجه (٧٤٥)، وأبو يعلى (١٣٥٠)، والبيهقي (٤٣٤/٢) - (٤٣٥).

ووصله خمسة - وأكثرهم ثقات - وأرسله الثوري وحده، ومع هذا قال الدارقطني في «العلل» (٤/٣): «والمرسل المحفوظ». وهذا الذي رجحه الترمذي، إلا أن الحديث صحيح بشواهده، انظر: «نصب الراية» (٣٢٤/٢) و«التلخيص الحبير» (٢٧٧/١).

(٤) انظر: «إغاثة اللهفان» (٢٠٨/١).

(٥) كذا في مطبوع «الفتح»، وفي الأصل: «بصيغته».

النجاسة، بل هو لأجل نجاسة الشرك اللاحقة لمن عصاه وارتكب ما عنه نهاه، واتبع هواه ولم يخش ربه ومولاه، وقلّ نصيبه أو عدم من لا إله إلا الله، فإن هذا وأمثاله من النبي ﷺ صيانة لحمل التوحيد أن يلحقه الشرك ويغشاه، وتجريد له، وغضب لربه أن يعدل به سواء، فأبى المشركون إلا معصية لأمره وارتكاباً لنهيهِ، وغرهم الشيطان بأن هذا تعظيم لقبور المشايخ والصالحين، وكلما كنتم لها أشد تعظيماً وأشد فيهم غلوّاً كنتم بقربهم أسعد، ومن أعدائهم أبعد، ولعمر الله! من هذا الباب دخل الشيطان^(١) على عبّاد يغوث ويعوق ونسر، ودخل على عبّاد الأصنام منذ كانوا إلى يوم القيامة، فجمع المشركون بين الغلو فيهم والطعن في طريقتهم، فهدى الله أهل التوحيد لسلوك طريقتهم وإنزالهم منازلهم التي أنزلهم الله إياها من العبودية، وسلب خصائص الإلهية عنهم.

قوله: «فإن الصحابة لم يكونوا لينوا حول قبره مسجداً»، أي: لما علموا من تشديده في ذلك، وتغليظه [النهي عنه]^(١) ولعن من فعله.

قوله: «وكل موضع قصدت الصلاة فيه فقد اتخذ مسجداً»: أي: وإن لم يُبنِ مسجد، بل كل موضع يصلى فيه يسمى مسجداً، يعني: وإن لم يُقصد بذلك، كما إذا عرض لمن أراد أن يصلي فأوقع الصلاة [في ذلك الموضع الذي حانت الصلاة]^(٢) عنده من غير أن يقصد ذلك الموضع بخصوصه، فصار بفعل الصلاة فيه مسجداً.

قوله: كما قال: «جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً»^(٣) أي: فسمى الأرض مسجداً تجوز الصلاة في كل بقعة منها، إلا ما استثنى من المواضع التي لا تجوز الصلاة فيها كالمقبرة ونحوها، قال البغوي في «شرح السنة»^(٤): «أراد أن أهل الكتاب لم تبح لهم الصلاة إلا في بيعتهم وكنائسهم، فأباح الله لهذه الأمة الصلاة حيث كانوا؛ تخفيفاً عليهم وتيسيراً، ثم خص من جميع المواضع الحمام والمقبرة والمكان النجس»^(٥). اهـ.

الثامن: قوله: «ولأحمد بسند جيد عن ابن مسعود مرفوعاً: «إن من شرار

(١) غير موجود في مطبوع «الفتح». (٢) من مطبوع «الفتح» وسقط من الأصل.

(٣) مضى تخريجه. (٤) (٤١٢/٢).

(٥) انظر: «فتح المجيد» (١/٣٩٢ - ٣٩٧).

الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء، والذين يتخذون القبور مساجد»^(١). قوله: «إن من شرار الناس» بكسر الشين، جمع شرير، قوله: «من تدركهم الساعة وهم أحياء» أي: مقدماتها، كخروج الدابة؛ وطلوع الشمس من مغربها؛ وبعد ذلك ينفخ في الصور نفخة الفزع.

قوله: «والذين يتخذون القبور مساجد» معطوف على خبر (إن) في محل نصب على نية تكرار العامل، أي: وإن من أشرار^(٢) الناس الذين يتخذون القبور مساجد، أي: بالصلاة عندها وإليها وبناء المساجد عليها.

وتقدم في الأحاديث الصحيحة أن هذا من اليهود والنصارى، وأن النبي ﷺ لعنهم على ذلك؛ تحذيراً للأمة أن يفعلوا مع نبيهم وصالحيهم مثل اليهود والنصارى، فما رفع أكثرهم بذلك رأساً، بل اعتقدوا أن هذا الأمر قربة إلى الله، وهو مما يُبعدهم عنه ويطردهم عن رحمته ومغفرته، والعجب أن أكثر من يدّعي العلم ممن هو من هذه الأمة لا ينكرون ذلك، بل ربما استحسّنوه ورغبوا في فعله، فلقد اشتدت غربة الإسلام وعاد المعروف منكراً، والمنكر معروفاً، والسنة بدعة، والبدعة سنة، نشأ على هذا الصغير، وهرم عليه الكبير.

قال شيخ الإسلام [رحمته الله]: «أما بناء المساجد على القبور، فقد صرح عامة الطوائف بالنهي عنه متابعة للأحاديث الصحيحة، وصرح أصحابنا وغيرهم من أصحاب مالك والشافعي بتحريمه» قال: «ولا ريب في القطع بتحريمه» ثم ذكر الأحاديث في ذلك إلى أن قال: «وهذه المساجد المبنية على قبور الأنبياء والصالحين أو الملوك وغيرهم تتعين إزالتها بهدم أو غيره، هذا مما لا أعلم فيه خلافاً بين العلماء المعروفين»^(٣).

وقال ابن القيم - رحمه الله تعالى -: «يجب هدم هذه القباب التي بنيت على القبور؛ لأنها أسست على معصية الرسول ﷺ»^(٤).

وقد أفتى جماعة من الشافعية بهدم ما في القرافة من الأبنية، منهم: ابن الجُمَيزي والظهير الترمذِي^(٥).

(١) سبق تخريجه. (٢) في مطبوع «الفتح»: «شرار».

(٣) انظر: «إقتضاء الصراط المستقيم» (٢/٦٦٧).

(٤) انظر: «إغاثة اللهفان» (١/٢٢٨).

(٥) كذا في مطبوع «الفتح». وهو نسبة إلى (تزمّنت) بفتح التاء وسكون الزاي، قاله =

وغيرهما^(١). وقال القاضي ابن كج: «ولا يجوز أن تجصص القبور، ولا أن يبنى عليها قباب [ولا غير قباب]^(٢)، والوصية بها باطلة»^(٣). وقال الأذري: «وأما بطلان الوصية ببناء [القباب وغيرها من]^(٢) الأبنية وإنفاق الأموال الكثيرة؛ فلا ريب في تحريمه»^(٤). وقال القرطبي في حديث جابر: «نهى أن يجصص القبر أو يبنى عليه»^(٥): «وبظاهر هذا الحديث قال مالك وكره البناء والجصص على القبور، وقد أجازة غيره، وهذا الحديث حجة عليه»^(٦).

وقال ابن رشد: «كره مالك البناء على القبر وجعل البلاطة المكتوبة»^(٧).

= ابن السبكي في «طبقات الشافعية الكبرى» (١٣٩/٨)، وابن قاضي شهبة في «طبقاته» (٢/ ١٧٢)، ويكسر التاء قاله ياقوت في «معجم البلدان» (٢٩/٢)، وابن العماد في «الشدرات» (٣٨٠/٩) وهي بلدة من صعيد مصر من عمل البهنسا، وتحرف في الأصل إلى «الترميني»!

(١) نقله عنهما الدّميري في «النجم الوهاج في شرح المنهاج» (١١١/٣) وغيره من متأخري الشافعية. انظر: «حواشي الشرواني والعبادي على تحفة المحتاج» (١٩٨/٣).

(٢) من مطبوع «الفتح» وسقط من الأصل.

(٣) قال الشافعي في «الأم» (٢٧٧/١): «ورأيت الولاة عندنا بمكة يأمرؤن بهدم ما يبنون منها - أي: القباب على القبور - ولم أر الفقهاء يعيبون ذلك عليهم، وإن كان ذلك في ملكه، فإن لم يكن محظوراً لم يكن مختاراً».

ونقله عنه جمع، مثل: الماوردي في «الحاوي الكبير» (١٩٣/٣) - وفيه: «وأما البناء على القبور كالبيوت والقباب فإن كان في غير ملكه لم يجز» - ونحوه في «البيان» (١١٠/٣) للعمري، و«شرح الرافعي على الوجيز» (٤٥٢/٢) وصاحب «العباب المحيط» (١/ ٣٩٠ - ٣٩١)، والرويان في «بحر المذهب» (٣٢٢/٣). ويريد بالكراهة التحريم - كما هو معلوم في كلامه -. والصواب ما اقتضاه إطلاق ابن كج من التحريم من غير فرق بين ملك وغيره للنهي العام، ولما فيه من الابتداء القبيح وإضاعة المال والشرف، ولمضاهاة الجبايرة والكفار، والتحريم يثبت بدون ذلك. وأما الوصية ببناء القباب وغيرها من الأبنية العظيمة، وإنفاق الأموال الكثيرة عليها فلا ريب في تحريمه، والعجيب كل العجب من يلزم ذلك الورثة من حكام العصر ويعمل بالوصية بذلك، مع قول الأصحاب: لا تنفذ الوصية، حيث لا حاجة إليه، أفاده ابن أبي زهرة في «تعليقة له على روضة الطالبين» (٦٥٣/١)، ط. دار الكتب العلمية.

(٤) نقله عنه ابن حجر الهيتمي في «تحفة المحتاج» (١٩٨/٣) - مع «حواشي الشرواني والعبادي».

(٥) أخرجه مسلم (٩٧٠). (٦) انظر: «المفهم» (٦٢٦/٢).

(٧) انظر: «المقدمات الممهدة» (١٧٤)، و«البيان والتحصيل» (٣٤٨/٢)، كلاهما لابن رشد.

وهي^(١) من بدع أهل الطُّول، أحدثوه إرادةً الفخر والمباهاة والسُّمعة، وهو مما لا اختلاف فيه.

وقال الزيلعي في «شرح الكنز»: «ويكره أن يبنى على القبر»^(٢) وذكر قاضي خان: «إنه لا يجصص القبر ولا يبنى عليه؛ لما روي عن النبي ﷺ أنه نهى عن التجصيص والبناء فوق القبر»^(٣)، والمراد بالكراهة عند الحنفية رحمهم الله كراهة التحريم، وقد ذكر ذلك^(٤) ابن نجيم في «شرح الكنز»، وقال الشافعي رحمه الله: «أكره أن يعظم مخلوق، حتى يجعل قبره مسجداً مخافة الفتنة عليه وعلى من بعده من الناس»^(٥)، وكلام الشافعي رحمه الله يبين أن مراده بالكراهة كراهة التحريم.

قال الشارح رحمه الله: «وجزم النووي رحمه الله في «شرح المذهب»^(٦) بتحريم البناء مطلقاً، وذكر في «شرح مسلم»^(٧) نحوه أيضاً، وقال أبو محمد عبد الله بن أحمد بن قدامة إمام الحنابلة صاحب المصنفات الكبار، كـ «المغني» و«الكافي» [وغيرهما، - رحمه الله تعالى -] «ولا يجوز اتخاذ المساجد على القبور، لأن النبي ﷺ، قال: «لعن الله اليهود والنصارى»^(٨) الحديث، وقد روينا أن ابتداء عبادة الأصنام تعظيم الأموات واتخاذ صورهم والتمسح بها والصلاة عندها». انتهى^(٩).

قال شيخ الإسلام [ابن تيمية]^(١٠) رحمه الله: «أما المقبرة فلا فرق فيها بين الجديدة والعتيقة. انقلبت تربتها أو لم تنقلب، ولا فرق بين أن يكون بينه وبين الأرض»^(١١) حائل أو لا، لعموم الاسم وعموم العلة، ولأن النبي ﷺ لعن الذين

(١) في مطبوع «الفتح»: «وهو».

(٢) انظر: «تبيين الحقائق» (١/٢٤٦). والمنع مشهور جداً في كتب الحنفية، انظر: «المبسوط» (٢/٦٢)، «بدائع الصنائع» (١/٣٢٠)، «تحفة الفقهاء» (٢/٢٥٦)، «حاشية الطحطاوي على مراقي الفلاح» (٣٣٥)، «البحر الرائق» (٢/١٩٤)، «الفتاوى الهندية» (١/١٩٤).

(٣) أخرجه مسلم (٩٧٠) من حديث جابر. (٤) من مطبوع «الفتح» وسقط من الأصل. (٥) نقله الرويان في «بحر المذهب» (٣/٣٢٢) عن الشافعي، ثم وجدته في كتابه «الأم» (١/٢٧٨).

(٦) هو «المجموع» (٥/٢٧٠). (٧) (٧/٣٧).

(٨) غير موجود في مطبوع «فتح المجيد». (٩) سبق تخريجه.

(١٠) انظر: «المغني» (٢/٥٠٨).

(١١) كذا في مطبوع «الفتح»، وفي الأصل: «بينه وبينها».

اتخذوا قبور أنبيائهم^(١) مساجد^(٢)، ومعلوم أن قبور الأنبياء لا تنجس.

وبالجملة فمن علل النهي عن الصلاة في المقبرة بنجاسة التربة خاصة، فهو بعيد عن مقصود النبي ﷺ، ثم لا يخلو أن يكون القبر قد^(٣) بني عليه مسجد فلا يصلى في هذا المسجد، سواء كان^(٤) خلف القبر أو أمامه بغير خلاف في المذهب، لأن النبي ﷺ قال: «إن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد، فإني أنهاكم عن ذلك»^(٥)، وخص قبور الأنبياء [والصالحين]^(٦) لأن عكوف الناس على قبورهم أعظم واتخاذها [مساجد]^(٧) أشد.

وكذلك إن لم يكن بني عليه مسجد، فهذا قد ارتكب حقيقة المفسدة التي كان النهي عن الصلاة عند القبور من أجلها، فإن كل مكان صلى فيه يسمى مسجداً، كما قال ﷺ: «جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً»^(٨)، وإن كان موضع قبر أو قبرين^(٩)، وقد تقدم عن علي أنه قال: «لا أصلي في حمام ولا عند قبر»^(١٠)، فعلى هذا [ينبغي أن]^(١١) يكون النهي متناولاً تحريم القبر وبنائه^(١٢) ولا تجوز الصلاة في مسجد بني في مقبرة سواء كان له حيطان تحجز بينه وبين القبور، أو كان مكشوفاً^(١٣).

ولو تتبعنا كلام العلماء في ذلك لاحتمل عدة أوراق، فتبين بهذا أن العلماء رحمهم الله يبينون أن علة النهي ما يؤدي إليه ذلك من الغلو فيها وعبادتها من دون الله كما هو الواقع، والله المستعان.

(١) في مطبوع «الفتح»: «الأنبياء». (٢) سبق تخريجه.

(٣) من مطبوع «الفتح»، وسقط من الأصل.

(٤) كذا في مطبوع «الفتح»، وبدلها في الأصل: «صلى»!

(٥) مضى تخريجه. (٦) سبق تخريجه.

(٧) بعدها في مطبوع «الفتح»: «وقال بعض أصحابنا: لا يمنع الصلاة فيها، لأنه لا يتناولها اسم المقبرة، وليس في كلام أحمد ولا بعض أصحابه هذا الفرق، بل عموم كلامهم يقتضي منع الصلاة عند كل قبر».

(٨) انظر: «مصنف عبد الرزاق» (١/٤٠٥)، «الأوسط» لابن المنذر (٢/١٨٣).

(٩) غير موجود في مطبوع «الفتح».

(١٠) كذا في مطبوع «الفتح»، وفي الأصل: «وفائه».

(١١) انظر: «اقتضاء الصراط المستقيم» (٢/٦٧٢).

وقد حدث بعد الأئمة الذين^(١) يعتد بقولهم الناس كثر في أبواب العلم بالله اضطرابهم، وغُلُظ عن معرفة ما بعث الله به رسوله من الهدى والعلم حجابهم فقيدوا نصوص الكتاب والسنة بقيود أو هنت^(٢) الانقياد، وغيروا بها ما قصده الرسول ﷺ بالنهي وأراد، فقال بعضهم: النهي عن البناء على القبور يختص بالمقبرة المسبلة والنهي عن الصلاة فيها لتنجسها بصديد الموتى^(٣)، وهذا كله باطل من وجوه^(٤):

منها: إنه من القول على الله بلا علم، فهو^(٥) حرام بنص الكتاب. ومنها: إنَّ ما قالوه لا يقتضي لعن فاعله والتغليظ عليه^(٦). وما المانع له أن يقول: من صلى في بقعة نجسة فعليه لعنة الله؟ ويلزم على ما قاله هؤلاء أن النبي ﷺ لم يبين العلة، وأحال الأمة في بيانها على من يجيء بعده ﷺ وبعد القرون المفضلة والأئمة، وهذا باطل قطعاً وعقلاً وشرعاً لما يلزم عليه من أن الرسول ﷺ عجز عن البيان أو قصّر في البلاغ، وهذا من أبطل الباطل، فإن النبي ﷺ بلغ البلاغ المبين، وقدرته في البيان فوق قدرة كل أحد^(٧)، فإذا بطل اللازم بطل الملزوم.

ويقال أيضاً: هذا اللعن والتغليظ الشديد إنما هو فيمن اتخذ قبور الأنبياء مساجد، وجاء في بعض النصوص ما يعمُّ الأنبياء وغيرهم، فلو كانت هذه هي العلة لكانت منتفية في قبور الأنبياء لكون أجسادهم طرية، لا يكون لها صديد يمنع من الصلاة عند قبورهم، فإذا كان النهي عن اتخاذ المساجد عند القبور يتناول قبور الأنبياء بالنص، علم أن العلة ما ذكره هؤلاء العلماء الذين قد نقلت أقوالهم، والحمد لله على ظهور الحجة وبيان المحجة، والحمد لله الذي هدانا لهذا، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله^(٨).

التاسع: قوله: (باب ما جاء أن الغلو في قبور الصالحين يصيرها أوثاناً تعبد من دون الله):

(١) في مطبوع «الفتح»: «ومن».

(٢) كذا في مطبوع «الفتح»، وفي الأصل: «واهنت»!

(٣) في مطبوع «الفتح»: «الأموات». (٤) في مطبوع «الفتح»: «لوجوه».

(٥) في مطبوع «الفتح»: «وهو». (٦) غير موجود في مطبوع «الفتح».

(٧) كذا في مطبوع «الفتح»، وفي الأصل: «واحد»!

(٨) انظر: «فتح المجيد» (١/٣٩٧ - ٤٠٤).

روى مالك في «الموطأ» أن رسول الله ﷺ، قال: «اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»^(١).
هذا الحديث رواه مالك مرسلًا، والبزار^(٢) موصولاً.

قوله: «رواه مالك في «الموطأ» هو الإمام مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر بن عمرو الأصبحي أبو عبد الله المدني إمام دار الهجرة وأحد الأئمة الأربعة وأحد المتقنين للحديث، حتى قال البخاري: أصح الأسانيد مالك عن نافع عن ابن عمر، مات سنة تسع وسبعين ومائة، وكان مولده سنة ثلاث وتسعين، وقيل: أربع وتسعين، وقال الواقدي بلغ تسعين سنة.

قوله: «اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد» قد استجاب الله دعاءه، كما قال ابن القيم رحمه الله تعالى:

فأجاب ربَّ العالمينَ دُعَاءَهُ وَأَحَاطَهُ بِثَلَاثَةِ الْجُدْرَانِ
حَتَّى غَدَتْ^(٣) أَرْجَاؤُهُ بِدُعَائِهِ فِي عِزَّةٍ وَحِمَايَةٍ وَصِيَانٍ^(٤)

ودل الحديث على أن قبر النبي ﷺ لو عبد لكان وثناً، لكن حماه الله تعالى بما حال بينه وبين الناس، فلا يوصل إليه، ودل الحديث على أن الوثن هو ما يباشره^(٥) العابد من القبور والتوابيت التي عليها، وقد عَظُمَتِ الفتنة بالقبور بتعظيمها وعبادتها، كما قال عبد الله بن مسعود: «كيف أنتم إذا لبستم فتنة، يهرم فيها الكبير وينشأ فيها الصغير، تجري على الناس يتخذونها سنة إذا غيرت؛ قيل: غيرت السنة»^(٦). اهـ^(٧).

ولخوف الفتنة نهى عمر عن تتبع آثار النبي ﷺ، قال ابن وضاح: «سمعت عيسى بن يونس يقول: أمر عمر بن الخطاب بقطع الشجرة التي بويع تحتها

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه البزار في «المسند» (رقم ٤٤٠ - «كشف»). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢/ ٢٨): «رواه البزار وفيه عمر بن صهبان وقد أجمعوا على ضعفه» وعزاه الحافظ ابن عبد البر في «التمهيد» (٤٢/٥) إلى البزار من طريق عمر بن محمد القمري وصححه، وسبق بيان ذلك، والحمد لله وحده.

(٣) في مطبوع «النونية»: «اغدت». (٤) انظر: «الكافية الشافية» (ص ٢٩٢).

(٥) في مطبوع «الفتح»: «يباشر». (٦) سبق تخريجه.

(٧) انظر: «تيسير العزيز الحميد» (ص ٣٤٠).

النبي ﷺ، فقطعها لأن الناس كانوا يذهبون فيصلون تحتها فخاف عليهم الفتنة»^(١).

وقال المعرور بن سويد: صليت مع عمر بن الخطاب بطريق مكة صلاة الصبح ثم رأى الناس يذهبون مذاهب، فقال: أين يذهب هؤلاء؟ ف قيل: يا أمير المؤمنين، مسجد صلى فيه النبي ﷺ، فهم يصلون فيه، فقال: إنما هلك من كان قبلكم بمثل هذا، كانوا يتبعون آثار أنبيائهم ويتخذونها كنائس وبيعاً، فمن أدركته الصلاة في المساجد فليصل ومن لا فليمض ولا يتعمدها»^(٢).

وفي «مغازي ابن إسحاق» من زيادات يونس بن بكير عن أبي خلدة بن دينار حدثنا أبو العالية قال: «لما فتحنا تُسْتُر وجدنا في بيت مال الهرمزان سريراً عليه رجل عند رأسه مصحف، فأخذنا المصحف فحملناه إلى عمر، فدعا له كعباً فنسخه بالعربية، فأنا أول رجل قرأه من العرب قرأته مثل ما أقرأ القرآن فقلت لأبي العالية: ما كان فيه؟ قال: سيرتكم وأموركم ولحون كلامكم وما هو كائن بعد. قلت: فماذا صنعتم بالرجل؟ قال: حفرنا له بالنهار ثلاثة عشر قبراً متفرقة، فلما كان الليل دفناه وسوينا القبور كلها لنعميه على الناس لا ينبشونه، قلت: وما يرجون منه؟ قال: كانت السماء إذا حبست عنهم برزوا بسريره فيمطرون، فقلت: من كنتم تظنون الرجل؟ قال: رجل يقال له: دانيال، فقلت: منذ كم وجدتموه مات؟ قال: منذ ثلاثمائة سنة، قلت: ما كان تغير منه شيء؟ قال: إلا شعيرات من قفاه، إن لحوم الأنبياء لا تبليها الأرض»^(٣).

قال ابن القيم رحمه الله: «ففي هذه القصة ما فعله المهاجرون والأنصار من تعمية قبره لئلا يفتتن به»^(٤)، ولو ظفر به المتأخرون لجالدوا عليه بالسيوف، ولعبدوه من دون الله»^(٥).

قال شيخ الإسلام رحمه الله: «وهو إنكار منهم لذلك، فمن قصد بقعة يرجو الخير بقصدها ولم يستحب الشارع قصدها، فهو من المنكرات وبعضه أشد من بعض، سواء قصدها ليصلي عندها أو ليدعو عندها»^(٦) أو ليقراً عندها أو ليذكر الله

(٢) سبق تخريجه.

(١) سبق تخريجه.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) بعدها في مطبوع «الفتح»: «ولم يبرزوه للدعاء عنده والتبرك به».

(٦) من مطبوع «الفتح» ومنقط من الأصل.

(٥) انظر: «إغاثة اللهفان» (١/٢٢٢).

عندها^(١) أو لينسك عندها، بحيث يخص تلك البقعة بنوع من العبادة التي^(٢) لم يشرع تخصيصها به، لا نوعاً ولا عيناً، إلا أن ذلك قد يجوز بحكم الاتفاق لا لقصد الدعاء فيها، كمن يزورها ويسلم عليها، ويسأل الله العافية له وللموتى كما جاءت به السنة^(٣).

وأما تحري الدعاء عندها بحيث يستشعر أن الدعاء هناك أجوب منه في غيره فهذا هو المنهي عنه^(٤). اهـ. ملخصاً.

قوله: «اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» فيه^(٥) تحريم البناء على القبور وتحريم الصلاة عندها، وأن ذلك من الكبائر و[في «القرى»]^(٦) للطبري عن^(٧) أصحاب مالك عن مالك «أنه كره أن يقول: زرت قبر النبي ﷺ، وعلل ذلك بقوله: «اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد» الحديث، كره إضافة هذا اللفظ إلى القبر، لثلا يقع التشبه بفعل أولئك، سدّاً للذريعة^(٨).

قال شيخ الإسلام رحمه الله: «ومالك قد أدرك التابعين وهم أعلم الناس بهذه المسألة، فدل ذلك على أنه لم يكن معروفاً عندهم ألفاظ زيارة قبر النبي ﷺ...» إلى أن قال: «وقد ذكروا في أسباب كراهته لأن يقول: زرت قبر النبي ﷺ، لأن هذا اللفظ قد صار كثير من الناس يريدون^(٩) به الزيارة البدعية، وهو^(١٠) قصد الميت لسؤاله ودعائه، والرغبة إليه في قضاء الحوائج ونحو ذلك مما يفعله كثير من الناس، فهم يعنون بلفظ الزيارة مثل هذا، وهذا ليس بمشروع باتفاق الأئمة، فكره^(١١) مالك

(١) كذا في مطبوع «الفتح»، وبدلها في الأصل: «فيها».

(٢) من مطبوع «الفتح» وسقطت من الأصل. (٣) في مطبوع «الفتح»: «السنة به».

(٤) انظر: «اقتضاء الصراط المستقيم» (٢/ ٦٨١ - وما بعدها).

(٥) في مطبوع «الفتح»: «ففيه».

(٦) من مطبوع «الفتح» وبدله بياض في الأصل!

(٧) في مطبوع «الفتح»، وفي الأصل: «من».

(٨) انظر: «القرى لقاصد أم القرى» (٦٢٩)، «الصارم المنكي» (٢٩٠)، «منهاج السنة النبوية»

(٢/ ٤٢)، «مجموع الفتاوى» (١/ ٢٣٩، ٣٥٥، ٢٧/ ٣٠١، ٢٤٥ - ٢٤٦)، «المدخل»

(١٦٢/ ١) لابن الحاج، «الشفاء» (٢/ ٦٦٧)، «غاية الأمانى» (١/ ١٧٨) للآلوسي.

والحديثان مضى تخريجهما.

(٩) في مطبوع «الفتح»: «يريد».

(١٠) في مطبوع «الفتح»: «وهي».

(١١) كذا في مطبوع «الفتح»، وفي الأصل: «وكره»!

أن يتكلم بلفظ مجمل يدل على معنى فاسد بخلاف الصلاة عليه والسلام^(١)، فإن ذلك مما أمر الله به.

أما لفظ الزيارة في عموم القبور؛ فلا يفهم منها مثل هذا المعنى، ألا ترى إلى قوله: «فزوروا القبور فإنها تذكركم الآخرة»^(٢)، مع زيارته لقبر أمه^(٣)؟ فإن هذا يتناول قبور الكفار، فلا يفهم من ذلك زيارة الميت لدعائه وسؤاله والاستغاثة به، ونحو ذلك مما يفعله أهل الشرك والبدع، بخلاف ما إذا كان المزور معظماً في الدين كالأنبياء والصالحين، فإنه كثيراً ما يُعنى بزيارة قهورهم هذه الزيارة البدعية الشركية، فلهذا كره مالك ذلك في مثل^(٤) هذا وإن لم يكره ذلك في موضع آخر ليس فيه هذه المفسدة^(٥). اهـ.

وفيه: «إن النبي ﷺ لم يستعد إلا مما يخاف وقوعه». ذكره المصنف رحمه الله وقوله «عن سفيان»؛ الظاهر أنه سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري^(٦)، أبو عبد الله الكوفي، ثقة حافظ فقيه إمام عابد كان مجتهداً، وله أتباع يتفقهون على مذهبه، مات سنة إحدى وستين ومائة، وله أربع وستون سنة.

قوله: «عن مجاهد» هو ابن جبر بالجيم والموحدة، أبو الحجاج المخزومي مولاهم المكي ثقة إمام في التفسير، أخذه^(٨) عن ابن عباس وغيره، مات سنة أربع ومائة، قاله يحيى القطان، وقال ابن حبان^(٩): مات سنة اثنتين أو ثلاثة

(١) كذا في مطبوع «الفتح»، وفي الأصل: «بخلاف الصلاة والسلام عليه».

(٢) أخرجه مسلم (٩٧٧) من حديث بريدة بلفظ: «نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها». ويرقم (٩٧٦) من حديث أبي هريرة بلفظ: «فزوروا القبور فإنها تذكركم الموت». واللفظ المذكور لابن ماجه (١٥٧١)، وابن حبان (٩٨١) من حديث ابن مسعود.

(٣) أخرجه مسلم (١٩٧٦) من حديث أبي هريرة.

(٤) من مطبوع «الفتح» وسقط من الأصل.

(٥) انظر: «مجموع الفتاوى» (٣٥٨/٢٤)، و«اقتضاء الصراط المستقيم» (٧٦٢/٢).

(٦) انظر: «فتح المجيد» (٤٠٥/١ - ٤١٠).

(٧) هو أوثق الناس في منصور الذي روى هنا، ومنصور يروي عنه السفيانان: الثوري وابن عيينة، وروايتها عنه في «الصحيحين». وأورد ابن جرير أثر مجاهد من طرق عدة عن سفيان، رواه عنه من طريق مؤمل ومهران بن أبي عمر الرازي وعبد الرحمن بن مهدي، ومؤمل ومهران لا يرويان إلا عن الثوري، فصح ما استظهره صاحب «فتح المجيد».

(٨) كذا في مطبوع «الفتح»، وفي الأصل: «أخذ».

(٩) في كتابه «الثقات» (٤١٩/٥).

ومائة وهو ساجد، ولد سنة إحدى وعشرين في خلافة عمر^(١).

قلت: وفي الباب حديث أبي هريرة، وحديث حسان بن ثابت، أما^(٢) حديث أبي هريرة، فرواه أحمد والترمذي وصححه^(٣).

قلت: ويكون الإذن في زيارة القبور مخصوصاً بالرجال، خص بقوله: «لعن الله زوارات القبور»^(٤) الحديث، فيكون من العام المخصوص، قوله: «والسرج» قال أبو محمد المقدسي: لو أبيح اتخاذ السرج عليها لم يُلعن من فعله، لأن فيه تضييعاً للمال في غير ما^(٥) فائدة، وإفراطاً في تعظيم القبور أشبه بتعظيم الأصنام.

قوله: «رواه أهل «السنن»» يعني: أبا داود والترمذي وابن ماجه فقط^(٦).

قوله: (باب ما جاء في حماية المصطفى ﷺ جناب التوحيد وسده كل طريق يوصل إلى الشرك).

الجناب: هو الجانب، والمراد حمايته عما يقرب إليه^(٧) ويخالطه من الشرك وأسبابه.

قوله: «وقول الله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ...﴾ إلى آخره»، قلت: فاقتضت هذه الأوصاف التي وصف بها رسول الله ﷺ في حق

(١) من «فتح المجيد» (١/٤١١ - ٤١٢) بتصرف.

(٢) في مطبوع «الفتح»: «فأما».

(٣) يريد حديث: «لعن رسول الله ﷺ زوارات القبور». أخرجه أحمد (٢/٣٣٧، ٣٥٦)، والطيب السبي (٢٣٥٨)، والترمذي (١٠٥٦)، وابن ماجه (١٥٧٦)، وأبو يعلى (٥٩٠٨)، وابن شاهين في «ناسخ الحديث ومنسوخه» (٣٠٦)، وابن حبان (٣١٧٨)، والبيهقي (٤/٧٨) وإسناده حسن، قال الترمذي: «حديث حسن صحيح». وصححه البيهقي (٢/٤١٧)، وابن تيمية في «مجموع الفتاوى» (٢٤/٣٦٠). وأما حديث حسان بن ثابت، فقد أخرجه ابن أبي شيبه (٣/٣٤٥)، وأحمد (٣/٤٤٣)، وابن ماجه (١٥٧٤)، وابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (٢٠٧١)، والطبراني (٣٥٩١، ٣٥٩٢)، وابن شاهين في «ناسخ الحديث ومنسوخه» رقم (٣٠٨)، والحاكم (١/٣٧٤)، والبيهقي (٤/٧٨) بسند فيه عبد الرحمن بن بهمان، لم يوثقه غير ابن حبان، ولم يرو عنه سوى عبد الله بن عثمان بن خثيم، ولذا قال ابن المديني: «لا نعرفه»، إلا أن الحديث حسن.

(٤) انظر: الهامش السابق. (٥) غير موجود في مطبوع «الفتح».

(٦) انظر: «فتح المجيد» (١/٤١٣ - ٤٢١) بتصرف.

(٧) في مطبوع «الفتح»، وفي الأصل: «منه». (٨) في مطبوع «الفتح»: «رسوله».

أتمته أن أُنذِرهم وحذرهم الشرك الذي هو أعظم الذنوب، وبَيِّن لهم ذرائع الموصلة إليه، وأبلغ في نهيم عنها، ومن ذلك تعظيم القبور والغلو فيها، والصلاة عندها واليها، ونحو ذلك مما يوصل إلى عبادتها كما تقدم، وكما سيأتي في أحاديث^(١)»^(٢).

العاشر: قوله: «عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تجعلوا بيوتكم قبوراً»^(٣)، قال شيخ الإسلام: «أي: لا تعظّلوها من الصلاة فيها والدعاء والقراءة، فتكون بمنزلة القبور، فأمر بتحريّ العبادة في البيوت ونهى عن تحريّها عند القبور، عكس ما يفعله المشركون من النصارى ومن تشبه بهم من هذه الأمة. وفي «الصحيحين» عن ابن عمر مرفوعاً: «اجعلوا من صلاتكم في بيوتكم ولا تتخذوها قبوراً»^(٤). وفي «صحيح مسلم» عن ابن عمر مرفوعاً: «لا تجعلوا بيوتكم مقابر، فإن الشيطان يفر من البيت الذي يسمع سورة البقرة تقرأ فيه»^(٥)»^(٦).

قوله: «ولا تجعلوا قبوري عيداً»، قال شيخ الإسلام ﷺ: «العيد اسم لما يعود من الاجتماع العام على وجه معتاد عائداً»^(٧)؛ إما يعود السنة أو يعود الأسبوع أو الشهر أو نحو ذلك»^(٨).

وقال ابن القيم ﷺ: «العيد: ما يعتاد مجيئه وقصده من زمان ومكان مأخوذ من المعاودة أو الاعتياد، فإذا كان اسماً للمكان فهو المكان الذي يقصد فيه الاجتماع وانتيابه للعبادة [أو لغيرها]^(٩)، كما كان المسجد الحرام ومنى ومزدلفة وعرفة والمشاعر جعلها الله عيداً للحنفاء ومثابة، كما جعل أيام [التعبّد فيها]^(١٠) عيداً. وكان للمشركين أعياد زمانية ومكانية، فلما جاء الله بالإسلام أبطلها وعوض الحنفاء منها عيد الفطر وعيد النحر وأيام منى، كما عوضهم

(١) بعدها في مطبوع «الفتح»: «الباب».

(٢) انظر: «فتح المجيد» (١/٤٢٣ - ٤٢٥) بتصرف.

(٣) مضى تخريجه.

(٤) أخرجه البخاري (٤٣٢)، ومسلم (٧٧٧).

(٥) أخرجه مسلم (٧٨٠)، والترمذي (٢٨٨٠).

(٦) انظر: «اقتضاء الصراط المستقيم» (٢/٦٥٧).

(٧) في مطبوع «الفتح»: «عائد». (٨) انظر: «الاقتضاء» (١/٤٤١).

(٩) كذا في مطبوع «الفتح»، وفي الأصل: «وغيرها».

(١٠) كذا في مطبوع «الفتح»، وبدله في الأصل: «العيد فيه»!

عن^(١) أعياد المشركين المكانية بالكعبة^(٢) ومنى ومزدلفة وعرفة والمشاعر^(٣).
 قوله: «وصلوا علي^(٤) فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم»^(٥)، قال شيخ
 الإسلام رحمته الله: «يشير بذلك إلى أن ما ينالني منكم من الصلاة والسلام يحصل مع
 قُربكم من قبري وبُعدكم، فلا حاجة بكم^(٦) إلى اتخاذه عيداً^(٧)»^(٨).
 [قوله: «لا تجعلوا بيوتكم قبوراً»^(٩). تقدم في كلام شيخ الإسلام في معنى
 الحديث قبله. اهـ]^(٩).

قوله: «وعن علي بن الحسين أنه رأى رجلاً يجيء إلى فرجة كانت عند قبر
 النبي صلى الله عليه وآله، فيدخل فيها فيدعو فيها، وقال: ألا أحدثكم حديثاً سمعته من أبي عن
 جدي عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «لا تتخذوا قبري عيداً، ولا بيوتكم قبوراً، وصلوا
 علي فإن تسليمكم يبلغني أين كنتم»^(٤)، رواه في «المختارة».
 هذا الحديث والذي قبله جيدان حسنا الإسنادين.

قال شيخ الإسلام رحمته الله: «فانظر هذه السنة كيف مخرجها من أهل المدينة
 وأهل البيت الذين لهم من رسول الله صلى الله عليه وآله قرب النسب وقرب الدار، لأنهم إلى
 ذلك أحوج من غيرهم فكانوا له أضبط»^(١٠). اهـ^(١١).

الحادي عشر: «قوله: علي بن الحسين» أي: ابن علي بن أبي طالب
 المعروف بزين العابدين، أفضل التابعين من أهل بيته وأعلمهم، قال الزهري: «ما
 رأيت قرشياً أفضل منه». مات سنة ثلاث وتسعين على الصحيح، وأبوه الحسين
 سبط رسول الله صلى الله عليه وآله وريحانته، حفظ عن النبي صلى الله عليه وآله واستشهد يوم عاشوراء سنة
 إحدى وستين وله ست وخمسون سنة.

قوله: «إنه رأى رجلاً يجيء إلى فُرجة». بضم الفاء وسكون الراء، وهي

(١) كذا في مطبوع «الفتح»، وفي الأصل: «من».

(٢) في مطبوع «الفتح»: «الكعبة». (٣) انظر: «إغاثة اللهفان» (٢٠٩/١).

(٤) من مطبوع «الفتح» وسقطت من الأصل. (٥) مضى تخريجه.

(٦) كذا في مطبوع «الفتح»، وفي الأصل: «لكم».

(٧) انظر: «اقتضاء الصراط المستقيم» (٦٥٧/٢).

(٨) انظر: «فتح المجيد» (٤٢٦/١ - ٤٢٧).

(٩) غير موجود في «مطبوع «فتح المجيد»».

(١٠) انظر: «اقتضاء الصراط المستقيم» (٦٦٠/٢).

(١١) انظر: «فتح المجيد» (٤٢٨/١ - ٤٢٩) بتصرف.

الكوة في الجدار والخوخة ونحوهما^(١).

قوله: «فيدخل فيها فيدعو فنهاه» هذا يدل على النهي عن قصد القبور والمشاهد لأجل الدعاء والصلاة عندها.

قال شيخ الإسلام رحمته الله: ما علمت أحداً رخص فيه، لأن ذلك^(٢) من اتخاذ عيدا، ويدل أيضاً على^(٣) أن قصد القبر للسلام إذا دخل المسجد ليصلي منهيه عنه، لأن ذلك لم يشرع. وكره مالك لأهل المدينة كلما دخل الإنسان المسجد أن يأتي قبر النبي ﷺ؛ لأن السلف لم يكونوا يفعلون ذلك. قال: ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها، وكان الصحابة والتابعون رضي الله عنهم يأتون إلى مسجد النبي ﷺ فيصلون، فإذا قضوا الصلاة قعدوا أو خرجوا ولم يكونوا يأتون القبر للسلام، لعلمهم أن الصلاة والسلام عليه في الصلاة أكمل وأفضل^(٤).

وأما دخولهم عند قبره للصلاة والسلام عليه هناك أو للصلاة أو الدعاء^(٥) فلم يشرعه لهم بل نهاهم عنه^(٦) في قوله: «لا تتخذوا قبري عيداً وصلوا علي فإن صلاتكم تبلغني»^(٦)، فبين أن الصلاة تصل إليه من بُعد وكذلك السلام، ولعن من اتخذ قبور الأنبياء مساجد، وكانت الحجرة في زمانهم يدخل إليها من الباب، إذ^(٧) كانت عائشة فيها وبعد ذلك إلى أن بني الحائط الآخر وهم مع ذلك التمكن من الوصول إلى قبره لا يدخلون إليه^(٨) لا للسلام ولا للصلاة، ولا للدعاء^(٩) لأنفسهم ولا لغيرهم ولا لسؤال عن حديث أو علم، ولا كان الشيطان يطمع فيهم حتى يسمعهم كلاماً أو سلاماً فيظنون أنه هو كلمهم وأفتاهم وبين لهم الأحاديث أو أنه قد ردّ عليهم السلام بصوت يسمع من خارج، كما طمع الشيطان في غيرهم، فأضلهم عند قبره وقبر غيره، حتى ظنوا أن صاحب القبر يأمرهم وينهاهم ويفتيهم ويحدثهم في الظاهر وأنه يخرج من القبر ويرويه خارجاً من القبر، ويظنون

(١) كذا في مطبوع «الفتح»، وبدلها في الأصل: «عندها»!

(٢) بعدها في مطبوع «الفتح»: «نوع». (٣) غير موجود في مطبوع «الفتح».

(٤) انظر كلام الإمام مالك في: «المدخل» (٦٢/١) لابن الحاج.

(٥) كذا في مطبوع «الفتح»، وفي الأصل: «والدعاء»!

(٦) مضى تخريجه. (٧) في مطبوع «الفتح»: «إذا».

(٨) كذا في مطبوع «الفتح»، وفي الأصل: «عليه».

(٩) في مطبوع «الفتح»: «لا لسلام ولا لصلاة ولا لدعاء».

أن نفس أبدان الموتى خرجت تكلمهم، وأن روح الموتى تجسدت لهم فأروها كما رآهم النبي ﷺ ليلة المعراج.

والمقصود أن الصحابة لم يكونوا يعتادون الصلاة والسلام عليه عند قبره، كما يفعله من بعدهم من الخلف، وإنما كان بعضهم يأتي من خارج فيسلم عليه^(١) إذا قدم من سفره كما كان ابن عمر يفعله، قال عبيد الله بن عمر عن نافع: كان ابن عمر إذا قدم من سفر أتى قبر النبي ﷺ، فقال: السلام عليك يا رسول الله، السلام عليك يا أبا بكر، السلام عليك يا أبتاه ثم ينصرف^(٢). قال عبيد الله: ما نعلم أحداً من أصحاب النبي ﷺ فعل ذلك إلا ابن عمر، وهذا يدل على أنه لا يقف عند القبر للدعاء إذا سلم كما يفعله كثير.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: «لأن ذلك لم ينقل عن أحد من الصحابة فكان بدعة محضة»^(٣). وفي «المبسوط»: قال مالك: لا أرى أن يقف عند قبر النبي ﷺ، ولكن يسلم ويمضي. ونص أحمد أنه يستقبل القبلة ويجعل الحجرة عن يساره لئلا يستدبره^(٤).

وبالجملة، فقد^(٥) اتفق الأئمة على أنه إذا دعا لا يستقبل القبر، وتنازعوا هل يستقبله عند السلام عليه أم لا؟^(٦).

وفي الحديث دليل على منع شد الرحال إلى قبره ﷺ وإلى غيره من القبور والمشاهد، لأن ذلك من اتخاذها أعياداً بل من أعظم أسباب الإشراك بأصحابها،

(١) من مطبوع «الفتح» وسقطت من الأصل.

(٢) أخرجه عبد الرزاق (٦٧٢٤) وابن بطة في «الإبانة» بإسناد صحيح، كما في «الاقضاء» (٦٦٣/٢)، وسعيد بن منصور في «السنن»، كما في «الاقضاء» أيضاً (٧١٨/٢)، ومالك في «الموطأ» (باب الصلاة، رقم ٢٤٤ - رواية يحيى، ورقم ٥٠٦ - رواية أبي مصعب الزهري، وص ١٤٥ - رواية سويد ص ٣٣٤ - رواية محمد بن الحسن)، وعنه القاضي إسماعيل في «فضل الصلاة على النبي ﷺ» رقم (٩٨) بغير هذا اللفظ ولفظ يحيى بن يحيى مُعلً، بسط ذلك ابن القيم في «جلاء الأفهام» (ص ٥٦١ - ٥٦٢، ٦٤٩، ٦٥٨ - ٦٦١ - بتحقيقي)، وانظر - لزماً -: «الاستذكار» (٦/٢٦٢ - ٢٦٣)، و«التمهيد» (١٧/٣٠٤)، و«البيان والتحصيل» (١٨/٦٠٤) لابن رشد، و«الصارم المنكي» (١١٢).

(٣) انظر: «مجموع الفتاوى» (٣٩٦/٢٧).

(٤) كذا في مطبوع «الفتح»، وفي الأصل: «يستدبرها».

(٥) في مطبوع «الفتح»: «قد». (٦) انظر: «مجموع الفتاوى» (١/٢٣٠).

وهذه هي المسألة التي أفتى بها شيخ الإسلام رحمته الله - أعني: من سافر لمجرد زيارة قبور الأنبياء والصالحين - ونقل فيها^(١) اختلاف العلماء، فمن مبيح لذلك كالغزالي وأبي محمد المقدسي ومن مانع لذلك كابن بطة وابن عقيل وأبي محمد الجويني^(٢) والقاضي عياض، وهو قول الجمهور، نص عليه مالك ولم يخالفه أحد من الأئمة وهو الصواب، لما في «الصحيحين» عن أبي سعيد عن النبي ﷺ، قال: «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجدي هذا، والمسجد الأقصى»^(٣). فدخل في النهي شدها لزيارة القبور والمشاهد، فإما أن يكون نهياً، وإما أن يكون نهيّاً.

وجاء في رواية بصيغة النهي، فتعين أن يكون للنهي، ولهذا فهم منه الصحابة المنع، كما في «الموطأ» و«المسند» و«السنن»، عن بصرة^(٤) بن أبي بصرة الغفاري أنه قال لأبي هريرة وقد أقبل من الطور: لو أدركتك قبل أن تخرج إليه لما خرجت، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا تُعْمَلِ المطي إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجدي هذا، والمسجد الأقصى»^(٥). وروى الإمام أحمد وعمر بن شبة في «أخبار المدينة» بإسناد جيد عن قَزعة قال: «أتيت ابن عمر، فقلت: إني أريد الطور، فقال: إنما تشد الرحال إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجد المدينة، والمسجد الأقصى، فدع عنك الطور ولا تأته»^(٦).

(١) من مطبوع «الفتح» وسقط من الأصل!

(٢) كذا في مطبوع «الفتح»، وفي الأصل: «الجويني»!

(٣) أخرجه البخاري (١١٩٧)، ومسلم (٨٢٧).

(٤) كذا رواية مالك وغيره، وصوابه «لقيت أبا بصرة...» بين ذلك ابن عبد البر، كما سيأتي في التخريج، وهو كذلك عند أحمد في الموطن الثاني، ومن طريقه الطبراني (٢١٦١).

(٥) أخرجه مالك في «الموطأ» كتاب الصلاة، باب الصلاة رقم (٩٣)، - ومن طريقه الفسوي في «المعرفة والتاريخ» (٢/٢٩٤)، والطحاوي في «المشكل» (٥٨١، ٥٩٠)، وابن حبان (٢٧٧٢)، وابن الأثير في «أسد الغابة» (١/٢٣٧)، والضياء في «فضائل بيت المقدس» (٣)، - وأحمد (٧/٦، ٣٩٧ - ٣٩٨)، والنسائي (٣/١١٣)، والنجمي (٩٤٤)، والفسوي (٢/٢٩٤)، والطيالسي في «المسند» رقم (١٣٤٨)، وإسناده صحيح على وهم فيه، بينه ابن عبد البر في «التمهيد» (٣٨/٢٣)، و«الاستيعاب» (٢/٣٩ - ٤٠).

(٦) أخرجه ابن أبي شيبه في «المصنف» (٣/٣٦٥)، وعبد الرزاق في «المصنف» (٥/١٣٥)، وأحمد (٣/٤٥) وهو مختصراً عند مسلم (٨٢٧)، والنسائي في «الكبرى» (٢٧٩١)، والطحاوي في «المشكل» (٥٧٨).

فابن عمر وبَصْرَة بن أبي بصرة جعلوا الطور مما نُهي عن شد الرحال إليه .
لأن اللفظ الذي ذكرناه في ^(١) النهي عن شدها إلى غير الثلاثة مما يقصد به
القُرْبَة، فعلم أن المستثنى منه عام في المساجد وغيرها، وأن النهي ليس خاصاً
بالمساجد، ولهذا نهيا عن شدها إلى الطور مستدلين بهذا الحديث، والطور إنما
يسافر من يسافر إليه لفضيلة البقعة، فإن الله سماه (الوادي المقدس)، و(البقعة
المباركة) وكلم كليمة موسى ﷺ هناك .

وهذا هو الذي عليه الأئمة الأربعة وجمهور العلماء، ومن أراد بسط القول
في ذلك والجواب عما يعارضه فعليه بما كتبه شيخ الإسلام مجيباً لابن
الأخنائي ^(٢) فيما اعترض به على ما دلت عليه الأحاديث [الصحيحة] ^(٣) وأخذ به
العلماء ^(٤) وقياس الأولى، لأن المفسدة في ذلك ظاهرة .

وأما النهي عن زيارة غير المساجد الثلاثة فغاية ما فيها أنها لا مصلحة في
ذلك توجب شد الرحال ولا مزية تدعو إليه . وقد بسط القول في ذلك الحافظ
محمد بن عبد الهادي في كتاب «الصارم المنكي» في ردّه على السبكي، وذكر فيه
علل الأحاديث الواردة في زيارة قبر النبي ﷺ، وذكر هو وشيخ
الإسلام رحمهما الله تعالى أنه لا يصح منها حديث عن النبي ﷺ، ولا عن أحد
من أصحابه مع أنها لا تدل على محل النزاع، إذ ليس فيها إلا مطلق الزيارة،
وذلك لا ينكره أحد بدون شد الرحال، فيحمل على الزيارة الشرعية التي ليس
فيها شرك ولا بدعة .

قوله: «رواه في «المختارة»، «المختارة»: كتاب جمع فيه مؤلفه الأحاديث
الجياد الزائدة على «الصحيحين». ومؤلفه هو أبو عبد الله محمد بن عبد الواحد
المقدسي الحافظ ضياء الدين الحنبلي أحد الأعلام، قال الذهبي: «أفنى عمره في

(١) كذا في مطبوع «الفتح»، وفي الأصل: «ذكر فيه»!

(٢) اسمه «الاستغاثة في الرد على البكري» طبع مرات، وحققه غير واحد كل على حدة،
منهم عبد الله السهيلي عن دار الوطن في مجلدين، ومحمد عجال عن الغرباء في
مجلدين، وطبع قديماً دون تحقيق.

(٣) غير موجود في مطبوع «فتح المجيد».

(٤) بعدها في مطبوع «الفتح»: «وفي «الجواب الباهر» الذي نقل عنه ابن عبد الهادي
- رحمه الله تعالى -».

الذي هو توحيد الله وإفراده بالعبادات دون ما سواه، كيف يصدر منكم هذا وقد وجدت فيكم جميع أنواع عبادة الطاغوت؟ ولهذا قال: ﴿أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا﴾ أي: مما تظنون بنا، ﴿وَأَصْلُ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ وهذا من باب استعمال أفعل التفضيل فيما ليس في الطرف الآخر^(١) مشاركة، كقوله تعالى: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٤]»^(٢).

قوله: وقول الله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِي عَظِمُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا﴾ [الكهف: ٢١] والمراد أنهم فعلوا مع الفتية بعد موتهم ما يذم فاعله، لأن النبي ﷺ قال: «لئن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم وصلحيهم مساجد»^(٣). أراد تحذير أمته أن يفعلوا كفعالهم^(٤).

الثاني عشر: قوله: عن أبي سعيد الخدري: إن رسول الله ﷺ قال: «لتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه». قالوا: يا رسول الله اليهود والنصارى؟ قال: «فمن؟». أخرجاه^(٥)، وهذا سياق مسلم.

قوله: «سَنَن» بفتح المهملة، أي طريق من كان قبلكم، قال المهلب: «الفتح أولى»، قوله: «حذو القذة بالقذة» بنصب «حذو» على المصدر و(القُذَّة) بضم القاف واحدة القذذ^(٦) وهو ريش السهم، أي: لتبعن طريقهم في كل ما فعلوه، وتشبهوهم في ذلك كما تشبه قذة السهم القذة الأخرى. وبهذا تظهر مناسبة الآيات للترجمة وقد وقع كما أخبر، وهو عَلِمَ من أعلام النبوة، قوله: «حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه»^(٥) وفي حديث آخر: «حتى لو كان فيهم من يأتي أمه علانية لكان في أمتي من يفعل ذلك»^(٧). أراد ﷺ أن أمته لا تدع شيئاً مما كان

= «معجم القراءات» (٢/ ٣٠١ - ٣١١).

(١) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «الطرق الأخرى»!

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (٥/ ٢٧٣ - ٢٧٥) بتصرف.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) انظر: «فتح المجيد» (١/ ٤٣٩، ٤٤٢) بتصرف.

(٥) سبق تخريجه. (٦) في مطبوع «الفتح»: «القذاذ».

(٧) قطعة من حديث أخرجه الترمذي (٢٦٤١)، والحاكم (١/ ١٢٨)، والعقيلي (٢/ ٢٦٢)،

وابن نصر المروزي في «السنة» رقم (٦٢)، وابن وضاح في «البدع» رقم (٢٧٠)،

والآجري في «الشرعية» (ص ١٥ - ١٦)، و«الأربعين» رقم (٣)، والتميمي في «الحجة» رقم =

يفعله اليهود والنصارى إلا فعلته كله لا تترك منه شيئاً، ولهذا قال سفيان بن عيينة: «من فسد من علمائنا ففيه شبه من اليهود، ومن فسد من عبّادنا ففيه شبه من النصارى»^(١).

قلت: فما أكثر الفريقين، لكن من رحمة الله تعالى ونعمته أن جعل هذه الأمة لا تجتمع على ضلالة كما في حديث ثوبان الآتي قريباً، قوله: «قالوا: يا رسول الله اليهود والنصارى؟ قال: فمن؟» هو برفع (اليهود) خبر مبتدأ محذوف، أي: أهم اليهود والنصارى الذي نتبع سننهم؟ ويجوز النصب بفعل محذوف، تقديره: تعني اليهود^(٢)؟ قوله: «قال: فمن؟» استفهام إنكاري، أي: فمن هم غير أولئك؟^(٣).

الثالث عشر: قوله: «ولمسلم عن ثوبان أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقتها ومغاريها، وإن أمتي سيبلى ملكها ما زوى لي منها، وأعطيت الكنزين، الأحمر والأبيض. وإنني سألت ربي لأمتي أن لا يهلكها بسنة بعامة وأن لا يسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم، وإن ربي قال: يا محمد إذا قضيت قضاء لا يرد، وإنني أعطيتك لأمتك أن لا أهلكها بسنة بعامة، وأن لا أسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم، فيستبيح بيضتهم، ولو اجتمع عليهم من بأقطارها حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً ويسبي بعضهم بعضاً»، ورواه البرقاني في «صحيحه»، وزاد: «وإنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين، وإذا وقع عليهم السيف لم يرفع إلى يوم القيامة، ولا تقوم الساعة حتى يلحق حي من أمتي بالمشركين، وحتى تعبد فنام من أمتي الأوثان، وإنه سيكون في أمتي كذابون ثلاثون كلهم يزعم أنه نبي، وأنا خاتم النبيين لا نبي بعدي، ولا تزال طائفة من أمتي على الحق

= (١٦، ١٧)، واللالكائي في «السنة» رقم (١٤٧)، وابن بطة في «الإبانة» (٢٦٥/١)، وابن الجوزي في «تلييس إبليس» (ص ١٦) من حديث عبد الله بن عمرو، ومن حديث أخرجه الدولابي في «الكنى» (٣٠/٢)، والحاكم (٤٥٥/٤) من حديث ابن عباس، هو بهما - إن شاء الله تعالى - حسن. وحسنه شيخنا الألباني. انظر: «الصحيح» تحت (١٣٤٨) ونبه على أنه وقع محرراً في «المستدرک» في حديث ابن عباس «أمراته» بدل «أمه»، فلتنتبه لذلك، تولى الله هداك.

(١) نقل هذا الأثر ابن تيمية في «الافتضاء» (٦٧/١).

(٢) غير موجود في مطبوع «الفتح».

(٣) انظر: «فتح المجيد» (٤٤٣/١ - ٤٤٤) بتصرف.

منصورة، لا يضرهم من خذلهم، ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله تبارك وتعالى»^(١). هذا الحديث رواه أبو داود في «سننه» وابن ماجه بالزيادة التي ذكرها المصنف. قوله: «عن ثوبان» هو مولى النبي ﷺ، صَحَّبه ولازمه ونزل بعده الشام، ومات بحمص سنة أربع وخمسين، قوله: «زوى لي الأرض»، قال التوريشتي: «زَوَيْتُ الشيء: جمعته وقبضته، يريد تقريب البعيد منها حتى اطلع عليه اطلاعه على القريب»^(٢). وحاصله أنه طوى الأرض وجعلها مجموعة كهيئة كف في مرآة ينظره، قال الطيبي: «أي: جمعها لي حتى أبصرت ما تملكه أمتي من أقصى المشارق والمغارب منها»^(٣).

قوله: «وإن أمتي سيبليخ ملكها ما زوى لي منها»، قال القرطبي: «هذا الخبر وجد مخبره كما قال ﷺ، وكان ذلك من دلائل نبوته وذلك أن مُلك أمته اتسع إلى أن بلغ أقصى طنجة [بالتون والجيم]^(٤)، الذي هو منتهى عمارة المغرب، إلى أقصى المشرق مما [هو]^(٥) وراء خراسان والنهر وكثير من بلاد^(٦) السند والهند والصغد، ولم يتسع ذلك الاتساع من جهة الجنوب والشمال، ولذلك لم يذكر ﷺ أنه أريه ولا أخبر أن ملك أمته يبلغه»^(٧).

قال محمد تقي الدين: هذا خطأ، فإن طنجة هي أول عمارة المغرب، وآخرها نهاية شنقيط عند حدود السنيغال، وكيف يرتكبه القرطبي ويلده قرطبة طال ما كان مع المغرب دولة واحدة وليس بين قرطبة وطنجة إلا نحو مائتي ميل. وكان القرطبي متبحراً في علوم كثيرة، ولكنه في تخطيط البلدان أبدى غاية الضعف، والكمال لله. اهـ.

(١) سبق تخريجه قريباً.

(٢) انظر: «الفخر المتوالي فيمن انتسب للنبي ﷺ من الخدم والموالي» للسخاوي (رقم ٣٢ - بتحقيقي).

(٣) وهو في «شرح الطيبي على المشكاة» (١١/٣٦٣٧).

(٤) «شرح الطيبي على المشكاة» (١١/٣٦٣٧).

(٥) غير موجود في مطبوع «المفهم»، وهو كذلك في مطبوع «الفتح».

(٦) غير موجود في مطبوع «المفهم».

(٧) من مطبوع «المفهم»، وسقط من «فتح المجيد» والأصل.

(٨) انظر: «المفهم» (٧/٢١٧).

(٩) انظر: «فتح المجيد» (١/٤٤٤ - ٤٤٦).

قوله: «زوى لي منها» يحتمل أن يكون مبنياً للفاعل، وأن يكون مبنياً للمفعول.

قوله: «وأعطيت الكنزين، الأحمر والأبيض»، قال القرطبي: «يعني به كنز كسرى وهو ملك الفرس، وكنز^(١) قيصر وهو ملك الروم، وقصورهما وبلادهما [وقد قال ﷺ]^(٢): «والذي نفسي بيده لئن تفنن كنوزهما في سبيل الله»^(٣) وعبر بالأحمر عن كنز قيصر لأن الغالب عندهم كان الذهب، وبالأبيض عن كنز كسرى لأن الغالب عندهم كان الجواهر والفضة، [ووجد ذلك في خلافة عمر]^(٤)، فإنه سيق إليه تاج كسرى وحليته وما كان في بيوت أمواله، وجميع ما حوته مملكته على سعتها وعظمتها، وكذلك فعل الله بقيصر»^(٥). والأبيض والأحمر، منصوبان على البدل.

قوله: «وإني سألت ربي لأمتي أن لا يهلكها بسنة بعامة» هكذا ثبت في أصل المصنف رحمه الله «بعامة» بالباء، وهي رواية صحيحة في «صحيح مسلم» وفي بعضها بحذفها، قال القرطبي: «وكانها زائدة؛ لأن «عامّة» صفة السنة»^(٦)، والسنة^(٧) والجذب^(٨) الذي يكون به الهلاك العام، ويسمى الجذب والقحط: سنة، ويجمع على سنين، كما قال [تعالى]: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٠]، أي: الجذب^(٩) المتوالي^(١٠).

قوله: «من سوى أنفسهم» أي: من غيرهم من الكفار من إهلاك بعضهم بعضاً وسبي بعضهم بعضاً، كما هو مبسوط في التاريخ فيما قبل، وإلى^(١١) زماننا

(١) في مطبوع «المفهم»: «وذلك».

(٢) في مطبوع «المفهم»: «وقد دلّ على ذلك قوله ﷺ في الحديث الآخر حين أخبر عن هلاكهما:».

(٣) أخرجه البخاري (٦٦٢٩) ومسلم (٢٩١٩) من حديث جابر بن سمرة، وهو عند البخاري (٦٦٣٠) ومسلم (٢٩١٨) من حديث أبي هريرة.

(٤) في مطبوع «المفهم»: «وقد ظهر ذلك ووجد كذلك في زمان الفتوح في خلافة عمر رضي الله عنه».

(٥) انظر: «المفهم» (٢١٧/٧).

(٦) في مطبوع «المفهم»: «صفة لسنة، فكأنه قال: بسنة عامّة».

(٧) في مطبوع «المفهم»: «ويعني بالسنة».

(٨) بعدها في مطبوع «المفهم»: «العام».

(٩) في مطبوع «المفهم»: «بالجذب».

(١٠) انظر: «المفهم» (١٢٧/٧).

(١١) كذا في مطبوع «الفتح»، وبدلها في الأصل: «وفي»!

هذا، نسأل الله العفو والعافية، قوله: «فيستبيح بيضتهم»، قال الجوهري: «بيضته كل شيء: حوزته، وبيضته القوم: ساحتهم»^(١) وعلى هذا فيكون معنى الحديث: إن الله تعالى لا يسلط العدو على كافة المسلمين حتى يستبيح جميع ما حازوه من البلاد والأرض، ولو اجتمع عليهم من بأقطار الأرض وهي جوانبها، وقيل: يبيضتهم معظمهم وجماعتهم وإن قَلَّوا.

قوله: «حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً»، والظاهر أن «حتى» عاطفة أو تكون لانتها الغاية.

قال محمد تقي الدين: بل هي لانتها الغاية يقيناً، وقد سلط^(٢) بعضهم على بعض كما هو الواقع وذلك لكثرة اختلافهم وتفرقهم. قوله: «وإن ربي قال: يا محمد إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد» قال بعضهم: «إذا حكمتُ حكماً مُبرماً نافذاً فإنه لا يُردُّ بشيء، ولا يقدرُ أحد على رده» كما قال النبي ﷺ: «ولا راد لما قضيت»^(٣).

قوله: «رواه البرقاني في «صحيحه»»، هو الحافظ الكبير أبو بكر أحمد بن محمد الخوارزمي الشافعي، ولد سنة ست وثلاثين وثلاثمائة ومات سنة خمس وعشرين وأربعمائة، قال الخطيب: «كان ثباً ورعاً»^(٤) لم نَر في شيوخننا أثبت منه^(٥)، عارفاً بالفقه، كثير التصانيف صنف^(٦) «مسنداً» ضمنه ما اشتمل عليه «الصحيحان»، وجمع حديث الثوري وحديث شعبة وطائفة^(٧)، وهذا الحديث رواه أبو داود بتمامه^(٨).

(١) انظر: «الصحيح» (٣/١٠٦٨). (٢) في مطبوع «الفتح»: «يسلط».

(٣) قطعة من حديث أصله عند البخاري (٨٤٤، ١٤٧٧)، ومسلم (٥٩٣) عن المغيرة دون هذه اللفظة، وأخرجه من حديثه بها: عبد الرزاق (١٩٦٣٨)، وعبد بن حميد (٣٠٩٨)، وابن خزيمة (٧٤٢)، والطبراني في «الدعاء» (٦٨٦) وسنده صحيح، وانظر: «الترغيب في الدعاء» للمقدسي (٨٠)، و«العلل» للدارقطني (٧/١٢١ - ١٢٤).

(٤) بعدها عند الخطيب: «متقناً مثباً فهماً».

(٥) بعدها عند الخطيب: «حافظاً للقرآن».

(٦) عند الخطيب: «... بالفقه، له حظ من علم العربية، كثير الحديث، حسن الفهم له، والبصيرة فيه، وصنّف...».

(٧) انظر: «تاريخ بغداد» (٦/٢٧، ط. دار الغرب).

(٨) سبق بيان ذلك، والله الحمد والمِنَّة.

وروى في «سننه» أيضاً عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يتقارب الزمان وينقص العلم، وتظهر الفتن، ويلقى الشح ويكثر الهرج» قيل: يا رسول الله ما هو؟ قال: «القتل القتل»^(١).

قوله^(٢): «إنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين»، أي: الأمراء والعلماء والعباد فيحكمون فيهم بغير علم فيضلونهم^(٣) كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب: ٦٧]، وكان بعض هؤلاء يقول لأصحابه: من كان له حاجة فليأت إلى قبري فإني أقضيها له، ولا خير في رجل يحجبه عن أصحابه ذراع من تراب ونحو^(٤) هذا، وهذا هو الضلال البعيد، يدعو أصحابه إلى أن يعبدوه من دون الله، ويسألوه ما لا يقدر عليه من قضاء حاجاتهم وتفريج كرباتهم، ومن هذا الضرب من يدعي أنه يصل مع الله إلى حال تسقط [فيها عنه]^(٥) التكاليف، ويدعي^(٦) أن الأولياء يُدعون أو يستغاث بهم في حياتهم ومماتهم، وإنهم ينفعون ويضرون ويدبرون الأمور على سبيل الكرامة، وأنه يطلع على اللوح المحفوظ ويعلم أسرار الناس وما في ضمائرهم أو يجوز بناء المساجد على قبور الأولياء^(٧) والصالحين وإيقادها بالسرج، ونحو ذلك من الغلو والإفراط والعبادة لغير الله، فما أكثر هذا الهديان والكفر والمحاداة لله ولكتابه ولرسوله.

[وعن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ أَخَوْفَ مَا أَخَافُ عَلَى أَمْتِي الأئمة المضلون»^(٨)، رواه أبو داود الطيالسي. وعن ثوبان أن رسول الله ﷺ قال: «إنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين»^(٩)، رواه الترمذي^(١٠)، وقد بين الله

(١) أخرجه أبو داود (٤٢٥٥)، وهو عند البخاري (٢٠٦١)، ومسلم (١٥٧).

(٢) كذا في مطبوع «الفتح»، وفي الأصل: «قال».

(٣) في مطبوع «الفتح»: «يفضلونهم». (٤) في مطبوع «الفتح»: «أو نحو».

(٥) بدلها في مطبوع «الفتح»: «عنهم». (٦) في مطبوع «الفتح»: «أو يدعي».

(٧) كذا في مطبوع «الفتح»، وفي الأصل: «الأنبياء».

(٨) أخرجه الطيالسي (٩٧٥ أو ١٠٦٨، ط. هجر)، وأحمد (٤٤١/٦)، والدارمي (٢١١) بإسناد فيه مجهول، والحديث صحيح له شواهد. انظر: «الصحيحة» (١٥٨٢)، والحديث الآتي.

(٩) أخرجه الترمذي (٢٢٢٩)، وأحمد (٢٧٨/٥، ٢٨٤) والدارمي (٢٠٩، ٢٧٥٢) والقضاعي (١١٦٦). وإسناده صحيح.

(١٠) غير موجود في مطبوع «الفتح».

تعالى في كتابه صراطه المستقيم، الذي هو سبيل المؤمنين، فكل من أحدث حدثاً ليس في كتاب الله ولا في سنة رسوله ﷺ، فهو ملعون وحدثه مردود، كما قال ﷺ: «من أحدث حدثاً أو آوى محدثاً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه يوم القيامة صرفاً ولا عدلاً»^(١)، وقال: «من أحدث في أمرنا ما ليس منه فهو رد»^(٢)، وقال: «كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة»^(٣) وهذه أحاديث صحيحة.

ومدار أصول الدين وأحكامه على هذه الأحاديث ونحوها، وقد بين الله تعالى هذا الأصل في مواضع من كتابه العزيز، كما قال تعالى: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾^(٤)، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(٥) [الجانبية: ١٨]، ونظائرها في القرآن كثيرة.

وعن زياد بن حدير قال: قال لي عمر: «هل تعرف ما يهدم الإسلام؟ قلت: لا، قال: «يهدمه زلة العالم وجدال المنافق بالكتاب وحكم الأئمة المضلين»^(٦). رواه الدارمي.

- (١) أخرجه البخاري (١٨٧٠)، ومسلم (١٣٧١) من حديث أبي هريرة.
- (٢) أخرجه البخاري (٢٦٩٧)، ومسلم (١٧١٨) من حديث عائشة.
- (٣) أخرجه أبو داود (٤٦٠٧)، وأحمد (١٢٦/٤)، والمروزي في «السنة» رقم (٦٩ - ٧٢)، والحاكم (٩٥/١) وهو قطعة من آخر حديث العرباض بن سارية، وهو صحيح، صححه جماعة من الحفاظ، وسيأتي بيان ذلك مع تخريج أوسع في (١٠٦/٣ - ١٠٧).
- (٤) أخرجه الدارمي في «السنن» رقم (٢٢٠)، وابن المبارك في «الزهد» رقم (١٤٧٥)، والفريابي في «صفة المنافق» (ص ٧١)، وأبو نعيم في «الحلية» (١٩٦/٤)، وابن عبد البر في «الجامع» رقم (١٨٦٧، ١٨٦٩، ١٨٧٠)، والآجري في «تحريم النرد والشطرنج» رقم (٤٨)، والخطيب في «الفقيه والمتفقه» (٢٣٤/١)، والبيهقي في «المدخل» رقم (٨٣٣)، واللالكائي في «السنة» رقم (٦٤١، ٦٤٣) من طرق عن عمر بعضها إسناده صحيح.

قال ابن كثير في «مسند الفاروق» (٦٦٢/٢)، بعد أن ساق طريقته: «فهذه طرق يشدّ القوي منها الضعيف، فهي صحيحة من قول عمر رضي الله عنه، وفي رفع الحديث نظر، والله أعلم». والأثر معزو لآدم بن أبي إياس في «العلم»، والعسكري في «المواعظ»، والبخاري والإسماعيلي ونصر المقدسي في «الحجة»، كما في «كنز العمال» رقم (٢٩٤٠٥)، و«مسند الفاروق» (٦٦٠/٢ - ٦٦١).

بالمشركين»^(١)، والمعنى: إنهم^(٢) يكونون معهم ويرتدون برغبتهم عن أهل الإسلام ويلحقون^(٣) بأهل الشرك.

قوله: «حتى تعبد فثام من أمتي الأوثان» (الفثام) [بكسر الفاء]^(٤) مهموز: الجماعات الكثيرة، قاله أبو السعادات^(٥) وفي رواية أبي داود^(٦): «وحتى تعبد قبائل من أمتي الأوثان» وهذا هو شاهد الترجمة، ففيه الرد على من قال بخلافه من عباد القبور الجاحدين لما يقع منهم من الشرك بالله بعبادتهم الأوثان، وذلك لجهلهم بحقيقة التوحيد وما يناقضه من الشرك والتنديد.

فالتوحيد هو أعظم مطلوب والشرك هو أعظم الذنوب، وفي معنى هذا الحديث: ما في «الصحيحين» عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: «لا تقوم الساعة حتى تضطرب ألباتُ نساء دؤس على ذي الخلصة» قال: وذو الخلصة طاغية دوس التي كانوا يعبدون في الجاهلية^(٧).

وروى ابن حبان عن معمر قال: «إن عليه الآن بيتاً مبنياً مغلقاً»^(٨)، قال العلامة ابن القيم^(٩) رحمته الله في قصة هدم اللات، لما أسلمت ثقيف: «فيه أنه لا يجوز إبقاء مواضع الشرك والطواغيت بعد القدرة على هدمها وإبطالها يوماً واحداً، وكذلك»^(١٠) حكم المشاهد التي بنيت على القبور والتي اتخذت أوثاناً تعبد من دون الله، والأحجار التي تقصد للتبرك^(١١) والنذر، لا يجوز إبقاء شيء منها على وجه الأرض مع القدرة على إزالتها وكثير منها بمنزلة اللات والعزى ومناة، أو أعظم^(١٢) شركاً عندها وبها، فاتبع هؤلاء سنن من كان قبلهم وسلكوا سبيلهم حذو القذة بالقذة، وغلب الشرك على أكثر النفوس، لظهور الجهل وخفاء العلم وصار^(١٣) المعروف منكراً والمنكر معروفاً، والسنة بدعة والبدعة سنة،

(١) سبق تخريجه.

(٢) من مطبوع «الفتح» وسقط من الأصل.

(٣) في مطبوع «الفتح»: «ولحقهم».

(٤) غير موجود في مطبوع: «الفتح».

(٥) انظر: «النهاية» لابن الأثير (٤٠٦/٣).

(٦) سبق تخريجه.

(٧) أخرجه البخاري (٧١١٦)، ومسلم (٢٩٠٦).

(٨) أخرجه ابن حبان (٢٦٤/٨)، وعبد الرزاق في المصنف رقم (٢٠٧٩٥) وإسناده صحيح.

(٩) انظر: «زاد المعاد» (٥٠٦/٣).

(١٠) كذا في مطبوع «الفتح»، وفي الأصل: «وكذا».

(١١) في مطبوع «الفتح»: «لشرك».

(١٢) في مطبوع «الفتح»: «وأعظم».

(١٣) في مطبوع «الفتح»: «فصار».

وطمست الأعلام واشتدت غربة الإسلام، وقلَّ العلماء وغلب السفهاء وتفاقم الأمر واشتد البأس ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ [الروم: ٤١]، ولكن لا تزال طائفة من العصاة المحمدية بالحق قائمين، ولأهل الشرك والبدع مجاهدين، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين^(١).

قلت: فإذا كان هذا في القرن السابع وقبله فما بعده أعظم فساداً كما هو الواقع، وقال الحافظ: «وقد ظهر مصداق ذلك في زمن رسول الله ﷺ^(٢) فخرج مسيلمة الكذاب باليمامة، والأسود العنسي باليمن، وفي خلافة أبي بكر طليحة بن خويلد في بني أسد بن خزيمة، وسجاح في بني تميم^(٣)، وقتل الأسود قبل أن يموت النبي ﷺ وقتل مسيلمة في خلافة أبي بكر [قتله وحشي قاتل حمزة يوم أحد، وشاركه في قتل مسيلمة يوم اليمامة رجل من الأنصار]^(٤)، وتاب طليحة ومات على الإسلام في زمن عمر رضي الله عنه، ونقل أن سجاح تابت أيضاً، ثم خرج المختار بن أبي عبيد الثقفي وغلب على الكوفة في أول خلافة ابن الزبير وأظهر محبة أهل البيت ودعا الناس إلى طلب قتلة الحسين فتتبعهم فقتل كثيراً ممن باشر ذلك، وأعان عليه فأحبه الناس، ثم ادعى النبوة وزعم أن جبريل عليه السلام يأتيه، ومنهم الحارث الكذاب^(٥)، خرج في خلافة عبد الملك بن مروان فقتل وخرج في خلافة بني العباس جماعة، وليس المراد بالحديث من ادعى النبوة مطلقاً، فإنهم لا يحصون كثرة لكون غالبهم تنشأ دعوته^(٦) عن جنون أو سوداء، وإنما المراد من قامت له شوكة وبدا له شبهة كمن وصفنا، وقد أهلك الله تعالى من وقع له^(٧) منهم ذلك، وبقي منهم من يلحقه بأصحابه وآخرهم الدجال الأكبر^(٨).

قوله: «وأنا خاتم النبيين»، قال الحسن، الخاتم^(٩): الذي ختم به، يعني^(٨):

(١) بعدها في مطبوع «الفتح»: «انتهى ملخصاً»، أي: من كلام ابن القيم في «الزاد».

(٢) في مطبوع «الفتح»: «النبي».

(٣) انظر أخبار هؤلاء - بالترتيب - في: «المتنبئون نشأتهم أصولهم نهايتهم» (٢٨، ٢٢، ٢٦، ٣٢)، و«عقيدة ختم النبوة» (١٧٥، ١٧٤، ١٧٥، ١٨١).

(٤) غير موجود في مطبوع «الفتح».

(٥) هو ابن سعيد، وكان مولى لابن الجلاس. انظر أخباره في: «تلييس إبليس» (٤٢٩)، «البداية والنهاية» (٢٨/٩)، «المتنبئون» (١٣٧)، «عقيدة ختم النبوة المحمدية» (٢٢٨).

(٦) انظر: «فتح الباري» (٦/٦١٧). (٧) في مطبوع «الفتح»: «خاتم».

(٨) في مطبوع «الفتح»: «أي».

أنه آخر النبيين كما قال تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب: ٤٠] وإنما ينزل عيسى ابن مريم في آخر الزمان حاكماً بشريعة محمد ﷺ مصلياً إلى قبلته، فهو كأحد أمته، بل هو أفضل هذه الأمة، قال النبي ﷺ: «والذي نفسي بيده لينزلن فيكم ابن مريم حكماً مقسطاً، فليُكسِرَنَّ الصليب، وليقتلَنَّ الخنزير، وليضعن الجزية»^(١).

قوله: «ولا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورة لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم»، قال يزيد بن هارون وأحمد بن حنبل: «إن لم يكونوا أهل الحديث فلا أدري من هم»^(٢).

قال ابن المبارك وعلي بن المديني، وأحمد بن سنان، والبخاري وغيرهم: «إنهم أهل الحديث»^(٣).

قال النووي: «يجوز أن تكون الطائفة جماعة»^(٤) متعددة من أنواع المؤمنين، ما بين شجاع وبصير بالحرب، وفقه ومحدث ومفسر، وقائم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وزاهد وعابد، ولا يلزم أن يكونوا مجتمعين في بلد واحد، بل يجوز اجتماعهم في قطر واحد وافتراقهم في أقطار الأرض، ويجوز أن يجتمعوا في البلد الواحد وأن يكونوا في بعض دون بعض منه، ويجوز إخلاء الأرض من بعضهم أولاً فثانياً، إلى أن لا يبقى فرقة واحدة ببلد واحد، فإذا انقرضوا جاء أمر الله^(٥). اهـ. ملخصاً مع زيادة فيه، قاله الحافظ^(٦).

(١) أخرجه البخاري (٣٤٤٨)، ومسلم (١٥٥) من حديث أبي هريرة.

(٢) أما رواية يزيد فأخرجها الراهرمزي في «المحدث الفاضل» رقم (٢٧)، والخطيب في «شرف أصحاب الحديث» رقم (٤٦).

وأما رواية أحمد فأخرجها الخطيب في «شرف أصحاب الحديث» رقم (٤٨)، والحاكم في «المعرفة» (٢)، وابن الجوزي في «المناقب» (٢٣٤)، وإسناده صحيح، كما قال الحافظ في «فتح الباري» (٢٩٣/١٣).

(٣) أخرج رواياتهم - على الترتيب - الخطيب في «شرف أصحاب الحديث» رقم (٤٧)، (٥٠)، (٤٩)، (٥١).

(٤) من مطبوع «الفتح»، وسقط من الأصل.

(٥) انظر: «شرح النووي على صحيح مسلم» (٩٧/١٣ - ٩٨ - ط. قرطبة).

(٦) انظر: «فتح الباري» (٢٩٥/١٣).

قال القرطبي: «وفيه دليل على أن الإجماع حجة، لأن^(١) الأمة إذا اجتمعت فقد دخلت فيهم الطائفة المنصورة»^(٢)»^(٣).

قال المصنف رحمه الله: وفيه الآية العظيمة، أنهم مع قتلهم لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم، وفيه البشارة^(٤) بأن الحق لا يزول بالكلفة، قلت: واحتج به الإمام أحمد^(٥) على أن الاجتهاد لا ينقطع ما دامت هذه الطائفة موجودة^(٦).

هذا ما قصدت إثباته من كتاب «التوحيد» و«شرح»ه، رحمة الله على من ألفهما والحمد لله رب العالمين.

(١) في مطبوع «المفهم»: «وفي هذا الحديث دلالة على صحة الإجماع لأن...».

(٢) في مطبوع «المفهم»: «هذه العصاة المختصة».

(٣) انظر: «المفهم» (٣/٧٦٤).

(٤) في مطبوع «فتح المجيد»: «والبشارة» دون «فيه».

(٥) من مطبوع «الفتح» وسقط من الأصل.

(٦) انظر: «فتح المجيد» (١/٤٤٨ - ٤٥٩) بتصرف.

الموضوعات والمحتويات

الصفحة

الموضوع

سورة الكهف

- ٥ • الباب الأول: تفسير قوله تعالى: ﴿تَحَنَّنْ نَقْصُ عَلَيْكَ نَبَاهُ﴾ ٥
- ٦ بعثة قريش أحبار اليهود في المدينة يطلبون منهم سؤال النبي ﷺ عن أشياء امتحاناً (ت) ٦
- ٧ (تنبيهات مهمات) حول هذه القصة (ت) ٧
- ١٠ حديث: «يوشك أن يكون خير مال أحدكم غنماً يتبع بها»، إلخ ١٠
- ١٠ العزلة بحق من تكون؟ وشروطها وآدابها (ت) ١٠
- ١٢ • الباب الثاني: تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَتْلُ مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ﴾ إلخ ١٢
- ١٣ نهى الله رسوله عن طرد الفقراء ١٣
- ١٥ فصل: تضمنت هذه الآيات أموراً ١٥
- ١٦ • الباب الثالث: تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلًا زَيْطَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا﴾ إلخ ١٦
- ١٨ «لا حول ولا قوة إلا بالله كثر من كنوز الجنة» ١٨
- ١٨ من أعجبه شيء من حاله أو ماله أو ولده فليقل: (ما شاء الله) والتعليق عليه ... ١٨
- ١٩ زيادة بيان من كلام المؤلف ١٩
- ٢٠ • الباب الرابع: تفسير قوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَجَلَّوْا﴾ إلخ ٢٠
- حديث أبي هريرة: «ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة...» إلخ ٢٢
- ٢٢ زيادة بيان من كلام المؤلف ٢٢
- ٢٢ الرد على أصحاب الطرائق من وجوه ٢٢
- ٢٣ تبرئة العلامة الهلالي للتجاني والنظر فيه (ت) ٢٣
- ٢٥ • الباب الخامس: تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ﴾ إلخ ٢٥
- ٢٥ أثر عبادة: «من يعمل بإخلاص ويحب مدح الناس» ٢٥

سورة مريم

- ٢٦ • الباب الأول: تفسير قوله: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ إلخ ٢٦
- ٢٧ زيادة بيان من كلام المؤلف ٢٧

- نقل العلامة الهلالي نصوصاً من الأناجيل في إثبات عبودية عيسى ابن مريم ﷺ (ت) ٢٧
- عناية العلامة الهلالي بترجمات التوراة والإنجيل (ت) ٢٧
- الباب الثاني: تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾ ٢٩
- حديث: «يوسف نبي الله ابن نبي الله... إلخ والكريم ابن الكريم»... إلخ ٣٢
- فصل من كلام المؤلف: في هذا الكلام فوائد ٣٢
- الباب الثالث: تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَهَةً﴾... إلخ ٣٦
- زيادة بيان من كلام المؤلف ٣٦

سورة طه

- الباب الأول: تفسير قوله: ﴿طه﴾ ٣٧
- حديث: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين» ٣٧
- الحديث القدسي: «إني لم أجعل علمي وحكمتي»... إلخ ٣٨
- حديث: «إن لله تسعة وتسعين اسماً...» إلخ ٣٩
- إدراج الأسماء التي في حديث: «إن لله تسعة وتسعين اسماً» (ت) ٣٩
- حديث: «اللهم إني عبدك وابن عبدك...» إلخ ٤٦
- فصل: أسماء الله توقيفية... وفي هذا الكلام فوائد ٤٦
- حديث: «عجباً للمؤمن» ٤٧
- تفصيل في الاستنباط من كلام الفقيه وتذييل على جعل الفرع أصلاً في القياس (ت) ٤٨
- الباب الثاني: تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَنَا آخَرُكَ فَاسْتَعِمْ لِمَا يُوحَى﴾ ٤٩
- دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب (ت) ٤٩
- الباب الثالث: تفسير قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ جَنَّاتٍ جَدًّا﴾... إلخ ٥٠
- تنبيه الإمام القرطبي على الحال الذي يفعله بعض المبتدعة الطغام في الذكر (ت) ٥١

سورة الأنبياء

- الباب الأول: تفسير قوله تعالى: ﴿أَرِ أَتَّخِذُوا إِلَهَةً مِنْ الْأَرْضِ هُمْ يُبْشِرُونَ﴾ ٥٣
- فصل: نفهم من هذا الكلام أموراً ٥٥
- تعليق مطول ومهم على مقولة «صوابه خطأ وخطؤه كفر» (ت) ٥٦
- الباب الثاني: تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَكْفُرْكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ﴾ ٥٩
- فصل: في قصة عمار الصائغ عن المشركين في بلده يجعلون للدجاجلة خراجاً سنوياً ٦٠
- الباب الثالث: تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ﴾... إلخ ٦٢

- ٦٤ أثر ابن عباس: «ما بعث الله عالماً إلا شاباً»... إلخ
- ٦٥ حديث: «إن إبراهيم لم يكذب غير ثلاث»
- ٦٦ أثر ابن عباس: «حسبنا الله ونعم الوكيل»
- ٦٧ فصل: في قصة إبراهيم فوائده
- ٦٧ كلمة المنفلوطي في المقارنة بين شرك الأقدمين والمتأخرين (ت)
- ٦٩ • الباب الرابع: تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ﴾... إلخ
- ٧٠ حديث: «أشد الناس بلاء»
- ٧٠ حديث: «يتلى الرجل على قدر دينه»... إلخ
- ٧٠ زيادة بيان من كلام المؤلف
- ٧٠ • الباب الخامس: تفسير قوله تعالى: ﴿وَدَا الْثَوْنِ إِذْ ذَهَبَ مُغْلُظًا﴾... إلخ
- ٧٢ حديث: «دعوة ذي النون»
- ٧٣ فصل: في ذكر دعوة أيوب... تعليم من الله لنا كيف ندعوه
- الباب السادس: تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾... إلخ
- ٧٣
- ٧٦ حديث: «يجمع الله الناس يوم القيامة»
- الباب السابع: تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحِي إِلَيَّ أَنَّكُمْ إِلٰهُكُمْ إِلٰهٌ وَاحِدٌ﴾... إلخ
- ٧٦
- ٧٧ فصل: هذا الإسلام الذي طلب منهم هو الإسلام ظاهراً وباطناً

سورة الحج

- الباب الأول: تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَاتَ الْبَيْتِ﴾... إلخ
- ٧٨ حديث: «أول من بنى البيت»
- ٧٩ فصل: في هذا الكلام فوائده
- الباب الثاني: تفسير قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ حُرْمَتِ اللَّهِ﴾... إلخ
- ٨٠ فصل: ... لعظم شأن التوحيد عند الله، ذكره في هذه الآيات مرتين
- الباب الثالث: تفسير قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَتِّلُونَ بِأَنفُسِهِمْ ظُلُمًا﴾... إلخ
- ٨١ فصل: وكذلك المشركون في هذا الزمان إذا قيل لهم ادعوا الله وحده
- ٨٣ تحقيق معنى البيع والصلوات
- ٨٣ ومضة: في معرفة الهلالي بلغات متعددة (ت)
- الباب الرابع: تفسير قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ﴾... إلخ
- ٨٤ فصل: ... إن كل من دعا غير الله فإنه مبطل ضال
- ٨٥

- الباب الخامس: تفسير قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَرْزُقْ بِهِ سُلْطَانًا...﴾ إلخ ٨٥
- حديث: «ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي فليخلقوا...» إلخ ٨٦
- فصل: في هذا الكلام فوائد ٨٧
- لفتة علمية في كيفية امتصاص الذباب للطعام! ٨٨

سورة المؤمنون

- الباب الأول: تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ...﴾ إلخ ٩٠
- فصل: حجة المشركين في هذا الزمان هي حجة أسلافهم ٩١
- الباب الثاني: تفسير قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ إلخ ٩١
- سنة الله مع رسله ومن اتبعهم أن ينصرهم ويجعل لهم العاقبة ٩١
- الباب الثالث: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً...﴾ إلخ ٩١
- دين الأنبياء في الأصول واحد ٩٢
- اغترار المشركين بكثرة الأموال والأولاد ٩٢
- حديث ابن مسعود: «إن الله قسم بينكم أخلاقكم» وتصويب وقفه ٩٢
- قول الحسن البصري: إن المؤمن جمع إحساناً وشفقة ٩٣
- سؤال عائشة عن تفسير ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا...﴾ ٩٣
- فصل: في هذا الكلام فوائد ٩٤
- مثل ألماني في اعتبار الخواتم ٩٤
- بيان معنى أن الله لا يمحو السيئ بالسيئ ٩٥
- تكريم النبي ﷺ لعائشة ولأبيها، وبطلان مذهب الروافض ٩٦
- قصة في بيان غلو الرافضة ٩٦
- بيان كذب الضريح المنسوب إلى الحسين في كربلاء وفي القاهرة ٩٦
- محاربة الرافضة لمن يسمى أبا بكر أو عمر أو عائشة ٩٦
- الباب الرابع: تفسير قوله تعالى: ﴿مَا أَخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ﴾ ٩٧
- فصل: ... فالنظام الواحد يدل على إله واحد، والألوهية لا توهب ٩٧
- عبادة جهال المغاربة لكل شيء يزعمون أن فيه بركة؛ حتى وصلوا إلى عبادة الحمير ٩٧
- ذكر الوثن المسمى بـ (للا حمارة) ٩٧
- الباب الخامس: تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ...﴾ إلخ ٩٨
- فصل: هاتان الآيتان معناهما واضح ٩٨
- من دعا غير الله فقد اتخذها إلهاً، والدليل على ذلك ٩٨

٩٨ اعتراض المؤلف على الحافظ ابن كثير في مسألة نحوية

سورة الفرقان

• الباب الأول: في تفسير قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ...﴾ إلخ ٩٩

حديث: «بعثت إلى الأحمر والأسود» ٩٩

فصل: قول ابن كثير: «لمن يستظل بالخضراء ويستقل بالغبراء» ١٠٠

حديث: «أعطيت خمساً» ٩٩

حديث: «ما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء» ١٠١

• الباب الثاني: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ...﴾ إلخ ١٠١

فصل: في هذا الكلام فوائد عظيمة النفع ١٠٣

• الباب الثالث: تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِذَا يَتَّخِذُونَكَ...﴾ إلخ ١٠٤

فصل: كل المشركين من عباد الشمس... كلهم سواء ١٠٥

• الباب الرابع: تفسير قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ...﴾ إلخ ١٠٥

حديث سجود سلمان للنبي ونهيه عن ذلك ١٠٦

وجوب رد النزاع بين الناس إلى النبي ﷺ ١٠٧

فصل: لقد أجاد ابن كثير في تفسير هذه الآيات ١٠٨

كلام للمؤلف في بيان فساد عقول المشركين وطلبهم المطر من الأوثان ١٠٨

• الباب الخامس: تفسير قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا...﴾ إلخ ١٠٩

حديث ابن مسعود: «أي الذنب أكبر؟» ١٠٩

حديث الترهيب من الزنا بامرأة الجار وسرقته ١١٠

سورة الشعراء

• الباب الأول: تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ...﴾ ١١١

تحدي الرسول وأتباعه الصادقين لآلهة المشركين ١١٢

حديث: «اللهم أحيينا مسلمين وأماتنا مسلمين» ١١٣

حديث شفاعة إبراهيم في أبيه وعدم قبولها ١١٤

فصل: في هذا الكلام فوائد ١١٦

التبرؤ من الشرك وأهله شرط في صحة التوحيد ١١٧

غفلة المعبودين عن عابديهم ١١٨

المشركون في هذا الزمان أغلظ كفراً من السابقين ١١٨

ذكر خروج المؤلف من الطريقة التجانية وتخويف التجانيين له ١١٨

ما ينسب إلى التجاني من تخويف من ترك طريقته ١١٩

- ١١٩ تخويف أهل تطوان له من انتقام السعيدى
- ١١٩ دواء طبيعى للربو
- ١٢٠ ضمان الدجاجة لكثير من المغفلين الجنة والرد عليهم
- ١٢٠ الباب الثانى: تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَا تَنْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾... إلخ
- ١٢١ حديث: «لا يسمع بي يهودى ولا نصرانى...» إلخ
- ١٢١ أحاديث سبب نزول: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾
- ١٢٢ فصل: نستفيد من هذا الكلام فوائد

سورة النمل

- ١٢٣ الباب الأول: تفسير قوله تعالى: ﴿إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ﴾... إلخ
- ١٢٤ فصل: النظر هنا في آيتين
- ١٢٤ كلام للمؤلف في الشمس وفوائدها
- ١٢٤ الاحتجاج على المعطلة الجاحدين
- ١٢٤ تقدير عمر الشمس تخميناً
- ١٢٥ الباب الثانى: تفسير قوله تعالى: ﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ﴾... إلخ
- ١٢٦ فصل: في اتهام ابن كثير بحشو كتابه بالإسرائيليات وردده
- ١٢٦ تبرئة «تفسير ابن كثير» من حشوه بالخرافات والإسرائيليات (ت)
- ١٢٩ الباب الثالث: تفسير قوله تعالى: ﴿قُلِ لِّلْمُحْسِنِينَ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾... إلخ
- ١٣٣ حديث: «لا تحقرن من المعروف شيئاً» الحديث وهو طويل
- ١٣٤ قصة صاحب البغل الذي اعتدى عليه سارق
- ١٣٤ توجيه كراهة السلف طلب الدعاء من الغير (ت)
- ١٣٧ حديث عائشة: «من زعم أنه يعلم ما في غد...» إلخ
- ١٣٧ قول قتادة: إنما جعل الله هذه النجوم ثلاث
- ١٣٨ فصل: في هذا الكلام فوائد
- ١٣٩ الباب الرابع: تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبِّي هَٰذَا بَلَدٌ﴾
- ١٤٠ حديث ابن عباس: «إن هذا البلد حرمه الله»
- ١٤٠ حديث أبي هريرة: «يا أيها الناس لا يغترون أحدكم بالله...» إلخ
- ١٤١ فصل من كلام المؤلف في معنى الآيات

سورة القصص

- ١٤٢ الباب الأول: تفسير قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾... إلخ
- ١٤٦ فصل من كلام المؤلف

- تقسيم المعبودين من دون الله إلى أقسام ١٤٦
- خوف السلف على أنفسهم من النفاق ١٤٧
- النهار والليل في الأراضي القطبية ١٤٨
- الباب الثاني: تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ...﴾ إلخ ١٤٨
- حديث أبي هريرة: «أصدق كلمة قالها الشاعر...» ١٤٩
- فصل من كلام المؤلف في بيان المعنى ١٥٠

سورة العنكبوت

- الباب الأول: تفسير قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ...﴾ إلخ ١٥١
- فصل: بر الوالدين أعظم الواجبات بعد توحيد الله ١٥١
- قول عبد الرحمن بن أبي بكر: إنك هدفت لي ١٥٢
- بيان خطأ الكتاب في هذا الزمان في استعمال هدف واستهدف بمعنى قصد ١٥٢
- الباب الثاني: تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ...﴾ إلخ .. ١٥٣
- فصل: ملة إبراهيم هي الحنيفية التي أمر الله نبيه باتباعها ١٥٤
- الباب الثالث: وقال: ﴿إِنَّمَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا...﴾ إلخ ١٥٤
- حديث أم هانئ: «يجمع الله الأولين والآخرين...» إلخ ١٥٥
- فصل: هذه الآية تنطبق على أصحاب المواسم الذين يجتمعون كل سنة عند الأوثان ١٥٥
- حديث: «اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد» ١٥٦
- الباب الرابع: تفسير قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ...﴾ إلخ ١٥٦
- أثر عمرو بن مرة في الأسف على عدم فهم القرآن ١٥٧
- فصل من كلام المؤلف في زيادة البيان ١٥٧
- الباب الخامس: تفسير قوله تعالى: ﴿يَعْبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا...﴾ إلخ ١٥٧
- حديث الزبير: «البلاد بلاد الله...» إلخ ١٥٨
- فصل من كلام المؤلف في زيادة البيان حتى تجيء الهجرة على الموحد ١٥٨
- كلمة مهمة في الهجرة (ت) ١٥٨

سورة الروم

- الباب الأول: تفسير قوله: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ...﴾ إلخ ١٥٩
- فصل من كلام المؤلف في زيادة البيان ١٥٩
- الباب الثاني: تفسير قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ...﴾ إلخ ١٦٠
- كلام للمؤلف في التشنيع على المشركين ١٦١
- حديث: «كل مولود يولد على الفطرة» ١٦٢

- ١٦٤ حديث الفرقة الناجية
- ١٦٤ فصل من كلام المؤلف في المثل المذكور في الآية
- ١٦٤ مناظرة بين امرأتين: موحدة ومشركة
- ١٦٥ قصة أبي عبد الله البغدادي
- ١٦٧ من البدع التفرق في الدين على مذاهب وطرائق
- الباب الثالث: في تفسير قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ...﴾ إلخ
- ١٦٧ فائدتان من كلام المؤلف
- ١٦٩

سورة لقمان

- الباب الأول: تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا قَالَ لَقَمَنُ لِأَيِّهِ...﴾ إلخ
- ١٧١ استنباط ابن عباس مدة الحمل ستة أشهر من القرآن وتخريج ذلك
- ١٧٢ حديث بعث معاذ بن جبل إلى اليمن
- ١٧٢ قصة سعد بن مالك مع أمه
- ١٧٣ فصل من كلام المؤلف
- الباب الثاني: تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ...﴾ إلخ
- ١٧٣ فصل من كلام المؤلف في معنى الوجه هنا
- ١٧٤ حديث: «قل آمنت بالله ثم استقم»
- الباب الثالث: تفسير قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ...﴾ إلخ
- ١٧٤ أثر ابن عباس في جريان الشمس
- ١٧٥ فصل من كلام المؤلف
- ١٧٧

سورة السجدة

- الباب الأول: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ...﴾ إلخ
- ١٧٨ فصل من كلام المؤلف
- ١٧٨ إنكار عقيدة وجود أولياء ينفعون ويضرون وقد منحهم الله التصرف في العالم
- ١٧٩

سورة الأحزاب

- الباب الأول: تفسير قوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ الآية
- ١٨٠ فصل من كلام المؤلف في زيادة البيان
- الباب الثاني: في تفسير قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَلْفُفُونَ رِسَالَتِي اللَّهِ...﴾ إلخ
- ١٨٠

- ١٨١ حديث أبي سعيد في تغيير المنكر
- ١٨١ فصل من كلام المؤلف في زيادة البيان
- ١٨٢ • الباب الثالث: في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ...﴾ إلخ
- ١٨٢ حديث حذيفة في رفع الأمانة
- ١٨٢ فائدة مهمة، - تتعلق بشجرة التوحيد - لابن القيم؛ قف عليها (ت)
- ١٨٣ فائدة للتسييح قبل النوم من كلام ابن تيمية، فقف عليها (ت)
- ١٨٤ حديث عبد الله بن عمرو في الأمانة
- ١٨٤ حديث: «من حلف بالأمانة فليس منا»
- ١٨٥ فوائد من كلام المؤلف تتعلق بمعنى (الأمانة)
- ١٨٥ كلمة في الشعار السلفي الإصلاحي: «التصفية والتربية» (ت)
- ١٨٦ فائدة زائدة تتعلق بحمل الأمانة (ت)
- ١٨٦ فائدة زائدة تتعلق بالتزكية والعلم (ت)

سورة سبأ

- ١٨٧ • الباب الأول: تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ...﴾ إلخ
- ١٨٨ فصل: في هاتين الآيتين إرشاد عظيم لمن نور الله قلبه
- ١٨٩ • الباب الثاني: تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ﴾
- ١٩٠ فصل من كلام المؤلف في معنى (الند)
- ١٩١ • الباب الثالث: تفسير قوله تعالى: ﴿وَرَبِّمْ نَحْشُرْهُمْ جِيعًا...﴾ إلخ
- ١٩٣ فصل من كلام المؤلف في أن عبادة غير الله كلها سواء وإن اختلفت المعبودات
- ١٩٣ سنة الله في أهل البدع والخرافة (ت)

سورة فاطر

- ١٩٤ • الباب الأول: تفسير قوله تعالى: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ...﴾ إلخ
- ١٩٥ فصل: قبل هاتين الآيتين أدلة متعددة على توحيد الربوبية
- ١٩٦ • الباب الثاني: تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ...﴾ إلخ
- ١٩٦ فصل: في هذه الآية احتجاج على المشركين في غاية البيان

سورة يس

- ١٩٨ • الباب الأول: تفسير قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى...﴾ إلخ
- ١٩٩ فصل: المؤمن ينصح دائماً لقومه حياً وميتاً
- ١٩٩ • الباب الثاني: تفسير قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَبْنَىٰ عَادَمَ...﴾ إلخ

- فصل من كلام المؤلف ٢٠٠
- الباب الثالث: تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَهًا لَعَلَّهُمْ يُصْزَرُونَ﴾ ٢٠٠
- فصل: المشركون في كل زمان ومكان يستنصرون بالهتهم ٢٠١

سورة الصافات

- الباب الأول: تفسير قوله تعالى: ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا﴾ إلخ ٢٠٣
- فصل من كلام المؤلف ٢٠٤
- الباب الثاني: تفسير قوله تعالى: ﴿لَا تَخْشَرُوا الْيَوْمَ ظُلُمًا﴾ إلخ ٢٠٤
- فصل: من أعظم المصائب التي حلت بمشركي هذا الزمان ٢٠٦
- الباب الثالث: تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ مِنْ شَيْعَتِهِ لِرِزْهِيمَ﴾ إلخ ٢٠٧
- تفسير المؤلف لهذه الآيات ٢٠٧
- فصل: المشركون في كل زمان ومكان متشابهون ٢٠٨
- الباب الرابع: تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا إِلَاسَ إِلَّا يَوْمَ الْمَوْصِلَاتِ﴾ إلخ ٢٠٩
- الباب الخامس: تفسير قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نِجًّا﴾ إلخ ٢١٠
- فصل: قول ابن كثير: «استثناء منقطع من مثبت» ٢١١

سورة ص

- الباب الأول: تفسير قوله تعالى: ﴿صَّ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ إلخ ٢١٢
- ذكر سبب نزول هذه الآيات ٢١٣
- فوائد من كلام المؤلف ٢١٥
- لا إله إلا الله سيف قاطع في يد من وحّد الله ٢١٦
- حال العرب في هذا الزمان ٢١٧

سورة الزمر

- الباب الأول: تفسير قوله تعالى: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ﴾ ٢١٨
- فصل: لم يكن عند المشركين من العرب شك في أن الله هو الخالق والرازق ٢٢٠
- الباب الثاني: تفسير قوله تعالى: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ إلخ ٢٢٠
- فصل: جمعت هذه الآية بين توحيد الربوبية وتوحيد العبادة ٢٢١
- دليل على وحدة جنس الإنسان ٢٢٢
- الباب الثالث: تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ﴾ إلخ ٢٢٢
- فصل: إن شرك المشركين في هذا الزمان أغلظ منه في الزمن الماضي ٢٢٣
- الباب الرابع: تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ﴾ إلخ ٢٢٣

- فصل: الموحدون الله المتبعون لرسول الله في كل زمان ومكان ٢٢٥
- الباب الخامس: تفسير قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَتَّبِعُ بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ ٢٢٥
- فائدتان من كلام المؤلف ٢٢٧
- الباب السادس: تفسير قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ ٢٢٧
- حديث: «من أحب أن يكون أقوى الناس» ٢٢٩
- فصل: كل من آمن بأن الله كافٍ عباده... فلا بد أن يكتفي به ٢٢٩
- الباب السابع: تفسير قوله تعالى: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ﴾ ٢٣٠
- دعاء استفتاح النبي ﷺ لصلاة الليل ٢٣١
- حديث إيداع الشهادتين عند الله ٢٣١
- دعاء نبوي يقال عند النوم ٢٣١
- فصل: ثلاث فوائد من كلام المؤلف ٢٣٢
- الباب الثامن: تفسير قوله تعالى: ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ إلخ ٢٣٣
- فصل: هذه الآية جمعت بين توحيد الربوبية وتوحيد العبادة ٢٣٤

سورة المؤمن

- الباب الأول: تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادُونَ﴾ ٢٣٥
- ما كان يقوله النبي ﷺ دبر كل صلاة ٢٣٦
- حديث: «ادعوا الله وأنتم موقنون...» إلخ ٢٣٦
- فصل من كلام المؤلف ٢٣٦
- الباب الثاني: تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَنذَرَهُمْ يَوْمَ الْأَزْفَةِ إِذْ أَلْقَوْهُ﴾ إلخ ٢٣٧
- فصل من كلام المؤلف ٢٣٨
- الباب الثالث: تفسير قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ مَا لِيَ أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجْوَى﴾ إلخ ٢٣٩
- حديث تعوذ النبي ﷺ من عذاب القبر ٢٤٠
- حديث: «إن أحذركم إذا مات عرض عليه مقعده...» إلخ ٢٤٠
- فصل: فوائد من كلام المؤلف ٢٤٢
- زيارة الهلالي غير بلد من بلاد الكفر (ت) ٢٤٣
- الباب الرابع: تفسير قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ قَرَارًا﴾ ٢٤٤
- فصل من كلام المؤلف ٢٤٥
- فائدة من كلام المؤلف ٢٤٥
- الباب الخامس: تفسير قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَنْتَ مَا كُنْتَ تَشْرِكُونَ﴾ ٢٤٦
- فصل: قوله: «أين الأصنام...» يحتاج إلى بيان ٢٤٦

- المشركون كانوا يعبدون ثلاثة أنواع من الشركاء ٢٤٦
- الباب السادس: تفسير قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ...﴾ إلخ ٢٤٧
- فصل من كلام المؤلف ٢٤٨

سورة فصلت

- الباب الأول: تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ...﴾ إلخ ٢٥٠
- فصل: الذي يظهر أن المراد بالزكاة هنا الصدقة ٢٥١
- الباب الثاني: تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ أَيُّكُمْ لَتَكْفُرُونَ﴾ إلخ ٢٥٢
- فصل من كلام المؤلف ٢٥٢
- الباب الثالث: تفسير قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ...﴾ إلخ ٢٥٢
- فصل من كلام المؤلف ٢٥٤
- الباب الرابع: تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا...﴾ إلخ ٢٥٤
- كلام أبي بكر الصديق في تفسير الآية ٢٥٥
- حديث: «قل آمنت بالله ثم استقم» ٢٥٥
- حديث: «من أحب لقاء الله» ٢٥٦
- فصل: ﴿الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾ هم الذين حققوا معنى لا إله إلا الله ٢٥٧
- الباب الخامس: تفسير قوله تعالى: ﴿وَمِنْ عَائِيَتِهِ الْبَلُ...﴾ إلخ ٢٥٧
- فصل من كلام المؤلف ٢٥٨
- الباب السادس: تفسير قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يُرْدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ...﴾ إلخ ٢٥٨
- فصل من كلام المؤلف ٢٥٩

سورة الشورى

- الباب الأول: تفسير قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ...﴾ ٢٦٠
- فصل من كلام المؤلف ٢٦١
- الباب الثاني: تفسير قوله تعالى: ﴿فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ فَحْشٍ...﴾ إلخ ٢٦٢
- فصل من كلام المؤلف ٢٦٥
- الباب الثالث: تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَتْ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ يَصُورُونَهُمْ...﴾ ٢٦٥
- فصل من كلام المؤلف ٢٦٥

سورة الزخرف

- الباب الأول: تفسير قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِنْدَ الرَّحْمَنِ...﴾ إلخ ٢٦٦
- فوائد من كلام المؤلف ٢٦٨

- الاحتجاج بالقدر ٢٦٨
- فصل: قد أجاد الحافظ ابن كثير في الرد على المحتجين بالقدر ٢٧٠
- الإرادة القدريّة ٢٧٠
- الإرادة الشرعية ٢٧١
- زيادة بيان من كلام المؤلف ٢٧١
- الباب الثاني: تفسير قوله تعالى: ﴿فَاسْتَمِيعْ يَٰلَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ إلخ ٢٧٢
- فصل من كلام المؤلف فيه فائدتان ٢٧٤
- الباب الثالث: تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ يَٰبَنِيَّ﴾ إلخ ٢٧٤
- فائدتان من كلام المؤلف ٢٧٥
- الباب الرابع: تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ﴾ إلخ ٢٧٦
- فصل من كلام المؤلف ٢٧٦

سورة الدخان

- الباب الرابع: تفسير قوله تعالى: ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ إلخ ٢٧٨
- فصل من كلام المؤلف ٢٧٨
- الباب الثاني: تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ٢٧٩
- فصل من كلام المؤلف ٢٧٩

سورة الجاثية

- الباب الأول: تفسير قوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ﴾ إلخ ٢٨٠
- فائدتان من كلام المؤلف ٢٨١
- التحسين والتقييح العقليان (ت) ٢٨١
- إنكار التحسين والتقييح العقليين ٢٨١
- الإنكار على من أحل الربا ٢٨٦

سورة الأحقاف

- الباب الأول: تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ﴾ ٢٨٧
- فصل من كلام المؤلف ٢٨٨
- أنواع الكفار في هذا الزمان ٢٨٨
- الباب الثاني: تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ أَنَا غَادٍ﴾ ٢٩٠
- فصل من كلام المؤلف ٢٩١
- الباب الثالث: تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَىٰ﴾ إلخ ٢٩٢

- سنة الله في الحق والباطل (ت) ٢٩٢
- فصل من كلام المؤلف ٢٩٣
- قراءة القرآن لا تنفع إلا صاحبها إن تقبلت منه ٢٩٣
- بدعية وضع الزهور على القبور (ت) ٢٩٤

سورة القتال

- الباب الأول: تفسير قوله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ...﴾ إلخ ٢٩٥
- استغفار النبي ﷺ ٢٩٥
- حديث: «يا أيها الناس توبوا إلى ربكم» ٢٩٥
- فصل من كلام المؤلف ٢٩٥
- أصناف أهل الردة الذين قاتلهم أبو بكر (ت) ٢٩٦

سورة الفتح

- الباب الأول: تفسير قوله تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ لَمِيَّةً حَمِيَّةً﴾ ٢٩٧
- فصل من كلام المؤلف ٢٩٧

سورة في

- الباب الأول: تفسير قوله تعالى: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَنَازٍ عَدِيٍّ﴾ ٢٩٩
- حديث: «يخرج عنق من جهنم» ٢٩٩
- فصل من كلام المؤلف في زيادة البيان ٣٠٠

سورة الذاريات

- الباب الأول: تفسير قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا﴾ ٣٠١
- فصل من كلام المؤلف ٣٠٢
- الباب الثاني: تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ...﴾ إلخ ٣٠٢
- قراءة لابن مسعود: «إني أنا الرازق» ٣٠٢
- فصل من كلام المؤلف ٣٠٣

سورة الطور

- الباب الأول: تفسير قوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ...﴾ إلخ ٣٠٤
- حديث قراءة النبي ﷺ بالطور في صلاة المغرب ٣٠٤
- فصل من كلام المؤلف ٣٠٤
- إقامة البرهان على أن الله خالق كل شيء في الرد على الشيوعيين ٣٠٥

- الباب الثاني: تفسير قوله تعالى: ﴿أَمْ لَمْ إِلَهَ غَيْرُ اللَّهِ﴾ ٣٠٦
- فصل من كلام المؤلف ٣٠٦

سورة النجم

- الباب الأول: تفسير قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّكْتَ وَالْفُرَّى﴾ إلخ ٣٠٨
- افتخار أبي سفيان بالعزى وجواب النبي ﷺ له ٣٠٨
- حديث: «من حلف باللات والعزى فليقل: لا إله إلا الله» ٣٠٨
- فصل من كلام المؤلف فيه أن الحلف بغير الله من الشرك ٣١٠
- الحلف بغير الله متى يكون كفراً ومتى يكون حراماً؟ (ت) ٣١٠
- ظهور دعوة التوحيد والسنة (ت) ٣١١

سورة المجادلة

- الباب الأول: تفسير قوله تعالى: ﴿لَا يَحْدُ قَوْمًا يُمُوتُونَ﴾ إلخ ٣١٢
- حديث: «اللهم لا تجعل لفاجر ولا لفاسق عندي يداً» ٣١٤
- فصل من كلام المؤلف ٣١٤
- تحقيق التوحيد الذي دلت عليه (لا إله إلا الله) له شروط ٣١٤

سورة الحشر

- الباب الأول: تفسير قوله تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ إلخ ٣١٦
- فصل فيه ذكر أسماء الله الحسنى والقصيدة الهلالية والضميائية ٣١٨
- ذكر التوسل الحق والتوسل الباطل ٣١٩

سورة الممتحنة

- الباب الأول: تفسير قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخْذُوا﴾ ٣٢٠
- قصة حاطب بن أبي بلتعة ٣٢٠
- قصة المرأة حاملة الكتاب ٣٢١
- حديث القوم الذين أسخطوا الله ٣٢٢
- حديث: «إن أبي وأباك في النار» ٣٢٣
- التبرؤ من الشرك لازم للمؤمن الصادق ٣٢٤
- فائدتان من كلام المؤلف ٣٢٥
- الباب الثاني: تفسير قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ﴾ ٣٢٧
- حديث: «لا والله ما مست يده يد امرأة» ٣٢٧
- حديث: «إني لا أصافح النساء» ٣٢٧

٣٢٨	أخذ العهد على النساء أن لا يخن... إلى آخره
٣٢٨	حديث: «خذي من ماله بالمعروف ما يكفيك»
٣٢٨	قتل الجنين كقتل المولود
٣٢٨	حديث: «أيما امرأة أدخلت على قوم... إلخ»
٣٢٩	فائدتان من كلام المؤلف
٣٢٩	حكم إفساد النطفة

سورة الصف

٣٣١	الباب الأول: تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾
٣٣١	فصل أصناف الذين يريدون ليطفؤوا نور الله بأفواههم في هذا الزمان
٣٣٢	الرد على أعداء الإسلام المرتدين

سورة التغاين

٣٣٤	الباب الأول: تفسير قوله تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾
٣٣٤	فصل من كلام المؤلف
٣٣٤	حكم تعليق التماائم
٣٣٤	حديث في النهي عن تعليق التماائم للبهائم
٣٣٥	أحاديث أخرى في النهي عن التماائم
٣٣٥	فساد الراقين ومخالفاتهم الشرعية (ت)

سورة الطلاق

٣٣٩	الباب الأول: تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾
٣٣٩	حديث أبي ذر مع النبي ﷺ
٣٣٩	حديث: «من أكثر من الاستغفار جعل الله له من كل ضيق مخرجاً»
٣٤٠	فصل من كلام المؤلف

سورة القلم

٣٤١	الباب الأول: تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا كُنَّ شُرَكَاءَ قُلُوبًا قَلِيلًا قَلِيلًا﴾
٣٤٢	فصل من كلام المؤلف

سورة نوح

٣٤٣	الباب الأول: تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾
٣٤٩	فصل: فوائد من كلام المؤلف

سورة الجن

- الباب الأول: تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ...﴾ إلخ ٣٥٣
- فصل من كلام المؤلف ٣٥٤
- حكايات في الخوف من الجن والذبح له ٣٥٤
- الباب الثاني: تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَنَا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ﴾ ٣٥٦
- فصل من كلام المؤلف ٣٥٧

سورة المزمل

- الباب الأول: تفسير قوله تعالى: ﴿رَبُّ الشَّرْقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ...﴾ إلخ ... ٣٥٩
- فصل من كلام المؤلف ٣٦٠
- دعوة المصنف إلى الله في صعيد مصر ٣٦١

سورة المدثر

- الباب الأول: تفسير قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾﴾ ٣٦٢
- مدة نبوة النبي ﷺ قبل إرساله ٣٦٢
- فصل من كلام المؤلف ٣٦٤

سورة الدهر

- الباب الأول: تفسير قوله تعالى: ﴿يُؤْتُونَ بِالْذِّكْرِ وَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾﴾ ٣٦٥
- حديث: «من نذر أن يطيع الله فليطعه» ٣٦٥
- حديث ابن عمر مع السائل ٣٦٦
- حديث أفضل الصدقة ٣٦٦
- حديث إكرام الأسارى ٣٦٦
- فائدتان من كلام المؤلف ٣٦٦
- محاكمة الحلفاء لأعدائهم بعد الحرب ٣٦٧
- قصة صلاح الدين الأيوبي مع ملك بريطانيا ٣٦٧

سورة البينة

- الباب الأول: تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ﴾ ٣٦٩
- حديث: «ألا أخبركم بخير البرية» ٣٧٠
- المفاضلة بين الملائكة وصالحى البشر (ت) ٣٧٠
- فائدتان من كلام المؤلف ٣٧١

- رد القول بأن الإيمان لا يزيد ولا ينقص ٣٧١
- رجوع أبي حنيفة عن القول بعدم دخول العمل في مسمى الإيمان (ت) ٣٧١
- حديث: «يوشك أن يكون خير مال المسلم» ٣٧٢

سورة قريش

- الباب الأول: تفسير قوله تعالى: ﴿قَلِّعُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾ ... إلخ ٣٧٣
- فصل من كلام المؤلف ٣٧٣

سورة الكافرون

- الباب الأول: تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَأْتِيَا الْكَافِرُونَ﴾ ... إلخ ٣٧٤
- أحاديث فضل هذه السورة ٣٧٤
- فصل من كلام المؤلف ٣٧٦

فهرست الخاتمة

- في تحذير النبي ﷺ أمته الغلو في قبور الصالحين ٣٧٧
- حديث: «لا تطروني كما أطرت النصارى المسيح...» ٣٧٧
- حديث: «هلك المتنطعون» ٣٧٧
- باب ما جاء في التغليظ فيمن عبد الله عند قبر رجل صالح، فكيف إذا عبده؟ .. ٣٧٨
- حديث أم سلمة في كنيسة الحبشة ٣٧٨
- حديث عائشة: «لعنة الله على اليهود والنصارى» ٣٧٨
- حديث جندب: «ألا فلا تتخذوا القبور مساجد» ٣٧٨
- حديث: «إن من شرار الناس من تدركهم الساعة» ٣٧٨
- باب ما جاء أن الغلو في قبور الصالحين يصيرها أوثاناً تعبد من دون الله ٣٧٩
- حديث: «اللهم لا تجعل قبوري وثناً يعبد» ٣٧٩
- باب ما جاء في حماية المصطفى ﷺ جناب التوحيد وسده كل طريق يوصل إلى الشرك ٣٧٩
- باب ما جاء أن بعض هذه الأمة يعبد الأوثان ٣٨٠
- حديث: «لتبعن سنن من كان قبلكم» ٣٨٠
- حديث: «إن الله زوى لي الأرض» ٣٨٠
- تفسير ما تقدم نقله من كتاب «التوحيد» ٣٨١
- شرح حديث: «لا تطروني» ٣٨١
- ذكر غلو البوصيري وغيره ٣٨١
- شرح حديث: «إياكم والغلو» ٣٨٢

الصفحة

الموضوع

٣٨٣	شرح حديث: «هلك المتنطعون»
٣٨٣	شرح حديث أم سلمة المتعلق بكنيسة الحبشة
٣٨٤	خشوع عباد القبور عند قبور الأولياء
٣٨٥	تحريم الحنابلة والشافعية الصلاة عند القبور
٣٨٥	فائدة مهمة في منع وضع الميت قبل الصلاة عليه في قبلة المصلين (ت)
٣٨٦	شرح حديث: «لعن الله اليهود والنصارى»
٣٨٦	كلام القرطبي في عبادة القبور
٣٨٧	كلام آخر للقرطبي في مبالغة المسلمين في المنع من الغلو في قبر النبي
٣٨٧	كيف بنوا الجدار المثلث حول قبر النبي ﷺ؟
٣٨٧	بناء القبر النبوي واستحداث القبة الخضراء التي تعلوه وإنكار العلماء لها (ت)
٣٨٨	شرح حديث جندب
٣٨٨	إني أبرأ إلى الله
٣٨٨	معنى الخلعة وأنها أعلى من المحبة
٣٨٩	دليل على فضل الصديق وضلال الرافضة والجهمية
٣٨٩	البناء على القبور والصلاة عندها أعظم مشاقة للرسول
٣٩٠	حديث الأرض كلها مسجد إلا المقبرة
٣٩١	الرد على من قال: النهي عن الصلاة عند القبور لنجاستها
٣٩١	شرح حديث: «إن من شرار الناس من تدركهم الساعة»
٣٩٢	تصريح أصحاب مالك والشافعي بتحريم بناء المساجد على القبور
٣٩٢	وجوب هدم المساجد المبنية على القبور
٣٩٢	إفتاء الشافعية بهدم القباب
٣٩٣	مقالات الشافعية في تحريم البناء على القبور (ت)
٣٩٣	مذهب مالك في البناء على القبور
٣٩٤	كلام الحنفية في ذلك
٣٩٤	كلام الشافعية في ذلك
٣٩٤	كلام الحنابلة في ذلك
٣٩٥	قول علي: لا أصلي في الحمام ولا عند قبر
٣٩٦	مناقشة المرخصين في ذلك
٣٩٧	شرح حديث: «اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد»
٣٩٧	قول عبد الله بن مسعود: كيف أنتم إذا لبستكم فتنة
٣٩٨	قطع عمر لشجرة بيعة الرسول

قول عمر: إنما هلك من كان قبلكم بتتبع آثار أنبيائهم	٣٩٨
تعمية قبر دانيال عليه السلام	٣٩٨
لا تخص بقعة بعبادة إلا بإذن الشارع	٣٩٨
كراهية مالك أن يقال: زرت قبر النبي	٣٩٩
حديث أبي هريرة: «لا تجعلوا بيوتكم قبوراً»	٤٠٢
حديث: «اجعلوا من صلاتكم في بيوتكم»	٤٠٢
شرح حديث: «لا تجعلوا قبوري عيداً»	٤٠٢
شرح حديث علي بن الحسين في النهي عن إتيان حجرة النبي ﷺ	٤٠٣
كراهية إتيان الحجرة للدعاء عندها	٤٠٤
لم يكن الصحابة والتابعون يأتون إلى حجرة النبي ﷺ	٤٠٤
لم يكن أحد من الصحابة يأتي يسلم على القبر إلا ابن عمر	٤٠٤
حديث: «لا تشدوا الرحال إلا إلى ثلاث»	٤٠٦
لا تشدوا الرحال إلى الطور	٤٠٧
تفسير: ﴿لَتَنخِذَنَّ عَنْهُمْ مَسْجِدًا﴾	٤٠٩
تفسير حديث: «لتبعن سنن من كان قبلكم»	٤٠٩
قول سفيان في علماء وعباد سوء	٤١٠
شرح حديث: «إن الله زوى لي الأرض»	٤١٠
حديث: «يتقارب الزمان وينقص العلم»	٤١٤
قول بعض الدجاجلة: من كان له حاجة فليأت إلى قبره	٤١٤
حديث: «أخوف ما أخاف على أمتي الأئمة المضلون»	٤١٤
حديث: «من أحدث حدثاً أو آوى محدثاً»	٤١٥
قول عمر: يهدم الإسلام زلة العالم... إلخ	٤١٥
حديث: «لا تقوم الساعة حتى تضطرب أليات نساء دوس»	٤١٧
خير المختار بن أبي عبيد	٤١٨
الطائفة المنصورة هم أهل الحديث بشهادة الأئمة	٤١٩
الدليل على أن الاجتهاد لا ينقطع	٤٢٠
* الموضوعات والمحتويات	٤٢١